وَطْأَةُ السَّمَاءِ

ثريتي أومريغار

مكتبة
Telegram Network
★★★★★

وَطْأَةُ
السَّماءِ

وَطْأةُ السَّمَاءِ

ثريتي أومريغار

رواية

ترجمة
حليم نسيب نصر

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

وطأة السماء

حقوق الطبعة العربية © دار الكتاب العربي 2011

ISBN: 978-9953-27-915-2

:Authorized Translation from the English Language Edition

The Weight of Heaven

جميع الحقوق محفوظة، Copyright © 2009 by Thrity Umrigar

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال
مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو،
وبأي طريقة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلاَّ
بموافقة الناشر على ذلك كتابة ومقدماً.

«مكتبة ♔ النخبة»

DAR AL KITAB AL ARABI **دار الكتاب العربي**

Beirut - Lebanon بيروت - لبنان

Tel (+1 961) 800811 - 862905 - 861178 هاتف
Fax (+1 961) 805478 فاكس
daralkitab@idm.net.lb بريد إلكتروني
info@kitabalarabi.com
academia@dm.net.lb
kitab alarabi

www.kitabalarabi.com
www.academiainternational.com

المحتويات

توطئة

الكتاب الأول

الفصل 1

الفصل 2

الفصل 3

الفصل 4

الفصل 5

الفصل 6

الفصل 7

الفصل 8

الفصل 9

الفصل 10

الفصل 11

الفصل 12

الفصل 13

الكتاب الثاني

الفصل 14

الفصل 15

الكتاب الثالث

الفصل 16

الفصل 17

الفصل 18

الكتاب الرابع

الفصل 19

الفصل 20

الفصل 21

الفصل 22

الفصل 23

الفصل 24

الكتاب الخامس

الفصل 25

الفصل 26

الفصل 27

الفصل 28

الفصل 29

الفصل 30

الفصل 31

الفصل 32

الفصل 33

الفصل 34

الفصل 35

الفصل 36

الفصل 37

توطئة

بعد أيام قليلة على وفاة ولدهما باني، تحولت إيلي وزوجها فرانك بانتون إلى شخصين متباعدين. دون أن يدريا بذلك. إذ لم يبق لهما في تلك الفترة سوى التركيز على تمضية أيامهما الموحشة فيما هما يجاهدنه لكبح الذكريات المريرة من أن تطفو إلى السطح كسمكة تعوم على وجه الماء. ففي يوم الدفن، تمني فرانك لو يستطيع أن يحمل نفسه على الذهاب إلى إيلي ليقول لها كلاماً شجاعاً يواسيها، كلاماً يؤكد لها تفهُّمه، وانعدام لومه لها بسبب الذي حدث. لكنه كان مليئاً بفكرة جلية صارمة: إنه لا يعرف كيف يقوم بذلك، فمع رحيل باني بات يجهل حتى تلمُّس طريقه إلى منزله، كما يجهل كيف يمكنه أن يُبقي زواجه سليماً، ومتماسكاً من جديد. ولم يمضِ أسبوع على وفاة باني حتى بدا زواجه أشبه بكتاب مرَّ به في مرحلة دراسته الثانوية، وقد ورد فيه اسم إيلي كبطلة في رواية منسية. لقد حصل شيء يصعب تفسيره خلال الأيام التي تلت وفاة باني. كان الأمر أشبه بانشطار كرة زجاجية زرقاء جميلة، بل ربما أشبه بانشطار الدنيا بكاملها إلى نصفين. فرغم جميع محاولاته، لم يجد فرانك مناصاً من الشعور تجاه إيلي، شعوراً هو أشبه بما يتخيله عن شعور آدم نحو حوّاء عشية سقوطهما من الجنة - إنه شعور بالحنق والتعاطف. شعور بالحزن، والقَدَر المشؤوم، والامتعاض. وهو قبل كل شيء، شعور بالتوحُّد، والعجز عن إعادة ما فُقِد، وجَبْرِ ما انكسر.

لقد بدا الأمر كما لو أن باني كان دائماً جزءاً لا بدّ منه في زواجهما. فهما متزوجان منذ إحدى عشرة سنة، وكان عمر ابنهما سبع سنوات عندما اخترته المنيّة. وهذا لا يشتمل "طبعاً" على فترة الخطوبة التي امتدت سنة كان فرانك وإيلي لا يفترقان خلالها. لقد كان "ثمة الكثير من التاريخ" على حدِّ تعبير إيلي إلى إحدى زبوناتها. ثمة الكثير الكثير من الأوقات الرائعة التي عاشاها معاً حتى قبل أن يصبح باني جنيناً، هذا عداك عن فترة الحمل به، وعن الفترة التي أعقبت ولادته، لكن شيئاً غريباً كان قد حصل فور ولادة باني. لقد بدا الأمر كما لو أن والديه قد توقفا عن كونهما فردين مستقلّين. ثلاثة أشخاصٍ اندمجوا منذ

تلك اللحظة في بوتقة واحدةٍ، هي العائلة. لقد سافرت تلك الكَتلة البشرية الموحَّدة معاً، وعاشت في البيتِ وتنشَّقت على الدَّوام أنفاساً من هواءٍ محليٍّ واحد معاً. وحتّى عندما يكونون متفرِّقين - أي عندما يكون فرانك مسافراً إلى تايلاند للإشراف على موقعٍ جديدٍ للشركة التي يعمل لها مثلاً، أو عندما تكون إيلي منصرفةً إلى تقديم الاستشارة إلى زبائنها، أو عندما يكون باني في مدرسته، فإنَّهم اعتادوا أن يكونوا حتى في مثل تلك الأوقات على اتصالٍ معاً، أي أن الأفكار الصاحية لكلٍّ منهم كانت مليئة على الدوام بالآخرين. آمل أن تتذكر إيلي إرسال واجب باني المدرسي في مادة الرياضيات، بالفاكس إلى الفندق، هذا ما قد يجول في ذهن فرانك فيما هو جالس وسط اجتماع عمل في بانكوك. تباً، هل تراني تذكرتُ إحضار زبدة الفستق بالأمس؟ هذا ما قد يجول في ذهن إيلي بينما هي تصغي إلى زبونة تشرح لها كيف أن أختها قد تسببت لها بالإحراج على مائدة عيد الشكر، أما باني الصغير فقد يعيد على مسمع والديه نكتة سمعها من أحد أترابه في المدرسة، إذ إنه لا يطيق صبراً على إعادة روايتها فور عودته إلى البيت، وهو يقهقه بسببها قهقهة طويلة قد تجعله أحياناً يُفسد تخريم ورقة بين يديه.

أما الآن، فقد صار الزوج وزوجته اثنين فقط. لقد رحل باني، رحل ولم يبقَ وراءه سوى سخرية القدر - أشياء وذكريات تهزأ بما كان لهما من سعادة يعتدَّان بها. لقد رحل باني، رحل كطائرة تختفي خلف الغيوم، لكنها تترك وراءها ليلاً دخانياً قد يمتد لأميال: فمن القفَّازات الصغيرة العائدة للعبة البيسبول، إلى قصص هاري بُّوتر، إلى أشرطة الفيديو العائدة إلى المستر بِيْن إلى قمصان التي شيرت من طراز بارْت سمبسون. إلى قصبة الصيد، إلى اللباس التنكُّري العائد إلى عيد البربارة الأخير. وثمة حُقٌّ من خشب الورد يحتوي على خصلات قليلة من شعره، وثمة باقول [كوب مخصص لاستعمال شخص بعينه] يُقرأ عليه شعار "#1MOM" - أي حبيب أمه الأول. كما أن هنالك صورته وهو في المدرسة. خلا عن صُوَر أخرى كثيرة تجمع بينه وبين والديه، وبعضها مأخوذ في ديزني وورلد. أما الركن المخصص للأشغال والحِرَف اليدوية في آن أربور، فإنه كان ينضح بالشماتة على وجه الخصوص.

ومع كل ذلك، لم يسارع فرانك إلى استغلال المناسبة عندما فاتحه رئيسه بِّيتْ تيمبرلايك، ما إذا كان له رغبة في إدارة مصنع جديد كانت قد اشترته الشركة منذ سنتين في جيربورغ في الهند. فبعد أربعة أشهر عن وفاة ولده كان فرانك لا يزال يرى أن مجرد وضع إحدى قدميه أمام الأخرى، إنما هو عمل جبار. مثله في ذلك مثل مغادرة السرير في الصباح إلى العمل. لذلك فإنه اكتفى بدمدمة بعض الكلمات الغامضة لرئيسه، وكان مدارها على تقديره لنتيجة التصويت الذي يدل على ثقة الإدارة به، ولكن هذه الفترة من حياته ليست هي الفترة المناسبة لإعادة النظر في مكان عمله. لكن إيلي كانت قد

سمعَتْ عن هذا العرض من زوجة مدير تنفيذي آخر. وقد رأت إيلي في هذا العرض فرصة لم ينتبه زوجها إليها - إنه تغيير قد ينقذ زواجهما. فرصة للبدء من نقطة خالية جديدة. فرصة لوضع قفازات البيسبول، وأحذية نايك من قياس 4 في المستودع، كما أنها فرصة كي لا تُسفع أذناها بخفْقِ الوقْعِ اليوميِّ لقدمي ولدهما، ولا برجعِ الصوت الرفيع المليء بالحيوية أثناءَ تناولِ وجبة الإفطار. وعليه، فإن إيلي قررت كسر القاعدة الذهبية التي كانت تنصح بها زبائنها. القاعدة التي تقول بوجوب الابتعاد عن اتخاذ أي قرار رئيسي قبل مرور سنة كاملة على أي حدث من شأنه أن يشكل انعطافاً في حياة المرء. قالت لزوجها بلهجة رجاء: عليك بقبول العرض الذي يعرضه عليك بيت. ولأن فرانك كان أعجز من أن يجادل أو يفكر، فإنه سمح لنفسه بالانقياد لرأي زوجته بعدما آنس بارقة أملٍ خافتٍ تلوح في عينيها. لقد افتكر في الهند. افتكر في ذلك البلد الذي يُعادُ تنظيمه وعولمته حتى صار مكاناً يَفتَتِنُ به رجال الأعمال، بالطبع. إنه سوق المشتقات المالية المزدهر. إنه المصنع الذي تضارع ملكيته البليون دولار. فكَّر في مراكز الاتصالات المتقدمة، وفي الحدائق ذات العشب المجزوز، التي تحيط بمواقع التكنولوجيا العالمية. لكنه سمح لنفسه أيضاً بأن يحلم بالهند القديمة، الهند التي تشكل في اعتقاده الوجه الحقيقي للبلاد. فكَّر في تلك الهند التي تسرح فيها قطعان الفيلة، وتنام فيها الأبقار في الشوارع. فكّر في الهند التي يصادف فيها المرء الحوّائين الذين يُسْكرون الأفاعي بأنغامهم.

ولكن قبل كل شيء، فإنه عزَّى نفسه بفكرة الذهاب إلى بلاد لها قمر جديد، وساحل جديد، وسماء جديدة. عزّى نفسه بفكرة العيش في منزل ليس فيه علامات بالقلم الرصاص تشير إلى مبلغ ارتقاء قامة طفل. ولا تتردد في غُرفه أصداء صيحاته الضاحكة. بلد ليس فيه احتمال لأيِّ لقاء مع أحدٍ من مدرِّسي ولده. بلد لا تكون لحدائقه العامة، أو لأنهاره، وبحيراته، وملاعبه الرياضية، ودُور عرض أفلامه، ومسارحه أية فرصة للشماتة به، أو تيمبرلايك صباح يوم الاثنين وصرح عن قبوله بالعرض الموجّه إليه.

وهكذا، وبعد سقوطهما عن حياتهما التي كانت في يوم عن الأيام أشبه بجنة عدن في آن آربور، في ميتشيغان، فإن فرانك، وإيلي بانتون سافرا جواً في اتجاه الشرق إلى أن حطَّ بهما الترحال في مطار شيفاجي الدولي في بومباي صبيحة يوم بارد من العام 2006.

الكتاب الأول

ربيع العام 2007

جيربوغ - الهند

الفصل 1

فرغ الزوجان من تناول عشائهما منذ نصف ساعة، وها هما الآن يجلسان على الشرفة في انتظار بدء هطول المطر. كان هواء المساء ممتلئاً بالرطوبة، رطوبة بقيت رغم ذلك محتبسة كانحباس الدمع في مقلتي أرملة تغالب البكاء. وفيما هما ينتظران، فإن العاصفة كانت تُمتعهما بالتماعات البروق الباهرة – أسياف نور فضيَّة تلتمع في أجواز الفضاء على خلفية من الجلَد الداكن، لتعقبه أصوات طبول الرعد المدوِّية. ومع انطلاق شرارة كل بارقة كان المشهد ينكشف أمام ناظريهما – إنه مشهد الظِلال الطويلة التي تطرحها أشجار النارجيل فوق المساحة العشبية في حديقة منزلهما، وصفحة الرمل الهادئة الواقعة خلف الحديقة، ومنظر البحر الثائر الغاضب الذي لا يتعب من مهاجمة الشاطئ.

لطالما أحب العواصف الرعدية على الدوام حتى منذ أظفاره في غراند ربيدز. فبينما اعتاد أخوه الأكبر، سْكُوت، أن يجبُن، ويجفل، وينكمش تحت اللحاف جاذباً إياه إلى ما فوق أذنيه، عند هبوب العاصفة الرعدية، فإن فرانك اعتاد أن يقف إزاء شباك غرفة النوم التي يشارك أخاه فيها، وذلك لمراقبة العاصفة بشعور من القوة والشجاعة. كان يخاطب العاصفة متعمداً إدارة ظهره لأخيه، خجلاً ومستهجناً لرؤية شقيقه الأكبر، الذي هو في العادة هادئ رائق كصفحة بحيرة ميتشيغان في الصيف، إذ يراه قد تحول بسبب الخوف من العاصفة، إلى مُجرد مخلوق خائف ضعيف. فإذا حالفهما الحظ، جاءت والدتهما إلى غرفتهما لتهدِّئ من روع ابنها الكبير لينام، وعند ذلك يجد فرانك نفسه حراً في التسلل إلى شرفة الطابق الثاني المحاذية لغرفة الضيوف. فالتواجد على تلك الشرفة كان خياره الثاني المفضل عندما يتعذَّر عليه الانطلاق إلى خارج المنزل. فمن على تلك الشرفة كان يجد نفسه أقرب ما يكون إلى سماء ميتشيغان المضطربة، كما يجدُ نفسه حراً إلى حدود الخطر. فالعواصف الرعدية لطالما أشعرته بالرهبة والتوحد، لكنه توحدٌ مغمورٌ بالقوة، توحّدٌ يربط بينه، وهو في عزلته، وبين العالم الكبير المحيط به. فإذا خطر له

أن يرفع هامته، يقف على أصابع قدميه، ويحني كتفيه فوق حاجز الشرفة عندها لا بد أن يتساقط المطر فوق وجهه المقلوب إلى الأعلى، فيكون لوخزاته المؤلمة وقْعُ النشوة أيضاً. فالريح تهدر ليهدر فرانك في جهها أيضاً؛ فيما تتنمل يداه مع انفجار كل برقة من البروق، كما لو أنها ليست سوى التماع لشرارة كهربائية صادرة عن طاقة أعصابه التي يختزنها جسده الشاحب النحيل.

ولكن، وبعد ذلك بسنوات، ولخيبة فرانك الكبرى، فإن ولده لم يرث عنه شيئاً من ذلك الشغف بالعواصف الرعدية. وعندما يتكوّم ولدهما ياني بينهما خائفاً متذمراً، صامّاً أذنيه بإصبعيه، كان فرانك يجد نفسه منقسماً على ذاته بين احتضان أبويّ لولده الخائف، وهو يدعو الله أن يُسَرِّع مرور العاصفة، وبين غصة مؤلمة لديه، قد ترقى إلى شعور بخيبة الأمل، تعشش في حلقومه.

وبخلاف العواصف الرعدية في ميتشيغان، فإن تلك التي تشهدها المنطقة الغربية من الهند، لم تكن لتمرَّ وتنقضي بسرعة. لقد صار لهما الآن سبعة عشر شهراً في جيربوغ، وصار يدري كيف أن السماء قد تمطر عدة أيام دون انقطاع في الفصل الذي يشتد فيه موسم الريح في هذا البلد. والآن، وبالرغم من أن الزمن هو زمن شهر أيار/ مايو، فإن الأرصاد الجوية تنبأت بهطول الأمطار في هذه الليلة. ولقد شعر فرانك بالامتنان لوجوده في البيت حيث يمكنه الاستمتاع بمشاهدة هطول المطر. وها هو جالس في غير اصطبار في انتظار أن تبدأ السماء الملبدة بالغيوم بإلقاء أحمالها من المطر موفية بوعدها. كانت الرياح تلذعهما بسياطها، كما تلذع كل شيء حولهما، لقد كانت رياحاً هي من الشدة بحيث لم يعد بهما حاجة لبذل أي جهد لهزّ الأرجوحة التي يجلسان عليها. أما خلفهما، فقد كان البيت معتماً – إذ إن إيلي أطفأت جميع الأنوار بعدما ارتشفا قهوتهما بعد العشاء وتمشيا معاً إلى شرفة منزلهما. وما أن تمر دقائق قليلة حتى ينير البرق كافة المشهد العام أمامهما بحركة تشبه التماعة "فلاش" آلة تصوير. وقد عرف فرانك أن المطر ما إن يبدأ بالهطول حتى يكون غزيراً متوحشاً، مدراراً، لذلك فإن جسده كان يتململ تحت وطأة الترقُّب. أما ما حصل حتى الآن من وشوشات أشجار النارجيل العالية التي ما انفكت عن النواح والتقارب، وما يصوغ من رائحة طيّبة من شجيرات الياسمين؛ وما تنوح به الرعود الهادرة من أصوات، فإن ذلك كله لم يكن سوى المداعبات الغزلية الابتدائية التي تسبق العاصفة الحقيقية. وها هو الآن يتوق إلى إرخاء الرياح أخيراً لقبضتها عن المطر الذي لا بد له من البدء بالانسكاب.

استدار نحو زوجته منتظراً التماعة البرق القادمة كي تنير وجهها. إذ لم يكونا قد تبادلا بعد سوى بعض الكلمات العابرة منذ انتقالهما إلى الشرفة، لكنهما أمضيا معظم وقتهما حتى الآن في صمت هنيء، شكر فرانك ربه من

أجله. فهو مساء قد كان في ذلك مغايراَ لمعظم علاقاتهما المتبادلة التي سادت تلك الأيام. أيام لا ينتظمها سوى سلك من الإدانات الصامتة. لقد عرف أنه يخسر زوجته شيئاً فشيئاً، فهي تتسرب من بين أنامله تسرُّب الرمال الملقاة على شاطئ البحر الممتد أمام شرفة منزلهما، لكنه بدا عاجزاً عن وضع حدً لهذا التآكل البطئ لعلاقتهما. لقد أرادت منه أن يمنحها الصفح والسماح، في الوقت الذي هو فيه عاجز عن إعطاء ذلك لها. لقد أراد منها أن تعيد إليه ابنه، وهي بالطبع عاجزة عن ذلك.

ثم التمع البرق، فرأى جسدها الأبيض النحيف للحظة وجيزة قبل أن تلفهما الظلمة من جديد. كانت تجلس مستقيمة هادئة، مسندة ظهرها بثبات إلى الألواح الخشبية لمسند الأرجوحة. إلّا أن ما دعا قلب فرانك إلى الترنُّح نحوها هو التعبير البادي على محيَّاها، إذ هي تجلس بعينيها المغمضتين وبمسحة من الجمال وجهها، الأمر الذي جعلها تبدو للعالم كله كأنها أشبه بأحد تماثيل بوذا كما بدت في رحلة أخيرة إلى أحد كهوف آجانتا. لقد بدت كأنها لا تشعر بأيٍّ من الجيشان والاهتياج اللذين يعتملان داخل جسده. لقد بدت إيلي متنائية جداً عن متناول يديه. متنائية بحيث إنها تبدو غافلة تماماً عن الذكريات التي تدور الآن في ذهنه – ذكريات عنه وعن إيلي وهما يعدوان معاً في آن أربور خلال ليلة عاصفة، فيما هما يتضاحكان بجنون، ويغنيان ملء حنجرتيهما قبل وصولهما إلى الشقة التي كانت إيلي تستأجرها، فيخلعان ثيابهما المبلّلة عند العتبة ويتراميان على الكنبة التي كانت قد ورثتها عن طالب الجامعة المتخرج الذي كان يستأجر هذه الشقة قبلها؛ وذكرياته عن رجوعه في مساء أحد الأيام من عمله ليجدها منبطحة على بطنها فوق أرض الغرفة فيما هي تحاول سحب ولدهما البالغ آنذاك الرابعة من عمره، من تحت السرير حيث كان يختبئ أثناء مَطْرَةٍ عاصفة.

حقد متوحش استبدَّ بفرانك، وكما كان شأنه في تلك الأيام، فإن شيئاً ما، في سكينة إيلي قد أثار حفيظته. فما كان منه سوى أن قال لها عامداً: "هل تذكرين كيف أنه اعتاد أن...".

"نعم. إنني بالطبع أتذكَّر". باتت الآن شديدة اليقظة لأنها سمعت في نبرة صوته شيئاً ما، ربما لم يكن هو نفسه دراياً به. فاشتفاء غليل فرانك بتنكيد الهدوء عليها، إنما كان يخالطه شيء من الإحساس بالندم. فصفاؤها الذي اعتاد على تثمينه عالياً في الماضي، بات الآن قشرة جرح يصرُّ على نكئها في كل حين.

"أعتقدُ أنه لو عاش سنة أخرى لشفي مما كان يعتريه"، تابع كلامه غير قادرٍ على لجم لسانه. "كنتُ أفكر في أمرِ أخذِه إلى بعض رحلات التخييم، فأنتِ تعرفين، كنت أعتقد أننا وأنا وأنتِ وحدنا، قادرانِ على مساعدته على...".

قالت له مقاطعة: لقد كان قد بدأ فعلاً في التخلّص من تلك الحالة". هنا شعر أن معدته تهبط. هل تراه كان يتخيَّل لهجة الانتصار في صوتها، نظراً لمعرفتها أنها قد أحبطت ضربته القاضية، وأنه قد بات عليه الآن لا محالة أن يعضَّ على الطعم الذي وضعته له في الشرَك المنصوب؟

ولأنه كرِه نفسه، فقد قال لها، "أكان قد بدأ في التخلُّص من عادة الخوف من العواصف؟ لمَ لم تخبريني بذلك قبل الآن؟"

"كنت أريد أن أجعل ذلك مفاجأة لك. لقد – لقد قمت بتدريبه. إنه تدريب تعديل السلوك – إنه الأسلوب نفسه الذي أستعمله مع زبائني".

شعر بدفقة قويَّة من الغيرة تأكله حيال فكرة وجود إيلي وباني لوحدهما في البيت بينما يكون هو مسافراً إلى تايلاند، وإلى أماكن أخرى حيث يكون ثمة مصانع لشركة هيربال صوليوشينز [معالجاتٌ عشبية]. كم من اجتماع كان قد عقَدَ، وكم من رحلة بعربات الثيران كان قد اجتاز إلى القرى الواقعة في المناطق النائية، وكم من الأميال كان قد قطع في رحلاته الجوية، وكم من ليلة كان قد قضاها في غرف الفنادق الغريبة، وهو خلال كل ذلك، يعتقد أنه إنما يفعل ما يفعله من أجلهما فقط؟ تذكَّر شعور اليأس الذي كان يعترية كلما كانت الاتصالات الهاتفية ضعيفة بحيث إنه لا يستطيع الاتصال ليقول لباني عِمتَ مساءً؛ كما تذكَّر كيف أنه كان يحاول إرسال رسالة بالبريد الإلكتروني إلى إيلي فور وصوله إلى أي فندق، في أيّ مدينة حطت به الرّحال فيها. وتذكَّر كيف أنه كان يجاهد للبقاء على اتصال بهما حتى عندما يكون على المقلب الآخر من المحيطات، ومن أنظمة التوقيت. كل ذلك ليعرف الآن أن الاثنين كانا يخفيان عنه أسرارهما الخاصة، وأنماط علاقاتهما الخاصة التي كانا يحجبانها عنه. حاول أن يتذكَّر ما إذا كان قد لاحظ ذلك مرة، وما إذا كان ذلك الأمر قد آذاه مِن قبْل. لكنه لم يقوَ على التذكُّر. ذلك أن أجزاء كبيرة من ذكريات حياته أثناء عمر ولده كانت قد تبدَّدت. أو بالأحرى كانت تلك الذكريات لا تزال كامنة في مكانها إلا أن الإحساس بها قد تبدَّد. حيث إنه عرف أنه كان سعيداً مع إيلي، وأنهما كانا محظوظين بزواجهما، وأن ثمة مليون دليل لديه على حبها له، وتضحياتها من أجله. لكنه رغم ذلك لم يعد قادراً على استحضار الشعور بحلاوة تلك الذكريات، ولا برقَّتها، ودِقَّتها.

"منذ متى لم يعد يخاف؟ وإلى كم سنةٍ كنتِ تنوين إبقاء هذه المعلومة سراً خافياً عليَّ؟!

ران صمتٌ قصيرٌ، لكن صوت إيلي جاء صريحاً واضحاً. "لم يحصل ذلك منذ وقت طويل يا فرانك. لقد حصل القليل من العواصف الماطرة التي كنت

أنت أثناءها غائباً – وكانت هي المرات التي تمكنتُ أخيراً خلالها من التحدث معه والنجاح في إخراجه من حالة الخوف".

وبالرغم من وجود العتمة، فإن فرانك أغلق جفنيه. لقد كان يتوجب عليَّ أنا القيام بذلك، كان عليَّ واجب التحدُّث مع ولدي من أجل تهدئة مخاوفه، وهنا كاد الشعور بالامتعاض أن يعييه عن الكلام. قال وهو يقذف كلماته كأنها أشبه بمن يتفل حثالة ثمرة مُرَّة: "لربما يكون هذا هو سبب وقوعه في المرض، تعرفين، أن كتمان مخاوفه في حضورك ربما يكون هو السبب الذي ــــــ"

"لعلّ قولك هذا، هو أغبى ما قد سبق لي وأن سمعتك تفوه به من قول. فهو يشكل قانوناً جدياً حتى بالنسبة إليك بالذات". أزاحت إيلي نفسها نافرة عنه بحيث إن كتفيهما لم يعودا متلامسين. ثم انطلق صوت نوبة من الرعد القاصف، كما لو أن السماء ذاتها تتدخل للمصادقة على كلامها، وقد أمسكت عن الكلام في انتظار جلاء صوت الرعد. "أنت تعرف أنني أتمنى مرور ليلة ملعونة واحدة من الهدوء والسلام. ولكن إذا كان يصعب عليكَ مجرد الجلوس معي بكياسة يا فرانك، فإنني سأدخل إلى البيت، أيرضيك هذا؟ إنني لا أستطيع احتمال الاستمرار في الجلوس إلى جانبك في انتظار أن تأتيني بنظرية أخرى حول كيفية قيامي بقتل ولدنا. فإذا كنت تعتقد أنني لم أتألَّم مثلك ــــــ"

"إيلي ــــــ" انطلقت يده لتغطي يدها. "أنا آسف. إنني في بعض الأحيان... إنني آسف. إن الأمر لا يتعدى أن مراقبتي للعاصفة الرعدية هو أمر قاسٍ عليَّ بالفعل، أتعرفين؟ إن الأمر يبدو لي كأن كل شيء يندغم ــــــ" أمسَكَ لسانه، إذ برغم رغبته بقولِ المزيد علّه يكشف لزوجته تبدُّل حالة قلبه، فإنه لم يجد نفسه قادراً على ذلك.

وفي عتمة الليل أحسَّ أكثر مما رأى، أن إيلي تقوم بكفكفة أدمُعها. قالت له: "لا عليكَ، انسَ الأمر كلَّه". لكن صوتها تقلقل، في حين تيبَّست حنجرته بسبب الندم. خاطب نفسه معنّفاً: "إنك جلفٌ غشيم، أتعتقد أنها لم تلاقِ من العذاب والألم ما يكفيها، لتقوم بعملِ ما عمِلته معها؟" ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي فكَّر خلالها أن عليه ربما أن يفاتح شخصاً ما، بهذا الشأن، ربما عليه أن يفاتح سُكُوت، من أجل الاعتراف له بالمعاملة السيئة التي يعامل بها زوجته. فهو لم يكن هاجسُه البحث عن التفهُّم ولا عن التعاطف – إنَّ ما كان يبحث عنه هو مجرد العثور على شخص ما، يقوم بركله على ظهر بنطاله، شخص يكون قادراً على سؤاله عما إذا كان فعلاً يريد أن يخسر زوجته أيضاً، لا لسبب سوى لأنه لا يستطيع القبول بخسارته لولده. لقد كان سْكُوت يُجلُّ إيلي، وفرانك يعرف هذا، فهو يعرف أن أخاه لا يتورَّع عن الدفاع عنها حتى ضده هو بالذات. ولربما يَحْسُن به مكالمة سْكُوت إلى نيويورك من هاتف

مكتبة صباح غد. لعله يكون قادراَ على قول شيء عميق له. قول يكون من شأنه أن يدلّه على السبيل الكفيل بحسن عودته إلى إيلي.

ألقى ذراعه على كتفها وقام بجذبها إلى الوراء لتصبح في طيَّة ذراعه. وللحظات قليلة، ألقت بنفسها بتخشبٍ بين ذراعيه، لكنها ما لبث أن استرخت وأسندت رأسها إلى كتفه. وبقيا على هذه الحال للحظاتٍ قليلة، ثم ما لبثت السماء أن بدأت تمطر.

قال فرانك: "أتذكرين كيف كنا نجري كل الطريق لدى عودتنا من الجامعة تحت المطر؟".

"أجل". أزاحت نفسها عنه قليلاً، وألقت بنظرة إلى وجهه: "ما رأيك بمشوار على الشاطئ الرملي؟"

"أتعنين الآن بالذات؟".

"ليس هنالك من وقت أفضل من هذا الوقت".

"لا أستطيع ذلك. فإننا سنصاب بالبلل".

"حسناً، هذه هي الغاية من السير تحت المطر – أن يتبلّل المرء بالماء".

"اقتراح طريف. لكنني لن أذهب، وهذا أمر أحبذه عادة، كما تعلمين. لكن راميش على وشك القدوم بين لحظة وأخرى. ولديه اختبار في الرياضيات غداً، وإني أرغب في مراجعة بعض المسائل معه".

أحسَّ بإيلي تنزاح من قربه قليلاً. "حسناً. عظيم جداً".

"ماذا تقولين؟"

"لا شيء".

"قوليها صراحة. من الواضح أن شيئاً ما، لا يعجبك".

استدارت لتصبح في مواجهته. "إنك تعرف جيداً ما الذي يزعجني يا فرانك. إنني حزينة لأنك تعتذر عن السير معي بسبب أن هنالك صبياً صغيراً لا ينقطع أبداً عن الحضور إلينا، وهو بحاجة لشيء أو لآخر من زوجي. وإنني ــــــ"

تململ معدّلاً جلسته قليلاً في الأرجوحة: "يا لله! إنني لا أستطيع تصديق هذا. أتغارين من صبي صغير عمره تسع سنوات. وكل ذلك بسبب أنني لا أقفز على قدميَّ عندما ــــ"

"ليس للأمر أية علاقة بالشعور بالغيرة، يا فرانك. بل الأمر يتعلق بكونك لا تعرف التصرف اللائق، ولا كيف ــــ"

"التصرف اللائق؟ عمَّ تتحدثين بحق جهنم؟ إنني أتوسَّم أشياء كثيرة في هذا الصبي، لذلك فإنني أساعده في دروسه في أمسيات قليلة كل أسبوع. أما أنت فتتحدثين كأنك قديسة فوق مستوى البشر، فلا تكفّين عن الحديث عن مسؤليتنا تجاه أولئك الذين هم أتعس منا حالاً، ولكن عندما أحاول أنا القيام بمساعدة ولد العائلة التي تقوم على خدمتنا في هذا البيت، فإنك ــــ"

"هذا هو السؤال يا فرانك. من هو الذي تحاول مساعدته؟ من الذي تقوم بمساعدته هنا؟"

رنّ جرس الهاتف في داخل البيت، لكن كلاهما تجاهله. أرخى فرانك بثقله على يده اليمنى خشية منه أن تستدير لا إرادياً حول عنق إيلي الرشيق الطويل لخنْقِه. "ماذا تعنين بقولك هذا بحقّ جهنم؟"

"إنك تعرف بالضبط ماذا أعني. أتدري ما الذي يعنيه قيامك بالاستيلاء على حياة الصبي بالنسبة إلى حياة كل من والديه براكاش، وآدنا؟"

"براكاش وآدنا؟ أنا لا أصدق ذلك. أتعتقدين أنا أياً منهما لديه أية فكرة عما يحصل؟ تباً لو كان لي أن أذاكر مع هذا الولد لسنتين، لتيسّر له أن يصبح أستاذ رياضيات كبيراً في يوم ما. ثم ما الذي يمنع براكاش عن الاقتصاد في الشراب لو كان لديه ما يكفي من الاهتمام بولده؟ وما الذي يمنع آدنا من الوقوف في وجهه؟ إن جُلَّ ما أقوم به هو محاولة تحسين حياة الولد".

"هذا ليس كل ما تحاول القيام به". كان جرس الهاتف يرن من جديد، لكنهما الآن كادا ألّا يسمعانه. إذا كانا يتبادلان النظرات الغاضبة والأنفاس اللاهثة كما لو أنهما مصارعان يتبارزان فوق حلبة ملاكمة.

"ماذا ـــــ؟"

"فرانك، عليك أن تعرف أن راميش ليس باني ــــ"

قاطعها فرانك: "أغلقي فمك، لا تذكري اسمه إذا كنت تريدين لنفسك الخير، لا تذكري اسمه أبداً".

حدقتْ إيلي في وجهه لبرهة طويلة. ثم، وكما لو انها قد خسرت المعركة، تهالكت. قالت في هزة متراخية من كتفيها: "حسناً"

لكن ما حصل كان قد حصل. لقد جعلته يقف حيالها عارياً. هذا ما خُيّلَ إلى فرانك. فبأربع كلمات طائشة، نزعت عنه ثيابه، وأزالت عنه جلده وعضلاته المقاوِمة، حتى وصلت إلى دخيله قلبه. قلبه الذي كان لا يزال ميتاً إلى أن وقع نظره على هذا الصبي الهندي الفاحم الشعر، البارق العينين، فإذا به يستعيد بعض الحياة والنبض. ولد كاد أن يشكّل نقيضاً تاماً لولدهما المتوفّى – فهو

داكن البشرة في مقابل بشرة باني الشقراء؛ وهو صاخب، ومشرق، بينما كان باني هادئاً وديعاً ومفكّراً. لقد كان راميش من باني كما يكون وهج الشمس من أشعة القمر. كان باني مجلّياً في الفنون والتاريخ واللغة الإنكليزية، لكنه كان رديئاً عندما يأتي الأمر إلى الرياضيات والعلوم؛ أما راميش فيعلن أن دروس التاريخ تُضجره، وأن معظم الكتب أطول من أن تكون قابلة للقراءة، لكنه كان يبدو متآلفاً مع مادتي الرياضيات والعلوم. ففي المرة الأول التي قام فيها فرانك بمساعدة راميش على حلّ فرض الرياضيات، أذهله ذكاء هذا الصبي. وفي غضون أشْهُرٍ من ذلك أصر على والديه بوجوب نقل الولد إلى مدرسة الإرسالية التبشيرية وتكفّل بدفع أقساط دراسته الشهرية. وقد سُرَّت والدة راميش بذلك في حينه، كل السرور.

"فرانك، أنا شديدة الأسف". كان صوت إيلي هادئاً، وتطغى عليه ضجة وقْع المطر. "لم أكن أريد إيذاء مشاعرك. يا إلهي، إن علينا أن نتوقف عن تبادل الأذى بهذا الشكل. أرجوك حبيبي أنا لا أعرف كيف أضمن ذلك بمفردي".

قاوم رغبته في الاستجابة إلى لهجة الالتماس البادية في صوتها. فهذه المرة أوغلت إيلي كثيراً في أعماقه حتى فتحت له جرحاً بليغاً بكلماتها. كان قد مرّ زمان اعتقد فيه أن إيلي ليست سوى صنو روحه، فهي الإنسانة التي أدركتْ أعمق أفكاره وتطلعاته. لكن كل شيء أعطته له – من حُبّ وصحبةٍ، وبيتٍ، وفوق كل شيء ولده باني – نزعَتْه منه أيضاً. نزعَتْه منه بسبب إهمالها، وقلة اكتراثها. وهو أعجز من أن يستطيع نسيان ذلك. وها هي الآن، تُكرّر الأمر نفسه مع راميش. مع الشيءِ الوحيد الذي منحه بعض العزاء في حياته، بل مع الشيء الذي أعطاه إحساساً بالمعايشة الطبيعية مع هذا البلد الفوضوي الذي شاءت الحياة لفرانك أن يُحبه رغم أنه في حيرة دائمة منه، وتنافرٍ قائم معه.

حسناً، لقد بات الآن يعرف كيف يحوّل قلبه إلى حجر. فخلال معظم سنوات حياته مع إيلي، لم يجد في نفسه حاجة إلى القيام باستعمال تلك الحيلة. كانت قد هذَّبت مشاعرة وليَّنتها، وجعلته يؤمن أنه لا بأس للإنسان من الاعتماد على إنسان آخر، ومن وضعِ الثقة به، ومن ألا يسمح لنفسه بالانجراف إلى حالة من الحرب، ومن الصراع الدائم. وفي السنوات التي كانوا يعيشون فيها كعائلة، حقَّ العائلة، فإن جميع المشاعر القديمة من أمثال: البقاء على أشد الأهبة، والاعتقاد بأن كل شيء غالٍ لا يُحصَّل إلّا تحصيلاً، وأن لا أحد يُعطي لأحدٍ شيئاً بسهولة، وأن لا شيء يُعطى لمجرَّد الكرم، كل هذه المشاعر كانت قد تبخرت يوماً وسط دفء العائلة. لكنه الآن بات يعرف أن هذه المشاعر لم تتبخر أبداً، وإنما هي قد غاصت إلى الأعماق بحيث لم تعد طافية إلى السطح. لقد أدرك الآن أنه يستطيع استعادة هذه المشاعر بالسهولة نفسها التي يستطيع بها أن يستعيد ملفاً قديماً من ذاكرة جهاز حاسوب (كومبيوتر) قديم.

كان والده قد تجاوز هذه المشاعر عندما بلغ الثانية عشرة من عمره لكن ما بقي منها في داخله قد عاش طويلاً، بما يكفي للقيام بتعليم ابنه الصغير بعض الدروس التي لاتقدَّر بثمن. وهي دروس من أمثال إغلاق أي تعبير عن المشاعر في العينين، فلا يُقرأ فيهما شيء على السطح إلّا بعدما تكون عاصفة عنف جيرالد قد انحسرت. دروس عن كيفية تحويل قلبه إلى صخرٍ بحيث لا يعود لكلمات جيرالد الصوانية القاسية سوى أن ترتدّ دون عبءٍ شديد عن قلبه.

وها هو فرانك يستدعى الآن تلك المعرفة. فإذا به يتجاهل ضراعة يد زوجته، ويتعامى عن شعور الأسى في عينيها، وعن صورة الحزن المرتسمة على شفتيها، كما يصمُّ أذنيه عن رجاء المصالحة والعودة إلى ما كانا فيه. فها هو ينهض عن الأرجوحة عامداً ليقول: "إنني ذاهب إلى داخل البيت".

"ما من داعٍ يدعوك كي تفعل ذلك".

"إن راميش سيصل بعد قليل، في كل حال". قام بجمع باقولَيْ قهوتهما، وهو يدري بأن عينيّ إيلي تراقبانه، ويعرف دون ضرورة للنظر، مبلغ الحزن والأذى والارتباك الذي يبدو عليهما. ولقد طرأت له معرفة بأنه مسؤول عن رحيل البريق من عيني زوجته، لكن حزنه لذلك كان متناقضاً. لقد بدا له أن ذلك الحزن لا ينقشع عنه إلّا إذا أوقعه على إيلى أيضاً، وإلّا إذا تسبب بحصول المزيد منه. وفي كل لحظة كان يصرفُها في تعنيف نفسه بسبب ما يقوم بإيقاعه على إيلي، إنما كان يغيب عنه خلالها أنه لا بد له من العيش طيلة عمره دون باني.

رن جرس الهاتف مرة جديدة لحظة توجهه إلى غرفة الجلوس، وألقى نظرة نحو ساعة الحائط، فإذا بعقاربها تشير إلى الثامنة. قد تكون تلك المكالمة من نانديتّا، صديقة إيلي. كما قد تكون من سْكُوت. وهنا تذكر ما كان قد نوى عليه من عزمٍ سابقٍ لمخابرة سْكُوت في صباح الغد. فإذا كان المتكلم هو سْكُوت، حدَّثَ نفسه، فإنه يستطيع التقاط المكالمة من غرفة النوم العائد للضيوف. إذ لعل سْكُوت يقول شيئاً يُمكّنه من مصالحه إيلي من جديد هذه الليلة من أجل إنقاذ سهرتهما.

"آلو؟" قال، وأيقن من دويّ الخط أن المكالمة محلية، وليست دولية.

قال الصوت من الطرف الآخر: "سيدي، غولاب سينخ يكلمك. آسف لمقاطعتك في البيت يا سيدي، لكن هنالك شيء من البلاء في المصنع".

تشنجت عضلات معدة فرانك لا إرادياً: "ما هو نوع البلاء؟" أمِلَ ألّا يكون الأمر جدياً إلى درجة كبيرة تستدعى منه الذهاب بنفسه إلى هناك في تلك

الليلة، رغم علمه أن غولاب، رئيس قسم الأمن في المصنع، لم يكن ليكلمه بالهاتف إلى منزله ليلاً لو لم يكن هنالك أمر ذو شأن.

مرَّت فترة صمتٍ كانت من الطول بحيث ران اعتقاد على فرانك بأنه قد فقد الاتصال. لكن غولاب ما لبث أن قال"، إن المسألة تتعلق بذلك الشاب المنتسب إلى الاتحاد العالمي – إنه أناند. لا بد أنك تتذكره يا سيدي؟ وفي كل حال، إن المشكلة يا سيدي هي أن أناند قد مات لسوء الحظ".

الفصل 2

المتاعب آتية.

مرَّت عشر دقائق على الأقل، بعد خروج فرانك، وما زالت إيلي تجلس متربعة فوق الأرجوحة. ثمة خوف بليد تسلَّل عبر أناملها وذراعيها، لكنها بذلَت كلَّ جهدها لعدم إلهابه، محاوِلةً تجاهُل ما يتحسَّسه جسدُها من رسالةٍ يحاول تمريرها إلى عقلِها. أمّا بعد ذلك، فقد اتخذت المتاعب سبيلها كما تشاء.

انفجار متميّز مباغت لهزيم الرعد، زعزع شرنقة التغافل التي كانت قد نسجَتها حول نفسها. وما لبث الانفجار أن ردَّها إلى العالم الحقيقي عنوة وقسراً. فالطريق التي تقود إلى المصنع لا بد لها من أن تكون معتمة وموحلة في مثل هذا الوقت، هذا ما خطر في بالها. ومع أن ساتيش سائق ماهر، فإن قلبها لم يكن ليطمئن. فكّرت في أن تخابر فرانك لتسأله الاتصال بها لإعلامها عن وصوله حال بلوغه المصنع، لكن ذكرى مرارة جدالها الأخير معه منعتها من تنفيذ هذه الفكرة. كذلك فإن شيئاً بالِغ السوء لا بدَّ من أن يكون قد حدث ليستدعي مقاطعتهم لفرانك بالاتصال به في هذه الساعة المتأخرة. وهو ليس في حاجة إلى امرأة شديدة القلق تضيف إلى مشاكله مشاكل أخرى.

لم يكن لديها متّسع من المجال لاستفساره عن السبب الذي يجعله يندفع مسرعاً بالخروج من المنزل عائداً إلى مقرّ عمله في هذا الوقت المتأخر من المساء. فبعد مغادرته لها إلى داخل البيت للإجابة على الهاتف، فإنها سمعته يطلب مكالمة جديدة – لا بد أنه كان يستدعى ساتيش كي يحضر لأخذه إلى المصنع، هذا ما ذهب إليه تخمينها – ثم رأته بعد ذلك يتحسّس طريقه في غرفة النوم قبل أن يعود لمدّ رأسه من الباب معلِماً إياها أنه مغادر لبضع ساعات. ولقد اكتفت هي بمجرَّد هزَّة كليلةٍ من رأسها. بعد ذلك بدقائق، سمعَت صفقة باب المطبخ، ثم صوت محرّك سيارة تجتاز طريق المدخل بالقرب من المنزل.

أمَّا الآن، فقد انتصبت برأسها علَّها تلتقط جيداً ذبذبات الخوف التي يبعث بها جسدها. ما هو نوع الأذى الحاصل؟ حاولت أن تفتكر. هل يكون ذلك مجرَّد

نذير، أم لعلّه النتيجة المُرَّة لجدالهما معاَ؟ وما هو الشيء الذي يجعلها ترتعب كلَّ هذا الارتعاب؟ أهو خوفها من أن يستدير ساتيش بالسيارة استدارة خاطئة تؤدي إلى انزلاقها وفقدان السيطرة عليها؟ أهو خوفها من أن تكون هي وزوجها يدوسان أرضاً خطرة، فيتباعد كل منهما عن صاحبه، بحيث تغدو هذه التجربة الكبيرة، المنطوية على الأمر في أن تكون الهند هي المكان الذي من شأنه بلسمة جراحهما، مجرد تجربة لا تؤدي سوى إلى عكس المراد منها؟ أصغت إيلي بكل رهافة إلى جسدها، أصغت بالطريقة ذاتها التي تنصح بها زبائنها من المرضى. فالجسد يملك حكمة، هذا ما درجت على قوله لهم. إنه في العادة أكثر وأسرع معرفة من الدماغ. لكن على المرء أن يعرف كيف يصغى إلى جسده، وكيف يحسن تعلُّم لغته. طريقة هي أشبه بطريقة تعلُّم وفهم لغة الأطفال.

لكن المطر والرعد كانا يفسدان عليها الإصغاء إلى لغة جسدها، ويقطعان عليها حسن تركيزها. فرائحة التراب المنتشي بالمطر، وبرودة الهواء المشبع برطوبة الغيث، والتماعات البرق، كانت كلها أشياء قهَّارة قادرة على بعثرة أفكارها في غير اتجاه، مثلما اعتاد باني أن يفعل كلما رافقها إلى معرض ولاية ميتشيغان.

وما لبثت كلمتان معلقتان على الدوام في الهواء. كلمتان تقولان: المتاعب الآتية.

آمل أن يكون التوفيق قد حالف فرانك في تسوية النزاع العالمي وانقضى الأمر، افتكرت للحظة، لكنها ما لبثت أن تراجعت إلى مصدر خوفها. وقد تراخى الآن جسدها بطريقة شبه فوريَّة، كما لو أنه انتهى لتوّه من إفراغ رسالته إلى دماغها، وها هو الآن قد بات قادراً على الهجوع طيلة الليل. ولكن ما الأمر الذي يدعوهم بحق السماء إلى الاتصال به إلى المنزل في هذه الليلة؟ أيقنت أنها قد تلفَّظت بهذه الكلمات بصوت مسموع، وبطريقة غير إرادية، وكان المطر لا يزال ينهمر بغزارة وقوة بحيث يمحو وقعُه الحدود بين الأفكار الكلمات. كل ذلك بالإضافة إلى انزعاجها الآن من المغادرة المفاجئة التي قام بها فرانك بينما هو يحجب معلوماتٍ عنها، تاركاً إياها تهزُّ أرجوحتها في قلق واضطراب. لذلك، فإن هدوءها النسبي السابق قد انقلب الآن إلى خوفٍ واضطراب. "سحقاً لك يا فرانك"، أطلقت شتمتها بصوتٍ عالٍ، لتؤكّد لنفسها أن المطر لن يقوى على إغراق كلماتها.

كان الخوف قد جعلها تجثم في هدوء؛ أمَّا الآن، فها قد حلَّ محلّه غضب مستعر من فرانك، الأمر الذي سلبها الهدوء. ضغطت على زرّ ساعة اليد الكبيرة الرجَّالية، من ماركة تايمكس، التي كانت قد اشترتها من بازار آغني في الشهر الفائت، فاستضاء ميناؤها باللون الأخضر، وأشارت قراءة الوقت

إلى الثامنة والثلث. هنا فكّرَت بسرعة. لو كان هنالك من شيء ما، يجري في المصنع، فلا بد من أن يكون ساشي قد سمع عنه شيئاً. فهو كمالك لفندق ضخم من درجة أربع نجوم في بلدة كانبر المجاورة، يوظف أقاربَ للعديد من الرجال الذين يعملون في المصنع العائد إلى شركة هيربال صوليوشينز. وزوجته نانديتّا هي صديقة إيلي المفضَّلة، وهي أيضاً تراقب مجريات الأحداث في هيربال صوليوشينز عن كثب. لقد أوى ساشي إلى سريره في ساعة مبكّرة لكن نانديتّا لا بدَّ من أن تكون لا تزال صاحية. وللمرة الأولى تشعر إيلي بالامتنان لأن صديقتها نانديتّا تهمل تقنيات الاسترخاء التي كانت قد نصحتها بها للتغلّب على حالة الأرق التي تعاني منها.

كانت قد نهضت لتوّها لتضع قدميها في الخفَّين قبل أن تتجه إلى الهاتف الموجود في غرفة الجلوس، عندما سمعت طرقاً خجولاً على الباب الخارجي. توقفت. من يكون هذا بحق الجحيم؟ لكنها عادت فتذكرت. بالطبع. إنه راميش أتى كي يحلَّ المسائل الرياضية مع فرانك. فوسط الاهتياج الذي تولَّد عن المكالمة الهاتفية. وما تلاها من مغادرة فرانك المفاجئة، فإنها كانت قد نسيت كل شيء عن راميش.

وقبل أن تتمكَّن من الوصول إلى المطبخ، كان الباب قد انفتح ليدخل منه راميش. هنا شعرَت إيلي بمزيج من القلق الارتباك. كانت قد علَّمت هذا الولد منذ بضعة أشهر خلت أنه من سوء الأدب قيام الإنسان بالدخول إلى بيوت الناس دون أن يقرع الباب أولاً. لذلك فإنه الآن قد قام بطرّقِ الباب بطريقة آلية قبل أن يدخل إلى البيت دخولاً لا مبالياً. وإذا بها تجادل نفسها سراً ما إذا كان قد آن الأوان الآن لتلقينه الدرس رقم اثنين في هذه المسألة، لكن راميش صادفها في غرفة الجلوس، وبعد أن ألقى كتبه على طاولة المطبخ الزرقاء، وثب في جذل نحوها، وقال لها متضاحكاً "مرحباً يا إيلي". وقبل أن تتمكن من إجابته عاجلها بالقولِ: "أين فرانك؟ إن لديَّ امتحانين في الغد، كما أن لديَّ الكثير من الواجبات".

ما من ولدٍ أميركي يحترم نفسه يمكن أن يبدو عليه مثل هذا المرح عندما يتكلم عن واجبه المدرسيّ، جال في ذهن إيلي. لكنها ما لبثت أن أدركت أن حماسة لم يكن بسبب الواجب المدرسيّ بقدر ما هو لنعمة تمضية سهرة اخرى مع فرانك العزيز على قلبه. هنا ابتسمت لنفسها بكآبة بعد استدراكها لهذا اليقين. لقد كانت مراقبتها لفرانك وراميش معاً تجعلها تشعر أن وجودها أشبه بوجود شخص غريب بينهما، أو كأنها أشبه بدولاب ثالث ـــ أو ما هو التعبير الهندي الذي استعملته نانديتّا؟ ـــ إنه قول له علاقة بوجود عظمة في لحمة الكباب. إنه شعور يختلف تماماً عن ذاك الشعور المغلق الذي كانت تحسه كلما راقبَت فرانك وباني وهما منهمكين في مداعباتهما الخشنة، أو

عندما يمشي ثلاثتهم معاً في الجوار، ولا تكون عينا باني معلّقة سوى على والده، فيلعبان معاً لعبة "اللقّيطة"، ويتسابقان فوق التلة البطيئة الانحدار، أو يلعبان تلك اللعبة السخيفة عندما كانا يقومان بعدّ أرقام لوحات السيارات التي تمرُّ بهم ليجدا ما إذا كان مجموع أعدادها يبلغ الرقم 21. وكان من عادتهما أن يتزلّفا إلى إيلي من أجل الاشتراك معهما في هذه اللعبة، بينما هي لا ترغب سوى في أن تستمتع بالمشي الهويني في المساء، لذلك فهي ترفض الاستجابة لرغبتهما. وهكذا، يقوم الأب والابن بالتهكّم عليها بسبب كونها أعجز من أن تجاريهما في المشي والتسلّق والعدّ. ولكن، وبشكل من الأشكال، فإن مضايقاتهما، وحتى سخريتهما، وإن شملتها هي، كانت تجعلها ضلعاً من مثلث يعادل مكانة الإنسان الرصين في مقابل تصرفاتهما المازحة.

"أين فرانك؟" كرَّر راميش سؤاله، مما أرغمها على إعاد تركيز انتباهها على الصبي.

"إنه ليس في البيت أيها العزيز. وإني أخشى أنه لن يعود هذه الليلة إلا في ساعة متأخرة".

بدا راميش مغتاظاً: "وإلى أين ذهب؟"

سؤال مباشَر شديد الفظاظة – وهذه خصلة كانت قد لاحظت وجودها في العديد من الهنود الذين جرى لها بعض التعاطي معهم. هل يوجد لدى الهنود ما يُعرف "بمَلَكَةِ حُسْنِ التصرف"، عجِبَتْ لهذا الأمر، هل هنالك من يمكنه أن يقوم بتعليمهم فضائل المداورة والتورية، وقول الحقيقة بشكل موارب؟ لكن إيلي كانت تشعر بالسعادة في معظم الأوقات لوجودها وسط أناس لا يتلاعبون بالألفاظ. أشخاص لا تعني بالنسبة إليهم كلمة "الخوض في الألعاب" سوى اللعب الناشط للعبة مثل الهوكي أو الكريكت. إنهم شعب شفوي عمليّ. وكانت تعلم كم أن فرانك يرتعب لدرجة الصراحة والجلافة من كلام المستخدَمين، ويرى في طريقتهم في الكلام فظاظة. وكانت هي أيضاً في بداية الأمر يُثقل ذلك على أعصابها دائماً، كما يُثقِل عليها نقص البراعة والدهاء بسبب غياب غلالة الذوق والتهذيب التي تغطّي كل المبادلات في أميركا مثل غلافٍ من الصمغ. فباستثناء الباعة العاملين في المحلات الراقية في بومباي، لا أحد كان يتفوه بعبارات المجاملة الفارغة من أمثال "طاب نهارك". ومرة، وبعد انتقال إيلي وعائلتها إلى جيربوغ مباشرة، فإنها كانت قد خاطبت آدنا قائلة: "طاب نهارُك،" لكن آدنا أجابتها:" فقط إذا شاء الله ذلك يا سيدتي، فقط إذا شاء الله" سمعت إيلي في هذا الجواب حتى ما لم تقله آدنا – أي أن كون نهارنا طيباً هو أمر لا يعود تقريره لنا، ولأشباهنا من العباد الخاضعين للموت، بل هو شيء يعتمد على كرم الله ومشيئته ولطه. وما عادت إيلي إلى استعمال مثل هذه العبارة مرة أخرى بعد ذلك. وعندما تطوعت للعمل في نيرال، فإن

العيادة التي أسستها هناك لخدمة القرويين، وذلك لتقديم الاستشارة والنصح للنسوة حول الصحة العقلية، وحلّ المشاكل العائلية، خاصة ما يتعلق منها بالعنف الأسري، فإن إيلي قد بدأت تستحسِن الطريقة المباشرة، الصادقة، البريئة، التي كان يتكلم بها زبائن العيادة. فالأزواج كان يُشار إليهم أحياناً على أساس أنهم طراطير، وجرذان، وكلاب. وكانت النسوة تستعملن كلمات من أمثال: "الشيطان"، و"الشرير"، بطريقة عرضيَّة، ودونما رغبة في السخرية والتهكم. فالسهولة التي كنَّ يتحدثن بها عن الشيطان، وعن الشرير ذكَّرت إيلي بالأصوليين المسيحيين في أميركا، ذلك أن قاموس مفردات أولئك الناس يختلف كثيراً عن قاموس مفردات إيلي وفرانك وسواهما من الليبراليين والعلمانيين في آن آربور. فعندما تجد النسوة في القرية أن الزوج قد قامر بمدخرات عائلته، فإنهن كنَّ يتعقبنهُ، وينتزعن أحذية البلاستيك من أقدامهن لاستعمالها في ضرب ذاك الرجل بها. وفي السنة الماضية عندما بلغت الوقاحة بسياسي فاسد، كان قد نقض في السابق كل وعدٍ أطلقه لناخبيه، إلى حدّ المجيء إلى قريتهم قبيْل دورة الاقتراع الجديدة، فإن النسوة صنعن من أحذيتهن البالية، القذرة، عقداً وضعنه في عنق ذلك السياسي. وقد حاول الرجل أن يجد لنفسه طريقة سريعة للهرب إلى داخل سيارته المكيَّفة، لكن حشد النساء تابعة بصيحات الهزء السخرية والاستهجان.

قال راميش: "إيلي، إنني أسألكِ وأسألكِ. أين هو فرانك؟"

"إني آسفة يا طفلي العزيز، لقد عاد فرانك إلى العمل. ولا أعتقد أنه سيعود في وقت يسمح له بمساعدتك في دروسك هذه الليلة". وحتى بعدما قالت له تلك الكلمات، فإن إيلي بقيت مندهشة كيف أن فرانك لم يكلف نفسه أمر عبور الممر كي يطرق على باب آدنا ليطلب إلى الولد عدم الحضور في هذه الليلة. إذا لا بد أن يكون هنالك داعٍ خطير قد دعاه الليلة لمغادرة البيت.

قال راميش: "أتستطيعين مساعدتي بنفسك؟" وأكمل مقاطعاً نظرة الرفض التي كانت قد بدأت تتشكل على وجهها، فأضاف: "أرجوك يا إيلي. إن لدي اختبارين كبيرين غداً، وإنني مغفل عندما يأتي الأمر دروس الجغرافيا".

ابتسمت بسبب كيفية انتقائه للكلمات. هذا الصبي ساحر. فهي الآن تستطيع أن ترى السبب الذي جعله يأسر قلب فرانك. ومع هذا، فإن على فرانك أن يكون متنبهاً، وكذلك هي، فهي لا تريد أن تقع ضحية لسحر راميش الذي لا يمكن إنكاره. لكنها من جهة ثانية لا تستطيع أن ترفض إعطاء الصبي دفعة من المساعدة من أجل أن يكن له أداء جيد في الامتحان. "حسن، إنك محظوظ، لأنني جيدة جداً في الجغرافيا. إذاً دعنا نقوم بمراجعة سريعة، أليس كذلك؟ من أين تريد أن نبدأ؟"

جلس راميش في مكانه المعتاد إلى جانب طاولة المطبخ وفتح كتاباً رهيب السماكة. بدأ بتقليب الأوراق الصفراء دون اهتمام بينما دمدمت إيلي قائلة: "انتبه، انتبه. عليك أن تعامل الكتب باحترام". ولكن مع أنها قالت ذلك، فإنها لاحظت كم أن هذا الكتاب قد صار متكرر الاستعمال، خاصة بعدما رأت المقاطع التي تحمل تحت سطورها خطوطاً مميزة وضعها عشرات من التلاميذ الذين سبقوا راميش إلى استعمال هذا الكتاب قبل أن يقوم هو أخيراً بشرائه. وهنا تذكرت كم كانت كتب ولدها نظيفة، وكم كانت صحفاتها صقيلة جديدة. فمنذ نعومة أظفار باني كان يحرص كل الحرص على كتبه، فلا يقلّب صفحاتها إلّا بعناية ولطف، تماماً مثلما كانت قد علّمته. ولكن بحق الله كم يكون الأمر أسهل عندما تكون الكتب تستحق أن تكون موضعاً لمثل هذه العناية.

فتح راميش كتابه على القسم المتعلق بسلاسل الجبال المختلفة. نظرت إيلي إلى هذا الفصل من الكتاب دون تعمّق. "ماذا تريد مني أن اعمل لك؟"

نظر إليها نظرة ضيق بسبب عدم معرفتها بالإجراءات، كما لو أنها كانت هي التلميذة، بل كما لو أنها تلميذة بطيئة الفهم أيضاً. "سوف أقوم بمراجعة هذا الفصل مراجعة سريعة. ثم تقومين أنتِ بعد ذلك بطرح أسئلة اختبارية عليّ حوله".

"حسناً". قرأتِ الفصل من خلف كتفيه، رغماً عنها، وعجبت لمدى سرعة هذا الولد في القراءة. لقد كان فرانك محقاً. إذ إن راميش كان مشرفاً بالذكاء مثل شمس الهند.

قالت بعد أن انتهيا من الاطلاع على الفصل معاً: "أأنت مستعد؟ أتريدين أن أشويك ببعض الأسئلة؟"

"أتشويني؟ وهل أنا سمكة؟"

"هذا أمر مسلٍ يا راميش. انتبه الآن جيداً، هذا وقت مراجعة الكتاب فقط، أتعلم ذلك؟" لاحظت البريق في عينيه. "ولا مجال للمزيد من النّكات والتلاعب على الكلمات. لا، ولن أشرح لك معنى قولنا، ’التلاعب على الكلمات‘ إنك ستخضع غداً لامتحان في الجغرافيا والرياضيات، وليس في صنع النكات". قامت من جديد بمسح صفحات الفصل مسحاً سريعاً بعينيها، مُشكّلة سؤالها الأول: "ما هي أعلى سلسلة جبال في العالم خارج آسيا؟"

أجابها على الفور: "الأنديز".

"صحيح. وما هو علو جبل إفرست؟" سألته، مع أنها عجبت في نفسها مَن الذي يأبه لمثل ذلك الأمر؟ ولماذا يقومون بإجبار تلامذة المدارس في الهند

على حفظ مثل هذه المعلومات؟

قال: "8850م. هل إجابتي صحيحة يا إيلي؟"

"صحيحة تماماً". ابتسمت للهجة الحماسية الفخورة في صوته. "لقد خدعتَني. فأنت لست غبياً في الجغرافيا بعد كل شيء".

بدت تكشيرة على وجهه. "بل إنني غبي. هنالك ولد في الصف يحصل على علامات أعلى من علاماتي في مادة الجغرافيا. إن علامته تبلغ المئة على مئة دائماً".

"لكن ذلك ليس معناه أنك غبي. بل عليك أن –"

"إن أبي يقول إنني غبي،" قال راميش ذلك. وكان هنالك شيء ما في نبرة صوته، لم تستطع إيلي أن تتبينه، إذ بدا كما لو أنه يتحداها من أجل أن تناقض رأي والده فيه، بل كأنه يأمل منها القيام بذلك.

ولكن، وقبل أن تتمكن من الاستجابة، فإن راميش كان قد استأنف كلامه من جديد: "إيلي، عندي بطاقة لك. لكن أمي طلبت مني ألّا أعطيها إليك".

انتصبت إيلي برأسها: "أي نوع من البطاقات هي؟"

بدا الخجل على وجه الولد فجأة. وقد لاحظت إيلي أنه يتحاشى التقاء عينيه بعينيها، فهو يكتفي بالتحديق إلى الطاولة الزرقاء. "إنها بطاقة عيد الأمهات. لقد صنعنا تلك البطاقات في المدرسة. أما أنا فقد صنعتُ بطاقة لك".

شيء ما، تسلل إلى قعر عنق إيلي. لقد كان نهار أمس هو يوم الأمهات. وهي قد جعلت نفسها تتناسي هذا الأمر، وكانت ترمق فرانك طيلة النهار آملة ألّا ينتبه هو الآخر لهذه المسألة. لقد كانت ممتنة لعدم انتباهه إلى ذلك". إنني ـــ"، جاهدت نفسها لتجد نبرة الصوت الملائمة رغبة منها في عدم إشعار راميش بمبلغ توتّرها. قالت: "شكراً لك، لكننا، وبما أننا كنّا نتحدث عن المدرسة، لذلك دعنا نعود إلى ــــــ".

"كيف ولدكِ مات؟" احتاج الأمر منها للحظة قبل أن تتيقن أن راميش يسألها عن باني، ثم أُصيبت برِعدة. إذ لم يسبق له أن سألها مثل هذا السؤال الشخصي من قبل. ولكن، ومن ناحية أخرى، فإنها لم تكن قد صرفت معه أي وقت خاص في حقيقة الأمر. "نقول ʼكيف مات ولدكِ؟ʻ وليس ʼكيف ولدك مات؟"

أيقنت أنها قد أبطأت على راميش الذي ينتظر الجواب عن السؤال الذي أعادت صياغته بنفسها. وفي تلك اللحظة شعرت إيلي بكرهٍ خاصّ لهذا الطبع الهندي الفضولي. ولو تلقّت مثل هذا السؤال المباشر القاسي المزعج من

شخص بالغ، فإنها لربما كانت قد انتفضت في وجهه ولم تحاول أن تخفي غضبها. لكن التعبير الشديد الاهتمام الذي كان يبدو على وجه هذا الطفل البريء طوَّح بجميع تحفظاتها وانزعاجها. قالت له: "لقد كان مريضاً".

نظرة تشبه تفهُّم البالغين عبرت فوق وجه الصبي لدرجة جعلت إيلي تشعر بعريها تحت نظرته. قال لها ولم تكن العبارة سؤالاً أبداً. "إنه التيفوئيد".

"كلا، لا يتعلق الأمر بالتيفوئيد. بل هي بثرة. هل تعرف ماذا تعني البثرة؟"

نظر راميش إلى يديه المنقّرتين بلسعِ البعوض. "مثل هذه؟"

أكانت فعلاً مثل هذه؟ حاولت إيلي أن تتذكر. لقد كانت نصف نائمة عندما لمحت الطفح الجلدي البنفسجي الرهيب الذي غطّى وجه باني في وقت لم يتجاوز بضع ساعات. فعند منتصف الليل، وبعد أن كانت أخيراً قد ضعت ولدها القلق المتوتر في سريره، كان وجهه جميلاً ورائقاً كوجه القمر. وعند الساعة الرابعة فجراً، استفاقت من نوم عميق يتعذر تفسيره على صوت صرخة واحدة، أسرعت إلى غرفة باني وأضاءت مصباح سريره، فإذا بها ترى في سرير ابنها وجهاً كاد أن يتعذَّر عليها التعرُّف إليه. فحتى الآن. لا تستطيع إيلي أن تنسى كيف شعرت بهبوط معدتها، وكيف أن الخوف قد أمسك بخناقها، لقد كان شعوراً فورياً مخيفاً بارداً كالجليد، وكان عليها أن تحاربه في وعي منها، لتهزمه، بحيث لا يلاحظ باني وجهها المرتعب، لأن ذلك هو آخر ما كانت ترغب حصوله. مرّرت أناملها فوق جسده، كانت إحدى يديها تحرّر أزرار القطعة العليا من بيجامته بينما يدها الأخرى تبحث عن البثور في عنقه وفوق ذراعيه. وحيثما امتدت مَلامِسُها كان ثمة نتوءات وتوعُّرات. "هل أنت بخير يا حبيبي؟" سألته. "هل تشعر بالألم؟" فأشار برأسه لها بأن لا، ولكنها، وبقلق متعاظم مرَّرت يدها على عينيه الوارمتي الجفون، وعلى وجنتيه الحمراوين اللاهبتين، وعلى خصلات شعره اللاصقة فوق جبينه الناضح بحبات العرق. وعندما كوَّر شفتيه ليقول لها "إن حلقي يؤلمني،" لاحظَت شدة الجهد الذي بذله حتى يستطيع الكلام، كما لاحظت البحة الشديدة في صوته. ومع ذلك استطاعت أن تحافظ على هدوء نبرة صوتها، كما لو أنها تعْبُر على لوحة خشبية تمتد فوق بحر مُهدّد شديد الهياج. "سأذهب لمكالمة الدكتور روبرت من جديد، يا حبيبي؟" قالت له. "لن أتأخر عن العودة إليك".

"هل هذه بثرة؟" كان راميش لا يزال يمد ذراعه نحوها كي تتفحصه.

نظرَت إيلي نظرةً في اتجاه الباب، متمنية دخول فرانك منه، علّه يُشغِل راميش عن تلك السلسلة المتلاحقة من الأسئلة. "لا، هذه ليست بثوراً في الحقيقة،" قالت له. "دعنا نراجع الآن إلى كتابنا، أليس كذلك؟"

قال راميش: "أجل، هو كذلك،" لكنه بدا في مزاج غريب هذه الليلة، ذلك لأنه بعد مضيّ دقيقة مدّ سبابته ليلامس بها معصم إيلي. ومجرد تلك الملامسة الطفيفة من إصبع واحد لم تبدُ لها أقلّ إحساساً من اشتعال عود كبريت على بشرتها. وصُدْفة لاحظت الهلال الأسود من الأوساخ عند حافة ظفر إصبعه. حدّق الاثنان في المكان الذي ارتاحت فيه أصبع راميش على معصم إيلي. قال لها: "إنني أشعر بالحزن من أجل ولدك".

عادت ذاكرة إيلي بها إلى يوم دفن ولدها – تذكرت الكلمة التأبينية الانفعالية والحميمة التي ألقاها الأب أودونيلّ، كما تذكرت وشوشات النسوة المتلفّعات بالثياب السوداء، والحضور الصامت للرجال، وأيضاً تذكرت صلابة والدتها المرتعشة الشفاه، وأيضاً وأيضاً تذكرت الدعم المعنوي الشرس لها الذي كان يبدو على وجه أختها آن، كما تذكرت الرعب الذي كان يكتسح وجوه أمهات رفاق باني، وطاف في خيالها أيضاً نظرات الشفقة البادية على وجوه أزواج تلك النساء. وفكرت في الأسابيع التي تلت يوم المأتم – أطباق شرائح اللازانيا، واللحوم المحمّرة، التي كان يأتي بها الجيران؛ والمعانقات الفورية التي كانت تلقاها في محلات السمانة من أناس لا تستطيع حتى تذكّر أسمائهم، وبطاقات التعزية الواردة من أصدقاء شعروا أن من واجبهم تضمين بطاقاتهم صورا لباني مُستخرَجَه من حافظات (ألبومات) الصور العائدة لهم؛ والنظرات الحذرة الدقيقة التي تلقتها من زبائنها الخاصِّين بها عندما عادت إلى استئناف عملها في العيادة، كما لو أن هؤلاء الزبائن يحاولون سَبْر درجة حرارة حزنها قبل أن يقوموا بإشراكها بأية جرعة من الأحزان الخاصة بهم؛ والرسالة المحفوظة المكتوبة بخط روبرت الصديق الأعزّ على قلب باني، والتي كتب فيها: "سوف أبقى أحبه إلى الأبد". ثم نظرت إلى الولد البالغ سُمرة البشرةِ، صاحب الأظافر المتسخة، الذي يلامسها الآن بإحدى أصابعه، وعرفت أن كل ما حصل لها في الأسابيع التي تلت وفاة باني، وأن جميع الرسائل والبطاقات، والكلام الهامس في أذنيها الذي يحثها على الشجاعة، وعلى الأمل بالحياة، وكذلك جميع المواعظ الأخلاقية وما شاكل ذلك من التفاهات المُبتذلة لم تقوَ جميعها على اختراق وجدانها بعمق مثلما فعَلتْ كلمات هذا الولد الصغير، المخالفة لأصول قواعد اللغة. فكل أحدٍ عداه، كان قد أبدى أسفه، وكل أحدٍ عداه كان قد قال إن هذه الوفاة مُفجِعة، ورهيبة؛ كلهم كانوا قد أظهروا شتى صنوف الشفقة والمساخر، حتى إن بعضهم لم يتورع عن شد قبضة يده احتجاجاً في وجه السماء، بينما نصحها آخرون بوجوب الانحناء لإرادة الله. لكن أحداً منهم لم يقل لها إنه يشعر بالأسى من أجل باني بالذات. لا أحد منهم كان قدْ فهِمَ تلك العاطفة – ذلك أن الكثير من غضبها، وحزنها، وثورتها بسببٍ ما حدث، لم يكن من أجلها ومن أجل فرانك فقط، مع أن حزنهما كان بالغاً لما يكاد يتعدى طاقة البشر من حيث حجمه وأبعاده، وذلك إلى درجة جعلتها تخال

إن إدراكه لا يمكن أن يقع تحت نطاق تفهُّم الناس، فالبحر والجبال والرياح هي وحدها التي ربما تستطيع فهم ذلك. كلّا، فإن أكثر ما شعرت به إنما كان غضبه صارخة بسبب ما قد حُرم منه باني عنوة، بسبب ضربة القَدَر الموجعة التي لوَتْ ذراعه الصغير قبل أن تتكور له قبضة متينة. فهي وزوجها قد خسرا باني، لكن باني لم يخسر والديه فقط، بل خسر أيضاً ذريته التي لم تولد، وهو لم يخسر فقط أعز الأصدقاء إليه في المدرسة المتوسطة، بل خسر أيضاً صديقه الأوفى الذي كان سيلقاه في الجامعة، والنساء اللواتي كان سيواعدهن، أو يقع في غرامهن، بل إنه خسر أيضاً المرأة التي كان يمكن له يوماً أن يتزوجها. في بعض الأحيان عندما تفكر إيلي بفداحة خسارتها بولدها باني، فإنها تصبح شديدة الذهول بسبب تلك الفاجعة. إنها خسارة باني للكتب التي لم يقرأها، ولأفلام السينما التي لن يشاهدها، وللمقطوعات الموسيقية التي لن يصغى إليها (أو ربما يؤلفها)، وإلى المسائل الهندسية التي لن يحلَّها، وإلى جميع توافه الحياة الجامعية التي لن ينكّه حياته بها، والسنة الجماعية التحضيرية في الخارج، التي لن يحظى بها، والمجادلات الفلسفية حول نيتشيه وكيركغارد التي لن يشارك فيها، والقُبْلة الغرامية الأولى التي لن يتذوقها، والخبرة المشوّقة لشعوره بنمو جسده إلى ما يتجاوز جسد أمه وأبيه، وحصوله على وظيفته الأولى التي لن يحصل عليها، وعلى ترقيته الأول التي لن ينالها، وعلى رحلته الأولى للاستجمام في الخارج التي لن يقوم بها، وإلى رسالة الحب الأولى التي لن يفضَّها، وإلى ارتعاشه قلبه الأولى التي لن يُحسَّ بها، وإلى صرخة طفلة الأولى الذي لن يولد له. يا لِله! ثمة أشياء أخرى وأشياء – ابتداءً من الشعور الأخرق المثير لكون المرء قد بلغ الخامسة عشرة من عمره، إلى الدوخة الطائشة لبلوغه العشرين، إلى الشعور بالقناعة والاكتفاء لبلوغه الأربعين، إلى الشعور بالإذعان والقبول لبلوغه الثمانين – لن يكون أي شيء من ذلك كله جزءاً من قدَر باني. لقد فهمتْ إيلي الآن لماذا يتفجع الناس لموت الأطفال. فالسبب الذي يقف وراء شدة الحزن لموت طفل في السابعة، أو الثامنة، أو التاسعة من العمر هو سبب بسيط – ففي مثل هذا العمر يكون الأطفال بلهاء عن الحياة، وعديمي المعرفة والتجربة، وكذلك الخبرة، كما لو أنهم ينتمون إلى صنف يختلف عن صنف الناس. ذلك أن السبب الحقيقي للتفجع على الموتى الصغار ليس بسبب ما هم عليه ولكن بسبب ما لن يكون يكونوه ولن يبلُغوه

والآن، صار راميش يرسم بسبابته دائر صغيرة على معصم إيلي، إشارة خجولة منه سرعان ما التقطتها. وبدون تفكير منها رفعت يده الضئيلة إلى شفتيها ولثمتها. ومثل هذا العمل ما كان سوى ليُربك طفلاً أميركياً. أما راميش فقد رفع هامته. "أحبك يا إيلي،" قال لها ذلك بصوت رفيع يضفي عليه الخجل

شيئاَ من اللّايقين، كما لو أنه يطلب إذناَ منها لإعلان هذا الكلام. أو كأن تصريحه هذا يحمل علامة استفهام في آخره.

أجابته: "وأنا أيضاً أحبك". ثم ولكي تخفي ارتباكها هي بالذات، فإنها أضافت بخشونة مُفتعلة: "هيا بنا الآن، كفانا إضاعة للوقت. إنك تريد أن تتفوق في امتحاناتك غداً، أليس كذلك؟"

قهقه راميش: "إضاعة الوقت. ماذا تعنين بذلك، أي شيء يعني خلط الحلو بالحامض، إنه كتناول ثمرة مانغو فجة" – هنا زمَّ راميش وجهه – "ثم تناوُل كوزٍ من البوظة بعد ذلك؟"

"حسناً، إن إضاعة الوقت هي غير ذلك كله. بل هي تعني إهداره عن سابق قصد وتصور. وهذا هو الأمر الذي تقوم به أنت الآن بالذات يا عزيزي".

بدَت ابتسامة راميش مزيلة لكل سخط. قال لها: "لقد أمسكتِ بي". أفرد ذراعيه إلى ما فوق رأسه في تثاؤبة سمحت لإيلي بأن تلمح بطنه الخاوي تحت القميص. "إنني أشعر بالكسل في هذه اللحظة يا إيلي".

"لكنك كنت تبدو شديد الحماسة منذ عشر دقائق فقط" – هنا لاحظت أنه لم يفهم عبارتها تماماً - "إنّك قلِقٌ بسبب الامتحان. تعال بنا الآن لنعالج بضعَ أسئلة أخرى ثم نتوقف".

أمّا في الخارج، فقد استمر عزيف العاصفة دون هوادة، فكان البيت يتناوح وينوء على وقْعِها. وعندما اقتنعت أن راميش بات يُحسن الإجابة على جميع أسئلتها، نهضت واقفة: "سأذهب لتحضير بعض الشاي. أما أنت فتذاكر فصلاً جديداً، مفهوم؟"

أومأ برأسه علامة الموافقة، لكنها ما إن رجعت إليه مرة كي تتفقَّده حتى وجدت مُنشغل البال في النظر إلى الباب الخارجي. فهو يتطلّع إلى عودة فرانك. إن حاله في ذلك مثل حالي، دار في ذهنها، لكن تلك الفكرة لم تضايقها. بل في الحقيقة، إنها لامَسَتْ وجدانها، إذ إنها أعادت إليها ذكرى باني، وكيف اعتاد انتظار عودة والده إلى البيت في نهاية كل يوم عمل. وباستثناء أيام الخميس، التي كان من عادة إيلي أن تعمل فيها حتى وقتٍ متأخرٍ، فإنها كانت تعود دائماً إلى بيتها عند الساعة حيث تمضي بضع ساعات متصلة بصحبة باني بمفردها في البيت. ولكن، وعند الساعة السادسة، فإن الصبي يبدأ بالتململ، فيصبح صوته أكثر نزقاً بقليل، كما يصبح لهوه أكثر مَيْلاً إلى العُنف، وهو خلال كل ذلك لا ينفك عن التطلع إلى شباك غرفة الجلوس في ترقبٍ لوصول والده.

شعرت إيلي أن حنجرتها تنتفخ ألماً لذكرى تلك الأماسي الطويلة التي كانت تمضيها مع ولدها. تذكرت خيوط الشمس البلقاء المُجزَّعة وهي تخترق شباك مطبخها، فيما هي تكون منهمكة بطهو العشاء. تذكَّرتْ صوت جهاز "التسيريو" وهو يردد أغنية باني المفضلة: "الغوّاصة الصفراء". تذكرتْ باني وهو يتسلق إلى بيت اللعب الصغير الذي بناه له أبوه فوق كرسيِّ الشجرة، وكيف كانت فروة رأسه الشقراء تتماوج كالذهب تحت أشعة الشمس تذكرتْ رائحة التراب حينما كانت تنكش أرض الحديقة، فيما يتحرك باني بجانبها حاملاً رفشه الأحمر وهو يحاول مساعدتها. تذكرت كيف كانا يضطجعان معاً فوق حصير في الساحة الخلفية للبيت حيث تتلألأ أوراق العشب الخضراء تحت أشعة شمس الأصيل الذهبية. بدت ذكريات تلك السنوات ذهبية، وموشحة بخيوط من ضوء أصفر مشرق. فرغم معرفتها بأنها إنما كانت ككل أم عاملة تلهث خلف وقتها، فإنها اليوم كلما قامت بمراجعة تلك الأيام، فإنها تشعر بالكسل، وكأن تلك الذكريات تمتد أمامها كشريط سينمائي استعراضي تديره يدٌ بطيئة. كم أنها قد عاشت هاتيك السنوات بمرحٍ وتلقائية، هذا ما دار الآن في خيالها. لقد كان لها أسلوب أَنوفٌ في الحياة، هو أسلوب المرأة التي تتوقع أن تدوم سعادتها وتدوم، دون أن يمر في روعها أن لكل جنة عدن حيّتها النَيّقة الكامنة في المتناول، والمستعدة دون سابق إنذار لتلدغ ضحيتها في أقل المناسبات توقعاً واحتساباً.

"قد يتأخر قدوم فرانك إلى البيت كثيراً هذه الليلة يا راميش،" قالت ذلك له فوق هسيس إبريق الشاي، وأضافت: "وأخشى أن أكون أفضل ما يتيسر لك هذه الليلة".

رمقها الصبي بنظرة اعتراضية شائكة كإبرة الوخز. قال في تعجُّلٍ: "لا بأس بذلك، إنني أحب أن أذاكر دروسي معك".

ابتسمت إيلي إمام نفسها حيال ذلك التصريح الذي ينمُّ عن خلاف حقيقته.

ثم درسا وذاكرا معاً لمدة ساعتين أخريين. وعندما غادرها راميش أخيراً عند العاشرة والنصف، فإن فرانك كان لمَّا يعُدْ بعدُ إلى البيت.

الفصل 3

بدا عمودا ضوء المصباحين الأماميين الرئيسيين للسيارة أشبه بسربٍ من فراشات الضوء، من خلال سجوف الضباب والمطر والظلام. ولكن، وعندما اقتربت سيارة الحبيب من موقع المصنع، فإن فرانك رأى أضواء قادمة من مصابيح كيروسين يحملها حوالي عشرين رجلاً يتجمهرون حول المدخل وكان القليل منهم يرفع مظلات سوداء، لكن أكثرهم كان منتقعاً بمياه المطر حتى الجلد، إذ إن أثوابهم البيضاء الطويلة كانت تلتصق بأجسادهم. ورغم وجوده في داخل السيارة المكيَّفة، بعيداً عن البلل، فإن فرانك ارتعش شفقة عليهم. بل لعله ارتعش من قبح مناظر وجوههم فيما هم يحدّقون إلى داخل سيارة الجيب من خلال زجاجها – فأعينهم مفتوحة، وأفواههم ملتوية من الغضب فيما هم يصيحون ببعض الشعارات التي كانت لا تكاد تصل إلى سمع فرانك، نظراً لضجيج المطر ولإغلاق زجاج السيارة – بل لعل ارتعاشه يعود لسبب قيام بعضهم بالضرب بقبضات الأيدي على هيكل السيارة بينما كان السائق ساتيش يتقدم بها في بطءٍ بينهم، في انتظار قيام الحارس الليلي بفتح البوابة الحديدية الضخمة لمرور السيارة إلى الداخل. ودونما قصد منه وجد فرانك نفسه يلتفت من مقعده إلى الوراء ليلاحظ أن الجمع قد اندفع نحو البوابة المفتوحة قبل أن يتم إيقافه عند حدود الممر على يد الحارس المسلَّح. تباً، جال في ذهنه، إن هذا الأمر قبيح.

لقد سبق له عندما ألقى نظرته الأولى على مدخل المصنع إثر مجيئه إليه لأول مرة، أنْ شعر بالحرج لمنظر هذا المدخل الطويل، المشجر الجانبين، والذي تحفُّ به المنبسطات المزروعة بالحشيش المجزور، والورود المزهرة، لقد خجل بسبب هذا الإسراف، وهذا الاستعراض للغنى الباذخ في وسط قرية موسومة بالفقر المدقع. أما الليلة فإنه شعر بالامتنان لطول المسافة التي تفصل بين مكتبه وبين العمال المحتشدين عند البوابة. وقد تلوَّتِ الطريق خلف المصنع لتصل إلى المبنى المنفصل الذي يأوي المكاتب الإدارية لشركة هيربال صوليوشينز، المبنى الذي كان ساتيش يقود السيارة إليه. وعندما

توجهت السيارة نحو مقدمة المبنى المذكور، صارت خلف إمكانية رؤية الجمع الغاضب المحتشد خارج البوابة. وعندما ترجَّل فرانك من سيارته تحت حماية المظلة التي أفردها ساتيش فوق رأسه، فإنه شعر شعوراً هو أشبه بما يحدث في الأفلام، عندما يقع أحدهم في الحصار في سياق فيلم مبنى على رواية من روايات غراهام غرين. لقد كان بحاجة إلى فترة العشرين دقيقة التي استغرقتها رحلة السيارة من أجل أن يستجمع أفكاره. ثمة عامل ميت. تُرى ما هي مسؤوليتهم في ذلك؟ أجل، ما هي مسؤوليتهم؟ لقد شعر أنه خارج المجال الملائم له للتصرف والتفكير، بشكل كامل، ها هو الآن أكثر غرابة عن الهند ممّا كان عليه حاله يوم وطئت قدماه أرضها لأول مرة في العام الماضي. فعندما ذهب إلى مكتب بّيتر لقبول المهمة الموكلة إليه، فإن المتاعب العمالية كانت آخر شيء يمكن أن يخطر في باله. فالتعاطي مع عقابيل وفاة أحد المستخدمين، إنما هو أمر لم يدرسه مرة في كلية إدارة الأعمال. وانتابه شعور من الرهبة، وعَيَفٌ شديدٌ من الرغبة في التعامل مع مثل هذا الموقف. فالرجال المتجمعون وراء البوابة وسط العاصفة الماطرة لم يكونوا مستعدين لتناسي زميلهم الذي سقط ميتاً، وذلك إلى وقت ليس بقصير. وكان هو يعرف ذلك حق المعرفة. إنها ورطة لا يُحسد عليها، خطر في باله. لقد جئت إلى هذا البلد لأقوم بوظيفتي اللعينة ليس إلّا، وها أنا أتعرّض إلى ما لا طاقة لي به من التعاطي مع جمع من الرعاع الذين يبدو الحقد والشر على وجوههم.

وبعدما اجتاز الممر الطويل الذي يقود إلى مكتبه، كان الشعور بالغضب قد حلّ محل الشعور بالخوف. لاحظ أن كل ضوء في الطابق الأول قد أضيء وهذا ما زاد غيظه لسبب لا يعرفه. أيعتقد هؤلاء الناس أن هذا المكان هو مكان للنزهة، أو لشيء نم هذا القبيل؟ من هو تراهم يعتقدون أنه يدفع فواتير استهلاك الكهرباء عنهم؟

وممّا زاد غضبه، وقوع نظره على غولاب سينخ وهو يجلس على كرسيّه، ووراء مكتبه هو بالذات، كما يقوم باستعمال جهاز هاتفه. ولكن، وعلى الأقل، فإن الرجل كان قد بقى عنده من الكياسة ما يكفي لإخلاء الكرسي عندما دخل فرانك إلى غرفة المكتب. "آتشا"، كان غولاب يقول: "حسناً، لا مشكلة. سأكون هنالك غداً قبل أن أقوم بأي شيءٍ آخر. لكن المدير قد دخل الآن. وسوف نتابع حديثنا غداً، آتشا؟" ثم أعاد سماعة الهاتف إلى مكانها.

"ما الذي يجري هنا بحق الجحيم يا غولاب؟" قال فرانك قبل أن يتمكن الرجل الآخر من البدء بإلقاء التحية عليه. "ما الذي حصل لأناند؟"

سحب غولاب منديلاً أبيض من جيب سرواله الجينز ببطء ومسح به السماعة قبل أن يجلس. إنها عادة هندية خرقاء، جال في دهن فرانك. إن كل

ما يقوم به هو إزاحة الجراثيم يميناً وشمالاً. أرغم نفسه الآن لنقل تركيز ذهنه من السماعة إلى غولاب نفسه.

رئيس الحرس الذي انتقاه فرانك إنما هو رجل ضخم، فظٌّ، حليق، ذو فكين كبيرين، وأنفٍ ملاكمٍ، ويدين ضخمتين عضليتين. لقد كان أضخم هندي سبق وأن وقعت عليه عينا فرانك. فكل شيء حوله كان ينضح بالجبروت والقوة الغاشمة. وهو يبدل في لباسه بين عباءة السيخ الطويلة التقليدية التي يرتدونها فوق البيجاما، وبين الظهر العارض في المصنع بقميص فوق سراويل من الجينز الأزرق. بدا الأمر كما لو أن عادة تبديل اللباس هي عادة كافية لإلقاء شيء من الغموض حوله. شيء ما، حول غولاب كان يجعل فرانك دائماً في حالة من عدم الارتياح، لكنه لم يكن ليستطيع تعيين هذا الشيء. وبخلاف المستخدمين الآخرين، فقد كان غولاب على الدوام أميناً لوعده، كما كان مُجداً في عمله وموثوقاً، ويستطيع القيام بالتفكير لوحده. كما أنه لم يكن خنوعاً متذللاً، أو متخلقاً مداهناً مثل سواه من الآخرين، وتلك خصال يكرهها فرانك عند أصحابها. فمعظم الهنود الذين عرفهم كانوا إمّا أجلافاً كلكمةٍ موجّهةٍ إلى الفم، أو متملقين إلى أبعد حدود الذل والتملق. لكن جلافتهم لم تكن لتزيده سوى جفاءً لهم وابتعاداً عنهم. وكلما زاد عنه بعداً تعاظمت غزارة وشدة طأطأة الرؤوس، والابتسامات، وكلمات "يسّ سّير". مع أنه، وصدقاً، لم تعجبه الخصال المضادة لها أيضاً، أي تلك الصلابة والجدية التي اجتاحتهم مؤخراً بعدما نشأ هذا الموقف العمالي منذ شهرين. فالرجال الذين بدوا كالأطفال بالنسبة إليه، منذ أشهر قليلة إذ بهم الآن يظهرون له كناضجين متصلبين، وباتوا ينظرون إليه كما لو أنهم يجدون فيه شيئاً لا يستطيع هو نفسه أن يجده، أي كما لو أنه يمثل شيئاً أكثر من مجرد كونه فرانك بانتون، من آن آربور، الذي رضي أن يعيَّن في وظيفة يقع مركزها في بلد بعيد، وهو يحاول أن يجعل هذه الوظيفة تسير سيراً حسناً، فرانك الذي هو مجرد مستخدَم، في نهاية الأمر، مثله في ذلك مثل أيٍّ منهم.

"إذاً ما الذي يجري هنا؟" كرر فرانك سؤاله متخذاً جلسته فوق مقعده، بحيث لا يبقى لغولاب بد سوى الجلوس على أحد كراسي الضيوف المواجهة له.

هز غولاب رأسه. "ليس الموقف جيداً يا سيدي. فكما تعلم، كان البوليس قد قام باعتقال أناند منذ يومين. و ــــ"

"مهلاً. هل أعلمني أحد بذلك؟"

أطلق عليه غلاب نظرة غريبة: "لقد أخبرتك بذلك بنفسي يا سيدي". وكان ثمة شيء حار في صوته، لم يستطع فرانك إدراكه بدقة. "أظن أنك كنت في

طريقك إلى الاجتماع الأسبوعي عندما أخبرتُك، وكان جوابك بالإيجاب – فلقد طلبت مني أن أتدبّر هذا الأمر".

شعر فرانك بشيء يقرصُه في قعر معدته: "إذاً ما الذي قمتَ بعمله يا غولاب؟"

تكلم غولاب ببطء: "لقد بدا لي أن تعليماتك كانت واضحة يا سيدي، لهذا فإنني طلبت من قائد الشرطة، كما تعلم، أن يمارس بعض الضغط على الولد. لقد كان زعيم العصابة، ألا تدري؟ وقد خطر في بالي أننا لو استطعنا أن نكسر ظهره، فإنه سيسهل علينا كسر أظهُر الباقين من أعضاء الاتحاد قبل أن تفلت الأمور من أيدينا".

سأل فرانك بصوت يشبه الهمس: "أأنت طلبتَ منهم أن يقتلوه؟".

بدا غولاب مذعوراً، وغدت جلسته فوق كرسيه أكثر انتصاباً. "سيدي طبعاً لا، سيدي. لقد كانت الوفاة مجرد حادثة مؤسفة. لقد كانوا يقومون بمجرد تعزيره فقط، وذلك من أجل التأكد من حسن رجوعه إلى صوابه. والله وحده أعلم كيف صارت الأمور في الطريق الخاطئ. فرجال البوليس هنا يعرفون كيف يضربون بطريقة لا تُحدِث آثاراً، ولا ينتج عنها نتائج خطيرة. لكن هذا الولد لا بدّ من أنه ضعيف بالنسبة لأداء رجال الشرطة المبتدئين". كانت نظرات غولاب تنقذف يميناً وشمالاً فيما هو يفكر بإخراج كلماته. "وفي الحقيقة، أنه من المحتمل وجود حالة قلبية كان يعاني منها أجل لابد من أنه كان يملك قلباً ضعيفاً".

اجتاح فرانك من جديد ذلك الشعور السوريالي بأنه محاصر في سحب رعب. ها أن أجلس في مكتب في بلاد الهند عند منتصف ليلة مظلمة أناقش كيفية التغطية على حادثة موت رجل شاب، جال في ذهنه، وبرغم مشاعر الرعب والعار والقرف التي تألبت عليه، فإنه لم يرَ سبيلاً إلى الهروب منها – كما رافق ذلك نوع من الشعور بالقلق من أن يكون الآن في موقفٍ من وُضع تحت الاختبار، اختبار لمدى كونه رجلاً بالغاً قادراً على التعاطي مع شؤون الدنيا، وذلك بطريقة لم تكن لتحدث له لو بقي في آن أربور. "إذاً هل سيكون هذا هو دفاعنا؟" سمع نفسه يتساءل. "أن أناند ذو قلب ضعيف؟"

"تقول دفاعنا؟" هذه المرة بدا من الجليّ أن غولاب يسخر منه، لأنه بات يعرف أنه (فرانك) يعمل خارج مجال اقتداره، فهو مجرد فتىً أميركي غرّ يحاول السباحة في مياه البالغين الغويطة. وبشكل خافتٍ، تذكر فرانك حديثاً سابقاً له مع غولاب حيث أخبره الرجل عن مهماته مع الجيش الهندي في كشمير. كان غولاب قد قال: "لقد قتلتُ رجالاً هناك بقبضتي يديّ العاريتين يا سيدي، كان على أن أفعل ذلك وإلّا قام المسلمون المتمردون بقتلى". والآن،

أجبر نفسه على التركيز على ما يقوله غولاب في الوقت الحاضر. "لا لزوم لاتخاذ أي موقف دفاع أي موقف دفاع يا سيدي. فشركتنا ليس مسؤولة عن وفاة الفتى. فإذا كان أناند يشكو من حالة مرضٍ قلبيّ، فإن من الحريّ به أن يفكر مرتين قبل أن يقحم نفسه في مسألة القيادة العمالية. فظروف الحياة في السجن هي التي أنتجت هذه الوفاة المبكرة".

"أتظن أن أحداً سيشتري هذا الكلام؟" ثم أدرك كيف أن بات يسمع نفسه وهو يَهرف بكلام يدلّ على أنه شريك في قتل شاب يكاد يكون لم يعرف، شاب كان قد أتى إلى مكتبه منذ بضعة أسابيع وهو يحمل التماساً يطلب فيه تحسين رواتب العمال، ومنحهم أوقات استراحة أطول. لم يكن هنالك أي شيء غير اعتيادي حول شخصية أناند، فليس هنالك من مَزيَّة مميزة قفزَتْ لتستقر في ذاكرة فرانك. لقد كانت ملامح أناند العادية هي التي تملأ فرانك الآن بهذا الألم العميق، والقرف الذي يشعر به من جراء هذا الحديث الذي يقوم الآن بإجرائه. "أصغِ إليّ" قال، مصطنعاً شعوراً بالحزم كان في الحقيقة لا يملكه، "لا بدَّ من وجود طريقة أفضل من هذا للتعاطي مع هذه المسألة. إن بإمكاننا الخروج منها بكفً نظيف. نقول إن رجال البوليس هم الذين قاموا بتعذيب أناند، وأن لا دخل لنا بكل ذلك".

"فرانك، يا صاحبي وسيدي. فكّر معي قليلاً. إننا لو فعلنا ذلك، لصار تورطنا مع رجال البوليس جلياً، أليس كذلك؟ ما الداعي الذي دعا البوليس لإلقاء القبض عليه من الأساس ياسيدي؟ لقد كان ذلك لأننا نحن – بل أنا – قد طلبنا منهم أن يفعلوا ذلك. فهو لم يقم بارتكاب أية جريمة جزائية. ومع ذلك فإنهم ذهبوا إلى بيته في المساء وجَرُّوه إلى الاستجواب. ثم إنه، ومن ناحية ثانية، إذا قمنا بتوجيه إصبع الاتهام إلى البوليس في هذه المرة – فما الذي تعتقد أنه سيحدث لنا عندما نحتاج إلى مساعدتهم في مرة قادمة؟ فمنذ السنة الماضية يقوم القرويون هنا بمنازعتنا حقوقنا على الأشجار التي هي بمثابة دم العروق بالنسبة إلى شركة هيربال صوليوشينز، يا سيدي، وأنت تعرف ذلك جيداً. مَنْ ذا الذي تعتقد أنه يمكنه مساعدتنا على منعِ ادعاء هؤلاء القرويين الجَهَلة ملكية الأشجار لأنفسهم؟"

كان فرانك واعياً للنقمة الجيَّاشة في صفوف القرويين حول واقع أن شركة هيربال صوليوشينز قد وقَّعت عقد استئجار على مساحة آلاف الفدادين من الأراضي الحرجية لمدة خمسين سنة مع الحكومة الهندية المحلية. وكان القرويون قد اعتادوا بحكم التقاليد، تخمير ومضغ وحتى تدخين أوراق أنواع معينة من الأشجار – وهي أوراق الأشجار نفسها التي تقوم شركة هيربال صوليوشينز الآن بِجَنْيِها وتصنيعها للاستعمال في خط إنتاج عقار "شوغار غو"، الذي هو علاج بديل للعقاقير التي تستخدم في تنظيم سُكَّر الدم. وقد اعتاد

القرويون أيضاَ قطع ما كانوا يعتقدون أنها أشجار مملوكة لهم من أجل استعمالها حطباً لمواقد التدفئة. وبعد توقيع عقد الإيجار، قامت شركة هيربال صوليوشينز بتعيين حراس من قِبلها لحماية الأشجار من المعتدين. لكن النزاعات لم تهدأ مرة، ولا وقفت المشاجرات بين الحراس المستأجَرين وبين الناس الذين يعتقدون أن تلك الأشجار هي إرث لهم عن أجدادهم، حتى، وبرغم قيام الحكومة المحلية بتوقيع عقد الإيجار مع الشركة، فإنّه يبقى من حقهم حتى القيام بتوريث هذه الأشجار إلى ذريتهم. وقد دُعيَتْ قوات الشرطة غير مرة لإعادة الأمن إلى نصابه.

"إذاً، ما الذي يُفترض بنا عمله؟" قال فرانك كارهاً هذا الموقف الذي بات محجوراً فيه.

"عليك مجرد ترك الأمور لي، يا سيدي فإنني سأتدبر أمر جميع هذه المسائل".

"لا، أشكرك. لا أريد أن ارتكب ذلك الخطأ مرة أخرى. ففي المرة الأخيرة التي طلبتُ منك فيها أن تتدبّر الأمور، فقد انتهى الأمر بي إلى وجود رجل ميت بين يدي". انطلقت الكلمات من فم فرانك مشحونة بالغضب والامتعاض اللذين كان يشعر بهما.

تجمّد غولاب جمود من فارقه الإحساس، وغرُبت عيناه وتسطّحتا وأيقن فرانك أنه قد أثار سخط الرجل. فشعر بقليل من الرضا الذي ما لبثت أن أعْقَبتْه وخزةٌ من الشك والندم. فلم يكن به رغبة في وقت من الأوقات في أن يستثير هذا الرجل ضده. "آسف لما بدر منّي،" بدأ كلامه. "لقد كان ذلك مجرد ـــ"

"لم يحصل أي أذى، يا سيدي" جاءت ابتسامة غولاب جافّة ومصطَنعة. "إنني يا سيدي. وأقول لك بصدق، إنني كنت أظن نفسي أنفّذ توجيهاتِك. فعندما قلتَ لي أن أتدبر أمر أناند، فإنني اعتقدتُ ـــ"

أيحاول هذا الرجل توريطه؟ محاولاً التأكيد على أن يديه ملطختين بالدم أيضاً؟ - يا لجهنم القذرة! وما الذي يمكن أن يكون معنى طلبه من غولاب بأن يقوم بتدبُّر المسألة؟ أهي مجرد استجابة لفظيَّة انعكاسية يفوه بها مدير تنفيذي في لحظة عجلة من أمره؟ أم أن في قعرها رغبة أبعدُ شراً من كل ذلك؟ رغبة في إزالة المشكلة بأية وسيلة تقتضيها الضرورة؟ وهو يكاد لا يتذكر أنه قد قال تلك الكلمات لغولاب. ولكن، وحتى وإن كان قد قالها فعلاً، فيا لِلّه، إنه لم يقصد القتل، ولا حتى إيقاع الأذى، بكل تأكيد. وقد تذكّر فرانك عندما قرأ للمرة الأولى عن فضيحة سجن أبو غريب. لقد شعر آنئذٍ بالغثيان، حتى بالمعنى المادي للكلمة. هذا ليس من شِيمَنا. هذا ما لا يمكن لأميركي أن

يفعله، أو أن يفكر به. وبالطبع، لقد كانت إيلي أكثر منه سخرية بحكم طبعها. "رويدك يا فرانك"، قالت له: ما الذي تعتقد أنه قد حصل في فيتنام؟ وماذا تعتقد أنه يحصل الآن، بحق الجحيم، في جميع سجون الولايات المتحدة، وفي كل يوم؟ لكنه كان قد صُعِق حقاً في أعماقه، كما شعر بالقرف بسبب الصور التي رآها معروضة على التلفاز: نظر الآن نحو غولاب، محاوِلاً التفكير في طريقة يشرح له الأمر بها، طريقة تجعله يفهم أن عالَمَه ليس عالماً من البوليس والتعذيب والضرب المبرّح الذي يقود إلى الموت في السجون. وللحظة شرد به الفكر والشوق إلى منزله في آن أربور، إلى حفلات العشاء المفعمة بالحيوية، مع الأصدقاء الذين يشاركونه أفكاره السياسية، والمحادثات السلسلة التي أقسم فيها الجميع مرة على الانتقال للإقامة في كندا إذا ما ربح الرئيس بوش جولة الانتخابات القادمة، التي تسمح له بفترةٍ رئاسيّة ثانية، لكن واحداً منهم لم يعد إلى تذكُّر ذلك عندما فاز الرئيس فعلاً. لكن الأمر بدا كما لو أنه الآن ينظر إلى ذاك العالَم من خلال لوحٍ سميك من الجليد، أو كما لو أن حياته السالفة مضغوطة في داخل كرة بلورية لطيفة وجميلة وسريعة العطب وهو ينظر إليها من الخارج فيما هي تجلس فوق راحة كفه. فبعد أن عاش سنةً ونصف السنة في الهند حتى الآن، فإنه بات يشعر أنه صار أشبه بالجنود الأميركيين الغارقين حتى آذانهم في مستنقعات الوحل والقذارة في العراق، وشعر الآن أنه بات يتفهم خسارتهم لبراءتهم، وما يصيبهم من شعور بالتشويش والقلق، وحتى ما يصيبهم من احتقار وحقد على الحضارة التي جاؤوا لإنقاذها بينما هي تقوم بتدميرهم. فكل ما اعتنقه من اعتقادات ليبرالية سابقة عن أن البشر متساوون في جميع أصقاع الأرض، وأن الفوارق الثقافية يمكن جَسرُها جميعاً بفضل النوايا الطيبة، وبفضل مبدأ تقبُّل الآخرين، كل هذه الاعتقادات بدت الآن له ساذجة وخطيرة. فالرجل الذي يجلس قبالته الآن، يبدو غامضاً كالجبل، ويبدو عصياً على الاختراق كأنه غابة وعرة كثيفة. فالمسافة بينه وبين هذا الرجل الجالس أمامه تبدو الآن أبعد من المسافة الجغرافيَّة بين بلديهما.

"أصغِ إلى جيداً يا غولاب"، قال له. "إنك تعلم حق العلم أنني كائناً ما كنت قد قلت لك، فإنني لم أهدف به إلى أي عنف، ولا هو يعني أن هذه هي طريقتي في إدارة الأعمال" نظر إلى غولاب وفكَّر من جديد كيف أنه لا يريد تحويل هذا الرجل إلى عدو. ثم مُكرِهاً نفسه على تلطيف نبرة صوته، قال: "وفي كل حال. فإن الموقف الراهن مُحرِجٌ للغاية، لكننا يجب أن نواجهه مواجهة جيدة. وإنني مستعد لمساندتك في هذا الأمر. وستكون أنت مديناً لي بموقف كبير معك، أليس كذلك؟"

بدا غولاب متحيراً بسبب ذلك السلوك الأخير، الأميركي، اللّااعتيادي، ثم ما لبث أن هز رأسه موافقاً. "إنني سأكون مديناً لك يا سيدي". وفتح فمه

للتفوّه بالمزيد، لكن طرقةً على الباب سُمِعتْ في تلك اللحظة.

"ادخل"، نادي فرانك على الطارق، وهنا دلف إلى الداخل ديباك ميثا الذي هو الرجل الثاني في الإدارة بعد فرانك. "مرحباً يا فرانك"، قال، متجاهلاً غولاب. "يا لها من مصيبة، أليس كذلك؟ لقد عرفتُ بالخبر لتوّي. وكانت الطرقات رديئة، لكنني أتيت بقدر ما استطعت من السرعة".

"لم يكن ثمة داعٍ يستدعي حضورك أبداً، يا ديباك. فإن بمستطاعي تدبُّر هذا الأمر لوحدي". هنا أيقن فرانك أنه حتى لم يخطر في باله استدعاء معاونة. أنك لا تفكر بطريقة رائقة، خاطب نفسه في السرّ مخاطبة المعنف. وعليك بأن يكون لديك أداء أفضل من هذا.

"هذا محال، لا أستطيع حتى أن أفكّر في أن أتركك تكابد هذه المسألة بمفردك. هل رأيت الجمع المحتشد عند البوابة؟ هنالك ما يقارب الخمسين شخصاً. بما في ذلك الأم".

"أيُّ أم؟"

ومَض ديباك بعينيه. "فيم السؤال، إنها أم الرجل – إنها أم أناند".

"أهي موجودة أمام المصنع؟"

"أجل، لقد نزلتُ وتحدثتُ معها. لكنها لم تكتفِ بي، وهي تريد التحدث إليك، فقط".

صار وجه فرانك أغبر، وبسبب حركة بسيطة من غولاب، أيقن أن الرجل قد لاحظ خوفه. لكن غولاب بدا أيضاً أبعدَ من أن يكون مبالياً. أمَّا هو، فإن مجرد فكرة التقائه والدة أناند، أو الرد على اتهاماتها، أو النظر في وجهها عيناً لِعين، فقد كانت أبعد من أن يطيقها حتى على المستوى الجثماني. فهو يعرف حدود طاقاته. فمنذ أقلّ من سنتين، كان قد حضر مأتم ولده بالذات، وقد تجنب يومها التطلُّع في عيني أمٍّ مفجوعة أخرى صادف الأمر في ذلك الموقف أن تكون زوجته. لم يقوَ يومها على فِعل ذلك. إنه لم يستطع.

"فرانك،" قال ديباك. "ربما يساعد في الأمر كثيراً إذا قمتَ، كما تعلم، بالخروج لمخاطبة ذلك الجمهور. قل بعض كلمات تأسّف للأم".

"لا أستطيع ذلك". ردَّ فرانك متطلّعاً بشكلٍ لا إرادي صوب غولاب وكأنه يلتمس منه الدعم. وكان الأخير لا يزال يحدّق نحو فرانك في ولَهٍ وافتنان كأنه يقوم بحلّ لغزٍ محير. وشيئاً فشيئاً، بدت على وجهه مسحة من الفهم للموقف. لكن فرانك كان في كربة لم تسمح له بتسجيل الكثير من ذلك. فهو قد كان

في موقف أشبه بموقف طريدة محاصرة، حتى إنه لم ينفكّ عن تمرير يده فوق عنقه، إلى المكان الذي أخذه شعور لا يكذِّب بانشداد الأنشوطة حوله.

"إنه من التقاليد المألوفة هنا". بدا ديباك ذاهلاً عن ارتباك فرانك. "كبادرة احترام، أن يكون من واجبك القيام بتقديم التعازي إلى ـــ"

"يا سيد ديباك"، قال غولاب مادّاً ذراعه كما لو أنه يريد وقف ذلك السَّيْل من الكلمات. "ليس من الحكمة قيام السيد فرانك بمقابلة الجمهور في هذه الليلة. وقد يكون بإمكاننا إعطاء الأم بضع مئاتٍ من الروبّيَّات وإرسالها هذه الليلة إلى منزلها. أمَّا بعد ذلك، فسنرى".

اشتدَّ حنك ديباك، وقال: "شاب في الثانية والعشرين من عمره قد مات هنا، ولا أعتقدُ أن بضع مئات من الروبيات ستكون قادرة على استرضاء الوالدة".

ضحك غولاب. وكان ثمة شيء ما في ضحكته يدعو إلى صرف النظر عن الأمر، كما يدعو إلى الحسم والتهديد، وقد أعطت تلك الضحكة مفعولها المشتهَى. لقد قام ديباك بتنقيل أنظاره في غير يقينٍ بين الرجلين. قال غولاب: "سأقوم بالتعاطي مع هؤلاء القِرَدة القرويين المتألبين في الخارج يا سيدي، وحالما يجدون أنكما قد غادرتما هذا المكان، فإنهم سيغادرونه أيضاً. وسوف أقوم بعمل ترتيبات لخروجكما من الطريق الخلفي. حسناً؟ وما من حاجة تدعوكما إلى مواجهة الجمهور مرة ثانية". ورغم أنه كان يوجه كلامه إلى كليهما، إلّا أن عيناه كانتا تثقبان كيان فرانك، فرانك الذي بات يحسّ أن تبدُّلاً في الأدوار لا يقاوم، قد حصل بينه وبين غولاب، وأن غولاب قد اكتشف ما هو عليه من ضعفٍ، فشرع في لعب دور الحامي له.

"حسناً إذاً،" قال فرانك بصوت ضعيف خارج من فم جاف.

أطلق عليه غولاب نظرة أخرى، قال قبل مغادرة الغرفة "سأذهب للتفتيش عن سائقك".

استدار ديباك نحوه حالما بات غولاب خارج الباب. "ما الذي يدور هنا بحق السماء يا فرانك؟ ما الذي علينا أن نفعله؟"

"يبدو أن الولد يعاني من حالة قلبيَّة. وربما سبَّب له وجوده في السجن بعض الشعور بالضيق القاتل. إن لأمر مؤسف للغاية". إلَّا أن كلمات فرانك بدت شديدة التقلقل، وقليلة المصداقية، حتى في سمعِه هو بالذات. لكن هاجساً داخلياً كان قد استقرَّ عنده على ضرورة تكرارها حتى ترسو أخيراً وتستقرَّ وتتحوّل إلى حقيقة.

نظر ديباك إليه نظرة مليَّة مفتكِرة. "لقد فهمت. هل هذا هو ما سيكون عليه الموقف الذي سنقوم بالتصريح به؟"

كانت لهجة فرانك خشبية: "بل هذه هي الحقيقة".

قال ديباك مرة ثانية: "حسناً إذن"، فهو الآخر فد بدا الآن خائراً فاتراً، أما حيويته فقد اعتراها التبدُّد والغموض. ثم، وفي انفجار فجً مفاجئ، قال: "تباً لهؤلاء الأوغاد الأجلاف الطمَاعين. لقد كان كل شيء يسير سيراً مستساغاً. إلى أن خطر لهم طلب المزيد من المال، ومن هذا وذاك من الأشياء".

استساغ فرانك ما كان ديباك يحاول فِعله. لقد كان يحاول حضَّ نفسه على الاعتقاد بأن الجمعَ المتربّص بهما خارج البوابة إنما هو الذي تقع عليه الملامة في كلّ الذي حصل. ورغم سحابة الغمّ التي تلفُّه فقد تذكَّر مقابلة كانت قد أجريت مع جندي يافع في العراق، كان أقرانه قد اتُّهموا بقتل المدنيين الأبرياء. قال للمراسل: "تلك الرؤوس النخرة التعيسة هي رؤوس خائنة غادرة يا رجل، فهم مرة يبتسمون لك، ومرة يرشقونك بالحجارة. وهكذا، فإنهم يجرُّون على أنفسهم معظم هذا الوبال". وفيما كان فرانك يومها يشاهد المقابلة المذكورة على شاشة التلفاز، فإنه شعر بالقرف والخجل. لكنه الآن، ممتنٌّ لما يقوم ديباك بفعله، فاهماً أن عليه البدء بالتفكير بالطريقة ذاتها هو أيضاً.

قال بلهجة ملحَّة، مغتنماً فرصة غياب غولاب. "يا ديباك، مهما يحصل من أمر، فإنني لا أريد مواجهة الوالدة، هل فهمت؟" ثم حاولَ التكلم بلهجة ظريفة، فأضاف، "إن مثل هذا الأمر لا ينصُّ عليه توصيف واجبات وظيفتي"، لكن الكلام خرج من فمه متأثماً، ورفيعاً، وعاوياً، بدلاً من أن يخرج عرَضياً وهازلاً.

"لقد حصل لي أن تقالبتُ مع الأم،" همهم ديباك رافعاً جذعه في كرسيّه ومشيحاً بنظرته. "كما أنه سيكون ثمة مراسم عزاء. وعلى شخص ما، من المصنع أن يحضر العزاء". وهنا أوحى بوضوح إلى أنه لا يقدّم نفسه متبرعاً بالحضور.

أطلق فرانك تنهيدة. "لقد تأخرت الوقت بنا الآن، لنذهب إلى بيوتنا لبضع ساعات، ثم نلتقي هنا لمرة ثانية في الصباح، أوكّي؟" نهض من كرسيه معطياً إشارة انتهاء الاجتماع، ثم قام بفتح الباب. مشَيَا معاً في الممر، ليلتقيا ساتيش الذي كان يحث الخطى نحوهما.

سأل فرانك: "أتريدنا أن نوصلك، يا ديباك؟"

"لا، شكراً. سأقود سيارتي بنفسي".

"حسناً، كنِ متنبهاً في ذهابك إلى البيت"

"وأنت أيضاَ".

صعد فرانك إلى المقعد الخلفي لسيارة الجيب متجاهلاً نظرات ساتيش الفضولية. قاد السائق السيارة باحتراف في الطريق الخلفي الذي يدور خلف المبنى الإداري حتى صاروا خارج تخوم شركة هيربال صوليوشينز، ثم اتخذت السيارة استدارة جديدة في الطريق لتصل إلى الشارع الرئيسي، بعد أن تحوَّلت عن المكان الذي يتجمهر فيه الجمع.

خفّت وطأة المطر، وكان مكيّف السيارة شغَّالاً، وكانت السيارة لا تزال وثيرة دافئة. خفق فرانك بأصابعه مقعد السائق. قال: "ساتيش، توقفْ إلى جانب الطريق".

قفز من مقعده قبل أن يتمكن ساتيش من الاستدارة لفتح الباب له. جرى في سرعة إلى جانب الطريق، وانحنى واستفرغ. كانت العتمة شديدة بحيث لا تمكنه من رؤية محتويات عشائه تلك الليلة. لكن شعوراً لا يكذَّب قد ساور فرانك أن ما استفرغه لم يقتصر على وجبه العشاء، بل خالطه غالونات من الأنسجة الممزقة والدماء. إنه الهمّ الذي لا يطاق ولا يمكن التعبير عنه بسبب وجود والدة ثكلى مفجوعة، وبسبب خسارة حياة واعدة ذهبت بها كلمات غبيَّة مستهترة.

الفصل 4

شعر براكاش كما لو أن البحر يجف من أمامه ويتراجع. فخلال جميع السنوات التي عاشها في كوخ مؤلف من حجرة واحدة، خلف البيت الكبير الذي يعيش فيه الأميركان الآن، فإنه كان دائما يحسّ أن هذا البحر ينتمي إليه وحده. وخلال فترة خدمته لأولاف (القاطن السابق للبيت الكبير)، كان باستطاعته الانسلال إلى الشاطئ لتدخين سيجارة "بيدي" [سيجارة هندية ملفوفة لفاً يدوياً]، وذلك كلما خطر له الهرب من بكاء ولده الصغير راميش، فأولاف، الألماني العازب الذي بنى البيت المذكور، كان على أفضل ما يمكن أن يكون عليه رب عملٍ أيِّ مستخدَم – كل ذلك ما دامت قهوة الصباح تقدّم إليه، وما دامت تُسكَب له كأس المساء، ويُطهى له الطعام، وتُنجَز أعمال التنظيف، فإذا به يترك خادمه إذاك في حاله يأتي ويذهب كما يشاء. فلم يحدث مرة واحدة أن جلس أولاف على الشرفة، وأومأ لبراكاش بالمجيء، فيما هو يعبر الممر ليتسلق سلَّم الدرج الحجريّ نزولاً إلى الشاطئ، مثلما تفعل إيلي معه الآن بالذات. "مرحباً، سيدتي،" غمغم فيما هو يهرول بين الشجيرات المزهرة في اتجاه الدرج المؤدي إلى مكان وجودها.

بدا أن الأميركيين يصرفان معظم أوقاتهما على الشرفة. والله أعلم سبب ذلك. فالبيت رائع وواسع ومكيَّف في جميع غرفه، ولكنهما رغم كل ذلك، يفضلان عليه الاستواء على الشرفة تحت شمس الأصيل. فهما في وضع مختلِف عنه، إذ لا خيار لديه سوى التعرّض للشمس كلما شاء اجتناب مناكدات زوجته آدنا له. ففي بعض الأيام تجنح به رغبة في إضرام النار في كوخهما المؤلف من غرفة وحيدة، لمجرد الانفكاك من سماع صوتها الرفيع الصارف، ومن رؤية خيبة الأمل الدائمة السكن في عينيها، كما تسكن سمكة في مياه بركة.

أشعل لُفافة حالما وصل إلى الشاطئ. إذ كانت إيلي قد حرّمت عليه التدخين في داخل منزله الخاص، بعدما حاضرَت به حول سيئات تعريض

راميش لدخان السيجارة. وكم من مرة قد خَطَرَ في باله القيام بتنكيرها أن راميش هو من لحمه هو لا من لحمها ولحم زوجها. وكم من مرة وجد أن لا بدّ له من حجب نظراته عنها وعن زوجها خشية أن تُقرأ على وجهه إمارات الغضب الذي يغلي في أحشائه. ألم يقل براكاش هذا أثناء مأتم أناند؟ ألم يقل إن هؤلاء الأجانب الواعظين لا ينفكّون عن دسِّ أنوفهم أكثر مما ينبغي في شؤون الأناس الآخرين، وأنه من العجيب أن تكون أنوف هؤلاء لا تزال لاصقة إلى وجوههم، ضحك براكاش مقهقهاً لدى تخيُّله لوجه فرانك، وهو بدون أنف. مشى في محاذاة خط المياه، وأسرع الخطى علّه يصبح بعيداً عن مجال نظر إيلي.

لقد كانت إيلي لطيفة ومهذبة معه ومع آدنا، ولعل أفضل ما فيها هو أنها لم تتصرف كأن راميش هو ولدها. وقد كانت، بخلاف زوجها، إذا نظرت إليه وإلى زوجته رأتهما، بينما كان فرانك ينظر إليهما كما لو أنهما مجرد كتلتي هواء. فشاغِلُه الشّاغِلُ هو التفتيش عن راميش بينهما كما لو أنهما دورق ماء عليه التفتيش من خلاله للوصول إلى راميش في قعره.

وأقلُّ ما في الأمر، هو أن الجلبة التي ثارت حول وفاة أناند قد أبعدَت فرانك عن عائلة راميش لبضعة أيام. فهو يمضي كل أوقاته هذه الأيام في المصنع. ولقد كان براكاش سعيداً بهذا الجزء من هذه المصيبة. إذ مرَّت الآن بضعة أيام دون سماع نغمة الـ: ثامب ثامب، العائدة لكرة السلَّة، في الطريق الخاصة التي اعتاد الأميركي وولده أن يلعبا فيها اللعبة تلو الأخرى، وكلاهما يرطن باللغة الإنكليزية. وما كانت صرخات السرور التي يطلقها راميش سوى أشبه بالقنفذ الذي يمزِّق جسد براكاش تمزيق الدبابيس. وها قد صار فرانك يعود إلى بيته في وقتٍ متأخر من المساء، بحيث يفوته الوقت المناسب لمساعدة الصبي في واجباته المدرسيَّة. وفي الليلة الماضية بالذات، أمر براكاش آدنا بمساعدة راميش في دروسه. ولكن بعد جهدٍ جهيدٍ استغرق ساعة بكاملها، فإن آدنا أعلنت فشلها، وعندها أشاح بنظره عنها خشيةَ أن يرى الخجل وقلة الحيلة في مقلتيها، فها هو ابنهما الآن يفوقهما معاً، فهماً، ومعرفة عن العالم. وهذه الحقيقة بالذات، كانت محل اعتزازهما وخجلهما معاً.

لم تُرِد آدنا الذهاب معه لحضور المأتم. وذلك بدافع الولاء لهما، أي للأميركيَّين، "كيف سيبدو موقفنا لو ذهبنا؟" سألته. "ألن نبدو كأننا نقوم بمساندة الاتحاد؟"

"لقد عرفتُ أناند منذ يوم ولادته. وأمه امرأة صالحة". ولم يروِ بقية الحكاية. حكاية أن شانتى التي تكبره بعدّة سنواتٍ، كانت دائماً عطوفة عليه. ولا ريب، إذ إن هذه هي طريقة براكاش في الحكم على جميع أهالي القرية.

فهم بالنسبة إليه فئتان، فئة اللطفاء معه في مقابل فئة مضطهديه والساخرين منه عندما كان طفلاً يتيماً يجوب القرية من منزلٍ لآخر.

"تذهب لوحدك إذاً، فإنني لست حتى على معرفة بهؤلاء الناس".

"إنك بعد عيشِكِ لكلِّ هذه السنين في ’جيربوغ‘، ما زلتِ تحسبين نفسك من ’غُوَا‘. بل عليكِ أن تأتي معي. وعلى الزوجة أن تتبع زوجها. هذا ما يقوله الإنجيل".

أطلقت آدنا شخرةً هازئة. "وما الذي تفقهه أنت من الإنجيل أيها الوثنيّ؟ فأنت همجيٌّ أميٌّ كجرذ من الجرذان".

ظهرت عليه أمارات الاستشاطة. "أعرف أن الإنجيل يقول أن للزوج الحق في ضرب زوجته إذا لم تكن مطيعة. ويجب عليك أن تذهبي".

وحقيقة الأمر، أنه لم يكن ليذهب إلى المأتم من دون آدنا، فهو لم يكن قد جال في القرية منذ عدة سنواتٍ، إذ لم يمش فيها منذ انتقاله إلى جناح الخدم في هذا البيت القائم عند شاطئ البحر، إذ إنه كان قد ألفى نفسه عاجزاً عن إطعام زوجته الجديدة من راتبه الضئيل كميكانيكي سيارات. وكان براكاش قد تعاطى مع ذلك الرجل الألمانيّ المخيف الطلَّة، عندما جاء إليه يكلمه بمسألة تتعلق بإصلاح سيارة، فحاول إقناعه أن لا بدَّ من شخص ما يؤدي له خدمات النظافة والطهو، "زوجتي جيدة جداً"، كان قد قال له. "إنها تطبخ كل الأكلات المعروفة في غُوَا". ولدهشته الشديدة، فإن أولاف وافق على عرضه شرط أن ينتقل كلاهما للعيش في الكوخ القائم خلف منزله الجديد. إذ تبيَّن أن خادمه الحالي ليس شديد الموثوقية. والموثوقية هي الفضيلة الألمانية الأولى التي يعوِّل أولاف عليها قبل كل شيء.

كان هذا الترتيب في غاية الملاءمة بالنسبة إلى آدنا، وبراكاش. ولقد ضاعف أولاف راتب براكاش، وبات لديهما مأوي يعيشان فيه دون مقابل، وفي بداية الأمر، كان براكاش يتولى التنظيف، وكانت آدنا تتولى إعداد الطعام. ولكن، مع مرور الوقت، فإن براكاش اكتشف مواهبه في فن الطهو فانعكستِ الآية بينهما في ترتيبات العمل. ولم يبدُ أن أولاف قد لاحظ ذلك.

لكن العيش بعيداً عن القرية كان معناه أيضاً الإمساك عن الألفة السهلة التي طوَّرها براكاش مع أهلها بوصفه يتيماً قاصراً، تلك الألفة التي سمحت له بدخول بيوت الناس حتى دون أن يقرع أبوابهم. لقد تمتع على الدوام بموقع خصوصي في القرية. إذ كان موضعاً لأثرة الجميع، ولشفقتهم. لقد نظر إليه أهل القرية كطلسمٍ، أو كجلبٍ للحظ، أكثر مما نظروا إليه كبشريٍّ سويّ. وهو نفسه لم يستطع التخلُّص مرة من الشعور بأنه الطارئ الدخيل. ولو أنه تزوّج من إحدى بنات القرية، إذاً لربما كان الأمر قد اختلف قليلاً. لكنه، وبعدما أخذ

الإجازة الأولى من العمل في حياته، فإنه غادر إلى غُوَا حيث وقع هناك في غرام آدنا. ولقد فرَّا معاً إلى جيربوغ، بعد ذلك بأسبوعين، لأنها كانت تعرف أن والدها الكاثوليكي لن يوافق على تزويجها إلى رجل من الهندوس. ولقد أرجف هذا الزواج مشاعر أهل القرية جميعها، ناهيكَ عن مشاعر والدَيّ آدنا.

قذف براكاش عقب لُفافته إلى البحر ثم عمد على الفور إلى إشعال لُفافة أخرى. فبعد قليل ينبغي له أن يُعِدَّ دراجته ليذهب بها لجلب راميش من المدرسة. وها هو يقرر التماهـل بعض الوقت عند الضفَّة. فقد باتت آدنا في مزاج سيّئ منذ يوم المأتم. فحتى هو نفسه لم يكن مهيَّئاً لمشاعر العاطفة التي أثارها المشهد. لقد حاول الآن أن يكشح عنه ذكرياته عن شانتى [والدة أناند] وهي تقوم بلطم صدرها وتحاول الارتماء فوق نار المحرَقة التي كانت تلتهم جثمان ولدها. ولا هو استطاع أن ينسى انتحاب شقيقة أناند فيما هي تُسند ظهر والدتها، ولا هو نسي أخلص أصدقاء أناند وهو يقول بمرارة: "ألم تشاهدوا كيف يقوم هؤلاء الأميركان بذبح العراقيين؟ إنهم لن يرتاحوا أبداً قبل أن يفعلوا الأمر نفسه بنا".

لقد جعله ذلك المأتم يُبغض فرانك، وبينما كانا في طريقهما إلى البيت، كان قد قال لـ: آدنا: "لا أريد أن يذهب ولدنا راميش إلى منزلهما من أجل الدرس وسواه من الخرابيط، أبداً. لقد رأيت الآن ما هُم عليه هؤلاء الناس".

لكن آدنا استدارت نحوه استدارة الأفعى. "حسناً أيها الغبي. إذن عليك أن تقوم أنت بتدريسه. تكلَّمْ مع ولدلك بلغتك الإنكليزية المكسَّرة. وقمْ بنفسك بدفع أقساطه المدرسية. قام بشراء أحذيته وزيّه المدرسيّ. تحمَّل كلَّ ذلك من راتبك - ذلك الراتب الذي يدفعه فرانك لك في كل حال".

حدَّق براكاش في مياه البحر الرمادية. في هذه الأيام، بدت آدنا متنائية عنه تنائي نقطة التقاء ماء البحر بالسماء. وقد صار راميش أيضاً صلفاً عنيداً تجاهه كما لو أنه قد تأثر بشدة انتقاد آدنا الدائم له في حضور الصبيّ. آه لو كان يستطيع أن يجعل هذا الولد يبتسم له بالطريقة التي يبتسم بها لذلك الأجنبيِّ حتى من دون أيِّ جهد. فمنذ أسابيع قليلة، طرَق فرانك بابهم في وقتٍ متأخرٍ من المساء وقدَّم إلى راميش هدية، هي عبارة عن كرة سلَّة، جديدة تماماً. حصل ذلك بعد أن كان براكاش قد صرف ساعة كاملة وهو يقوم بإلصاق رُقعٍ من المطاط فوق الكرة القديمة، جاعلاً إياها صالحة للعب كالكرة الجديدة. إنه يتباهى عليه. إنه دائماً يقوم بشراء راميش، ولده هو، بالهدايا.

شعر براكاش أن أنفه يرتعش فيما هو يغالب دموعه. مسح أنفه بكُمّ قميصه ثم تطلَّع عالياً صوب السماء. بعد ساعتين من الآن، يمكنه أن يحتسي شيئاً من الشراب. فكَّر في توقٍ بزجاجة الـ: "دارو" الطويلة التي تنتظره في

البيت. كما لو أن دخول المشروب الكحولي الغامق اللون إلى جوفِه كفيل بجعله يتراخى ويستريح.

الفصل 5

مرّ أسبوع كامل دون أن تكون إيلي قد غادرت البيت، وها هي الآن تذرع غرفة الجلوس في قلق وهي تنتظر وصول نانديتَّا، فمنذ وفاة أناند، كان فرانك قد رجاها عدم مغادرة البيت، قائلاً لها إنها لن تكون آمنة إذا تجولت بمفردها في شوارع جيربوغ. وقد ابتلعت إيلي ميلها الطبيعي إلى الاعتراض ورضيت البقاء في البيت رغم امتعاضها من جرّاء ندرة ما يرشح لها من أخبار يجري تناقلها عن المجريات التي حصلت في مركز البوليس يوم وفاة ذلك الشاب المسكين، وفي اليوم الذي تلى مصيبة وفاته. وكان عليها الاعتماد في هذا الخصوص على معلومات آدنا التي استطاعت رغم طبعها الحييّ والحذِر، أن تنقل مزاج الشارع إلى مخدومتها. لقد كانت آدنا هي التي أخبرتها بوجود اّشاعاتٍ في التداول صادرة عن محطة البوليس، تقول إن أناند له متعاطفين إرهابيين، اّشاعة أثارت بداية ضحك الرجال الذين عرفوا أناند، لكنها ما لبثت أن أثارت غضبهم، وفي نهاية الأمر بعدما جرى تكرار نشرها وتداولها مرة تلو المرة، فإنها أسكنتهم وحوَّلتهم إلى الاستكانة إلى نوع من الصمت المحيِّر.

لكنَّ ما أفقد إيلي راحة البال حقاً، هو البقعة الحمراء الناتجة عن عصير نبات التنبول، التي كانت قد شاهدتها على قميص فرانك الأزرق عند رجوعه إلى بيته من جنازة أناند. فقد قام أحد الرجال المعتادين على مضغ أوراق التنبول في المصنع، بالمشي في اتجاه فرانك، ثم نظر إليه عيناً لِعين، وقام بالبصق عليه. ولقد تبيَّن لاحقاً أن هذا الرجل هو عمُّ أناند، وقد تمَّ بالطبع، تسريحه من العمل على الفور، لكن شيئاً من تلك المفاجأة المذهلة التي شعر بها فرانك في تلك اللحظة بقي ملازماً له في ذلك المساء، بحيث إنه من غير تفكير أفشى ما حصل معه حتى قبل أن تبادره إيلي بأي سؤال.

"لقد أشار ديباك عليّ بأن أسعى لطلب اعتقال الرجل"، قال لها. "لكنني رفضت ذلك، إذ إن ذلك لن يتسبب سوى في زيادة اشتعال الموقف الملتهب أصلاً، أتدرين؟" لم يكن هناك شيء من الروح القتالية التي تتسلّل عادة إلى

صوت فرانك عندما يتحدث عن الموقف القائم في المصنع، بل حلّ محله نوع من الإرهاق والارتباك.

لامسَت لا يقينية فرانك أوتاراً في قلب إيلي، الأمر الذي جعلها تقرر وضع جميع شكوكها جانباً، ومنها الصوت الملحّ في داخلها الذي يقول، لكن رجلاً قد فقد حياته لا لسبب سوى لأنه تجرّأ على طلب رفع طفيف في الأجور. إن فرانك لن يفعل عامداً، أيَّ شيء يكون من شأنه إيقاع الأذى باي إنسان، خاطبت نفسها. بل لا يمكنه أن يقوم بأي عمل يتسبب بخسارة والدة لولدها، لأنه يعرف أيَّ نوع من الحزن هذا الذي يمكن أن يقع لشخصٍ ما، ومن أجل أن تُخرج تفكيرها من المجرى الذي سلكه، فإنها ذكَّرت نفسها بذلك الشاب الوسيم، المحب للمرح الذي كانت قد وقعت في غرامه في المدرسة الثانوية، وكيف كانت تسير في التظاهرات إلى جانبه في شوارع واشنطن احتجاجاً على حرب الخليج، كما تذكرت الحزن الأصيل الذي شعر به عندما شاعت الروايات الصحفية عن سجن أبو غريب لأول مرة، إذ لا يمكن لأيِّ إنسان أن يصاب بهذا التقزز والاحتجاج ما لم يكن إنساناً بريئاً. وهي حتى قد ذكَّرت نفسها الآن بأن موقفها الخاص آنذاك كان أكبر دنيوية، واستيعاباً، وتشاؤماً. وعليه، فإنها أسكتت شكوكها، والتصقت بزوجها تلك الليلة، وهمست في أذنيه كلاماً مشجّعاً ومطمئناً، وفي بعض الأحايين كان فرانك يستجيب لها بالتشبث بها بطريقة ذكَّرتها بالسلوك الذي كان يسلكه باني حيالها خلال هبوب العواصف، وفي بعض الأحايين الأخرى، كان ينظر إليها نظرات غائمة من عينين نائيتين لرجل قد سافر في الفضاءات الخارجية البعيدة لمدة طويلة كافية لجعله ينسى كيف تكون الحياة على كوكب الأرض.

وهذا النوع الأخير من نظراته، هو السبب الذي جعل من الصعب عليها أن تحافظ على دعمها غير المشروط له، ذلك لأنه ذكَّرها كيف أن فرانك قد تباعد عنها بعد مأتم باني مباشرة، وكيف أنه تحوَّل إلى شيء واجم الحركة، بل إلى شخص لا يحتمِل أن يلمس أو أن يلامَس. وكيف أن الأمر قد اقتضى منها مرور العديد من الأشهر قبل أن تدرك أن ما ظنته مجرّد خدّرٍ في عواطفه ليس إلَّا، إنما هو لم يكن كذلك، بل إن تلك الخَواء في عينيه لم يكن سوى غضب تام، كتلة بيضاء من الغيظ الحارق. وأنها طيلة الوقت الذي كانت تثور ثائرتها هي، فيه ضد السماوات، وضدَّ الأقدار التي لا رحمة عندها، فقد كانت ثائرته هو تثور ضدها هي، وأنه إنما كان يضع الملامة عليها بسبب وفاة ولدهما مع أنه لم يصرِّح بذلك علناً سوى مرة واحدة بعد ستة أشهر من وفاة باني، ولقد كان ثمة ثُلمة يومئذٍ في ذلك الجمود الخاوي الذي اعتاد التعامل به معها. كان ذلك عندما خاطبها في نبرة صوته الصارفة بأزيز الغضب، قائلاً: " أيّ نوع من الأمهات تلك التي تستطيع أن تغفو عندما يكون ولدها مريضاً؟"

وكيف لها أن تجيب عن مثل هذا السؤال؟ ومن أين لها أن تبدأ؟ أتبدأ مع التذكير بحقيقة أنه كان قد مرَّ عليها ست عشرة ساعة متواصلة لم يغمض خلالها جفن لها عندما غلبها سلطان النوم؟ أم تبدأ بدفاعها القائل إن حالة باني كانت مستقرة، وأنها قد تأكدت من وضعه وأشرفت عليه مثلما طلب منها الدكتور روبرتس بالضبط، قبل أن تقرِّر نيل قسطٍ من النوم لا يتجاوز بضع ساعات؟ أم تبدأ بدفعِها القائل إنه يعرف تماماً أنها أمٌّ، أجل أمّ، ولكنها أيضاً كائن بشريّ يُخضعه تكوينه الإنساني إلى الحاجة للنوم، وإلى الشعور بالإرهاق والجوع؟ أم لعلها تبدأ بتوجيه التهمة إليه بأنه لولا وجوده في رحلة عمل إلى تايلاند لكان قد توفر لى جانب سرير باني شخصان اثنان يتناوبان مراقبة ولدهما أثناء رقاده؟ أم لعلها تدلي بالحقيقة البسيطة التي تقول إنها عندما ذهبت للاستراحة في غرفتها، كانت حبة الأسبرين على ما يبدو قد عملت عملها فهبطت حرارة باني، ولم يكن هنالك أية دلائل تنبئ بأن طفرة من الطفح الجلدي سوف تغطي بشرة باني بطريقة شريرة بعد ساعات قليلة؟

لم يكن هنالك من إجابة عن سؤال مثل هذا، وإمارات اليأس المدمِّر التي رأتها بادية على وجه فرانك، جعلت من الجليّ لها أنه ليس من حاجة لإجابة السؤال، لأنها حتى وإن حاولت ذلك، فإن جوابها سيغطيه انكساره، "إني آسفة يا حبيبي، أنا لم أقصد ذلك، وإنني لا أدري كيف حصل هذا".

وكان قد خُيِّل إليها أنها دفنت تلك الذكرى، ولكن بعد الأيام التي تلت وفاة أناند، فإن فرانك بقي يُلقي إليها بتلك النظرة الخاوية، ولقد وجدت إيلي أنه من الصعب عليها لعب دور الزوجة المساندة المُحبة. كما أن الهند قد غيّرت فرانك. فمنذ أن بدأ الاضطراب العملي، صار يأتي إلى البيت يوماً بعد آخر وهو يتذمر من تباطؤ العمال في العمل، ويشتكي من ضعف معاييرهم الأخلاقية في أداء واجباتهم، ومن ضعف حسِّ المبادرة لديهم، وكان صوته دائماً شديد الانفعال بسبب شدة الشعور بالاحتقار. ولقد طفح الكيل به يوم غاب عن العمل مرة بسبب إصابة أنفلونزا ضربت معدته، فإذا به يجد في اليوم التالي أن الجميع قد اتخذوا لهم من فترة بعد الظهر فترة عطلة، لا لسبب سوى لأن ما من أحدٍ استطاع أن يفكر كيف يمكن إصلاح إحدى الماكينات التي تعطلت عن العمل معطِّلة بذلك خط الإنتاج بكامله. "هل تستطيعين تصديق ذلك يا إيلي؟" قال فرانك متألمّاً " حتى رئيس العمال تصرف تصرُّف من لا نفع فيه. كما لو أنه لم يسمع مرة بكلمة صيانة في حياته. إن هؤلاء الناس لا يفهمون شيئاً عن معنى المهلة الأخيرة، ولا عن ملاقاة المواعيد. يا لله، ولهذه البلاد".

لقد كان ذلك التعليق آخر التعميمات التي جرى إطلاقها على شعب مؤلف من بليون شخص، الأمر الذي جعل الكلمات تنقذف من فم إيلي، "حسناً، لو قمتَ بتحسين أجورهم قليلاً، فلربما صار لديهم مزيد من الاهتمام".

استدار فرانك نحوها وعيناه جاحظتان من شدة المرارة. "أنت لا تستطيعين أن تغيِّري طبعك، ليس كذلك؟ إنها عادتك السيئة صحيح؟ أدائماً تضعين نفسك في صف أعدائى؟"

إن ذكرى ذلك الجرح جعل إيلي تراقب كلامها الذي تقوله لفرانك هذه المرة. إننا وحيدان في هذه البلاد، لطالما قالت لنفسها مئات المرات في كل يوم. إنني كلُّ ما لديه هنا، أمّا هي فقد أسعدها الحظ بتكوين تلك الصداقة مع نانديتّا، صداقة تطورت في مدة قصيرة لتصبح في عمقها وقوَّتها شبيهة بصداقاتها التي كوّنتها سابقاً في ميتشيغان. وكانت نانديتّا قد أقنعتها بالتطوّع في مركز نيراك للتعليم والعيادات الطبية، المركز الذي باتت تتردد للعمل فيه تطوُّعاً عدة أيام في الأسبوع. فمنذ أن وطئت قدماها أرض جيربوغ، شعرت إيلي كأنها في بلدها، بل إنها قرأت شيئاً ما، في وجوه النسوة المحليات، شيئاً بدا لها علمياً ومتعدياً لكل زمان. لقد رأت في تلك الوجوه السمراء التي لوَّنتها الشمس وجه أختها بالذات، كما رأت وجوه أمها وعمَّاتها، مع أنها تعلم أن أفراد عائلتها الأميركية المتحدّرة من أصل أيرلندي، من ذوي الوجوه الحمراء المتورِّدة سيطير صوابهم لو هي باحت لهم بتلك المشاعر. لقد كانت الحقيقة هي أن الهند قد ناسبت إيلي كما تناسبها قطعة ثياب مفصَّلة على قياسها. وقد علمَت من جهة أخرى أن فرانك قد وجد قطعة الثياب تلك شديدة الضيق والضغط على أنفاسه، وقد أسِفت له من أجل ذلك كلَّ الأسف.

وفي بداية الأمر، فإنها أمِلت أن يكون فرانك مع شاشي، زوج نانديتّا، صداقة وثيقة العرى. وبالفعل، فإن الرجلين صرفا بعض الوقت في رحلات نزهة على الدراجات الهوائية، وفي لعب كرة الطاولة في البانغالو الذي يتألف منه منزل شاشي، لكن بشكلٍ أو بآخر، فإن صداقتهما لم تشتعل جذوتها. فقد وجد فرانك شاشي شديد الإفراط في التلطُّف، إضافة إلى كونه قليل الندِّيَّة والمنافسة. أما بالنسبة إلى شاشي - حسناً، فإنه يصعب التكهُّن عن الفكرة التي كوَّنها حقاً حول فرانك. لقد كان يبدي على الدوام مقداراً كافياً من السعادة للقاء فرانك، لكن ثمة شعور طفيف بالتفوق يوحي به الأسلوب الذي يقدم به شاشي نفسه، الأمر الذي جعل فرانك يتذمر، ومرة، عندما كان الاضطراب العمالي لدى شركة هيربال صوليوشينز عند بدايات حماوته، حاول فرانك لن يتحدث إلى شاشي في هذا الخصوص.

"إذن، كيف ينبغي للمرء التعاطي مع المواقف العملية في الهند يا شاش؟" سأله. "هل لديك ملاحظات خصّيصة؟"

استدار شاشي نحو فرانك فيما الابتسامة الاعتيادية لا تفارق ثغره. "ما الذي تعنيه بـ: الملاحظات الخصِّيصة؟"

"حسناَ، أنت تعلم أنك تدير فندقاَ ناجحاَ منذ عدة سنوات في هذا المحيط. ولا بد من أن تكون قد كوَّنت بعض التبصَّرات حول ذهنية العمال. ما الذي يستنهضهم، ومثل ذلك من الأمور".

"إن الذي يستنهضهم ـ هو الأجور الجيدة، وظروف العمل الملائمة. إنها القاعدة نفسها، التي تسود جميع أرجاء العالم". ضحك شاشي. ولم يكن من الممكن معرفة ما إذا كان بكلامه هذا، يقصد الهزء بـ فرانك، أم بالطبقة العمالية بكاملها.

انقبض فكّا فرانك. "سأبقي نصيحتك في بالي،" قال، قبل أن تقوم المرأتان بتناول طرف الحديث، وملء فجوة الصمت الثقيل بثرثراتهما إلى أن أشرق المزاج على المائدة من جديد.

قُرع جرس المنزل، فاتجهت إيلي نحو باب المطبخ. "يا إلهي، كم إنني مفتقدة لكِ"، صرخت عندما طلعت وجه نانديتَّا، طارحة ذراعيها حولها.

"واوو". ضحكت نانديتّا بين ماهي تدلف إلى الداخل، "يا له من استقبال جميل".

كانت إيلي قد وضعت الإبريق على النار، أصلاً، والآن، فإنها سكبت فنجاناً من الشاي لكل منهما، فيما جلست المرأتان حول طاولة المطبخ. "هم م م"، تنهدت نانديتّا، "لقد تعلمتِ حقاً كيف تحضِّرين كوباً رائعاً من الشاي، يا إيلي".

أظهرت إيلي تكشيرة طريفة "حسناً، إننا نقيم في هذه البلاد منذ ستة عشر شهراً، وعليَّ أن أكون قد أحسنت عمل شيء ما، أستطيع الافتخار بتقديمه".

أمالت نانديتّا رأسها. "ما الخطب؟"

"لا شيء". رشفّت رشفة من شايها. "تقول آدنا إن هناك أقوالاً تفيد أن أناند كان إرهابياً"، باحت بما يجول في خاطرها من غير قصد.

أطلقت نانديتا ضحكة قصيرة. "أجل. هذه هي الهند الجديدة، فكل مجرم ضئيل الشأن بات يُتَّهم الآن بأنه إرهابيّ – ولكن ليس ذلك الولد المسكين من يمكن أن يكون إرهابياً"، أضافت.

"هذه لم تكن الهند التي تخيلتها عندما كنت أحثُّ فرانك على قبول هذه الوظيفة، لا بد لي من أن أصارحك"، قالت إيلي وهي تستطيع الإحساس بالمرارة في صوتها بالذات.

أما نغمة صوت نانديتا، فكانت مرتبكة. "ما الذي كنتِ تتصورينه؟ أأبقار في الشوارع، ودراويش مرشدون، ومروِّضو أفاعٍ عند كل زاوية؟".

"نعم، أعتقدُ ذلك"، قلت إيلي. لكن الحقيقة هي أنها لم تكن قد فكرَت كثيراً في هذه الأمور. فكل ما جال في تصوُّرها كان، بكل بساطة، هو بلد يكون مجرَّد شاشة خلفية تقوم هي وفرانك أمامها بتمثيل أدوارهما العائلية من أجل نبذ الفتور، ومن أجل الشفاء، والتصالح. وهي بكل تأكيد، لم تتخيّل بلداً محتشداً مائجاً يصبح له دور يلعبه في دراما حياتهما العائلية. فالهند ورق الجدران بالنسبة إلى أيِّ أحد، بل هي تصرُّ على إقحام نفسها في حياة كل إنسان، وعلى الاختلاط بها، وتحوير مجراها، وإعادة قولبتها في ما يتعدى كلَّ تصور. فالهند التي وجدتها، هي مكان للمكائد السياسية، والفساد الاقتصادي، مكان يشغله أناس حقيقيون لهم حاجات بشرية لا تنقطع، مثلما لهم رغبات، وطموحات، وتطلُّعات، وليس التصوّرات الروحانية الغامضة المجلوبة التي هي من اختلاق المخيلات الغربية.

"كيف سار العمل في العيادة هذا اليوم؟" سلت إيلي، وأكملت كلامها قبل أن تتمكّن نانديتَّا من الإجابة، "لقد تعبتُ من الاحتباس في البيت، وأريد متابعة العمل في نيرال من جديد".

"بل عليكِ أن تفعلي ذلك"، قالت نانديتا، "أعني، إنني لا أعتقد أن الموقف خطِرٌ، أو أيَ شيء من هذا القبيل. قد تصادفين بعض الوجوه المقلوبة، لكن هذا هو كل ما في الأمر، وإنني أقول لك يا إيلي، وهذا ما يدهشني أكثر من سواه، في طبيعة الفقراء - إنه ضبط النفس المدهش الذي يمارسونه. وهذا ما يطلق عليه الآخرون تسمية التسليم للقضاء والقدر، لكنني عملت بينهم لعدة سنوات الآن، وإنني أستطيع أن أقول لك إن سلوكهم ليس ضعفاً كالاستسلام للقضاء والقدر، بل في الحقيقة إنه نوع من الصلابة. نوع من التحلّي بالتسامي والوقار. كم من البلاوي يتحمّل هؤلاء من الآخرين" – هنا حرّكت نانديتّا ذراعيها في حركة تشير إلى شمول جميع الأشياء كل ذلك لا يزالون يمسكون عن النضال ضدّنا". هزَّت رأسها وتمكنت من إخراج ابتسامة باهتة. "حسناً، يكفيكِ هذا القدر من وقوفي موقف المحاضر، كما اعتاد شاشي أن يقول".

إن نانديتّا هي الإنسانة الوحيدة في حياتي، التي تعبِّر عما يجول في خاطري، مرَّ في ذهن إيلي. فالرجل الذي أحبته، فرانك القديم، كان من عادته في بداية علاقتهما أن يفهم ويشعر بالطريقة نفسها. لكنها تعرف أنه لو كان فرانك حاضراً هنا في هذه اللحظة، فإنه كان سيرفع حاجبيه، ويقوم بسؤالهما عما إذا كانا يُفرطان بالعواطف تجاه الفقراء، وعما إذا كان ممكناً للفقراء بأن يتكيفوا، وبأن يتعلموا الابتسام، والانحناء حتى عندما تُحاك مكائد القتل لأشباههم؟ ما الذي جرى؟ ساءلت نفسها. إذ إنه كان حريٌّ بالهند لن تجعلنا أكثر إنسانية. لكنها على العكس من ذلك، قد جعلت فرانك إنساناً مريراً ساخناً."

"حسناَ"، قالت نانديتّا. "كفانا كلاماَ مُحبِطاَ". نهضت واتجهت نحو الثلاجة. "ماذا تراه قد طبخ هذا البراكاش؟ إنني أتضور جوعاً".

قفزت إيلي واقفة. "أترغبين بقطعة من الخبز ملفوفة بشرائح الدجاج؟ لقد صنع براكاش شيئاً منها يؤكل مع المايونيز".

قامتا بتحضير السندويتش معاً، ومدت نانديتا يدها إلى أعلى الثلاجة لتتناول كيساً من رقائق البطاطا. قضمت قضمةً كبيرة من السندويتش وتكلمت معها من خلال فمها الملآن. "فيم الوجه الحزين يا عزيزتي؟ هل تشعرين بأي إحباط؟"

أومات إيلي برأسها إشارة الموافقة: "أعتقد أنني مُحبَطة".

"حسناً، إن أفضل علاج للإحباط هو الحيوية والنشاط"، قالت نانديتّا "إنكِ بحاجة إلى الانخراط في شؤون الدنيا من جديد".

ابتسمت إيلى ابتسامة حبيسة:" هذا هو بالضبط ما كنتُ سأنصح به مريضة من مرضاي"، رفعت رأسها ونظرت إلى المرأة الجالسة قبالتها: "أأنت متأكدة من أنك لستِ معالِجة نفسية في حقيقة أمرك؟"

" آه، يا إلهي، ليس لي طبعٌ يطيق الجلوس بهدوءٍ للاستماع إلى أحزان البورجوازيين. فإن ذلك قد يخرجني عن طوري". ضحكتْ نانديتّا، "كلا، فأنت تعلمين من أنا - صحافية أحب التشهير، ولم أصبح صحافية جيدة قبل أن أصبح – "وهنا لبسَت نانديتّا وجهاً حزيناً - "ربة منزل".

وبالرغم من نبرة نانديتّا لخفيفة، فإن إيلي استطاعت أن تسمع نغمة الندم في صوتها. وكانت نانديتّا، وبعد أن تسلّحت بشهادة ماجيستير في الصحافة، من جامعة كولومبيا، فإنها عادت إلى بومباي لتأخذ عالم الصحافة آخذاً عاصفاً بكشفها عن العديد من بؤر الفساد السياسي في تحقيقاتها الصحافية، إلى جانب كشفها عن إفراط العنف البوليسي، وفضائح الرشوة. وبالرغم من أنها لقيت مساندة من جماعات حقوق الإنسان، ومن بعض نجوم هوليوود السينمائيين، إلا أنها بدأت تكسب عداوة لائحة من الأقوياء وذوي النفوذ. والاتهامات المضخَّمة التي ساقها ضدها خصومها أودت بها إلى السجن لمدة ثلاثة أشهر قبل أن تسقُط عنها جميع الاتهامات. وعندما خرجت من السجن فإنها خرجت خروجاً مظفّراً، إلا أن التلف كان قد حصل - إذ إنها وقعت ضحية لانهيار عصبي بعد ذلك ببضعة أشهر. وكانت قد عرفت شاشي، الابن الوحيد لرجل جنى ثروته من صنع ماكينات حملِ الكريَّات، لعدة سنوات لكنها لم تأخذ مرة طلباته العارضة للزواج منها، مأخذ الجد، ولعدة سنوات كانت تعيّره بمهنة والده على سبيل معابثَته ومضايقته، فأطلقت عليه لقباً معابثاً مشتقاً من مهنة أبِيه هو: "بُوْلْزْ". كما قامت بتعييره لأنه غني، ولأنه رب عمل،

ولأنه لا يملك حسّاً بالوعي الطبقي. ولكن، وبينما كانت تسترد عافيتها عقب الانهيار العصبي، كان شاشي هو الشخص الذي وقف إلى جانبها وساندها أكثر من أيٍّ من أصدقائها التقدميين، لذلك، فإنها وافقت على الزواج منه في أول مناسبة جديدة تقدّم بها منها بطلب يدها. ومنذ سبع سنوات، وعندما قرر والداه القيام ببناء فندق شاليمار على شاطئ بحر العرب، فإنها لم تتردد عندما طلب منها التفكير بترك بومباي لمرافقته إلى كانبار، القرية الصغيرة الهاجعة. والآن، فإنها تجزِّىء وقتها بين العمل في عيادة ومدرسة كانت قد قامت ببنائهما في جيربوغ، وبين مساعدة زوجها في إدارة المنتجع السياحي الذي يضم خمسة وأربعين غرفة.

انحنت إيلى إلى الأمام. "أهل لى استيضاحك عن شيء ما، يا نان؟ هل أنتِ سعيدة في حياتك مع شاشي؟ هل ما زلتما تحبان بعضكما بعضاً؟"

أصدرت نانديتا صوتاً مفرقعاً بحركة من لسانها كأنها تُعرِض عن السؤال. "شاشي؟ من الذي يدري؟ ومن الذي يهتمّ؟ أنتم الأميركيون تتوقعون الكثير من علاقاتكم الرومنسية يا إيلي. كل هذا الكلام عن شراكة الأرواح، وكل هذا الهراء". وعندما لاحظت النظرة البادية على وجه إيلي، فإنها تضاحكت. " يا إلهي. سامحني على هذا التجديف، تبدين كما لو أنك تشعرين الآن بالهول لهذا القول اللاأخلاقي. كلا، ولكن أتريدين الحقيقة الجادة؟ إنني سعيدة مع شاشي. إنه رجل محترم، إنني أحترمه، واعتقد، ووفقا لطريقتي الخاصة، أنني أحبه أيضا. لكن هل إن أمري معه كراس وجد غطاء ه؟ هذا ما لست متأكدة منه"

"هل سبق لكِ وأن كنتِ في ولعٍ شديد به مرة؟ أو في ولعٍ شديدٍ بشخص سواه؟"

وللحظة، فإن شيئاً ما، التمع في عينيّ نانديتا. ثمَّ ما لبثت أن حوَّلت أبصارها. "لست متأكدة، لم تكن هذه هي الطريقة التي نشأتُ عليها، مع قصص من أمثال حكايات الجن التي تدور حول الأمير الفاتن والفرسان المدجَّجين بالسلاح اللامع. وعلى كل حال، فإن المرء يتزوج طلباً للصحبة، وفي ما يختصُّ بمعظم الناس طلباً للذريَّة، أليس كذلك؟ وإذا كان شخص ما، قد قرَّر ألَّا ينجب أيّ أولاد، ثم ___"

كانت إيلي قد لاحظت الحرفة اللفظيَّة من قبل، لاحظت كيف أن نانديتا تنتقل إلى أسلوب التحدث بصيغة الشخص الثالث الغائب في كل مرة تريد فيها التحدث عن شأن خالص أو مسألة عاطفية شائكة. ولو كانت نانديتا واحدة من زبائنها، إذاً لكانت قد تحدثت معها في شأن هذه الملاحظة، لكن شيئاً غريزياً نبهها إلى وجوب عدم التوغُّل كثيراً في هذا الشِّعب، وأن نانديتا ما هي

سوى أشبه بحبَّة عوَّام منتفخة بعد شِدَّة قَلي، فما أسرع من أن تفرغ وتنكمش لدى الضغط على قشرتها الزيتية الخارجية بإصبعك.

"وماذا عنكِ أنتِ؟ إلا تزالين مغرمة بفرانك؟"

"بلى". جاء جوابها فورياً لدرجة حتى أدهشتها هي أيضاً. "أعني أننا ما زلنا معاً منذ كنا في العشرين. وعلاقتنا قد تحملت بكل تأكيد بعض الضربات. ولكن حتى في هذه الأيام، فإنه هو الرجل الوحيد الذي يستطيع التسبب بارتعاش معدتي بمجرد دخوله إلى الغرفة".

"واووو"، قالت نانديتا. لم يكن ثمة غيرة في صوتها، بل مجرَّد اهتمام. "ربما يكون سبب ذلك هو حصول اللقاء مع الشخص الآخر عندما يكون الإنسان لا يزال في عمرٍ صغير جداً مثلما تسمعين عن تلك الطيور – طيور الكركي، ربما؟ - التي تعتبر الشخص الأول الذي تراه بأنه أمها، وهي ظاهرة تدعى الانطباع الذهني، حسبما أعتقِد".

"حسناً لقد كنا نحن الاثنان طالبين على عتبة التخرُّج. لهذا لم نكن صغيري السنّ إلى هذه الدرجة"، ضحكت إيلي. "ولكن بحق الله، يا نان. ليتك شاهدتِنا مرة. لقد كان الواحد منا لا يفترق عن الآخر. فخلال سنتنا الأولى معاً، أثلج الطقس بكثافة مجنونة في عيد الشكر. وكان فرانك يومئذ يقوم بزيارة بعض الأصدقاء في غراند رابيدز، وكنت قد عزمت على طبخ عشاء لنا، لكن نظرة واحدة من خلال زجاج الشباك في ذلك الصباح كانت كافية لي كي أعرف أن لا سبيل له ممكن للعودة إلى آن آربور. ولكن، وعند الساعة السابعة مساء، قُرِع جرس الباب، وإذا بي أرى فرانك واقفاً عند عتبته. قال لي إنه لم يستطع أن يتحمل فكرة ابتعاده عني عشية أول عيد شكر يصادفنا. لقد استغرق الأمر عشر ساعات لقطع رحلة لا تقتضي في الظروف العادية سوى أقلّ من ثلاث ساعات".

" ياه، ثمة شيء رائع في هذا النوع من الحب المبكّر -" قالت نانديتا.

"ولكن الشيء الهامُّ هنا"، قاطعتها إيلي. "هو أنني حتى الآن، أرى أنه الشخص الوحيد في هذا العالم، الذي أعوِّل عليه بان يقف عند بابي في يوم عاصف مثلج ألا يعنى ذلك شيء ما؟

"بل يعني".

ابتسمت كل منهما في وجه الأخرى بخجلٍ، ثم أشاحت كل منتهما بنظرها. "نان،" قالت إيلي. "لا أدري ما إذا كنتُ قد أخبرتُك بهذا الأمر، لكنني شديدة الامتنان لصداقتنا. فمعرفتي بك هي أفضل ما حصل لي منذ ______"

رفعَت نانديتا يدها لتخبئ ارتباكها."صحيح وهل تعتقدين أن مكوثي في هذا المكان النائى لمدة سبع سنوات، دون أن أجد شخصاً ذكياً واحداً أتكلم معه كان مجرد نزهة بالنسبة إليّ؟ شاش يقول دائماً إنني ربما كنت قد طلَّقتُه لو لم تظهري أنتِ في الوقت المناسب".

ضحكت إيلي. "ما دمنا جئنا على ذكر شاشي، كيف تسير الأمور معه؟"

"ابحثي عن الجواب بنفسك"، قالت نانديتّا على الفور. "لمَ لا تأتين أنتِ وفرانك لتناول العشاء عندنا هذه الليلة؟ سأتدبّر لنا عشاءً من المتيسّر".

فكرت إيلي في الأمر. "لعل فرانك يكون شديد التعب بحيث لا تكون لديه رغبة في الخروج من البيت مجدداً هذه الليلة. وربما يكون من الأفضل أن نلبى دعوتك في ليلة أخرى.

أشارت نانديتا في اتجاه الهاتف. "لمَ لا تكالمينه؟ ففي هذه الحال، إذا كان من أحدٍ يرفض تلبية دعوتي الكريمة، فإنه يكون فرانك، وليس زوجته العلَّامة بجميع الغيوب".

"إنك متأمِّرة، أتدرين بذلك؟" تذمرت إيلي وهي تنهض من مكانها. "يا إلهي، إنك لتذكِّرينني كثيراً بأختي الكبرى، آن، لا أستطيع إخبارك عنها". قامت بترقيم رقم هاتف فرانك.

أجاب فرانك المكالمة بعد الرنة الثالثة لجرس الهاتف. ولشدِّ دهشة إيلي أنه أجاب بالإيجاب من فوره، "سيكون الخروج من جيربوغ لبضع ساعات، أمراً لطيفاً"، قال لها، وكان بوسع إيلي أن تحسَّ بوطأة التعب على في العمل هذا اليوم يا حبيبي؟" سألته باحتراس.

"إنه الشيء نفسه فقط، من الهراء العمالي. كيف يمكن لأي أحد أن يدير عملاً في هذه البلاد، هذا ما لا أدريه. إن الإشاعة التي تدور الآن، هي أنهم يخططون للتباطؤ في العمل. وسأشرح لك ما تعنيه هذه العبارة عند رجوعي إلى البيت".

كانت نانديتّا تومئ إليها كي تناولها سماعة الهاتف. وعندما ناولتها إيلي إياها، تكلمت بحماس، ودون الدخول بمقدمات. "فرانك؟ أنا نانديتّا. لدي فكرة، ما رأيك في أن آخذ إيلي معي إلى البيت؟ بينما يأخذك سائقك مباشرة من العمل إلى بيتنا؟ بهذه الطريقة يمكننا تناول الطعام فور وصولك إلينا. إنني على يقين أنك لا تملك وقتاً كافياً هذه الأيام لتناول غذائك سوى على عجل". وكان صوتها خلال ذلك مستوياً دون أن يكون فيه أيُّ أثر للتعاطف أو للإدانة.

تكلما معاً لدقائق قليلة، ثم أقفلت نانديتَّا السمّاعة دون أن تعيدها مجدَّداً إلى إيلي، "إن هذه المسألة قد سُوِّيت إذن"، قالت، "إنك ذاهبة معي إلى بيتنا".

"نعم.. نعم؟" قالت إيلي. "ألا يحق لي أن أسأل عن رأيي في الموضوع أبداً؟ وماذا إذا كان لدي خطط أخرى؟"

"ليس لديكِ أية خطط أخرى"، قالت نانديتا بصوت شديد الانخفاض. "وفي كل حال، فإن فرانك يرى أن هذه الفكرة جيدة".

"حسناً، هكذا إذن. فرانك يرى أن هذه فكرة جيدة. وماذا عني أنا؟ أتجدين آنانى مجرد قطعة كبدة مشرَّحة؟

"إيلي". سلطت نانديتًّا نظرة منكرة على وجه صديقتها، "عليَّ أن أقول إن هذا أبشع محطّ كلام أميركي شائع. والآن، أتريدين أن تغيّري ملابسك، وأن تتهيئي للخروج معي؟"

"قسم أنك فلتة زمانك في حبّ السيطرة"، قالت إيلي متضاحكة. "يا إلهي، لو كنت واحدة من زبائني لكنتُ ______"

"ولحسن الحظ إنني لست من زبائنك"، قالت نانديتّا، فيما هي تعقف مرفقها وراء مرفق إيلي. "إنها عادة أميركية مقرفة أخرى – المعالجة النفسية".

صدقت نانديتًّا في وعدها، إذ كانت الوجبة غاية في البساطة – فهي مكوَّنة من طبق دال [طبق هندي باكستاني قوامه الحبوب المجففة] مع حبوب الخردل والباذنجان المطبوخ بصلصة البندورة الحارة. فيما أفردت فوق الطبق، طبقة من أرز بسمتي الأبيض الذي تعلوه طبقة أخرى من اللبن الزبادي. أراد فرانك أن يتعلم طريقة الأكل بأصابعه، وحاول شاشي أن يعلّمه كيف يكون ذلك، لكن فرانك ما لبث أن إعتزل الفكرة بعدما تناول رفاقه الثلاثة شوكاتهم. "إن تعلُّم هذا، أصعب من تعلُّم تناول الطعام بالعيدان اليابانية"، صرَّح مقرّاً بعجزه.

ولأنها كانت قد تناقشت مع رفيقتها في الصباح في شأن فرانك، فإن ذلك النقاش يبدو أنه نفَّس مرارة إيلي تجاهه، بدا ذلك لشبه بمطرَةٍ من مطرات الأصيل التي تجلو الغبائر عن زجاج النوافذ. لقد قفز قلبها له من صدرها، حال دخوله من الباب بقامته الفارغة البالغة ستة أقدام، المنحنية قليلاً، وبقميصه الأبيض المتدلي قليلاً من الجانبين. لاحظت كيف أن فروة رأسه الشقراء قد استطالت قليلاً فوق المعدَّل، وذكَّرت نفسها بوجوب قيامها بتهذيب شعره في عطلة نهاية هذا الأسبوع. كما لاحظت غضون التعب حول عينيه الرماديتين، والظِّلال الخفيفة حول ذقنه، رقَّ قلبها عليه حناناً. ولهذا، فإن الأمر لم يتطلب منها جهداً لترفع نفسها عن الكنبة المريحة، وتطوِّقه بذراعيها فيما هي تلثم شفتيه. تجاهلَت نظرتَه التي تدلُّ على شعور بالمفاجأة، كما تجاهلت ارتفاع

حاجبي نانديتًّا في ارتباك. وإذا بها تشعر فجأة بالخِفة والجذل، بل بالفرح المسعور، كما لو أن مجيء فرانك كان هو الطريقة المثلى لتتويج فرحتها في ذلك الأصيل. ففي منزل نانديتّا، وبعيداً عن جيربوغ النائية المنعزلة، إذ بها الآن، تشعر بالأمان والحرية للمرة الأولى خلال هذا الأسبوع. لقد عاد بها هذا الشعور إلى أيامها القديمة عندما كانت طالبة على أعتاب التخرج من الجامعة، أعادها إلى شعورها إذ كانت مرة في منزل أحدهم، وكان على جهاز الستيريو أغنية تعود لفرقة الرولينغ ستونز، وكان ثمة رائحة للطعام الصيني المجلوب تفوح، إلى جانب الشعور المترقِّب لسهرة عامرة بالشراب والطعام وتجاذب الأحاديث.

قامت بتقبيل فرانك من جديد، وقام هو بردِّ قبلاتها بالمثل، قُبلات عميقة مخلصة، فهو لم يقبِّلها بمثل هذه الطريقة منذ وقت طويل. نظر إليها بعينين دافئتين ليس فيهما أيّ أثر للتعبير الحذِر الذي طالما كان يبدو عليه. لم تكن قبلاتهما على سبيل التمثيل أمام نانديتّا، بدا هذا جلياً لإيلي. وكانت نانديتّا في حقيقة الحال قد انسلَّت إلى خارج الغرفة بعدما تمتمت عبارة "أهلاً بك يا فرانك"، وكان فرانك لا يزال ينظر إلى إيلي بعناية واهتمام، مبتسماً لها في غبطة وفرح، كما لو أنه يستظهرها عن ظهر قلب. بل كما لو أنه كان قد نسي كم تكون نظرته إليها من دواعي سعادته.

سمعا جَلجلَة مكعبات الثلج في كأس شاشي، قبل أن يدلف الأخير إلى الغرفة. "أوه، مرحى بك يا فرانك"، قال. ومن خلال سعادتها، تخيلت إيلي أن شاشي يبدو شاعراً بسعادة أصيلة لاستقبال زوجها. "أهلاً وسهلاً بك. ماذا تريدني أن أقدِّم لك؟ إنني أشرب كأساً من المرطبات، فيما السيدتان تشربان العصير، حسب اعتقادي".

"في الواقع، إن كأساً من العصير يبدو الآن أفضل مما عداه، إنه نهار شديد الحرارة". أبقى فرانك ذراعه محيطة بزوجته.

"لتكن كأساً من عصير البرتقال إذاً"، قال شاشي، وهنا ابتسمت إيلي لنفسها، فقد كان من دواعي الغيظ المحسوبة على نانديتّا، شدة امتناع شاشي عن احتساء أو تقديم البيرة في بيته.

"سيكون العشاء جاهزاً بعد نصف ساعة، أوكّي؟" قالت نانديتّا. "لنجلس ونرتاح قليلاً حتى ذلك الوقت". استدارت نحو فرانك، "كيف أحوالك أيها الغريب؟"

تنهَّد، "أظن أنها بخير. أنا على ثقة أنك سمعتِ عن – الموقف". صمت قليلاً، جرع جرعة كبيرة من كأسه. "الموقف صعب، وأعصاب الجميع محتقنه". تردّد قليلاً، ثم نظر إلى مضيفيه، كما لو أنه غير متأكد ما إذا كان عليه متابعة

الحديث. "إنني – إنني لست جيداً في الحقيقة في قراءة الموقف العمالي، ولا أظن مرة أنني شعرت طيلة حياتي أنني أميركي أخرق قبيح إلى هذه الدرجة التي أشعر بها في هذه الأيام. إن الطريقة التي تقومون - يقومون – بها بإدارة الأعمال هنا، شديدة الاختلاف عن - "استدار نحو شاشي باذلاً جهداً بيِّناً لجعل نبرة صوته خفيفة. "وعليه، هل لديك أيَّ نصيحة تنصحني بها يا شاش؟"

شعرت إيلي أن عضلات معدتها تنقبض، صلَّت في صمتها إلى الله كي لا يجعل شاشي وقِحاً ثرثاراً، أو الأسوأ من ذلك، مربِكاً مبهَماً رباه لا تجعله يصدُّ فرانك.

لكن رنّة صوت شاشي جاءت صدوقة متعاطفة. "تصعُب معرفة ما ينبغي عمله يا فرانك، إنه موقف سيئ للغاية. قد تكون أفضل نصيحة أنصح بها هو القيام بتسوية. أعطهم القليل مما يطالبون به. دعهم يشعرون كأنهم ربحوا شيئاً ما رشَّة قليلة من الروبيَّات هنا أو هنالك، لن تؤثر كثيراً على شركتكم وبإمكانكم التعويض عن تلك المبالغ من مصادر أخرى. لكنها ستعني الكثير لأولئك الناس"، كانت إيلي قد تقدمت بالاقتراح نفسه ليلة أمس على مائدة العشاء. لكن فرانك انتصب في وجهها بخشونة، مخبراً إياها أنها لا تفقه شيئاً عن قاعدة تفكير العمال الهنود. لهذا، فإنها دُهشت الآن وهي تسمعه يقول، "ليس الأمر بهذه السهولة يا شاشي، فليس أحبُّ إليَّ من اللجوء إلى اللين. لكن هنالك الكثير من الضغط الآتي من الإدارة المركزية. إنك لا تستطيع أن تتصور المدى".

"تباً لهم". كانت نانديتّا هي المتكلمة الآن. "إن هؤلاء العمال يعيشون في ظروف تعيسة. سلْ زوجتك، لقد زارت أماكن عيشهم وخبِرَتْها. دعها تتكلم إلى رئيسك في آن آربور عمَّا تشهده وتراه في هذه القرى. لو قام رئيسك بتوفير نفقات اثنتين فقط من نفقات مآدب الغداء التي يقيمها كل شهر، لتمكّن مِن دفع جميع فروق ارتفاع أجورهم". حاول شاشي أن يلقي يداً مهدِّئة على ذراعها، لكنها أزالت يده عنها، واستدارت لمواجهة فرانك من جديد. "أصغِ إليّ إنك صديقي. لهذا فإنني أصدُقك القول، عليك بتسوية هذا النزاع. وإنني قد لا أكون متديّنة، وأنت تعرف ذلك عنى لكن شيئاً واحداً أؤمن به. على المرء ألّا يخاصم سوى أولئك الذين يستطيعون المخاصمة. وهؤلاء الناس لا يستطيعون ذلك يا فرانك. إنهم فقراء، وجوعى، وضعفاء. ولكن أليس لهم الحق في أن يأكلوا مثلنا؟ ألا يحق لهم أن يأكلوا مثل كل أميركي؟ إن شركة هيربال صوليوشنز تحصل على ما يكفي من الأرباح هنا. تباً، إن بإمكان هذه الشركة لن تضاعف لجور هؤلاء، وتظل تحقق أرباحاً كبيرة رغم كلِّ ذلك. وأنت تعرف هذا كله. إنه من القذارة أن ______"

"نانديتا"، أوقفها شاشي، وقد أحسَّ الجميع بالنبرة الفولاذية في صوته. فبدت فجأة في موقف المذنب المعنّف، "إني آسفة، "قالت، "إنني آسفة يا فرانك، إني آسفة يا إيلْ. إنكما تعلمان كيف تغلبني مشاعري".

مرّت لحظة من الصمت المربك في الغرفة، كان كل منهم خلالها مطرقاً أمامه، لكن فرانك ما لبث أن تكلم: "إن هذا ما نحبه فيكِ يا نان. إنك صديقة صدوقة".

بدا هذا الموقف شبيهاً جداً بطبع فرانك القديم، طبع مخلص بريء، وهذا ما جعل عيني إيلي تفوران بالدمع. فبالرغم من بعض لحظات الارتباك والصدام، فقد كان ثمة شيء إيجابيٌّ من استعادة الماضي في هذه الليلة، جال في بالها، "إن هذا يذكرني بالوقت الذي كنا فيه في سنة التخرج"، سمعّت نفسها تقول. "أنت تعلَم كيف كنا نقضي ليلنا نتجادل حول شتى الأمور حتى نكاد نصل إلى الاشتباك بالأيدي. لكننا كنا دائمًاً على صلة لصيقة هكذا". هنا شبكت أصابعها معاً.

ابتسمت نانديتّا بمكرٍ. "ومن أجل إكمال حفلة مخيَّم تخرجنا الجامحة النزويّة، فإن لديَّ لكم شيئاً قد يساعدكم على ذلك،" قالت. ثم اختفت عن الغرفة لتعود بعد دقائق وهي تحمل معها صندوقاً خشبياً محفوراً، ومعه بعض الورق الصالح للفِّ السجائر. "لقد حصلتُ على بعض أوراق التبغ الاستثنائية الجودة من بعض مصادري"، قالت بشيء من الافتخار. "وأعتقد أنه من الأفضل لنا تأجيل تدخينها إلى ما بعد العشاء؟"

ابتسم شاشي ابتسامة ملتبِسة. لكن كلاً من فرانك وإيلي قالا: "إذن عليكِ أن تحسبي حسابنا".

كان الظلام قد خيم تماماً بعد انتهائهم من العشاء، "اتركي الصحون في المجلى"، قالت نانديتّا مخاطبة إيلي، التي كانت تساعدها في رفع الصحون عن المائدة.

جدَّد شاشي لهم كؤوس شرابهم، قبل أن ينتقلوا جميعاً إلى المساحة الصغيرة المخصَّصة للجلوس على الأرض في غرفة الجلوس. وهي بخلاف غرف المنزل الأخرى، لا تحتوي على أيِّ قطع من الأثاث، سوى على بُسُط منسوجة نسجاً يدوياً، ووسائد ضخمة أسطوانية الشكل، وكلها مطروحة على الأرض، بحيث يقوم المرء بإسناد ظهره إليها. وهذه الغرفة هي الغرفة التي تفضّلها إيلي على سواها في هذا البيت. جلست متربّعة على الأرض مستندة إلى إحدى الوسائد جاذبة فرانك كي يجلس بالقرب منها. وعندما همّ بالجلوس سمعت قرقعة عظام مفصل ركبته اليسرى، كما هو حاله كلما قام بحركة مفاجئة. راقبت نانديتّا وهي تلفُّ لفافة كبيرة من تبغها الاستثنائي بكثير من

الوقار، ثم تسحب منها نفَساً كبيراً قبل أن تقوم بتمريرها إليها. "واووو، إنك لم تكوني تمزحين. إنها بضاعة جيدة"، قالت إيلي، لكن نانديتّا غادرتِ الغرفة لتقوم بتشغيل الآي بُّود. ابتسمت إيلي عندما سمعت صوت سايمون وغارفانكِل في أغنية: "فِيلِنْ غروفي" [أشعر بتوعُّك]، ينساب من الغرفة المجاورة. إنها الأغنية المثالية لمثل هذا المساء، جرت العبارة على لسانها، ومن الطريقة التي كان الآخرون ينظرون بها إليها، أيقنت أنها قد رفعت ربما صوتها أكثر من اللازم.

"لقد باتت في حالة مجنّحة"، ضحك فرانك، "إني أستطيع أن أقول لكم".

"لا، لستُ كما تقول"، قالت مادة يدها لالتقاط اللفافة التي ما فتئت تتنقَّل من يدٍ ليد، وكأنها تخشى أن يتخطاها أحد.

"إنكِ ذات جاذبية خفيفة يا طفلتي"، قال لها فرانك معاكساً. "وما عليك سوى الاعتراف بذلك".

"حسناً، لستُ أنا من أصابه الدُّوار في المرة الأولى التي ذهبنا بها إلى حفلة ساهرة معاً"، قالت بشيء من التعالي.

"هاي، هذا ليس عدلاً يجب أن يكون ثمة قانون يحدُّ من نبش الروايات القديمة".

"كل شيء عادل ومقبول في نطاق المحبة، يا عزيزي"، قالت نانديتّا، فيما عيناها السوداوان تلتمعان. "أفصحي عمَّا لديك يا إيلّ".

فتحت إيلي فمها كي تتكلم، لكنها شعرت فجأة أن لسانها أصبح كأنه منسوج من القطن أو الصوف. "أخبِر الحكاية أنت"، قالت لفرانك. "اروِها بنفسك". خرجت العبارة الأخيرة منها أشبه بالهذيان. قهقهت، ثم ما لبثت بعد فترة وجيزة أن سمعت قهقهة أحدهم، وعندما أدارت وجهها أيقنت أن شاشي هو مصدر القهقهة. وهذا لم يزدها سوى تكرار قهقهتها.

همهم فرانك ساخراً، "لا.. لا. لقد انطلقَتْ في سبيلها.. فعندما تبدأ القهقهة، فهذا هو الدليل على أن"...

"أخبِرْهما الحكاية عن نفسك يا فرانك".

استدار نحو نانديتّا. "لم يكن الأمر ذا بال: في الحقيقة. ففي الحفلة الساهرة الأولى التي خرجنا فيها معاً - وكانت قد أذاقتني طعم الجحيم حتى قبل أن توافق على الخروج للسهرة معي، أذا قلت لكم – خرجنا إلى شقة صديق سابق لها، هكذا خُيّل لي في ذلك الوقت، وقد تبيّن لاحقاً أنه لم يكن أبداً صديقها. لكنني لم أعرف ذلك سوى بعد ذلك الوقت". هزّ رأسه، تأمّل اللفافة

ذات الجمرة الحمراء، التي كان شاشي قد قام بتمريرها إليه، ثم سحب منها نفساً عميقاً،

"يا فرانك"، قالت نانديتّا. "ما الذي تتحدث عنه بحق الجحيم؟

"يا للعنة إن كنت أدري". حدَّق في وجه نانديتَّا تحديقاً حادّاً، كما لو أنه يجتهد في حلِّ لغزِ. أجل كنا نتحدث عن الغيرة. هذا ما كنا نتحدث عنه هنا، على كل حال. ومن الطبيعي، فإنني فعلتُ ما كان سيفعله كل رجلٍ يجري إلى ذلك اللعين، كنت أتجرَّع جرعة أخرى من الغيظ. وأخيراً، وبشكلٍ من الأشكال، تمكنت إيلي من إيصالي إلى داخل شقتها في تلك الليلة. وهناك ذهبتُ في نوم عميق على مضجعها. تخيَّلوا لقد تحرَّقت من رغبتي لنيل تلك المرأة على مدى أسبوعين، وعندما صرت في النهاية في شقتها، فإذا بي أغطُّ في نومي على مضجعها في نوم عميق، كأننى خادم الكاهن أثناء قُدَّاس".

"وهكذا، فإننا الآن لا نتزيَّد من الغيرة"، قالت إيلي بسعادة. "إننا الآن نتزوّد في رفعة المزاج. هذا هو فحوى الرواية".

"وهكذا"، قال فرانك، "كيف حصل لكما أن التقيتما أنتِ وشاشي؟"

بدأ شاشي الكلام مسابقاً نانديتا، "لقد رأيتها مرة في صورة منشورة في صحيفة. وهكذا، فقد وقعتُ في غرامها. لقد كانت صورة صغيرة بالأسود والأبيض". استدارِ نحو نانديتا التي كانت تنظر إليه بفمٍ فاغرِ. "لم أفضِ بذلك لكِ مرة في كلِّ حال، وبناء على ذلك، فقد قمتُ بإجراءٍ بعض التحرِّيات. فتوصلتُ إلى دائرة أصحابها، وشققت طريقي إلى داخل تلك الشلَّة".

"كنت إخال نفسي المحقّقة الصحافية الوحيدة في عائلتنا"، قالت نانديتا مهمهمة.

"شاشي، إنك ثعلب ماكر"، قالت إيلي. "كما أنك رومانسي، وأيُّ رومانسي".

"وبعد أن تحملتُ سنواتٍ من تجاهلها لي"، تابع شاشي حديثه، كما لو أنه يحدّث نفسه. وأخيراً، عندما انتبهَت إليَّ، فإنما لتطلب مني فقط إمدادها بالنقود من أجل تمويل هذه القضية أو تلك من القضايا التي تحمل لواءها، وكدت أن أصاب باليأس". نظر فجأة نحوهم. "ولكن، في يوم من الأيام، فإنها قالت لي نعم". بدا هنا جذِلاً فرِحاً كما لو أن نانديتّا قد وافقت على القبول به يوم أمس فقط.

شعرت إيلي بأغرب شعور بحيث إنه عندما تكلم شاشي، فإن المسافة المادية التي كانت تفصله عنها، قد زالت. أحسَّت كما لو أنها تدخل جسد ذلك الرجل الذي شعرت على الدوام تجاهه بالتحفُّظ، بحيث إنها باتت قادرة على

إعادة تصوُّر انتظاره الذي دام طويلاً قبل أن يتمكن من ملاقاة المرأة التي كان قد وقع في غرام صورتها، وتصوُّر شعوره المؤلم بخيبة الأمل كلما واجهته مرة بالرفض، وتخيلت عناده الدائم على الثبات على التحويم على هامش حياتها، ثم تخيلت شعوره بالانتصار عندما ربح ودّها في نهاية المطاف. وفجأة عرفت كيف يمكن أن يكون طعم شعوره الداخلي - حزنه لمعرفته المسبقة أنه سوف يحبُّ نانديتّا على الدوام أكثر مما تحبه هي، وفرحه في أن يكتسب امرأة لامعة جميلة لتكون زوجة له، وازدواجية شعوره المتكونة من مزيج من الفخر والخجل بسبب طريقتها التي تقحم بها نفسها في الحياة، كقيامها بفضح أقاربه الأغنياء والاقتصاص منهم ومن أبناء طبقتهم من رجال الأعمال، وذلك بجعله يتبرع بالمال من أجل كل قضية تحمل هي لواء قيادتها. لقد شعرت إيلي أنه قد بات لديها بارقة علم بمعنى أن يكون المرء متزوجاً من غيمة – فهي لا تكفُّ أبداً عن التنقُّل والارتحال، ويصعب تثبيتها وتسميرها، وهي لا تنفك تطلق البروق لكنها تمسك عن إرسال المطر.

شيء ما كان يزيح السعادة اليانعة للأيام الخوالي، مخلياً الطريق لتعاسة حلوة. ولكن قبل أن تنزل عليها غيمة الاكتئاب أكثر من ذلك، فإنها شعرت بذراع فرانك تطوقها. "هاي يا طفلتي"، قال لها بحنان. "أأنت بخير؟"

تمنت إيلي فجأة لو أن أحدهم يخترع "ألبوماً" يكون صالحاً لِحفْظِ اللحظات الجميلة فيه، تماماً مثلما يتم حِفظ الصور الفوتوغرافية. ولو تيسر لها مثل ذلك، لاحتفظت بنسخة عن استراحة يد فرانك الدافئة فوق ذراعها العاري، وكذلك الابتسامة الغامضة التي ارتسمت على شفتيه، فالتعبير الفضولي عن الحب الذي تجلى على وجهه، ذلك التعبير الذي يكاد يوقف الأنفاس.

"إنني في حالٍ أكثر من جيدة"، قالت وهي تُلصق جسدها به أكثر فأكثر.

كانت الساعة قد قاربت الواحدة بعد منتصف الليل عندما نهضا للمغادرة. قامت نانديتا بمعانقة كل منهما، "عليكما أن تعودا لزيارتنا بعد وقت قصير، أوكي؟" قالت لفرانك، ثم خفضت صوتها لتقول له، "وأنت تعلم أنك تستطيع دائماً التعويل على شاشي من أجل طلب النصيحة، فهو سيقوم بمساعدتك بأية طريقة ممكنة".

" شكراً لكِ يا نان". قال فرانك بهدوء. لاحظت إيلي أنه حتى الإتيان على ذكر العمل لم يتسبب لفرانك بأية نقزةٍ في مزاجه الرائق الطريّ الذي كان فيه. إنه العلاج بأوراق التبغ الخاصة، قالت لنفسها. سوف أحصل على شيء منها من نانديتّا فيما بعد.

"وأنتِ عليكِ البدء بالعودة إلى العيادة"، قالت نانديتا مخاطبة إيلى بصوت عالٍ إلى درجة كافية ليسمعها فرانك. "وستكونين آمنة تماماً، بكفالتي أنا". انتظرت المرأتان ردة فعل فرانك. لكنه لم يقم بأية ردة فعل. "سوف أمرُّ بك كي آخذك معي غداً عند الساعة الحادية عشرة"، قالت نانديتا.

أحضر ساتيش سيارة الكامري لالتقاطهما، فركبا معاً في المقعد الخلفي بينما كان فرانك يحتضن إيلي بين ذراعيه. انطلقت بهم السيارة بهدوء في وسط الظلام. وبعد لحظات قليلة سمعَتْ إيلي الصوت. وقد ظنت في بداية الأمر أن فرانك يترنم بشيء ما، لكنها أيقنت حقيقة الأمر. لقد كان فرانك يغطّ بأنفاس منتظمة، وذلك رغم أن ذراعيه كانتا لا تزالان ملتفتان حولها.

الفصل 6

نظر براكاش إلى ساعة المطبخ الكبيرة نظرة جديدة. كان الوقت لم يتجاوز بعد الساعة العاشرة والنصف صباحاً، وهذا يعني أنه لا يزال من المبكر أن يقوم بالانسلال إلى كوخه لتناول شراب. أمَّا آدنا فقد بدت في مزاج مشاكس معتكر في هذا الصباح، الأمر الذي جعله شديد التوتر. كان يستطيع أن يقرأ مزاجها من الطريقة التي تقوم بها بالكنس حول المكان الذي يقف عليه أمام موقع الطهو، فهي في العادة تنتظره باحترام كي يخفف لهيب الموقد ويفسح لها المجال قبل أن تباشر الكنس بالقرب منه. لكنها اليوم تجلس القرفصاء، وتقوم بمخاشنة قدميه العاريتين بالجزء الكثيف من مكنستها وهي تهرف له بصوت كقباع الخنزير "تحرَّكْ". قاوم رغبته التي ألحّت عليه ليقوم بضربها على رأسها، لكن درايته بأن السيدة إيلي لا تزال في البيت، وهي تندفع بين غرفة النوم وغرفة الجلوس لتنتهي من ارتداء ثيابها، قد منعته من ذلك، فلم يجد بداً من إمساك نفسه، رغم أن يديه كانتا ترتجفان غضباً، "أليس لديك عينين تُريانك أنني أطبخ؟" دمدم في وجهها. "تبدين في عجلة شديدة من أمرك. هل تأخرتِ على لقاء غرامي لصديق تواعدينه أم ماذا؟"

رفعت نظرها إليه، وعيناها لا تخفيان احتقارها له. "بعد معرفتي بك، أقسمت ألَّا أحفل بأيٍّ من الرجال. فحتى الجرذ لا بدَّ من أن يكون أكثر منك نفعاً."

وكالمعتاد، كان هو الأول في تحويل أنظاره. كان يؤلمه جداً قيامها بالتحدث إليه بهذه الطريقة. ذلك أن هذا يستحضر إليه ذكريات طفولته عندما اعتاد التجوال في الشوارع من بيت إلى بيت، معرِّضاً نفسه لما يكون عليه المزاج العارض لساكني كل بيت. فهو لا يدري ما إذا كانت سيدة البيت ستقوم بمطاردته إلى خارج الدار لاعنة إياه، أم أنها ستلقاه بقطعة من الحلوى. غير أن أسوأ ما في الأمر، كان الأطفال أنفسهم، فإنهم سرعان ما يتلقطون مزاج الكبار، وبذلك، فإنهم قد يقومون بدعوته ليلعب معهم لعبة "الكابادي"، أو لعبة

الحجْلة، أما في اليوم الذي يليه فإنهم لا يتورّعون عن مطاردته في شوارع القرية مطلقين عليه النعوت - الولد اليتيم، صاحب الوجه الذليل، اللعين المنبوذ.

"تحرَّك أيها الرجل"، قالت آدنا. "هل أنت أطرش أم ماذا؟"

"هل أنت أطرش أم ماذا؟" قام بتقليدها، لكنه سمع في صوته ضعف ردّة فعله المضادّة فلم يشعر لغليله شفاءً. لذلك فقد ذهب ووقف في المدخل.

لقد مرَّ زمن كانت آدنا فيه تفضِّل أن تقتل نفسها قبل أن تتكلم معه بذلك الجفاء. كان عمرها لم يتجاوز الثالثة والعشرين عندما تقابلا؛ وكان يكبرها بحوالي عشر سنوات. فبعد أن افتتن بفيلم من أفلام بوليوود يجري عرضه في غُوَا، فإنه قام باندفاع بالطلب إلى رئيسه في العمل في ورشة صيانة السيارات كي يمنحه إجازة لمدة أسبوعين، ثم استعار دراجة ناريَّة من أحد زبائنه وانطلق بها إلى غُوّا.

وهناك صادف الأمر أن التقى آدنا في يومه الثاني، كانت تعمل خادمة في فندق متداعٍ مؤلف من عشر غرف، كان هو أحد نزلائه. ولقد بات صريع حبها على الفور، رغم أنه في تلك الأيام لم يكن ليتكلم سوى القليل جداً من الإنكليزية، وقد خال أن لهجتها الهندية المحلية لم تكن سوى ضرب من الهذيان. وقد دلّته على الأماكن الرخيصة التي يمكنه أن يأكل فيها، وعلى الشواطئ التي عليه أن يزورها. وفي اليوم الثالث من زيارته، صادف يوم عطلة لديها، فاقترحت عليه بحيوية أن تقوم بمرافقته في جولة في المكان. أما في اليوم الرابع، فقد رسخ لديه اليقين أنها هي المرأة التي لا بدَّ له من الزواج منها، ثم فرَّا معاً بعد أسبوعين من ذلك، حصل هذا الأمر بعد أن أقنعته آدنا أن والدها الكاثوليكي لا يمكن أن يمنحهما بركاته ما دام أن ابنته تتزوج من رجل هندوسي، ولقد كانت على صواب في ما اعتقدته – إذ لم يرها بعد ذلك، لا والداها، ولا أختها الكبرى.

"أتريدني أن أغيِّر ديني؟" سألته بعد قرابة ستة أشهر من زواجهما. "هل يجعلك هذا الأمر سعيدا؟"

"ولمَ تفعلين تلك؟" أجابها بلغته الإنكليزية التي شرع بتعلُّمها فور اقترانه بها، "لقد تزوجتك مدركاً بأنك مسيحية".

قامت بتطويقه بذراعيها. "أشكرك" همسات له. "أنتم الهندوس تتبعون عدداً كبيراً من الآلهة، ولا بدّ لي من الشعور بالدّوار بينما أنا أحاول أن أقرر أيّ هذه الآلهة عليَّ أن أعبد".

في بداية عهدها بالزواج، اعتاد براكاش العودة من ورشة السيارات، ليذهب ويستحمَّ في البحر، ثم يقوم بمساعدة آنا في طهو وجبة العشاء. وقد اكتشف في نفسه مهارة في الطبخ. وكان من دواعي سرور آدنا أن تقوم بتعليمه إعداد أطباق غُوَا المحلية، إلى جانب الأطباق الأوروبيَّة التي كانت والدتها قد صرفت عمراً في إعدادها للسيد البريطاني الذي أتى لزيارة غُوَا منذ أربعين سنة، لكنه لم يبارحها بعد ذلك. وفي بعض الأحيان كانا يذهبان لحضور عرضٍ مسائي في السينما الوحيدة في القرية، ثم يركبان في عودتهما إلى البيتً دراجة براكاش. فيقوم هو بالتدويس بينما تجثم هي على المقعد. فإذا صادف لهما أن سمعا تضاحك الجيران لمنظرهما، أو إذا تطلّع أحد نحوهما بنظرة شزَرٍ أو ازدراء، فإنهما كانا يقبلان أحكام القرويين على زواجهما المختلَط ولاً يخالان سوى أن هذه هي الضريبة الواجب دفعُها ثمناً لما هما فيه من سعادة.

وفي المرة الأولى التي صنع فيها طبقاً من البابينكا، وهي نوع من الزلابية الغُوانيَّة المعمولة بحليب جوز الهند، فإنها بكت لفرط امتنانها له، وقالت له إن طعم زلابيته هو حتى أفضل من طعم زلابية أمها. وكان قد صنع لها تلك الحلوى منذ شهرين. لكن آدنا في المرة الأخيرة المذكورة، إذ بها تعنِّفه متهمة إياه بمحاولة العمل على زيادة الشحم حول وركيها، كما أنها تجاهلته عندما احتج بالقول إنها لا تزال على الدرجة نفسها التي عهدها بها من الجمال، كما اتهمته باختلاس الوصفة التي هي من تقاليد عائلتها، ولم تنس أن تقول له إن طعم زلابيته لا يكافئ طعم زلابية والدتها في كل حال.

وفيما هو واقف في المدخل يرمق زوجته، خُيّل لـ: براكاش أنه يعرف بالضبط، متى بدأت الحياة تصبح مُرّة بينهما - لقد كان ذلك غداة ولادة ابنهما راميش. كانت آدنا قد تعمّدت عدم إعلام أهلها عن حَملِها، إذ إنها أرادت أن تكون ولادة حفيدهم الأول مفاجأة تامة لهم. ولقد بقيت طيلة أشهر حملِها التسعة تحلم بلحظة التصالح بين أذرُعهم وكيف سيقومون بالترحيب بزوجها بينهم كواحد من عائلتهم. تخيلت أمها وهي تُشبع وجهها شماً ولثماً، وكيف هي تبوح لها كم قد اشتاقت إليها. لكن التلغراف الذي قامت بإرساله مبشّرة بولادة راميش، قد أُجيبَ عليه بتلغرافٍ آخر يقول: ليس لدينا من أحفاد، توقفي عن الاتصال بنا، لأنه ليس لدينا ابنة أيضاً".

بقي براكاش يحتضنها بين ذراعيه طيلة ساعات من ذلك النهار، طفل باكٍ من جهة أولى، ووالدة منتحبة من الجهة الأخرى. "سوف يقومون بتبديل موقفهم"، قال لها، "لقد حصلت لنا المعجزة الأولى بولادة ولدنا رامو، أما المعجزة الثانية فتقتضي منا بعض الوقت والاصطبار".

لكنها هزّت برأسها، "إنك لا تعرف مبلغ عناد والدي". تناولت راميش ورفعته إلى صدرها، "إنه القدر المقدور – أن يدفع ولدي ثمناً لخطيئتي".

شيء ما فتَر في داخله منذ تلك اللحظة. خطيئتي؟ أتعتقد آدنا أن زواجها منه خطيئة؟ عادت إلى ذاكرته نعوت طفولته المهينة - الولد اللعين المنبوذ، الولد المشؤوم. لقد رأى نفسه بوضوح في تلك اللحظة – رجل ناحل، قليل الحيلة والموارد، ذو ثقافة من الدرجة الثالثة، ولديه إمكانيات واحتمالات قليلة يمكنه لن يقدمها لطفله الصغير وزوجته الشابة.

"إني آسف"، قال وهو ينهض على قدميه. "إن والدك على حق. لقد تزوجتِ من الشؤم والمتاعب".

"براكاش"، نادته باكية. "إنني لم اقصد الإساءة إليك". وضعت الطفل جانباً واحتضنت وجهه براحتي يديها، "أنت - أنت لم تكن مرة سبباً لمتاعبي. بل إنك سبب بهجتي إنك الشخص الذي جعلني أشعر بالفرح".

هزَّ راسه منكِراً "ليس في يديَّ أيَ شيء مما يصلح لأعطيه لهذا الولد سوى راحتي يدي".

"وهذا يكفى يا براكاش"، قالت له بضراوة، "سوف نقوم بتقديم المحبة لابننا، محبة تكون كافية لأيٍّ كان".

لكن ذلك لم يحدث. بل بقي شعور آدنا بأن راميش يكبر دون معرفة له بأقاربه الكبار، مصدراً دائماً للتعاسة الكبيرة في حياة آدنا. ولعلَّ هذا هو السبب الذي يفسِّر شدة سرورها عندما أبدى فرانك اهتمامه بولدهما راميش للمرة الأولى. ولم يكترث براكاش نفسه يومها للأمر أيضاً، ولكن بعد أشهر قليلة من انتقال الأميركيَّين إلى منزلهما الجميل ذي الجدران الجصيَّة القرمزية المزخرفة، ونباتات البوغنفيلية المعرِّشة على تلك الجدران، فإن فرانك عرض عليهما القيام بدفع نفقات تعليم راميش بحيث إنه يستطيع التعلُّم في المدرسة التابعة للبعثة التبشيرية في كانبار. لكن راميش الآن بات يصرف من أوقاته في البيت الكبير أكثر مما يصرف منها في كوخ والديه. وعندما أتى على ذكر هذه الملاحظة على مسمع آدنا في الشهر الماضي، فإنها استدارت نحوه. "يا لك من معتوه مغفّل"، قالت له. "أتشعر بالغيرة من ولدك بالذات؟ الا يجدر بك أن تكون سعيداً لأن شخصاً ما، مقتدراً يقوم بالاهتمام به؟ ولكن لا، إنك تلجأ إلى الشعور بالغيرة بدلاً من ذلك".

"ليهتم هذا الرجل بشؤونه الخاصة. لقد مات ابنه، لذلك فإنه يحاول شراء ابني".

"أنت رجل لا يعرف الخجل"، أجابته آدنا، "إن الشيطان ينطق بلسانك".

وفي بعض الأيام يشعر براكاش بافتقاده لرب عمله القديم، أولاف. لقد كان أولاف الرجل الأول الأحمر الوجه، الذي يصادفه في حياته، ولم يكن قد تكلّم معه سوى قليل. فأولاف لا يتكلم الإنكليزية إلا بصعوبة وهو لا يعرف شيئاً من اللغة الهندية، ولم يكن لديه أيّ اهتمام بشخص راميش. وكل بضعة أيام، يقوم هذا الألماني بالذهاب إلى السوق لشراء الخضار والأسماك الطازجة – وهي مهمة رفض دائماً التخلي عنها لـ: آدنا بعد استخدامه لها – وهذا ما كان أقصى تداولاته مع الأناس المحليين - ولطالما تبعه أطفال القرية على قيد ذراع منه يتضاحكون ويلكز بعضهم بعضاً بينما هو يشتري البامية والباذنجان، وسمك البومفرت، وكان البائعون يقتضون منه أسعاراً عالية لا منطقية، أسعاراً كانت لا بد من أن تستثير تعنيفاً حاداً ضدهم لو كان من المسموح لآدنا بمرافقته إلى السوق، لكنه لم يبدُ عليه أنه يلاحظ شيئاً، فهو يقود سيارته قافلاً إلى منزله، ثم يضع أكياس المشتروات على طاولة المطبخ دون أن ينبس بكلمة واحدة، ثم ينسحب إلى أمام آلته الكاتبة ويتابع الطقطقة على مفاتيحها. ومع مرور الوقت، خمّنت آدنا أن الرجل لا بد من أن يكون منشغلاً بتأليف الكتب، لكن هذا هو كل ما كانت تعرفه عنه. ومرة حاول براكاش أن يطرح أسئلة عليه، لكن ما خرج من فم أولاف لم يكن سوى لغة هي أشبه بالهذيان بالنسبة إلى براكاش، فنصف كلامه خرج بالإنكليزية، ونصفه الآخر بالألمانية، مما دعا براكاش إلى اليأس من هذه المحاولة. ومع كل ذلك، فإن أولاف كان لطيفاً - فهو قد ترك بعض الشراب البراكاش في قعر قارورة الويسكي التي اعتاد استنفاد واحدة من أمثالها كل يومين أو ثلاثة، سلّم القارورة غير الفارغة بالكامل إلى براكاش مع غمزة من عينه.

هذا، ولا يزال براكاش يتذكَّر اليوم الذي حضر فيه أولاف إلى المطبخ ليعلن أنه يعتزم مغادرة هذا المسكن. فهو رجع إلى ألمانيا. لقد أذهله النبأ يومذاك. لكن آدنا، ربما لأنها من غُوَا، لم تندهش لذلك كثيراً. لقد كان حصول مثل تلك الحوادث أمراً عادياً بمكان – فالأوروبيون يأتون إلى غُوَا بقصد الزيارة، فيقعون في الغرام مع جمال المكان، ومع دفاء صداقة أهله، صداقة تشبه كثيراً براءة الأطفال. فأول ما تسمعه عن الأخبار التي تلي قدومهم، هو قيامهم بشراء عقارات في محاذاة الشاطئ، إضافة إلى الرواتب التي يدفعونها للمحاسبين والممرضين والسبَّاكين. وقد يعيشون في غُوَا لعدة سنوات، حتى يأتي يوم يشعر الواحد منهم فيه بدافع مفاجئ يدفعه إلى الحنين لتذوُّق طبق رقائق السمك في مقصف في بلاك هيث، أو إلى معاينة نهر السين عند الفجر، أو إلى العودة لزيارة كاتدرائية كولون بعد أن غالبهم حنين إليها. وعليه، فإذا بهم يسمعون أنفسهم يقولون لابن أخ، أو لابنة أخت كانوا قد رأوهما آخر مرة منذ خمس وعشرين سنة، بأنهم الآن يزمعون العودة إلى الوطن.

"ما الذي يجعلك تبدو كأنك حيال حالة شخص قد فارق الحياة يا رجل؟" قالت آدنا مخاطبة براكاش. "إن الرجل العجوز لا بد له من العودة إلى وطنه، أليس كذلك؟"

هزَّ براكاش رأسه. "كنت إخال أن وطنه هنا".

ضحكت آدنا. "شخص يعيش خمساً وعشرين سنة في هذا المكان وهو لا يزال يجهل لغة أهله. وتصرُّ مع ذلك على اعتبار هذا المكان وطناً له؟ وعلى الأقلّ، فإن أولاف هو رجل محترم – لقد قال لي اليوم إنه سيترك لنا عشرة آلاف روبِّيَّة. أما السيد البريطاني الذي طبخت والدتي طعامه لعدة سنوات، فهل تدري ما الذي فعله؟ لقد أعطاها صورته. قال إنه لا يريد خدشَ خفر الصداقة بالقيام بمنح نقودٍ لها. أتستطيع أن تتصوَّر ذلك؟".

وقبل مغادرته، كان أولاف أيضاً قد قال لهما بلغته الإنكليزية المكسَّرة إنه قد باع المنزل إلى شركة أميركية تدعى هيربال صوليوشنز وأن شخصاً ما، من تلك الشركة، سيصل قريباً للسكنى في هذه الفيللا، وأنه قد نصح المالكين الجدد بشدَّة، بالإبقاء على خدمات براكاش وآدنا. أما العشرة آلاف روبيَّة، فالقصدُ منها مساعدتهما على تدبُّر أمورهما في حال تأخُّرِ وصول القاطنين الجدد لسببٍ أو لآخر.

والآن، وبينما هو يفكر في أولاف، وزوجته تنهي كنس المطبخ، فإن براكاش قال لها: "هل تذكرين -"

"هل تذكرين، هل تذكرين؟" قالت هازئة مقلّدة، نهضت عن الأرض وشدت قامتها. "إن كل ما أتذكره هو أنك رجعت إلى البيت بالأمس عند الحادية عشرة ليلا. عدت ككل متوحش عاديّ. لقد كنت مترنحاً أكثر من الشيطان نفسه".

وجد أن عليه أن يشيح بوجهه عن الغضب الذي رآه بادياً في عينيها. وكيف له أن يشرح لها السبب الذي جعله شخصاً مترنحاً، يهرب من منزله لاجئاً إلى الحانة، خلال الليلة الماضية؟ لقد كان في الباحة الخارجية يقوم بتشنيب النباتات والنصوب عندما رجع راميش إلى كوخهما بعد أن أدام الطَّرق طويلاً على باب المنزل الكبير. "لقد قلت لك إنهما ليسا في منزلهما." نادى مخاطباً ولده.

كانت جبهة راميش متعرّقه من شدة القلق. قال: "لكنني أحتاج إلى مساعدة بخصوص مسائل في الرياضيات يا أبي، ثم إنك كيف لا تستطيع مساعدتي؟"

صعد الشعور بالعجز والعار إلى رأسه، كما تصعد الحموضة من المعدة. ولأنه وجد نفسه عاجزاً عن الإجابة، فإنه قام بدلاً من ذلك بتوجيه صفعة إلى وجه ولده. "ادخل إلى الداخل وادرس دروسك بنفسك،" قال له. ثم تباطأ في الباحة الخارجية لبعض الوقت، وهو يدري أنه لم يعد يجد قوَّة تساعده على الدخول إلى الكوخ من فرط خجله من التطلُّع إلى وجه ولده. أكمل تشذيب الشجيرة تشذيباً همجياً قاسياً، وأرجع مقصَّ لتشذيب إلى موضعه، واتخذ طريقه إلى القرية ماشياً بدل الدخول إلى الكوخ.

كانت آدنا لا تزال تطيل النظر إليه. " في غُوَا يعقدون على الأقل لقاءات لمعالجة المشاكل"، قالت له. "أما في هذا المكان النائى، فلا شيء من ذلك".

"غُوَا، غُوَا" قال لها، ناسياً وجوب إبقاء طبقة صوته منخفضة. "إذا كانت هذه الغُوَا التي تخصك رائعة إلى هذه الدرجة، فما عليك سوى أن تحزمي حقائبك وتذهبي إليها. وانظري هناك من الذي سيقدم على الزواج من بوذية عجوز مثلك".

"ومن هوذا الذي جعل مني بوذية عجوزاً غيرك أيها الوغد" لقد كنتُ صغيرة السنِّ، ممتلئة الجسم عندما التقيتني... " وهنا أكملت آدنا مشوارها الذي تلجا إليه مرة كل أسبوع على الأقل، مشوارٌ مِلؤه الاتهامات والإدانات واللوم والحنين إلى غُوَا وإلى أيام صباها، وهو في العادة يقوم بتجاهلها أثناء ذلك، جاعلاً ذهنه يطير إلى البعيد مثل طيارة ورقية، لكنه اليوم شعر بالأسى لزَوجته، وقد سمع في تفجُّعها على شبابها الضائع شيئاً كان هو نفسه يشعر به موقفاً إياها في وسط جملتها، قام بلفِّ ذراعيه حولها. "مهلاً مهلاً يا آدنا"، قال لها بهدوء. "إنني أفهم سبب كل هذا الكرب. كل ما في الأمر، أنك تفتقدين والدك ووالدتك".

طفحت عيناها بالدموع فوراً، فعرف أنه قد أحسن تشخيص المشكلة بدقة. لكن كيف له أن يقوم بحلّها، إنه لا يعرف. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يلعن فيها حميَّه العنيد الذي لم يلقه مرة.

ولأنه شعر أنها استردّت روْعَها قليلاً، وهدأت لهجتها، ولأنه مسرور بأنه استطاع أن يقطع خطبتها المسهبة العنيفة، فإنه تابع كلامه. "انتبهي إليّ يا زوجتي،" قال لها باللغة الهندية. "ولدنا لا ينقصه أيّ شيء، صحيح؟ فنحن معاً سنقدم له كل الحب في هذه الدنيا".

تملّصت من بين يديه، "صحيح، وما الذي تعرفه عن المحبة العائلية أيها اليتيم الغبي؟"

أجفلَ مباعداً نفسه عنها، بدا على وجهه التعبير نفسه الذي يظهر في سلوك أحد الكلاب الشارِدة بعد أن يقوم أحد أطفال القرية بتوجيه ركلة إليه

في أضلعه. "براكاش، "بدأت آدنا، لكنه هزَّ راسه في وجهها بشكل عنيف.

"أذهبي،" قال لها بصوت صافر، "اخرجي من المطبخ، واذهبي بوجهك الباعث على الغم، بعيداً عن أبصاري".

"إنني لم أقصد_____"

"اخرجي قلت لك. قبل أن أمدّ يدي عليك".

التقطت مكنستها وغادرت الغرفة. وقف في المطبخ للحظات قليلة، مرغماً لذعه الكلمات المهينة على الانحسار. لاحظ أن الأرزَّ قد نضج، فقام بإطفاء شعلة النار تحته. سمع صوت آدنا وإيلي في غرفة الجلوس. بدا كما لو أن إيلي تقوم بتزويد آدنا ببعض التعليمات. أبقى نظره على الباب.

إن الأمر لن يحتاج منه سوى دقيقة واحدة من الوقت حتى يقوم بعبور الفناء إلى كوخه ليتخذ لنفسه جرعة كبيرة من عصير الدارو من القارورة التي كان قد خبّأها في المطبخ. ثم يمكنه أن يرجع بعد ذلك لإكمال طهو بقية الأطباق قبل أن تنتهي آدنا من كلامها مع سيدة الدار. لذلك فإنه انسرق بخفة على الأرضية ثم دخل باب الكوخ وأقفله خلفه بكلّ هدوء.

الفصل 7

عبرت إيلي الفناء الخارجي خلف البيت وفتحت البوابة الخشبية التي تؤدي إلى ممر السيارة حيث كانت نانديتا تنتظرها في سيارتها، لحقت بها آدنا. "متى تعودين مدام". نادتها:

شعرت إيلي بموجة من الغضب، كرِهَت الطريقة التي تقوم بها آدنا بمحاصرتها بالأسئلة طيلة الوقت. "لست أدري"، قالت.

انحنت نانديتا لتُقَبِّلها قبلة سريعة على خدها بعد أن دخلَتْ إلى السيارة. "أتعرفين، أعتقد أنك كنتِ حكيمة عندما لم تقبلي بوجود أي خدم يبيتون في بيتك،" قالت إيلي متذمرة بينما كانت نانديتًّا تهمُّ بإخراج السيارة إلى الشارع العام.

"لماذا؟ ما الذي حصل؟"

"أفٍّ، إن آدنا تصبح شديدة التدخل والمراقبة إلى درجة مُقرفة في بعض الأحيان. كما إن مشاهدتي لهذا العنف الدائم الذي يدور بينها وبين براكاش يسبب لي كثيراً من الصداع. إن الموقف شديد الكراهة بما يكفي لجعل إدارتي لشؤون زواجي، أمراً صعباً، عداكِ عن مراقبتي لهذين الزوجين كل صباح".

"أووهوو! وما الذي جرى لصديقتي الطيبة القلب، الواسعة أفق التفكير، هذا الصباح؟ ما الذي جرى حتى صارت صديقتي المميزة الشخصية، تبدو مثل بقية البشر الضعفاء؟

"أووه، أقفلي فمكِ".

"واوو. أنتِ شكسه الطبع جداً هذا اليوم، ولكن، وبما أننا نتحدث عن الأزواج... فإنكِ أنتِ وفرانك قد بدَوْتما كطائري حمام عاشقين خلال الليلة الماضية".

"كان ذلك بسبب أوراق تبغِك فقط".

"هراء. لقد كنتما لا يرفع أحدكما عيناً عن الآخر منذ اللحظة الأولى التي وصل فيها فرانك". حوَّلَتْ نظرها عن الطريق قليلاً لتُلقي نظرة خاطفة نحو إيلي، "وهكذا، هل حصل بينكما شيء مثير خلال الليلة الماضية؟

تضاحكتْ إيلي. "أنت ملعووووونة".

"إن التهرب من السؤال لا يشبه الإجابة عنه".

"وماذا تقصدين؟ أهو شيء تقرأينه في الكعكة الصينية لقراءة الحظ؟".

"أجل. يقول كونفوشيوس: إن التهرب من السؤال ليس كالإجابة عنه".

ضحكت إيلي من جديد. "لا بد أنكِ كنتِ مراسلة مُخبرة جهنمية".

"هذا ما كنْتُهُ فعلاً مُذْنبة كالمتهمين". بهتَتْ نانديتا قليلاً. "وما دمنا نتحدث في أمر المخْبرين الصحفيين. فإنني قد تلقيتُ مُكالمة من أحد الصحافيين، من بومباي هذا الصباح. وهو يعمل لدي مجلة أسبوعية سياسية صغيرة، وإني آسف بأن أخبرك بهذا الأمر يا إيلِّ، لكنه سألني عمّا إذا كنت قد عرفت شيئاً عن وفاة ذلك العامل في الحقل السياسي أثناء وجوده في الاعتقال. وعن ماهيَّة الأجواء السائدة الآن في القرية، وعن كل ما يتعلق بهذا الموضوع؟،

شعرت إيلي فجأة بحرقة كاوية في معدتها. "وماذا قلتِ له؟"

"لم أدرِ ماذا أقول له. وهكذا، فإنني أخبرته أنني صديقة لكِ، وأنه من مني".

عرفت إيلي ما يمكن أن يكون عليه ثمن امتناع نانديتا عن تقديم المساعدة إلى صحافي زميل لها، هذا إذا أغفلنا وزن هذه الحادثة التي ما كانت لتقصِّر في الظروف الاعتيادية عن عمل ما بوسعها من أجل نشرها. شعرت بعقدة في حلقها، وانتظرت قليلاً ريثما تنحلُّ هذه العقدة بحيث تصبح قادرة على الكلام. "شكراً لكِ، نانديتا،" قالت. "أعلم أن ذلك لا بد من أن يكون قاسي الأثر فعلاً عليكِ. وإنني آسفة لأنكِ قد انجررتِ إلى هذه الوحلة".

هزت نانديتا كتفيها في غير مبالاة، "لقد سبق لي ولن جُرِرتُ إلى أوحالٍ هي أسسوأ من هذا بكثيرٍ، صدقيني"، قالت لها بصوت خافت. "وفي كل حال، فإنني لست ملزمة أبداً بتقديم المساعدة لأي صحافي يأتي إليّ في طلبها. وهكذا، فليذهب صاحبنا إلى جهنم. فإنني أضع هذا الأمر خارج التداول". ربَّتت على فخذ إيلي. "أما الآن فإني أريدك أن تبتهجي وتعودي إلى طبيعتك، أيمكنك ذلك؟ وإلاّ فإنكِ ستجعلينني أندم على قول أي شيء لك".

"لا تقولي هذا القول. فأنتِ تعرفينني. إنني لا أبالي مهما كانت الحقيقة قاسية – فمن الأفضل لي أن أعرف شيئاً من أن أكون في عتمة تامة".

"إنني على مثالكِ أنتِ" ابتسمت نانديتا، منحرفة لتجنب الاصطدام بسيارة قادمة."وأعتقد أنني أصبحت مراسلة صحفية لهذا السبب".

وكالمعتاد، تجمَّع حشد من الأطفال حول السيارة عندما دخلتا الطريق الترابي المؤدي إلى عيادات نيرال. "مرحباً يا بينو، مرحباً يا راجا"، قالت إيلي حالما تميّزت بعض الأطفال الذين قدِموا لتحيتهما، "كيف حالكم جميعاً؟"

وجواباً على سؤالها سمعت كورساً من الأطفال الذين يقولون بصوت واحد منغَّم اعتادوا عليه، "مبسوطين". والطريقة التي قاموا بتمديد لفظ الكلمة بها، وبتقطيعها إلى عدة مقاطع صوتية، جعلت إيلي تضحك في سعادة لما سمعَته. فهي سعيدة هنا، وقد افتقدت هذا المكان، وهؤلاء الأطفال، أكثر مما كان يخطر في بالها.

وقد أمسك عدد من الأطفال بساعدها بحيث بدوا حولها أشبه بسحابة مستديرة من الغبار، بينما اتخذوا طريقهم إلى غرفة صفهم عند أحد أطراف المبنى، نظرت إيلي إلى المكان الذي كانت تقف فيه نانديتا مع جماعتها الأخرى من الأتباع الصغار. "هل أبدأ أولاً بتدريس الصغار؟" نادت. "ثم أقوم بمقابلة النساء بعد ذلك؟"

"أكيد. على أن أقوم ببعض العمل المكتبي في أيّ حال، لقد طلبتُ اللقاحات هذا الأسبوع، وإني أريد التأكد من وصولها سوف أرسل راكاش كي يخبر النساء بأنك قد أتيتِ اليوم".

"تأكدي من أنه يقوم بإخبار رادها،" قالت بينما هي تفتح الباب الخشبي الأزرق الذي يقود إلى غرفة الصف الضيقة. "لقد كانت بالفعل تعاني من فترة صعبة للغاية عندما رأيتها في المرة الأخيرة. وإنني أرغب في متابعة حالتها هذا اليوم".

كان الهواء حاراً في داخل الغرفة. فتحت إيلي الشباك الوحيد، وقامت بتشغيل المروحة الكهربائية المثبتة على الطاولة. "لم يكن صفكم ينعقد خلال الأسبوع الماضي؟" وجهت سؤالها إلى الصف الذي حيّاها بكورس يقول: "كلا يا مِسّ".

"إذن إن آشا لم تكن تجمع الصف؟" وآشا المذكورة هي فتاة خجولة قروية في التاسعة عشرة من عمرها، كانت قد أنهت دراستها الثانوية، وقد تعاقدت نيرال الآن معها كمعلمة للأطفال الصغار.

"كلا يا مِسّ".

"حسناً، سيكون عندنا إذن كثير من العمل الذي سنعمله". نظرت إلى الصف الذي يستوعبِ تلامذة من عُمر الرابعة حتى عمر الثانية عشرة. قامت

بتصنيف الأطفال وفقاً لمهاراتهم في القراءة، وبدأت مع المجموعة الأولى. بعض الأطفال كانوا يتعلمون الألفباء، وبعضهم كان يستطيع القرءة بمفرده؛ والقلائل من التلامذة الأذكياء هم الذين كانوا قادرين على فهم النصوص الواردة في كتب العلوم والتاريخ التي كانت قد اشترتها لهم. رفعَت آنو التي هي واحدة من أكبر البنات في الصف يدها وطلبت السماح لمجموعتها العمل على تركيب لعبة الأحجية بينما تنهمك إيلي مع الأطفال الذين هم أصغر منها. تردّدت إيلي، فهي لا ترغب في إضاعة المزيد من الوقت الثمين الذي يجب أن ينصرف إلى نشاطات القراءة، لكن النظرة المسترحمة التي تجلت على وجه آنو، جعلتها تقول لها نعم. "عشرة دقائق فقط على الأحجية". متجاهلة تأوهاتهن واحتجاجاتهن. "ثم نبدأ القراءة".

وبعد ساعة ونصف، دخلت آشا غرفة الصف، ووقفت في قاعتها، طريقة إيلي لإعلان انصراف الصف. "حسناً"، قالت لهم. "عسى أن أراكن جميعاً يوم الأربعاء".

مشت هي وآشا من داخل الغرفة المكتظة إلى ضوء النهار المشرق. لمَ لم ينعقد الصف في الأسبوع الماضي؟" سالتها إيلي.

نظرت آشا مطرقة نحو قدميها اللتين يغطيهما الغبار، "لقد كنا منشغلين جداً في الصف المتعلق بتعليم الوقاية من مرض الإيدز، مسّ،" غمغمت.

تباً. لقد نسيَت هذا الأمر. فالأسبوع الماضي كان في الأساس مخصصاَ للتثقيف حول مرض الإيدز، ولقد كانت نانديتا شديدة التلطّف معها عندما لم تأتِ على ذكر هذا الأمر.

"هلاّ بدأنا بجولاتنا، مسّ؟" سالتها آشا "هنالك الكثيرات من السيدات اللواتي ينتظرنك اليوم".

"بالطبع"، أجابت إيلي "لكن اسمعي هل وجدتِ رادها؟ لقد كانت هنا منذ أسبوعين. أحتاج إلى إنفاق المزيد من الوقت معها". وكانت رادها قد جاءت إلى العيادة وهي تحمل فوق بشرتها الغامقة اللون، تواقيع تدل على استعمال زوجها العنف معها، تلك العينان الكبيرتان الفاحمتان اللتان تلتمعان بأدمع لم تذرف، رغم علمها أن مثل ذلك العمل سوف لن يتسبب سوى في زيادة صعوبة عيش هذه الفتاة.

"إنها تخشى المجيء إلى العيادة، مسّ، وهي تقول إن علينا أن نذهب نحن لزيارتها في منزلها".

نظرت إيلي إلى ساعة يدها. "حسناً، لنستمع أولاً إلى النساء اللواتي ينتظران في العيادة. وإني سأبذل جهدي لإبقاء بعض الوقت الذي نصرفه في

زيادة رادها بعد ذلك".

كانت الساعة قد قاربت الثالثة والنصف عندما انتهى العمل في العيادة. وكالعادة، غادرت إيلي المبنى بعد أن باتت طاقاتها مستنزفة بطريقة لم تحدث لها مرة حتى ولو صرفت نهاراً كاملاً في المكان الذي كانت تقابل فيه مرضاها في آن آربور.

فمشاكل النسوة في جيربوغ بدت لها عسيرة جامحة – فهنالك أمهات الأزواج، المعدمات، اللواتي يتطلبن المزيد من المهور من الفتيات الفقيرات اللواتي يتزوجن إلى عائلاتهن؛ وهنالك الأزواج المحبطون الذين يقومون بضرب الزوجات والأولاد بشكل روتيني، وكل ذلك من أجل التنفيس عن إحباطاتهم الناتجة عن كونهم مضطهَدين من مُلاَّك الأراضي الذين لا يعرفون الرحمة، وكذلك من مقرضي الأموال؛ وهنالك مشكلة النساء اللواتي يلدن ثلاث بنات على التعاقب فيصبحن منبوذات من المجتمع؛ وهنالك مشكلة النسوة اللواتي يبلغن سن الكهولة فيبكين على الدوام من دون سبب واضح يبرر البكاء، ويقضين أيامهن في حزنٍ وفتور، الأمر الذي تشخّصه إيلي على أساس أنه مرض اكتئاب.

وكانت إيلي ترى نفسها على الدوام في حيرة من أمرها حول النصيحة التي يمكن لها أن تسديها إلى هؤلاء النسوة. ذلك أن جميع النصائح التي كانت توصي بها مريضاتها المتوسطات السن، من الطبقة الاجتماعية المتوسطة، واللواتي كّن في معظمهن من ذوات البشرة البيضاء، في ميتشيغان، بدت كلها مدعاة لاستثارة الضحك، فماذا عساها تستطيع أن تنصح تلكم النسوة بالعمل؟ أتقول لهن عليكن بالذهاب إلى المنتجع الرياضي لمحاربة الاكتئاب؟ أتنصحهن بتناول عقار البروزاك وهنَّ لا يملكن حتى ثمن الخبز الجاف؟ أتقوم بنصحهن بالانضمام إلى مجتمعات "آل آنون"(*) كي يتعلمن قبول الأشياء والسلوكيات التي لا يملكن لها تغييراً؟ إن أولئك النسوة تعتبرن بحق رائدات في الإذعان والقبول. فهنّ قد تقبَّلن موجات الجفاف والطوفان والأوبئة والأمراض والجوع. وما هو جدوى الطلب إليهن تغيير أساليبهن الخاصة في السلوك؟ كما أنه لا يوجد ملاجئ للنساء المعنَّفات يستطعن اللجوء إليها، كما لا يوجد ذلك البرنامج المؤلف من اثنتي عشرة خطوة، الذي يمكن إدخال الأزواج إليه. وكذلك لا يوجد مؤسسات اجتماعية تعمل على مساعدة النسوة المنحرفات عن السلوك المقبول اجتماعياً، وعليه، فإن إيلي كانت تكتفي على الغالب بالاستماع. وبينما هنَّ تسردن كروبهن، فإنها تكتفي بالإيماء برأسها فيما هي تصغي إليهن بتعاطف واهتمام، كما أنها قد تقوم بالتربيت على أكتافهن وضمّهن إليها بحنان عندما تكون إحداهنّ تبكي أو تلعن زوجها وحظها. لقد أقنعت نفسها أن إعطاء هؤلاء النسوة، ما لا يراه أحد يتعدى ما

تعطيه علاقة - الأخت – والزوجة، إنما هي فرصة لهنّ للتنفيس، وبالتالي فإن لها من الفائدة ما لها، وكانت من مرة لأخرى، تقوم باقتراح تعديل بسيط في السلوك، فلا يكون منهنَّ في معظم الأحيان سوى إخبارها عن الأسباب التي تجعل تلك الاقتراحات غير مجدية. ولكن يحدث في بعض الأحيان أن تعود امرأة أو أخرى في الأسبوع التالي برواية عن نجاح طفيف، شاكرة إيلي على اقتراحاتها. وهذه الانتصارات الضئيلة، كانت إيلي تعتاش عليها بقية الأسبوع.

وها هي الآن تترنح إلى خارج العيادة برفقة آشا التي تقوم بدور المترجمة. ضيَّقت جفنيها بمواجهة وهج الشمس على الطريق الجاف الأغبر الذي امتدّ أمامهما، فبرغم المطرة الأخيرة، فإن الأرض بدت عطشى وجافة على جاري عادتها اين هو مسكن رادها؟" سألت.

"لقد صرنا على مقربة منه"، قالت آشا.

وكالمعتاد، أُعجبَت إيلي ببساطة ونظافة الأكواخ الطينية التي يجاور بعضُها بعضاً، بينما هما تدخلان الحي الرئيسي في القرية. كان ثمة عدد قليل من الكلاب التي تضطجع على أجنابها تحت ظل شجرة كبيرة واقعة بالقرب من تجمّع للبيوت، لكنها اكتفت برفع رؤوسها والتثاؤب براحة لمرور المرأتين وهما تعبران بالقرب منها. هنا استعادت إيلي قول نانديتّا لها – كم أن الفقر في القرى يبدو أنظف من الفقر في المدن - فكلما تذكرت الأزقة التي كانت قد شاهدتها خلال زيارتها إلى بومباي، وجدت نفسها توافق على ملاحظة نانديتّا. وكان لبيت رادها سطح تقليدي عشبي، وهو أحد الأسطح القليلة من هذا النوع. فمعظم السطح البيوت المحيطة ببيتها يغلفها غلاف معدني، الأمر الذي يرفع درجة الحرارة في داخل البيوت أكثر بكثير من العشب المبرِّد. لكن آشا أوضحت لإيلي أن الأسطح العشبية تحتاج إلى استبدال في كل سنة وأنه في السنوات القليلة الأخيرة، لم يكن العشب لينمو بالكثرة المعتادة. وكان ثمة دجاجات قليلة تنكش بمناقيرها قرب أقدامهما عندما قرعتْ آشا الباب. صوت ضعيف استجاب لهما من الداخل طالباً منها الدخول، باللغة الهندية. قامتا بفتح الباب المصنوع من قصب البامبو ودلفتا إلى الداخل.

كان البيت معتماً من الداخل - شأنه في ذلك شأن الكثير من سواه في القرية، فبيت رادها خلوّ من الطاقة الكهربائية. لذلك، فإن قنديل زيت كانت شُعلته تشتعل أمام الفتاة التي أقعت في جلستها على الأرض، الأرض التي علِمَت إيلي أن القرويين يمدون فوقها فرشة من التراب المجبول بروث البقر. وبالرغم من العتمة التي تسود الغرفة، فقد شعرت إيلي أن الفتاة تبدو الآن أكثر بؤساً مما كان عليه حالها منذ بضعة أسابيع. "مرحباً يا رادها"، قالت آشا، فردت الفتاة قائلة. "مرحباً، وأهلاً بكما" بينما هي تنهض عن الأرض. كان صوتها بليداً، وحركاتها بطيئة.

تناولت إيلي يد الفتاة وشدت عليها مسلمِّة، فلاحظت وجود الكدمات على ساعدها. "تفضلا بالجلوس"، قالت رادها بينما هي تشمل بنظرتها آشا وإيلي معاً. وهكذا جلست النسوة الثلاث على الأرض، جلست كل من رادها وآشا القرفصاء بينما جلست إيلي متربعة. "كيف حالك يا رادها؟" سألت إيلي، وترجمت آشا سؤالها.

وجواباً على السؤال، أخفضت رادها الجزء السفلي من ثوبها (الساري) وفتحت زرّاً من أزرار بلوزتها بحيث تستطيع المرأتان الأخريان رؤية علامات العنف على صدرها، ابتلعت إيلي شهقة الروْع التي كادت أن تثب إلى شفتيها، وبدلاً من ذلك سألتها. "هل هو معتاد على ضربك دائماً يا رادها؟ ومنذ متى انتما متزوجان؟" جالت بنظرها في أرجاء الكوخ. "من الذي يسكن هنا أيضاً؟"

"لقد تزوجنا منذ أن كان عمري ست عشرة سنة"، أجابت الفتاة باللغة الهندية. "وكان زوجي لطيفاً معي في السنوات القليلة الأولى من زواجنا. وبعد ولادة طفلي، كنا نعيش عيشاً سعيداً". أطرقت بوجهها. "ولكن ماذا علينا أن نفعل؟ فهو قد فُصل من وظيفته منذ ستة أشهر، ونحن الآن نعيش دون مورد رزق، وكل يوم يذهب للتفتيش عن الأوراق، لكن الحراس يقومون بمطاردته بعيدا".

"أي حراس؟ وما هو العمل الذي يعمله في الحياة؟" سألت إيلي مندهشة لشلال الكلمات المفاجئ الذي اندفع من فم رادها. نظرت نظرة المتوقِّع إلى آشا، منتظرة قيامها بترجمة كلمات رادها، لكن آشا بدت مرتبكة على غير سجيتها، "إن كلامها هراء في هراء، مِسّ"، قالت مغمغمه.

"رويدك"، قالت إيلي. "أريد أن أعرف ما الذي قالته رادها، وإلاّ فإننا لن نتمكن من مساعدتها، أنستطيع؟"

استمرت رادها بالكلام، ونقّلت آشا نظرها بسرعة بين المرأتين قبل أن تترجم ما سمعَت. "تقول إن زوجها اعتاد أن يقوم بجني الأوراق عن شجرات الجيربال، إذ من عادته أن يجمع منها حزمة، ويقوم ببيعها إلى القرويين الآخرين في القرى المجاورة، مسّ"، قالت. "فالقرويون قد اعتادوا على صنع لزقة من معجون تلك الأوراق، بغرض التداوي بها، لكن الشركة الآن تقول إن تلك الأشجار صارت الآن ملكاً لها وليس لأهل القرية. لقد وُضعت إشارات كبيرة تقول ’أملاك خاصة. ممنوع الدخول‘. لذلك فإنه يحاول اللجوء إلى سرقة بعض تلك الأوراق في غفلة عن الحراس، لكنهم عندما يجدونه يقبضون عليه ويوسعونه ضرباً. والآن بات يخشى العودة إلى مكان الأشجار. وهكذا لم تعد تجري أية نقود بين أيدي هذه العائلة، وذلك بالإضافة إلى أن الناس يقعون مرضى بسبب عدم حصولهم على لزقة الأوراق المذكورة".

شعرت إيلي أن صوت ضربات قلبها قد ارتفع. "ما هو اسم تلك الشركة"؟ ولكن قبل أن تستطيع آشا الجواب أكملت، "هي شركة هيربال صوليوشينز، أليس كذلك؟"

أخفضت آشا رأسها. "أجل، مسّ"، قالت بكل بساطة.

ورغماً عن إرادتها، وجدت نفسها تسأل، "هل - هل هي تعلم أن زوجي - يعمل من أجل هذه الشركة؟"

كانت آشا تقوم بمداعبة ثنية ثوبها الساري في ارتباك. "هذا ما لست أدري به، مسّ".

حدقت إيلي نحو شعلة مصباح الكيروسين مدركة أن راداها تنظر إليها، منتظرة منها أن تتكلم. كان ثمة طعم مرٌّ في فمها. على من تضحكين؟ قالت لنفسها. تدّعين مساعدة هؤلاء الناس بينما مجرّد حضورك، وربما حتى وجودك، يتسبب لهم بالأحزان والمآسي؟

فُتح الباب، ودخل منه رجل طويل معروق الجسد، وله شاربان كثيبان متدليان. لاحظت إيلي أن عينيه قد استلزمتا برهة من الوقت قبل أن تتمكنا من التعوّد على ظلمة الغرفة، لكن نظره وقع عليهنّ. ثم ما لبثت ملامح النشاط أن بدت على وجهه فجأة. استدار نحو رادها وتكلم معها برشَقٍ من الكلمات الهندية السريعة الغضبوبة، وهو خلال كل ذلك لا ينفك عن الحملقة في إيلي. استجابت له رادها بصوت ثقيل بليد، محدِّقة في الأرض طيلة الوقت. استغلّت إيلي فرصة هذا التبادل الكلامي لتهمس إلى آشا، "أهذا هذا هو زوجها؟" فأجابتها آشا بإيماءة من رأسها أن نعم.

لكن الرجل يجب أن يكون قد سمعها لأنه الآن بدأ يتهددها ويتوعدها، وكانت أنفاسه ثقيلة ومتقطّعة. بدأ يهزُّ سبابته وهو يتكلم إلى آشا بفيض من الكلمات الغاضبة، كلمات لا بد لها من أن تكون قاسية ومؤلمة بدليل أنها جلبت التجهُّم إلى وجه آشا الذي هو في العادة وجه رائق هادىء، حاولت أن تقاطعه عدة مرات، لكنه كان يُخرسها وهو يومئ إليها بضراوة، إلى أن استسلمت آشا، وسكتت في نهاية المطاف. وبقي الرجل متابعاً على ما هو عليه دون توقف، وكانت تفلت منه بين آونة والخرى كلمة تفهمها إيلي. فلقد اعتقدَت أنها سمعَته يقول كلمة "شركة" وكلمة "بوليس". وبعدما انقضت فترة من السأم بدت لا نهاية لها، كان لا بد له من السكوت في نهاية الأمر. إلا أن نظرات عينيه بقيت وحشيَّة على حالها. رانَ على الغرفة فترة صمت وجيز. ثم إذا به يقول لـ: آشا "بُوْلُوْ" فيما هو يشير بذقنه نحو إيلي. هنا فهمت إيلي أن معنى كلمة "بُوْلُوْ"، لا بد من أن يكون: "تكلمي"، أي إنه يريد من آشا أن تقوم بترجمة كلامه.

لكنها لم تشأ أن تعطيه ذلك الاكتفاء. نهضت على قدميها، وأمسكت آشا من معصمها. "هيا بنا يا آشا"، قالت لها، "لنذهب الآن"،

"اذهبا، اذهبا"، قال الرجل، بعد أن فهم معنى كلام إيلي باللغة الإنكليزية. ثم قام عامداً بتثبيت نظرة مباشرة إلى عينيها وقال لها: "أميركا، عودي إلى بلادك".

تجمع حشد صغير خارج كوخ رادها، لكن أحداً لم يفُه بكلمة فيما كانت آشا وإيلي تنسحبان. حتى جماعة الأطفال، وطيور الدجاج باتت حبيسة الصوت. مشت المرأتان في سرعة وصمت إلى أن خرجتا من منطقة التجمُّع الكثيف للبيوت. ورغم ذلك، فقد كانتا لا تزالان تستطيعان سماع صراخ الرجل منبعثاً من مدخل بيته. شعرت إيلى بوخزة من الخوف لأنها تركت رادها لوحدها مع هذا الزوج الغضوب، لكنها ما لبثت أن علَّلت نفسها بأن الجمع المحتشد لا بد له من أن يتدخل. وهنا تبادر إلى ذهنها أن هذه استراتيجية قد تستطيع تعليمها للكثيرات من نساء القرية اللواتي هن ضحايا العنف المنزلي - استراتيجية تقوم على مبدأ الحضور لنجدة بعضهنّ بعضاً. ولكن هل يستطعن؟ وهل يرغبن؟ تساءلت في سرّها.

صارتا الآن على مسافة آمنة من البيوت. استدارت نحو المرأة الشابة التي تسير خلفها، "آشا، أريدك أن تخبريني بكل ما تفوّه به الزوج. أرجوك لا تخجلي مني، فإن ذلك لن يؤذي مشاعري، أعدُك. فاصدِقيني".

لم تبدُ آشا شديدة الاقتناع. "إنه رجل معتوه، مسّ"، بدأت كلامها، لكنها عندما لمحات الأثر على وجه إيلى، فإنها ما لبثت أن توقفت. ثم بدأت من جديد. "إنه يقول إن الشركة قد دمرت حياته مرتين - أولاً سلبته مورد رزقه الآتي من بيع الأوراق، وكذلك قتلت أعزَّ أصدقائه عليه. وهو يقول إن أناند، الشاب الذي قتله البوليس، كان صديقه الأعزّ منذ يوم ولادته. ولهذا، فإنه يمقت الشركة". بدت آشا مضطربة ومرتاعة كما لو أنها هي الشخص الذي أتى بهذه العبارات والعواطف.

"تابعي كلامك" قالت إيلى. "قولي لي كل شيء"

"ليس هناك المزيد مما أقوله، مسّ. يقول إنه لا يريدنا أن ندخل مرة ثانية إلى بيته. فالشعوب الإنكليزية لا يأتي منها سوى الكوارث حيثما حلَّت - سواء في العراق، أم في جيربوغ".

"أوه، عفوك"، قالت إيلى، "إن ذلك نوع من المبالغة".

"ولم تكن آشا أليفة مع هذا التعبير. "عفواً، مس؟"

هزّت إيلى رأسها، "لا يهمّ. أخبريني، هل - هل يشعر بقية أهل القرية الشعور نفسه بالنسبة إليّ" أدهشها أن يغدو صوتها مرتجفا."

كل النساء يحببنك، مسّ"، قالت آشا بتوق. "إنهن يقلن إنكِ تساعدينهن. ولكن منذ وفاة أناند، بات هنالك الكثير من الغضب، إن الناس يقولون إن حياتنا لا تعني شيئا لهؤلاء السادة الكبار، ونحن قد اعتدنا استعمال شجرة الجيربال طيلة حياتنا، مسّ، فنحن نغلي أوراقها كالشاي، كما نصنع منها اللزقات. وبعض الأناس الآخرين يقومون بمضغها، إنها أشجارنا، مسّ كيف يمكن لشركة أن تأتي وتشتري أشجارنا؟"

كانت إيلى صامتة، فهي لا تدري كيف تجيب ذلك السؤال. فهي غير قادرة على إخبار آشا أنها كانت قد وجهت هذا السؤال نفسه إلى فرانك

لامست آشا كتف إيلى. "ذلك الرجل أبله تماماً"، قالت. "وعليكِ البقاء معنا، مسّ".

سمعت إيلى في صوت المرأة الشابة رغبة في الاسترضاء والتهدئة، وآنست روح الضيافة وكرم الأخلاق البسيطة التي عرفتها في من قابلتهم من أبناء الشعب الهندي. ابتسمت. "لست مغادرة إلى أيّ مكان"، قالت بهدوء. "فلا تقلقي أبداً".

كانت نانديتا تسرع الخطوات نحوهما عندما اقتربتا من مجمّع العيادات.

"ما الذي جرى؟" قالت لهما. "لمَ لم تخبريني أنك تريدين الذهاب إلى منزل رادها"؟ بدت غاضبة.

"واوو، يبدو أن الأنباء تسافر بسرعة في هذه المناطق"، قالت إيلى. ثم استدارت نحو آشا لتقول: "شكراً لكِ على كل مساعدتك لي هذا اليوم يا عزيزتي، لقد عملتِ بكل جدّ، هلاّ رأيتك يوم الأربعاء؟

"حسناً، مسّ"، قالت آشا "عمتما مساء" ألقت لمحة في اتجاه نانديتا وأومأت برأسها، ثم مشت مبتعدة برشاقة."

"ما الذي حصل". كررت نانديتا سؤالها، حالما صارت آشا بعيدة عن السمع.

"سأخبركِ بعد قليل. لكن أيمكننى أن أحصل على فنجان من الشاي أولاً؟"

لا بد أن نانديتا قد سمعت شيئاً ما، في صوتها لأنها باتت جزِعة على الفور. "طبعاً. تعالي".

وفي مكتب نانديتا الصغير، نفخت إيلى في فنجان شايها الساخن الذى حصلت عليه في طريقها إلى المكتب المذكور، ارتشفت منه رشفات قليلة، محاولة إبقاء مشاعرها تحت السيطرة قبل أن تخبر نانديتا عن اصطدامها بزوج رادها. وعندما فرغت من روايتها، نظرت نانديتا إليها دقيقة وافية ثم تنهدت بصوتٍ عالٍ، "إنني شديدة الأسف يا إيلى. إنني لا أعرف ماذا كان في أيدينا أن نفعله من أجل منع هذا الذي حصل".

"لا تكوني سخيفة"، قالت إيلى محتجَّة، "ليس لك شأن بكل الذي حصل يا نان". أغمضت عينيها لحظة، محاولة استجماع أفكارها، "إنني لا أعرف حتى من ألوم بسبب هذه الورطة. إنني أعرف بِّيت تيمبرلايك، الرجل الذي قام بتأسيس هيربال صوليوشنز. لقد عرفتُه منذ سنوات. لقد ذهب هو وفرانك إلى الجامعة معاً. إن بِّيت رجل رائع. ولا بدّ من أنه سيحزن لو درى بمدى الحزن الذي جرّه إلى حيوات الأناس من أمثال رادها وزوجها. إذا كنت أعرف بِّيت حقاً، فإن كل ما قد عرفه هو أنه قد اشترى مجموعة من الأشجار التي لا يريدها أحد، وهي أشجار بدا أن لها خصائص سحرية تساعد الأميركيين في التداوي من مرض السكري. ومع ذلك، ولأنني التقيت رادها وسواها، فإنني شديدة الغضب أن يقوم أناس مثلهم دائماً حسبما يبدو، بدفع أثمانٍ لجهل شخص ما، سواهم".

"لكنها ليست حالة معزولة، إيلّ"، قالت نانديتّا بلطف. كان صوتها مكبوحاً، كما لو أنها تمزق بين رغبتها بعدم جرح مشاعر صديقتها، وبين رغبتها في قول الحقيقة. "إن للغرب تاريخاً منكراً من -"

"أعرف ذلك. بحق السماء، يا نانديتا، أتعتقدين أنني لا أعرف ذلك؟ حتى هذا الرجل المسكين الجاهل الذي هو زوجها قد أورد بعض الإشارات إلى تورُّطنا في العراق. وليس ثمة شيء أستطيع قوله له. عدا عن أنني لست خنزيرة أمبريالية قذرة، ولا أعتقد أن زوجي هو كذلك أيضاً. وإنني في كل جزء مني قلقة بسبب ما تفعله بلادي في العراق مثل قلق كل واحد منكم".

باتت على وشك البكاء الآن، وكان جسدها يرتجف لتذكُّرها الاحتقار الذي بدا على وجه الرجل حالما دخل إلى البيت ووجدها تجلس على الأرض بقرب زوجته. فكلماته الاتهاميّة الغاضبة، والنظرة الخجلة المرتبكة التي ظهرت على وجه آشا عندما أجبرتها إيلى على ترجمة العواطف، مما خطر في بال إيلى بعد ذلك، أن آشا أيضاً قد تكون متفقة مع العواطف التي أبداها الرجل.

"مهلاً مهلاً"، قالت نانديتا وهي تستدير حول المكتب وتخفض هامتها حتى تتمكن من معانقة إيلى. "دعينا من هذا الآن. لا يمكنك العمل في نيرال إذا

كان جلدك رقيقاً إلى هذه الدرجة. لا أحد يلومك بسبب هذا الموقف يا إيلّ. إن هذه المسألة هي أكبر من أيٍّ إنسانٍ بعينه".

لكن الخليط المعقّد من الشعور بالذنب، ومن الدفاع الذي تلاه، قد تعقَّبا إيلى في تلك المساء إلى منزلها، ففي طريق العودة بالسيارة أطبق على المرأتين صمت تام، إذ كانت كل منهن غارقة في أفكارها، وقد أصاب إيلى صداع رهيب عندما خرجت من سيارة نانديتا ودلفت إلى بيتها كي تنتظر عودة فرانك إليه.

(*) (Al Anon) برامج تعنى بتنظيم لقاءات/ اتصالات جماعية بين المستوحدين، وهي معروفة في الولايات المتحدة وكندا. (المترجم).

الفصل 8

عند الساعة السادسة بالضبط من الصباح التالي، كان ثمة خبطة مترددة على الباب، قفز فرانك على قدميه وفتح الباب بسرعة قبل أن يتمكن راميش من الطرْق عليه مرة ثانية "شـ شـ ش" قال هامساً وهو يرفع سبابته إلى شفتيه. "إن إيلى نائمة، وعلينا التزام الهدوء". قاد الولد عبر غرفة الجلوس ثم إلى الشرفة، فتح الباب الخشبي المؤدي إلى الدرج الذي يقود إلى المساحة العشبية التي هبطا إليها. كان الصباح ممتعاً بشمسه الخجولة ونسيمه العليل الذي ينساب من جهة البحر. أما شجرات النارجيل المهيبة الباسقة فكان لأوراقها حفيفٌ وسط تلك النسيم، لكن فرانك وراميش كانا في شاغل عنها وعن سماعها. دغدغت قطرات الندى العالقة بالأعشاب كواحل أقدامهما بينما هما يتحركان بسرعة إلى يسار الباحة الأمامية التي ما لبثا أن انحدرا منها عبر الدرجات السبع إلى الشاطئ الرملي، انحنى راميش والتقط حصاة، وهمّ برشق غراب ينقب بمنقاره شيئاً ما داخل كيس ورقي بنيّ ملقى على الرمال. "هاي". قال فرانك رافعا ذراعا رادعة. "دع تلك الحصى من يدك".

"إنني أكره الغربان"، أجاب راميش. وكان هذا فارق كبير بين راميش وبين باني – فالأخير كان يجعل لنفسه من مداواة السناجيب والطيور المريضة هماً دائماً، هو يريد أن يجلب معه إلى البيت كل جرو كلب، أو جروة قطة تصادفه. أما أسلوب راميش تجاه العالم الطبيعي فقد كان أكثر منفعية.

"وفي كل حال"، تابع فرانك كلامه. "أنت هنا لتتدرب بحيث تستطيع أن تصير عضواً في فريق كرة القدم العائد لمدرستك، صحيح؟ أم تُراك تريد أن تكون بطل إيذاء الغربان بدلاً من ذلك؟"

لقد نجح هذا الأسلوب مع الفتى، إذ سرعان ما رمى راميش الحصاة من يده. وهنا سمح فرانك لنفسه بتلقّي تربيته خيالية بين كتفيه. لقد بات يعرف

التكوين السيكولوجي لهذا الولد جيداَ، عرف كم أن راميش مختال بنفسه ويحب المنافسة عندما يأتي الأمر إلى التميُّز في المدرسة وفي الرياضة.

"وماذا سوف نفعل هنا؟" سأل راميش.

"أولاً، عليك أن تقوم ببعض التمارين لعضلات الذراعين والكتفين"، قال فرانك، "انتقل الآن إلى المنطقة المسطّحة من الشاطئ الرملي - فهناك سيكون التمرين أكثر سهولة عليك. أوكي. هكذا".

لاحظ الانتفاخ الصغير لعضلات راميش المثلثة الرؤوس، بينما هو يرفع ويخفِض نفسه. إن هذا الصبى قويٌّ، قال في نفسه، وشعر بنوع من اعتزاز الأهل بولدهم، كما لو أن هذا الجسم العضلي لهذا الولد قد تحدَّر إليه من جيناته هو بالذات.

"حسناً"، قال: "هل أنت الآن جاهز لتمرين الهرولة؟ لننطلق".

لقد بدا الصبي يلفت انتباهه منذ سنة مضت، بعد أن مرَّ على انتقاله هو وزوجته إلى جيربورغ أربعة أشهر. كان اليوم يوم أحد، وكانت إيلى موجودة خارج البيت مع نانديتّا. وكان هو في غرفة النوم يأخذ قيلولته عندما كدّر نومه وقعُ طابة متكرر على الطريق خارج شبّاكه. ومن وقت لآخر، كان صوت رفيع يصرخ "هدف!" تقلّب وتلوَّى لدقائق قليلة وهو يعضُّ على نواجذه من الإحباط، وأخيراً رمى عنه الأغطية وقفز من سريره. تحرك بسرعة عبر غرفة الجلوس والمطبخ، ثم قام بفتح الباب الذي يقود إلى الفناء الخارجي الذي يفصل المنزل الرئيسي عن كوخ الخدم، دفع بوابة الخشب الصغيرة، ثم ذهب إلى الطريق الداخلي وهو لا يزال حافي القدمين، وليس عليه من الثياب سوى قميص تي شيرت أبيض، وسروال قصير، وكان راميش يعدو على طول الطريق وهو يطبطب أمامه على كرة، ومن وقت لآخر يقوم بوثبة ويقذف الكرة إلى وسط سلّة وهمية.

"هاي"، صرخ به فرانك. وعندما لم يسمعه الولد، "هاي، يا أنت". تذكَّر الآن اسم الصبي، "أنت يا راميش. توقف عن هذا".

سمع الولد اسمه، فجمد في مكانه، محتضناً الكرة براحتيه، فيما عيناه واسعتين مذعورتين. تنبَّه فرانك إلى أنه قد روَّع الصبيّ. ويقينه هذا، طرح منه كل غضب. مشى إلى الصبي وقال له بصوت أكثر هدوءا، "إننى كنت أحاول الرقاد، لكنك أيقظتني". قلَّد حركة طبطبة الكرة. وبقي الصبي دون حراك. "أوه، لقد نسيت"، قال فرانك كأنه يخاطب نفسه. "إنك لا تعرف أيَّ إنكليزية، صحيح"؟ فالمرات القليلة التي كان قد صادف فيها راميش، إنما كانت فيما هو بصحبة والده براكاش، الذي كان يكلمه باللغة الهندية، فيما الابن يقوم بمساعدة الأب في أرجاء الفناء الخارجي.

وكان على وشك الاستدارة للانصراف عندما قال الولد، "بل إنني أتكلم الإنكليزية بطريقة حسنة، هذا ما يقوله الأستاذ، فأنا الأفضل في صفي".

ابتسم فرانك. "أتستطيع ذلك؟ إذن إنك تذهب إلى المدرسة؟

بدا الولد مغضباً. "نعم، بالطبع أذهب إليها".

بعض تعبيره الصادر عن شعور بالمهانة، جعل فرانك يضحك، ذكّره ذلك بالنظرة التي كان يلبسها باني عندما يقوم هو أو إيلى باستثارة غيظه. "حسناً، وهل أنت تلميذ نجيب؟" قال.

"إننى الأفضل فضلاً في صفي". [the bestest].

"نقول: الأفضل في صفي، وليس الأفضل فضلاً".

هنا رمى الولد الكرة وشد عضلات ساعديه بادياً كأنه ملاكم مهزول. "لكنني أفضل من الأفضل"، صاح. "نعم، إنني الأفضل فضلاً".

يبدو أنه ولدٌ صيَّاح، صار فرانك يضحك الآن "صحيح؟ وما هي أفضل المواد عندك؟"

لم يرَ الولد حاجة للتفكير في الإجابة. "إنها الرياضيات"، قال معلناً.

"كانت هذه هي المادة المفضلة لديَّ أيضاً عندما كنت في المدرسة"، قال فرانك. "وماذا أيضاً؟ ماذا عن القراءة والكتابة؟"

زمّ راميش وجهه "إنني أمقت الجغرافيا. كما إنني أجد أن القراءة والكتابة يدفعانني إلى الضجر". أشرق وجهه. لكنني أحب التاريخ، والرياضة".

"أي نوع من الرياضة؟ أتحب الكريكت؟"

"نعم أحب الكريكت، لكنني أحب كرة السلة أيضاً، أتعرف ميشال جوردن؟"

بالطبع إني أعرف ميشال جوردن"، أنزل فرانك هامته حتى صار تقريباً عند مستوى عيني الصبي. "ولكن هل لي أن أقول لك سراً؟ إنني أفضل من ميشال جوردن"

. توسعت حدقتا راميش. تقول إنك أفضل من ميشال جوردن؟ "أخذ نفَساً، وبات صوته مبحوحاً بسبب الشعور بالعجب. حدّق نحو فرانك فيما عيناه تفتشان وجهه. "كلا"، قال في النهاية "هذا مستحيل".

تظاهر فرانك أنه صار غاضباً. "تقول هذا مستحيل؟" انتصب واقفاً أقصى علو قامته. لكن الأفعال تستطيع أن تبرهن الأقوال يا ولد"

"هل تقبل التحدي"، قال راميش.

"تتحداني؟" مشى فرانك على مهل إلى الكرة والتقطها بسرعة، وقام بالقفز إلى حافة السلّة الوهمية. "هل رأيت؟ أرأيت جمال تلك التسديدة؟ وتلك؟ وتلك؟"

بات راميش يطلق صيحات طويلة حادة من شدة الفرح بينما هو يحاول إخراج الكرة من سيطرة فرانك. وتظاهر فرانك أنه يدافع عن الكرة إلا أنه تخلّى عنها للولد في ثوانٍ قليلة. "ويحي، إنك فعلاً جيد في اللعب".

بدا راميش شهماً متسامحاً، "لنر أيها أفضل عشر ضربات، أفضل عشر ضربات، أفضل عشر ضربات"، صرخ. أشار إلى شجرة متوسطة الحجم إلى جانب الطريق، "صوِّب على قمة هذه الشجرة، والذي يكون أول من يصيبها عشر مرات يكون هو الفائز".

إذن هذا ما كان الولد يفعله بينما كان هو يحاول أن ينال قسطاً من النوم. هنا تذكر قاعات كرة السلة، الحسنة الإضاءة التي كان يلعب فيها عندما كان مراهقاً في غراند رابيدز، كما تذكّر السلة التي كان ينصبها في أعلى المرآب في آن أربور، وهذا ما جعله معجباً بمهارات راميش المستميتة. وعند ذلك أيقن أن لا فكرة لديه عن مقدار ما يتوفر بين أيدي والدي راميش من نقود - فقد وجدهما بكل بساطة متواجدين مع البيت الذي قامت الشركة بتوفيره، وكانت شركة هيربال صوليوشنز تدفع أجريهما عند قدومه. وكان قد قرَّر أن يقوم بتعزيز راتبيهما بشيء من الإكراميات العارضة من هنا ومن هنالك. كما عزم أن يكون أول ما يفعله صباح غدٍ هو إرسال ساتيش ليشتري شبكة تصلح للعب كرة السلة ليقدمها هدية إلى هذا الصبي.

كان راميش يشدُّ بأطراف قميصه الـ: تي شيرت ليستلفت انتباه فرانك. "هل أنت خائف؟" قال.

"أنا خائف؟" عرَّ فرانك بصوته في غضب ساخر، ثم انتزع الكرة من يدي راميش. "لست أنا من يخاف". نهض على قدميه الحافيتين، وقام برمي الكرة عالياً بحيث إنها لامست قبة الشجرة. ثم التقط الكرة وأعاد الكرَّة مرة ثانية. ولكن قبل أن يستطيع وضع يده على الكرة مرة أخرى، فإنه شعر بمرفق قاسٍ يلكزه في خاصرته. "واوو"، قال بلهجة عاويَةٍ. "لماذا، أيها الغشاش الصغير القذر". ثم تظاهر بأنه يقوم باحتضان خاصرته المصابة بينما قهقه راميش في فرحه وأطلق أربعة رميات متعاقبة.

والآن، وبعد أن عرف مدى قدرة راميش على المنافسة، فإنه خاطب نفسه مدركاً أنهما ما لم يتوقفا عن الهرولة، فإنه سيكون أول من يناشد الآخر بأن يقوما بالتوقف. لقد كان أداء الصبي جيداً، إذ إنه لم يتخلّف عنه مرة

منذ باشرا الجري على طول الشاطئ، لكن أنفاسه باتت تصبح مبهورة أكثر فأكثر، وكانت حبات العرق تتفصَّد من وجهه. كما أن راميش كان يعدو عاري القدمين، لأنه خلع نعليه البلاستيكيين عند أسفل درجات البيت الحجرية، المؤدية إلى الشاطئ. "أين هو حذاؤك الرياضي الذي اشتريته لك في الشهر الماضي؟" سأله فرانك لاهثاً.

"قال والدي إنه من الجدَّة بحيث لا يجب التفريط به، بانتعاله إلى الشاطئ.

راود فرانك شعور الغيظ الذي اعتاد الإحساس به كلما فكَّر في أمر براكاش. إنها نصيحة حمقاء نموذجية. "أريدك أن تنتعله عندما تقوم بالجري. مفهوم؟" قال له. "فهو سيساعدك على سرعة الجري".

أطلق عليه راميش نظرة مختالة. "إنني أركض بسرعة حتى من دونه".

ربَّت فرانك على ظهره بلطف. "ذكي جداً". ثم توقف. "حسناً. دعنا الآن نعود، عليّ أن أكون في عملي، وعليك الذهاب إلى مدرستك، وإني لا أريدك أن تتأخر".

هزَّ راميش كتفيه لا مبالياً. "إنني أستطيع أن أجري أكثر فأكثر".

"أجل، أعرف ذلك". ألقى أنظاره إلى مشرق الشمس التي بدأت تسخّن النهار، وقام بمسح العرق عن جبينه."لكن عليك بالشفقة على رجل مسن، أوكي؟"

"ليكن ذلك"، قال راميش، "سنتوقف." تناول يد فرانك كما لو أنه يساعد عجوزاً في عبور الشارع.

كانا قد ابتعدا جداً عن المنزل، لذا، لم يشعر بأن عليه أن يأبه بشأن شعور إيلى، أو براكاش بالغيرة بسبب حقيقة مشيه على الشاطئ وهو ممسك بيد راميش. كانت قبضة راميش على يده أشدّ من قبضة باني ومختلفة عنها، لكنها جعلته يفتقد ولده الميت افتقاداً حاداً كاد يخنق أنفاسه. ولكن مع كل ذلك، فقد كان شعوره بالإمساك بيد طفل من جديد أمراً جيداً. ذلك أن شيئاً ما، هدا، وتراخى في داخل فرانك، كما أنه أيقن كم أنه كان يحمل نفسه محمل التشدّد منذ وفاة أناند، ولقد كان شاكراً مصادفته لراميش بالأمس في الفناء الخارجي، حيث اقترح عليه هذه الرياضة الصباحية.

وبينما قفلا عائدين إلى البيت مشياً، فإن فرانك قرر العودة إلى عادته الأولى بمساعدة راميش في دروسه، إذ لا يجب أن يعاني هذا الولد بسبب اضطرابات سلوك الراشدين المحيطين به.

وبعد ساعات قليلة التقط فرانك سماعة الهاتف ليخابر بيتر تيمبرلايك من مكتبه. إذ إنه لم يشأ أن يمرَّ يوم جديد يقوم بالتصرف فيه دون أخذ موافقة بيتر على الرضوخ إلى بعض مطالب العمال. لقد كان يأمل في أن لا يكون بيتر شديد التصلّب، ولكن بشكلٍ ما، فإن شعوراً كان يخالجه بأن ذلك لن يحدث. لقد شعر بيتر بالذهول عندما اتصل به فرانك ليعلمه بوفاة أناند وما تبعها من تداعيات غاضبة. "يا لله"، قال لاهثاً، "كيف حصل ذلك بحق السماء؟"

وبينما هو يقوم بترقيم أرقام المفتاح الدولي الهاتفي للولايات المتحدة، وجد أصابعه تقوم بترقيم رقم سْكُوت بدلاً من رقم بيتر. وسْكُوت مضارب مالي، يعمل في وول ستريت، ويثق فرانك ببصيرته كرجل أعمال، ثقة كبيرة، إلى درجة هى أكبر من درجة ثقته ببيتر، وبالإضافة إلى ذلك، فإنه كان أيضاً بحاجة إلى مساعدة أخيه للتدرب على يده على ما عليه أن يقوله من كلمات بالضبط، لبيتر عندما يتكلم معه.

قال سْكُوت: آلوّ؟"

أجاب فرانك: "هاي بُّوسُّومْ، كيف حالك؟"

"جيدة، مرحباً بك يا سْكوِيد. ما هو الجديد عندك؟"

كانا قد درجا على مخاطبة كل منهما للآخر بهذين اللقبين منذ مدة طويلة، ولم يعد أيٌّ منهما يتذكر منذ متى، أو لماذا وقع اختيارهما على هذين اللقبين. شعر فرانك أن عضلات عنقه تسترخي بعد أن سمع صوت أخيه الجهوري العميق. "إنني لا أستطيع التحدث لمدة طويلة، إذ إن عليَّ أن أكالم بيتر قبل أن يصبح ثمِلاً هذه الليلة. كيف تسير الأمور معك؟ وكيف هي والدتنا؟"

"إنها على ما يرام. تقول إنها حاولت الاتصال بك هذا الأسبوع، فلم يكن رقمك يجيب. وفي كل حال، لقد اصطحبتُها إلى العشاء ليلة أمس. وأخيراً تمكنتُ من التعرُّف على بارني الغامض". فبعد أن بقيت والدتهما لوريتّا ممتنعة عن مواعدة أي رجل منذ سنوات عديدة أعقبت وفاة والدهما، فها هي اليوم تواعد رجلاً يعيش في البناية السكنية التي تسكنها، ولم يستطع سْكُوت ولا فرانك التكيُّف تماماً مع هذا التغيُّر الأخير في الأحداث معها.

"كيف هو؟ وهل يقوم بمعاملتها معاملة حسنة؟"

"إنه متيم بها – أما هي - فتبدو سعيدة كما لم أرها مرة من قبل".

تضاحك فرانك، "يا إلهي! انتظر حتى أُخبر إيلى".

"وكيف حال إيلّ؟"

"هي في حال طيبة. وفي معنويات عالية".

مرت لحظة صمت وجيزة."هل علاقتكما على ما يرام؟"

زفر فرانك زفرة طويلة: "نعم، طبعاً، المسألة تقتصر على أن الأشياء هنا قاسية في الوقت الحاضر يا سْكُوت. وفي الحقيقة، وإذا كنتَ تستطيع توفير دقيقة من وقتك لي، فإنني أرغب استشارتك في أمرٍ ما".

"تابع حديثك".

"حسناً، لدينا موقف هنا حيث يتعلق بذلك الشاب – الذي كان دأبه إثارة المتاعب قليلاً. فهو من صنف القيادات العمالية. وكما جرت الأمور، فإننا رتبنا أمر إلقاء القبض عليه. وإني أعتقد أن أحد رجالنا أخبر البوليس من أجل، أنت تعلم أن يقوموا بكسر شكيمته قليلاً، لكنهم ذهبوا في هذا الأمر إلى درجة بعيدة أو شيء من هذا القبيل، وهكذا مات هذا الشاب بينما هو معتقل عندهم و—"

"يا للقذارة المبجَّلة".

"تماماً، ولا حاجة بي للقول إن مشاعر الجميع قد التهبت، وإنني لست أدري الآن، لأن الموقف الإجمالي هو موقف متفجّر".

"أشير عليك". كان باستطاعة فرانك أن يقول إن سْكُوت غارق في التفكير، إذ كان باستطاعته أن يتصور هيئته بعينيه المغمضتين، وجبينه المجعَّد. "هل قمت بتقديم بعض العروض للعائلة؟"

"فعلنا ذلك، أرسلنا لوالدة الشاب شيكاً بقيمة عشرة آلاف روبيّة، لكنها رفضت قبوله. لقد قالت إن هذا إساءة لذكرى ولدها".

"عشرة آلاف... وكم هي تساوي؟ حوالي المئتي دولار ليس كذلك؟ حسناً، إنني لا أستطيع أن ألومها على ذلك، بل إني لو كنت مكانها سأشعر بالإهانة أيضاً". تنحنح سْكُوت - "الحقيقة يا عزيزي، هي أن شركتكم تحقق أرباحاً محلّقة. فأنا أتابع جداول الأسهم كلَّ يوم. واعتقد أنه يمكنكم أن تكونوا أكثر كرماً، أليس كذلك؟ ثم ما هي مطالبهم بالضبط؟"

"إنها المطالب التقليدية – رفع الأجور، وتمديد فترة الاستراحة اليومية. أشياء من هذا القبيل".

لست أرى ما هي المشكلة في ذلك. لهذا عليك التسليم ببعض هذه المطالب يا سكويد. أعني إنكم في موقف يصعب العناد فيه والدفاع عنه".

أصابت الدهشة فرانك إلى درجة وجد فيها أن عينيه تطفران بالدمع. تشبَّث بسماعة الهاتف، وهو لا يجرؤ على الكلام. أمَّا سْكُوت فقد بدا منطقياً وهادئاً ومسؤولاً كعادته. تذكَّر فرانك ذلك اليوم الذي أعقب جنازة باني، عندما طلب سْكُوت منه مرافقته إلى الغداء. ولكن بدلاً من الذهاب إلى الغداء، فإن سْكُوت قاد السيارة إلى حديقة عامة كبيرة حيث تمشيا معاً لمدة ساعتين وكلاهما تقريباً صامت صامتاً تاماً، وفي طريق عودتهما، وأثناء وجودهما في السيارة، استدار سْكُوت لمواجهة فرانك، وكانت عيناه ثابتتين على وجه أخيه الأصغر. قال له:"سوف تستطيع تجاوز ذلك، أعرف أنك تعتقد أنك لن تستطيع ذلك، لكنك ستستطيع".

"ألا تزال على الخط معي؟" قال سْكُوت الآن.

"نعم"، قال فرانك هامساً وهو لا يجرؤ على التفوه بالمزيد.

"أصغِ إليّ. أطلب بيتر الآن وقل له – لا تطلب منه، بل قل له - إنك سوف تعطيهم جزءاً من مطالبهم. فأنت المسؤول الميداني هناك، والمسؤولية تقع على شخصك مباشرة، وليس على شخص بيتر، وعليه فإنك من يصنع القرار، مفهوم؟

"إننى بشوق إلى الوطن"، خرجت الكلمات رغم إرادته. "إنني فقط - أفتقد ـ أنت تعرف، أفتقد الحياة في الولايات المتحدة".

"إذن، لمَ لا تعودان. كم ستبقيان هناك أنت وزوجتك في كل حال؟"

"لست أدري حتى تصبح الأمور مستقرة، حسب افتراضي. كما أن إيلى أحبت الحياة هنا. لقد كوَّنت لنفسها حياة هنا يا سْكُوتى. بينما أنا"، فاضت عيناه بالدمع من جديد، "لا أدري ما إذا كنت سأجد نفسي في بيتي في أي مكان من العالم، من جديد، يا سْكُوت". صار الآن ينشج بصمت وقوة."آه، يا إلهي، سْكُوت، لست أدري ما الذي يصيبني، لقد أملتُ في الحقيقة أن يكون وجودي في مكان جديد عاملاً مساعداً لي على الشِّفاء. ولكن كلما اعتقدت أنني أصبح في وضع أحسن، وأنني أتجاوز محنتي بفقده، فإنني – أفتقده من جديد يا سْكُوت. أشعر أنهم قاموا بدفني إلى جانبه. إنني أحاول جهد استطاعتي، لكنني لا أعتقد أن الأمور تصبح أخف وطأة عليَّ".

فرانكي"، قال سْكُوت، وقد صار حتى صوته هو أبّحَّ. "فرانكي، لا -"

"إننى لا أجد مفراً من تذكُّر الأشياء، أشياء من شكل الوبر الناعم الذي كان يغطي ساعديه، وكيف كان يبدو شعوري كلما لامسته. أو ذلك النتوء الذي كان له في صدغه، أتتذكر؟ منذ ولادته. وتلك الضحكة ذات الصوت الرفيع،

التي كانت له؟ أتذكُر كيف كنت تلعب معه تلك اللعبة السخيفة عندما كان شديد الصغر يا سْكُوت ي؟"

"توقف عن هذا. لا تفعل ذلك بنفسك، يا عزيزي".

لكنه لم يستطع التوقف، فهو قلّما يتكلم عن باني، وسْكُوت هو أحد القلائل الذين يثق بهم للإفضاء إليهم في ما يتعلق بالذكريات العائدة إلى باني. كما أن سْكُوت واحدٌ من القلائل الذين يعرفون كم أن هذه الذكريات مقدسة وغالية، وكم أن أي عبارة خاطئة قد تؤدي إلى استثارتها. قال: "ليس في وسعي الكلام مع إيلى عن هذه الأشياء، لست أدري لماذا ـــ يشهد الله أنها تحاول جهدها، لكنني لا أستطيع يا سْكُوت. أظن أنني ما زلت ألومها بسبب إهمالها. لو أنها فقط ـــ".

"فرانكي، هذا هراء، هي لم ترتكب أيَّ خطأ، لقد قال الطبيب إنه لم يكن ثمة وسيلة ممكنة لها لتعرف، لقد سمعتُه يقول ذلك بنفسي. وفي كل حال، ماذا يفيد قيامك بتوجيه اللوم إليها بالنسبة إلى ثبات زواجكما؟"

"حسناً، إنها هي أيضاً تلومني، سحقاً، ففي الأسبوع الماضي قامت باتهامي بأنني أستعمل راميش - الابن الصغير للعائلة التي تخدم منزلنا وتعيش معنا، يا سْكُوت - قالت إنني أستعمله من أجل نسيان باني بواسطته". هنا شعر بموجة جديدة من الغضب عندما تذكَّر كلمات إيلى.

"فرانك، إيلى هي زوجتك. وهي تجلُّك وتهيم بك. وهي كل ما أنت تملكه. والعكس صحيح".

سُمعت طرقة على الباب، وقبل أن يتمكن من الاستجابة لها دخلت سكرتيرته."ليس الآن"، صاح بها من فرط شعوره بالخجل لأنه ضُبط في حالة شعثاء. "كم مرة ينبغي لي أن أقول لكم أيها الناس؟ ألاّ تدخلوا عليَّ قبل أن آذن لكم بذلك".

سمع سْكُوت يشهق على الطرف الثاني من الخط الهاتفي، حتى في الوقت الذي قرأ النظرة المذعورة البادية أمامه على وجه ريكها قبل أن تلملم نفسها في سرعة إلى خارج الغرفة. "مهلاً، مهلاً"، سمع سْكُوت يدمدم له.

تجَالدَ للسيطرة على عواطفه. "آسف"، قال في نهاية الأمر. "لقد فقدتُ السيطرة على أعصابي للحظة".

"فرانك، أصغ إليّ. هذا ما عليك أن تقوم به. أولاً، عليك بخنق هذا النزاع العمالي في مهده. أصلح الأمر - أصلحه بسرعة. هذا هو الواجب الأول المتعلق بالعمل - ثانياً عليك بالخروج من البلدة لبضعة أيام، خذ إيلي واذهبا

إلى مكانٍ ما، إنك ستصاب بانهيار عصبي لو استمريت على هذا المنوال يا عزيزي".

شعر بوضوح وتصميم أكبر من ذي قبل عندما أعاد سماعة الهاتف إلى مكانها. قام من فوره بترقيم رقم هاتف بيتر خائفاً أن يفقد شيئاً من تصميمه لو قام بتأجيل هذه المكالمة. والذي سكّن من روعه، أنه وجد بيتر أكثر إذعاناً لإبرام تسوية؛ فالأخبار التي وردت إليه عن وفاة أناند كانت قد أقلقته إلى درجة فاقت توقعات فرانك.

رفع نفسه عن كرسيه، أقفل السمّاعة، وفتح باب مكتبه. كانت راكها وراء منضدتها "آسف لأنني رفعتُ صوتي عليكِ"، قال لها، "لقد كنت... كنت وسط مكالمة هاتفية تتعلق بالعمل، شديدة الأهمية، أتدرين؟ لكن رغم ذلك، لم يكن لي أن أرفع صوتي عليك".

بدت راكها مستعيدة ارتياحها جداً، وتوّاقة لإشعاره بالسرور، ولقد حرَّك فيه سلوكها رغبة في البكاء. إنك مهزوز، قال لنفسه. لقد روَّعت الفتاة فعلاً "إني آسف لما جرى"، قال من جديد قبل أن يتخذ لنفسه طريقاً إلى خارج المبنى.

كان العمال يستريحون في فترة النصف ساعة المخصصة لاستراحة الغداء، عندما وصل إلى المصنع. وصلت إلى أنفه الرائحة الحرّيفة للأوراق المسحوقة الأشجار الجيربال، فور دخوله. تنشق نشقة قوية ومشى إلى المكان الذي يوجد فيه ديشباند، رئيس العمال. كان الأخير يجلس مستنداً إلى إحدى الماكينات. نهض الرجل الذي كان يتناول غداء بسيطاً محلياً على قدميه عند ما رأى فرانك يقترب منه: "أسعد الله مساؤكم يا سيدي"، قال في لغة إنكليزية ثقيلة.

"ومساؤكم أيضاً"، قال. ومن طرف عينه استطاع أن يرى العمَّال يحدِّقون نحوه، "انتبِهْ داشّ.. لديَّ لكم أخبار طيبة. لقد قررتُ رفع أجر جميع الموظفين بواقع روبيَّتين كل يوم، ابتداء من الأسبوع القادم. كما سنقوم بمنح ربع ساعة إضافية من الراحة تضاف إلى استراحة الغداء اليومية. مفهوم؟" انتظر مستقرئاً شعور الغبطة على وجه الرجل، لكن وجه داشّ لم يُبدِ أيَّ تعبير يا له من وغدٍ ملعون ذي وجه لا معبِّر، جال في ذهن فرانك.

وأخيراً تكلم داشّ، مخفضاً صوته."علينا أيضاً أن نعرض مبلغاً محترماً على والدة أناند يا سيدي. فهذا من شأنه أن يساعد كثيراً على إنهاء التوتر".

ولدهشته، أيقن الآن أن رئيس العمال كان يكلمه كلام الند، كما لو أنهما يتفاكران معاً في استراتيجية عمل. ويبدو أن هذا الشاب، في نهاية المطاف، مهتم بشأن العمل والمكان، جال في ذهنه. وقد وجد فرانك تلك البادرة

تلامس الوجدان بشكل غريب، سرى في بدنه شعور بنشوة الحماس، قال: "أقول لك ماذا، أترك لك اقتراح المبلغ الذي تجده أنت عادلاً. سأترك هذا الأمر لك". وقد كافأه الرجل بابتسامة خجولة.

انتظر داشّ حتى خروج فرانك من المصنع قبل أن يقوم بإبلاغ الخبر السعيد إلى الآخرين، وبينما كان فرانك يتابع طريقه في الخارج سمع صوت الرجال الذين ينفجرون بالهتاف والصفير. ابتسم لنفسه، وعندما بلغ مكتبه لم يتملك نفسه عن التفكير بأنه قد تجاوز منعطفاً.

وفي تلك الليلة كان لفطيرة الدجاج طعم مميز. "كيف يقوم بطهوها"؟ قال فرانك بصوت لاهث. "أعني أن الرجل يبدو في مظهره أشبه بشخصية هاودي داودي [١]، لكنه يطبخ كأنه وولف جانغ بَّكّ" [٢].

قهقهت إيلى. "إنه يشبه قليلاً شخصية هاودي داودي، أليس كذلك؟"

صحيح يشبهها. وعليه أن يعلِّم راميش كيفية الطبخ. فهي مهارة جيدة إذا ذهب الصبى في يوم ما، للدراسة في الولايات المتحدة".

"أتعتقد حقاً أن راميش كفوء إلى هذه الدرجة؟" سألته إيلى. "أي هل يستطيع الاعتماد على نفسه في الولايات المتحدة؟"

تريّث قليلا ليتحرّى وجود أيّ عدوانية أو سخرية في صوتها، فقرّر أن لا شيء من هذا القبيل يبدو له. "أعتقِد أن هذا الصبي باهر يا إيلي"، قال لها. كان صوته مخلصاً وهادئاً ورصيناً. "ومع وجود النوع الصحيح من الوالدين، فلم يكون سقف نجاح هذا الصبي أدنى من السماء -".

لكن هذه هي المسألة، يا عزيزي "قالت إيلى. "فوالداه رغم ذكائهما، هما كناية عن أم مذعنة، ووالد يبدو أنه يهتم لأمر الكحول أكثر من أي شيء آخر. وهذه هي الأوراق المتوفرة لهذا الصبي كي يلعبها".

ليس إذا قمتُ بلعب دور أقوى في حياته"، هذا ما كان فرانك يودّ قوله. "وما كنت سوى لأفعل ذلك لو لم يكن عليَّ التلفُّت إلى ورائي لأعاير ردود أفعالِك طيلة الوقت". لكنه ابتلع كلماته حتى قبل أن ترتسم على شفتيه. ابتلعها مثلما ابتلع كلمات فكرته اللاحقة لما سبقها: كيف يمكن أن تكون إيلي امرأة ليبرالية في ما يتعلق بالقضايا العالمية – كحقوق المرأة، وواجب الدول الغنية في مساعدة الدول الفقيرة، وحتى في ما يختص بما ينبغي عمله في شركة هيربال صوليوشينز - لكنها تصبح مع كل ذلك مسلوبة وضيقة الأفق عندما يأتي الأمر إلى حلِّ المشكلة الوحيدة التي يستطيعان حلّها في الواقع – مشكلة مساعدة طفل فقير من أجل الوصول إلى أقصى إمكانياته؟

أحسَّ فرانك قرصة صغيرة على كتفه. "هاي، يا أنت"، قالت إيلي. "انني ما زلت هنا. إلى اين تسرح؟"

شعر من فوره بالذنب بسبب أفكاره الحقيرة، إذ منذ ذلك المساء الجميل في منزل نانديتا، فإن الأشياء بينه وبين إيلي قد غدت حلوة، وهو لم يكن راغباً بتعطيل سير العربة. وفي الليلة الماضية بالذات كان قد نام معها للمرة الأولى منذ أسابيع، ولم تكن مقاربة كل منهما للآخر في تلك الليلة تتسم بذلك الحذر الذي تسرب فيما بينهما منذ وفاة باني. لقد غفا بعد علاقته معها مسروراً لأنهما لم يفقدا بعد، ذلك السلك الكهربائي بينهما، فها هما لا يزالان قادرين على إقامة علاقة فراش حارة كما لو أنهما لا يزالان في الخامسة والعشرين.

"أنا هنا، يا عزيزتي"، قال مبتسماً "كنت أفكر - حول ما إذا كان يحسُن بنا الخروج معاً إلى مكانٍ ماء يوم الأحد؟ فلربما ينفعنا الخروج من هذا المكان لبضع ساعات".

إنها فكرة جيدة. لقد افتقدتك خلال هذا الأسبوع. وكنت تعمل لساعات متأخرة بحيث إنه انتابني قلق عليك". ضغطت على يده. "هل أقول لك ماذا. ما رأيك لو جهزنا حاجاتنا وذهبنا إلى مسبح جميل على الشاطئ؟ ألا يروق لك ذلك؟"

ابتسم مبديا موافقته، لكنه ما لبث أن وجَم، بعد أن صدمته فكرة.

"ما الأمر؟" قالت إيلى.

"لا شيء. لا شيء سوى أنني وعدتُ راميش أن أمضي معه يوماً كاملاً على الشاطئ قريباً. لذلك، فإننا إذا عزمنا على ذلك، لن يكون بمستطاعنا إخباره أننا ذاهبان. صحيح؟"

بدا وجه إيلى غامضاً "حسناً إذن"، قالت، ثم ما لبث ذلك الصمت الأخرق المغيظ أن تسرّب بينهما من جديد.

"حسناً"، قال في سرعة. في الحقيقة. ما كان عليَّ حتى الإتيان على ذكرِ هذا الوعد، فالأمر كله يتعلق فقط بكون ذلك الولد شديد الحساسية، وبرغبتى في عدم إيذاء مشاعره. ولكن ما دام أننا لن نخبره ــــ"

حسناً، نستطيع القيام باصطحابه معنا"، قالت إيلى. "ذلك يحل المشكلة، أليس كذلك؟ أترغب في أن نفعل هذا؟"

أيرغب في ذلك؟ بالرغم من أقصى جهوده لإبقاء وجهه غامضاً، شعر فرانك أن ملامح وجهه تشي بالتهابه بمشاعر الفرح. ومن نظرته إلى وجه

إيلي، عرف أنها قد لاحظت ذلك أيضاَ، الأمر الذي أشعره بالخجل. لكن الواقع بات يفرض نفسه. ففكرة جعل راميش ينضمُّ إليهما جعلت النزهة المقترحة أكثر مدعاة للمتعة، على الفور، فوجوده هو وإيلي فقط على الشاطئ سيكون أمراً جميلاً، إلا أن إمكانية الوقوع في التصرفات الخرقاء، أو حتى في المنافرة، تبقى إمكانية تخيّم بظلِّها فوقهما بشكل دائم. أما وجود راميش، فمن شأنه أن يبعث الحياة في أحداث النهار، لن تكون ثمة مساحات للصمت، ولا للمحادثات المأزومة، ولا للتجنب المحسوب للموضوعات التي قد تُفْلِتُ صِمام الذكريات الأليمة.

كانت إيلي تحدِّق بصحن عشائها، متناولة بشوكتها القطعة الأخيرة من طبق فطيرة الدجاج، الذي هو أمامها. شعر فرانك أنها تتشاغل عنه بدافعِ التلطُّف، شاعرة بالتعاطف معه نظراً لارتباكه، ولانكشاف حاجته لهذا الولد الصغير. كما عرف أن سؤالها الذي طرحته لم يكن سوى نوع من الاختبار.

قرر أن إنقاذ زواجه هو خيرٌ له وأبقى من الإبقاء على وعد تافه كان قد قطعه لراميش. كما تذكَّر ملاحظة أخيه سْكُوت حول أن إيلي هي الشيء الأثمن في حياته. "انتبهي"، قال لها لننسَ حتى أنني قد أتيت على ذِكر راميش. لنذهب أنت وأنا بمفردنا ونمضي معاً وقتاً طيباً، أتوافقين؟"

مرَّت برهة بدت فيها إيلي وكأنها قد وقعت تحت إغراء هذا العرض. ثم نهضت والتقطت الصحون الفارغة من على المائدة، وقالت: "ليس هنالك من بأسٍ يا عزيزي. يمكنك أن تدعوه، فأنا أعرف أنك تكون أكثر سعادة لحضوره هناكَ معنا - وبتلك الطريقة، لا تكون قد حنثت بوعدك له"، قالت في عجل. قبَّلت مؤخرة رأسه بينما هي ترفع الأطباق لتحملها إلى المجلى.

مكث على كرسيّه وحيداً إلى جانب المائدة، شاعراً أنه قد فشل في الامتحان أمامها رغم إعطائه الجواب الصحيح لها، ولكن، وفيما هو يقوم بتوبيخ نفسه، فإن ثمة شعوراً نحيلاً ثاقباً كان يخترقه. ولقد ميَّز ذلك الشعور على أساس أنه ترقُّب حول فكرة تمضية نهار كامل على الشاطئ في صحبة راميش.

---

(١) شخصية كاريكاتورية في برنامج تلفزيوني للأطفال. (المترجم).

(٢) مطعم شهير في لوس أنجلوس. (المترجم).

الفصل 9

بدت آدنا شديدة السعادة لفكرة قيام ولدها بالخروج مع إيلي وفرانك، لكن الأمر مع براكاش كان مختلفاً. حضر الرجل عند الساعة التاسعة لتوضيب سلة الطعام الذي كان قد أعدّه لهم للنزهة، وبعد قليل دخل راميش إلى المطبخ. "بابا"، قال الصبي، "إن الماما تريد أن تعرف —"

"اسكت"، قال براكاش بصوت نافخ، صافعاً الولد على قفا رأسه. "ولد غبي. لقد حوَّلت دماغي إلى لبن رائب وأنت تقول بابا كذا، وبابا كذا".

ومن غرفة الجلوس، أبصرا سلوك براكاش، شعرت إيلي بتوتر فرانك. "إذا وضع يده على الصبي مرة ثانية، أقسم أنني سوف أطرحه أرضاً"، قال.

"فرانك، ليس عليك سوى تجاهل الأمر"، قالت له إيلي هامسة. "إنه مجرد – من الذي يدري ما هي مشكلته؟ إنه يتصرف هكذا أمام أعيننا فقط. وفي كل حال، فإننا سنكون خارج هذا المكان في لحظات". وخلال كل ذلك، فإنها كانت تعتقد أنها تدركُ مشكلة براكاش تماما – فالرجل يشعر بالغيرة. يشعر بالغيرة والخجل أيضاً، فبسبب راتبه، إنه لا يستطيع أبداً أن يهيىء لولده نزهة سخيَّة، كما أنه لا قِبَل له بأن يمكِّن ولده من يوم مميز على شاطئ البحر بالأسلوب الذي يستطيعانه هما. وتعجبت مرة جديدة كيف يتحولّ زوجها الذي هو مدرِكٌ متفهّم في العادة، إلى رجل ثقيل الفهم عندما يتعلق الأمر براميش. يبدو أن الولد فعلاً هو النقطة العمياء لديه.

سمعا براكاش يرفع صوته ثانية. "عليك أن ترجع إلى البيت بسرعة مفهوم؟ إن لديك الكثير من الواجبات المدرسية التي عليك أن تعملها. لا تضيِّع النهار بكامله على الشاطئ".

"ولكن يا أبي —" بدا صوت راميش متألِّماً.

وقبل أن تتمكن إيلي من إيقافه، تقدم فرانك نحو المطبخ، قامت باتّباعه، حيث وقفَت في الممر القائم بين غرفة الجلوس والمطبخ. "أنت

تعرف أصلاً أننا ذاهبون لقضاء اليوم بكامله هناك". قال فرانك. "فما هو داعي كل هذه الجلبة الآن؟ وفي كل حال، إن الولد قد أتمَّ جميع فروضه. فما هي المشكلة معك إذاً"

"رفع الطباخ أنظاره في نهاية الأمر. كانت عيناه تلتمعان بالشر؟ بالحقد؟ "لا مشكلة يا سيدي". قال. ثم وبتكشيرة مفاجئة لا تحمل أيَّ ذرة من الفرح فيها، "طاب نهاركم".

حدَّق فرانك نحو براكاش لبرهة أخرى – برهة طويلة جداً، حسبما تراءى لإيلي. ما من حاجة تدعو لإذلال الرجل في حضور ابنه، قالت لنفسها، متمنية أن ينصرف فرانك عمَّا هو فيه، وإلاّ فإنها مستعدة للتدخل. وحالما همَّت بذلك، أفلت فرانك تنهيدة قصيرة واستدار. وهكذا، فإنه لم يرَ - لكن إيلي رأت – النظرة السريعة الغاضبة التي رشقها براكاش في اتجاه فرانك. وفي هذه المرة لم يكن لديها صعوبة في قراءة تعبير وجه الرجل كانت نظرته تدلُّ على كُرهٍ تامّ. وهنا شعرت بهبوط في معدتها.

وكما لو أنه أدرك أنه ضُبط، قام براكاش بتليين ملامح وجهه بدهاء ليلبس فوقه القناع المؤنس إياه، الذي اعتاد أن يلبسه كلما كان يتحرك بجوارهما. "أتريدينني أن أرفق بعض المخللات مع الطعام مدام؟" سأل. "أجل، هلاّ أُرفق شيئاً؟"

"لا شكراً لك،" قالت، فهي لم تستطع أن تتخيل نفسها تخلط المقبّلات الحارة الحامضة مع نوع الطعام الذي كانوا يأخذونه معهم.

"ضع قليلاً منه من أجلي، بابا"، قال راميش حالما مشت هي في اتجاه غرفة نومها لتفتش عن ستارة واقية من الشمس.

"اغلقْ فمك"، سمعت براكاش يقول لابنه بصوت يشبه الفحيح "إنك ولد سيّئ تتسبب بإحراج أبيك في حضور الأجانب". الأجانب إذاً، هذا ما يعتقده عنا. ومع علمها التام بأنها تتصرف بسخف، إلا أنها لم تتمالك عن الشعور بخيبة الأمل.

هذا التفاعل مع براكاش، القى شعوراً مثبِّطاً على روحيهما حالما تحركا نحو السيارة، لكن ذلك الشعور لم يدم طويلاً. "صباح الخير يا ساتيش"، قالت إيلي للسائق الذي ردّ لها الجميل بابتسامة دافئة أصيلة.

"كيف حالكِ اليوم مدام؟ "سألها ساتيش، وقد وقع نظره على راميش. "أهو ذاهب أيضاً؟"

"نعم،" قال راميش. استدار نحو فرانك، "أريد أن أجلس في المقعد الخلفي، بينكَ وبين إيلي".

"حسناَ، هذا جيد، لنأخذ سيارة الكامري إذاَ". قال فرانك ضاحكاَ. نظر إلى إيلي من فوق رأس راميش. "أيناسبك هذا؟" كلمها بتحريك الشفاه فقط، فأومأت هي له إشارة الموافقة.

قفز راميش إلى المقعد الخلفي، "وداعاً بابا، وداعاً ماما،" قال لوالديه، الذين كانا يقفان إلى جانب بوابة الطريق.

"يا لبركة الله"، همس فرانك إلى إيلي قبل أن يتخذ طريقه إلى الباب الآخر للسيارة "يكاد المرء يعتقد أننا ذاهبون لقضاء أسبوع كامل بدلاً من يوم واحد".

وعندما أتمَّ إرجاع السيارة إلى البوابة التي تقع عند بداية الطريق الداخلي، دخل ساتيش في أجواء الأمور، "إنك تجلس في المقعد الخلفي"، قال بنوع من التندّب مخاطباً راميش، "بينما أنا هنا وحدي في مقدمة السيارة، وتتركني دون رفيق، أليس كذلك؟"

"أتريدنى أن أتقدَّم إلى المقعد الأمامي" سأله الولد على الفور. "أستطيع التسلق من فوق ظهر المقعد".

تطلّع ساتيش نحو فرانك وإيلي مستخدماً المرأة أمامه، وضحك. "كلا، لا بأس عليك. إنني أقصد ممازحتك".

"إنني إذن أمازحك ضعف ما تمازحني"، قال راميش، وقد صارت لهجته أكثر خشونة وسلوكه أقلّ تهيُّباً بحضور ساتيش. عجبَت ما إذا كان فرانك قد لاحظ ذلك أيضاً "أنا وأصدقائي الثلاثة المفضّلين (me and my three best friends) نغيظ بعضنا بعضاً بالمزاح طيلة الوقت في المدرسة"، قال معلناً.

"ألك ثلاثة أصدقاء مفضَّلين؟" قالت إيلي، "كيف يمكن أن يكون هذا"

بدا راميش حائراً. "ولمَ لا يكون ذلك ممكناً يا إيلي؟"

"حسناً يمكنك أن يكون لك الكثير من الأصدقاء الجيدين، لكن لا يمكن أن يكون لك سوى صديق مفضل واحد، صحيح؟"

فكَّر الولد في المسألة قليلاً ثم "ولكن إذا كان لي صديق مفضَّل واحد، فماذا يحلُّ بصديقي المفضَّلين الآخرين؟" بدا مغتبطاً جداً بنفسه لأنه استطاع أن يجعل الآخرين يضحكون.

"واوو...... واوو.. إنك مجادلٌ بطل". قال ساتيش.

إنني بطل في الرياضيات، وبطل في كرة السلة، وبطل في التاريخ". "أخبرْه"

إنه على حق"، قال فرانك، "إن راميش بطل في تناول الطعام، وبطل في رواية الروايات، وبطل في حشر أنفه في جميع الأمور".

"هاي"، صاح راميش مسدداً لكمة إلى ذراع فرانك. "توقف عن هذا".

قال ساتيش: "مثل هذه المواهب، يا رامو، تجعلني معجباً حقاً".

قدَّرت إيلي أن الولد صار يحوم بين حدود الضحك والبكاء، وعرفت أنها ما لم تتدخل فإن الرجلين قد يستمران في معاكسة الولد إلى أن ينفجر بينهم، فعمدت إلى تغيير الحديث قائلة: "إذن، إلى أيِّ منتجع ساحلي نحن ذاهبون يا ساتيش؟"

"أتريدون الذهاب إلى منتجع للأجانب، مدام؟" سألها. وعبارة منتجع الأجانب هي التسمية المحلية للشاطئ الذي يشرف عليه فندق شاليمار وسواه من المنتجعات السياحية الحديثة، فكَّرت إيلي أنه لو صادف لهم الالتقاء بكوبل أميركي آخر على الرمال، فسيجدان ان لا بد لهما من الانتهاء في مطعم بنتون لتجانب الحديث. وفرانك لن يحب أن يشرك في يومه أحداً قد ينغص عليه لقاءه مع راميش. بالإضافة إلى أنها كانت تأمل أنه لو أخلد راميش إلى النوم بعد الظهيرة، فإنها قد تستطيع هي وفرانك الخروج بمفردهما للتمشي قليلاً.

"كلا، لا نريد الذهاب إلى منتجع الأجانب"، قالت له. "نريد مكاناً أكثر هدوءاً؟ مكاناً ربما لا يكون فيه سوى حفنة من الأناس المحليين؟"

"لن يكون هنالك محليون سحابة النهار، مدام"، أجاب ساتيش على الفور. "فهم لا يخرجون سوى بعد غروب الشمس"

تذكرت إيلي. إن الهنود لا يحبون اتخاذ الحمامات الشمسية وهم يأتون إلى الشواطئ بثيابهم العادية، رغم أنها صادفت بعض السياح الهنود الأثرياء من الذين يزورون الشواطئ مرتدين سراويل قصيرة وقمصان تي شيرت، ولكن برغم ذلك، فإن نانديتا كانت قد أخبرتها أن هذا ليس سوى من قبيل الظواهر الجديدة.

قاد ساتيش السيارة بهم إلى شاطئ معزول إلى حدٍ ما، تحفُّ به غابة من أشجار النارجيل والصخور العملاقة التي حفرت المياه أقنية فيها عند ملاقاتها للرمال. "هذا مكان رائع"، قالت إيلي في لهجة لاهثة.

"شكراً لك، مدام"، أجابها ستيش. ساعدهم السائق الشاب على حمل كراسي الشاطىء، والمظلة الضخمة الملونة بألوان قوس قزح التي ستحميهم من أشعة الشمس التي تحرق حرارتها الأجساد. قام هو وفرانك

بدقِّ سارية المظلّة في الأرض. ثم نهض ونظر إلى فرانك. قال: "في أيِّ وقتٍ عليَّ المجيء لالتقاطكم يا سيدي؟".

كان هذا هو الجزء المربك دائماً بالنسبة إلى إيلي. فكلما أنزلهما ساتيش مرة في مكانٍ ما، فإنه يختفي بعد ذلك إلى حين استدعائهما له من جديد. وللحظة، تفكّرت بأمر الطلب إلى هذا الشاب اللطيف الانضمام إليهم سحابة النهار، لكنها علمت أن فرانك لن يسامحها إذا دعت ساتيش ليكون دخيلاً على نهارهم. لا، بل الأفضل احتمال الإرباكات المؤقتة التي خبرتها وشعرت بها. ولربما كان ساتيش مسروراً للتحرر منهم واتخاذ نهاره لنفسه. مع أنه ليس لديها أيّ علمٍ عن المكان الذي يذهب إليه. وبالرغم عن إرادتها، وجدت نفسها تتساءل، "ألديك مكان ما، تذهب إليه؟"

"لا مشكلة، مدام"، قال لها. "القرية قريبة جداً من هنا، لدي بعض الأصدقاء فقط هنا، وسأذهب لزيارتهم". كان هذا هو جواب ساتيش النموذجي. فهو حساب ظاهر الأمر، لديه أصدقاء في كل مكان، بما في ذلك بومباي. وقد راود إيلي شك بأنه قد يكون يقول ذلك دائما بدافع التهذيب، لأنه لا يريدهما أن يشعرا بعدم الراحة بسببه. وهي الطريقة المعروفة للذين ليس لهم أشياء كثيرة من أجل حماية أحاسيس الذين يملكون كل شيء.

"أنا جائع"، أعلنها راميش فور مغادرة ساتيش.

"أيها الولد، لقد قالت لي والدتك إنك قد تناولت إفطارك"، قال فرانك. "لا بد أن لديك ديدان في معدتك".

"بل لديَّ شجرة أظافر[1] تنمو في بطني"، قال الولد في لهجة جادَّة.

"لديك شجرة مسامير؟"، سأله كل من إيلي وفرانك في وقت واحد. "أتعني مسامير مثل المسامير الحديدية؟ هل تريدني أن أستخرجها منك بالشاكوش؟" قال فرانك في تكشيرة عريضة.

"كلا، كلا. إنها ليست مسامير حديدية، بل أظافر، مثل أظافر الأصابع". رفع أظافره المقضومة ليريهما. "إنني أقوم بقضم أظافري. وامي تقول أن ذلك سيتسبب لي بنمو هذه الأظافر كالشجرة في معدتي. وربما هذا هو السبب الذي يجعلني آكل كثيراً طيلة الوقت".

"هذا مجرَّد قول شائع"، بدأت إيلي الكلام، ثم فكَّرت في الأمر مرة جديدة. فمن جميع معلوماتها المتوفرة، فإن آدنا على الأرجح لا تؤمن أن ولدها لديه شجرة في بطنه. لكن هذه بلاد تتداخل فيها الحقيقة مع المجاز، والواقع مع الخيال، بل إن الحدود بين هذه الأشياء غير موجودة لأن أشياء غريبة غير معقولة تحدث هنا دائماً. تذكرت المرة الأولى التي قامت خلالها

بزيارة بومباي. لقد شاهدت هناك فيلاً وحيَّة وقرداً في الشوارع منذ ساعة وصولها الأولى إلى المدينة. وكل هذه الحيوانات تتعايش في سلام مع سواها من الحيوانات الميكانيكية - من سيارات الجاغوار، إلى شاحنات الدودج، إلى مركبات فورد موستانغ - الجاثمة في الشوارع. وكانت آدنا لا تكف عن رواية قصتها الغريبة - كيف وجدت عمتها مرة تمساحاً وبقرة يقعان من السماء عندما كان الطقس ماطراً، وكيف أنها وعندما كانت طفلة صغيرة، وأثناء سفرها مع والدها في عربة تجرها الثيران على طريق ريفية في الظلام، قد شاهدت أفعى كوبرا في وسط الطريق. وكيف توقفوا ليشاهدوا بأعينهم كيف أن هذه الكوبرا تتحول إلى أمرأه جميلة ثم تختفي في الغابة القريبة. فلو قامت إحدى مريضاتها في أميركا برواية مثل هذه الروايات أمامها، فإن إيلي لم تكن لتتورع عن إخضاع مثل هذه المريضة لفحوصات تتعلق بمختلف حالات الأمراض العقلية. ولكن هنا في الهند، فإنها باتت تتعلم كيف تأخذ هذه الأشياء أخذاً عابراً، كما أنها بدأت تتأكد من أن الحقيقة هنا هي أكبر بُعداً وتشعُّباً إلى درجة تفوق كل ما هو من عادتها أن تتوقعه في كليفلاند، أو ميتشيغان.

استخرجت شطيرة وناولتها إلى راميش. "هل ستمدُّك[٢] هذه حتى أوان الغداء؟".

نصب رأسه عالياً. "تقولين تمدُّني؟"

"إنه مجرد تعبير دارج"، قالت من جديد. "إنه لا يعني سوى —"

"تايم آند تايد وايْت نُوْ مان" [الزمن والمدُّ لا يتوقفان في انتظار أحد] ترنّم راميش ببطء. وتراءى لإيلي أنه لا يبدو الآن أشبه بشيء، أكثر القول المأثور مِن قبل؟"

كان وجه فرانك لا معبِّراً "أظن ذلك"، قال. "في مرات قليلة". وبعد ذلك بدقائق قليلة، نهض وخلع عنه قميص الـ: تي شيرت حاجباً الشمس لبرهة. "ما دمنا نتحدث عن المدّ، ما رأيك في غطسه سريعة؟" لكز راميش "من يصل آخراً يكون ملوَّثاً برَوْثِ الفيَلَة".

رمى راميش آخر مضغة من شطيرته في فمه، وصرخ بينما هو ينهض على قدميه، ناثراً الرمل فوق البساط. "هاي أيها المراوغ الغشّاش"، صاح مندفعاً وراء فرانك الذي كان يعدو في اتجاه البحر. بدأ بفكّ أزرار قميصه الأزرق القطني فيما هو يهمُّ بتعقُّب فرانك، نظر خلفه في اتجاه إيلي. "إنه يغشّ يا إيلي". ولم يتأخر سوى ثوانٍ قليلة عن فرانك حتى كان يخوِّض في المياه بعده.

تفضت إيلي الرمال عن البساطة ثم جلسات وهي تريح يديها على ركبتيها فيما هي تحدِّق إليهما وهما يتعابثان في الماء، ويتراشقان برشاشه، ويغمُّ كل منهما الآخر فيه. فحتى من تلك المسافة كانت تستطيع أن تسمع صيحات راميش المبتهجة، وضحكات فرانك العميقة. إنه سعيد، فكَّرت في عجب، وأيقنت أن دمعة قد علِقت بعينيها. لقد مرَّ زمن طويل منذ أن كانت ترى فرانك على تلك الحال، فها هو الآن كسابق عهده، شاب، ومرتاح البال، ويمرح مرحاً أصيلاً فالصَّدّفة البشرية العبوس الحذرة، التي تلبَّسته ليلة وفاة باني، بدت الآن تنزاح عنه، كما لو أن مياه البحر العربي تقوم بتعميده على معتقَدٍ جديد. وما همها أكان هذا المعتقَد متقلقلاً، إذ إنه مبني على أساس غير مستقر كعدم استقرار هذا الرمل الذي يتهيَّل من تحتها. كما لا يهمُّ أيضاً أن يكون هذا الدين الجديد الذي يوجده إنما يقوده ولد في التاسعة من عمره. ولد له والدان أخران، هما رغم حدة طبعيهما معه يحبانه كثيراً. ورغم أن هذا الولد ذاته ينتمي إلى والد لا يشعر بالارتياح بسبب ما رأى من اعتداء على سلطاته وصلاحياته، أب أحسّ بوجود فرانك منافساً على الحب اللامشروط الذي ينتظره من ولده.

وفجأة شعرت إيلي بشيء يكسف الشمس كما لو أنه ظلٌّ يحجب نورها، ثم صارت شديدة الإحساس بحضور باني. هبطت معدتها، ولم تتمالك نفسها عن النظر إلى يمينها، نظرة الواثق من أن باني يجلس بقربها. ولكن عندما حدَّقت في المكان، لم تجد قربها أحداً على البساط الأخضر والأحمر، إذ لم يكن عليه سوى فردتي حذاء راميش اللتين خلعهما من قدميه قبيل الاتجاه نحو المياه. ولكنها رغم ذلك، لم تكن بعد قادرة على إزاحة الشعور بأن يأتي يجلس بالقرب منها تماماً "بَنَّ؟" قالت هامسة، مصوِّبة نظرها إلى الأمام هذه المرة، غير عارفة ما إذا كان فرانك يستطيع أن يتبيَّن حركة شفتيها من خلال المسافة التي تفصله عنها، لكنها لم تشأ أخذَ المغامرة. "أأنت هنا يا باني؟"

ولم يُجب سؤالها مجيب، إذ لم يكن هنالك سوى الهدير المنخفض لأصوات العوالم، ذلك الهدير الذي يبدو أكثر قابلية للسمع في أوقات سكون الأيام الصافية على الشاطىء.

كانت ريح الظهيرة تلتمع كأنها نثار الزجاج المحطم. ولكن حتى بعد أن شعرت إيلي بحماقتها، فإنها لم تستطع التخلص من الشعور بأن باني مثل حالها هي، كان يراقب السلوك الغريب للرجل والصبي في الماء. التاع قلبها من أجل ولدها الميت. هل تراه يصدّق أن والده يقوم الآن باستبداله بولد آخر؟ هل تُراه يشعر بالإهمال والتناسي والتجاهل؟ هل هو يشعر بأنه ــــ ميت؟ أم أنه يشعر كم أنه لا يزال يعيش في حدَّة وألم في عقليهما وفي حياتهما؟ هل يدري أنهما يفتقدانه ويفكران فيه مئات المرات في كل يوم،

وأن كلاً منهما يحتفظ بصورة فوتوغرافية له بجانب السرير يقوم بتقبيلها عند فتحة كل صباح؟ هل يدري أن هنالك أطباقاً معيّنة لا يقويان على تناولها حتى هذا اليوم لأنها كانت بين الأطباق المفضّلة لديه؟ هل يدري أن أيًّا منهما ما ذاق طعم البطيخ من بعده، ولا طعم الأرز الصيني المقليّ، وأنهما يقفلان أي محطة للراديو إذا كانت تذيع أغنية "يَلُوْ صَبْمرِّيّنْ" (الغواصة الصفراء]، أو أغنية "أوكتُوبُوسِيْزْ غاردِن" (حديقة الأخطبوط]، وأنهما لا يدخلان أبداً إلى محلات نايْكْ لأن هذه الماركة هي ماركة الأحذية المفضلة لديه؟

شعرت إيلي أن حنجرتها تنقبض عند ما صدمتها فكرة أخرى: أيكون باني، أوه يا إلهي، أيكون باني يعتبرها مسؤولة عن وفاته؟ هل تراه يعتقد - مثلما أفصحت فلتات لسان فرانك العرضية أنه يعتقد - أنها كانت تتصرف كوالدة مستهترة؟ وهل تراه يعتقد أنه سيكون لا زال على قيد الحياة لو أنها أسرعت به دون إبطاء إلى غرفة الطوارئ عند ظهور أول إشارة من إشارات الحمى؟ هل تراه يلقي اللوم على فرانك بسبب غيابه عن البيت إلى تايلاند، بسبب كونه مقتنعاً أن والده البراغماتيكي الذي له نظر ثاقب كنظر نسر، ما كان سوى ليلمح إشارات الخطر القادم في سرعة تفوق سرعة والدته التي هي أكثر انقياداً مع الحياة، وخضوعاً لها؟ ولكن ماذا عن عشرات المرات التي قامت بتمريضه فيها كلما انتابته حمّى أو شكا من آلام حنجرة أو آلام صداع، أو إصابة بالزكام بينما يكون والده غائباً مسافراً؟ وكيف كان يمكن لها أن تدري أن هذه المرّة هي غير سائر المرّات؟ لقد تقيدت بتعليمات الطبيب – إذ قامت بوضع كمّادات مبلّلة على رأسه، كما قامت بإعطائه جرعة من عقار التايلانول المخصص للأطفال، وأعطته حبة بُوبْسِيكِلْ من أجل آلام حنجرته، كما قامت بقياس درجة حرارته كل ساعتين. وأكثر من ذلك قامت بتشغيل بعض الموسيقى المهدئة من الآلة التي تدير القرص المضغوط، في غرفته، كما فتحت الشبابيك للسماح بدخول الهواء النظيف، وجلست قرب سريره ممسكة بيده شارحة له كم هي تحبه. هل تُراه يتذكر كل هذه الأشياء؟ ألا يتذكر هذه المسألة؟ مسالة أنها لم تفارقه سوى بعد أن هبطت حرارته إلى معدلها الطبيعي، وبعد أن أخلد إلى النوم، حيث كان صدره الجميل يعلو وينخفض بهدوء كلما استجرَّ نَفَساً" وأن بشرته كانت ناعمة، ولا شائبة تشوبها، ولم يكن فيها أيٌّ من تلك التبقُّعات التي ما كان منها سوى أن انتشرت بعد ذلك بمجرد ساعات قليلة؟ وأن عينيه كانتا مغلقتين على ابتسامة في نومه، مثل جاري عادته عندما يكون غارقاً في أحلامه الهانئة؟ وأنه كان يشك أصابع يديه فوق صدره وهو غافٍ، وأنها قد لاحظت أظافر أصابعه الجميلة المقلّمة حتى مبلغ التمام، وأن قلبها قد انتفخ بالمحبة لرؤيتها لهاتين اليدين الناعمتين المسمرَّتين كرغيف خبزٍ أملس صغير؟

لقد فعلت كل ذلك وذكرته. تذكرت الصرخة المخنوقة الوحيدة التي نَبَتْ عن باني فأيقظتها من نومتها العميقة بحيث إنها كانت قد صارت في غرفته حتى قبل أن تتيقَّن من نفسها أنها لم تعد نائمة. تذكَّرت إنارتها لمصباح السرير، والاكتشاف الأوليُّ الرهيب للطفح الجلدي، والوجه المتعرّق، والنظرة الشاردة التي ترتسم على محيّاه. والمكالمة الهاتفية المفزعة التي أجرتها مع الدكتور روبرتس. كما تذكرت أطول فترة خمس دقائق في حياتها في انتظار قيامها بردٍّ مكالمتها الهاتفية إليها. وهي فوق ذلك قد استعملت تلك الدقائق الخمس لخلع ملابس النوم وارتداء سواها، نظراً لمعرفتها أن الدكتور روبرتس لا بد له من أن يطلب منها الانتقال بباني إلى قسم الطوارئ.

تذكرت ارتجاف يديها بينما هي تطلب الرقم 911، عندما أجابها ذلك الصوت البارد الهادئ الكفوء لطبيب الحالات الطارئة. تذكرت ركوبها في المقعد الأمامي لسيارة الإسعاف - رغم رجائها لطاقم السيارة بالسماح لها بالركوب في المقصورة الخلفية حيث باني، إلا أنهم لم يسمحوا لها بذلك، مع العلم أنهم علَّقوا إبرة مصلٍ في ذراع باني مذ أضجعوه في سيارة الإسعاف. تذكرت مراقبتها لمبنى مستشفى مُوْتّ للأطفال، إذ تبدّى لها كسفينة فضائية في جوف الظلام لحظة اقترابهم منه. تذكرت كيف أن الطبيب المقيم قد تحدث إليها، طارحاً عليها الأسئلة، وكيف أنه كان يُصدر أوامره إلى الممرضة طالباً منها القيام باستدعاء الدكتور مسعود اختصاصي الأمراض الوبائية، وكيف أن الدكتور مسعود ما لبث أن وصل بعد ذلك بوقت قصير. وبعد أن قامت إيلي بالإجابة عن جميع أسئلته، ما كان منه سوى أن لامس كتفها بلطف. "سوف نبذل جهد استطاعتنا من أجل ولدك يا مسسز بانتون، ونحن نقوم في هذه اللحظة بإجراء بعض التحاليل. غير أني متأكد بنسبة تسع وتسعين بالمئة أن هذه الحالة هي حالةُ التهاب في السحايا. ولم يكن بوسعك عمل أيِّ شيء لمنع ذلك عنه. لذلك فإنني أريدك أن تعرفي أنك لم ترتكبى أيَّ خطأ".

لقد تمنَّت ليلى لو كان يتيسر قول تلك الكلمات لـ: باني الآن، لو كان بوسعها الترافع في قضيتها بينما هي على الشاطىء تحت وطأة وهج الشمس التي تغشِّي الأبصار. لكن الأمر الغريب هو أنها لم تكن لتستطيع الشعور بحضور باني بقربها ما لم تقم بالتحديق مباشرة وبعيداً نحو المياه. فلو أنها التفتت إلى المكان الذي هي واثقة من جلوسه فيه، لما وجدت شيئاً، ولا شعرت بشيء. فهي لن ترى سوى البساط، وسوى الشمس التي تشوي الرمال التي خلّفها راميش عندما قام بخلع نعليه. كل ذلك بالإضافة إلى أنه لم يعد لها من وقتٍ الآن كي تشرح له أيَّ شيء، حيث إن فرانك وراميش قد خرجا الآن من البحر واتجها نحوها، فيما هما يهزان رأسيهما لنفضِ رشاش

الماء عنهما، حتى بديا أشبه ما يكونا بجروين لدى قيامهما بعمل ذلك. ومع كل خطوة كانا يتخذانها، كان شعورها بوجود باني بالقرب منها، يغادرها شيئاً فشيئاً، والآن، صارا ملاصقين لها تقريباً. ومع أن البلل قد جعل لون شعر فرانك الأشقر يبدو غامقاً، إلا أنها لاحظت كيف أنه يلتمع تحت ضوء الشمس. كما لفتتها سحنة فرانك التي يميِّزها الوجه الطويل المزوَّى، والابتسامة الكبيرة العريضة التي تشبه ابتسامة ابنها أيضاً خطف منظر ابتسامة فرانك أنفاسها لأنها رأت فيها الآن للمرة الأولى ما كان يراه الآخرون فيها دائماً من شبه شديد يجمع بينه وبين ابنه باني.

لكن لا وقت الآن للاسترسال في التأمل في هذه الأشياء لأن جسد راميش الأسمر المبلّل كان يرتعش بشكل خارج عن السيطرة رغم أشعة الشمس. ألقت عليه منشفة، لكن فرانك التقطها في سرعة وقام باستعمالها لامتصاص البلل عن جسد الولد النحيف، قبل أن يعود إلى لفِّها حول جسده. وعندما جلسا، أبقى فرانك ذراعه حول جسد الصبي الذي كان لا يزال يرتجف، وكان يحك ظهره من وقتٍ لآخر ليدخل إلى جسد الصبي المزيد من الدفء. تلك الإشارة عادت بإيلي بالذاكرة إلى الأيام التي كان فيها فرانك يحمّم فيها باني، عندما كان لا يزال طفلاً يحبو. كان بُنَ يكره الاستحمام، وكان يصرخ صراخاً منكراً عندما يقوم فرانك بحمله إلى مغطس الحمّام. ولكن ما أن يستقر في الماء، حتى يهدأ. ويبدأ بالضحك وبترشيش المياه من حوله. وفي النهاية يبدو كل من الابن والأب وكأنهما قد غطسا في مياه الحوض معاً، إذ يقوم فرانك المتنقع الذي يتقطّر ماء بتجفيف جسد ولده ثم بنقله ملفوفاً بالمنشفة، إلى داخل غرفة المنامة لإلباسه ثياب النوم.

عجبت إيلي كيف يقوم فرانك الآن بأداء هذا العمل إلى راميش بالسهولة نفسها التي كان يقوم بأدائه بها إلى باني. وطيلة السنتين الماضيتين، كان يخالجها اعتقاد أن فرانك هو الذي علِق في بالوعة الحزن الموحلة، وأنها هي الشخص القادر بينهما على التكيُّف مع واقع خسارتهما لولدهما. أما الآن، فإنها لم تعد متأكدة من ذلك. فبينما هي تجلس على الشاطىء تناجي ابنها المتوفَّى، إذ بفرانك يجد لنفسه ابناً جديداً يحبه.

بعض صدمتها من تيقُّنها الأخير لا بد أن يكون قد بان على وجهها، ذلك لأنها رأت فرانك يتجمَّد فيما هو يقول لها: "إنه يشعر بالبرد". لقد سمعت اللهجة الدفاعية في صوته، كما لو أن زوجها يردُّ عنه تهمة غير معلنة.

"أعرف ذلك"، قالت له بلطف. ثم ابتسمت في وجه راميش الذي كان يرفع جذعه بينهما في غفلة منه عن تيار التوتر الناشئ المفاجئ، ثم أضافت، "ويقولون أن الوجبه المثالية بعد السباحة في المحيط هي رقائق البطاطا المقلية".

"صحيييح"، قال الولد، وتضاحك الجميع. وكان من عادات فرانك دفع قبضة يده في الهواء ابتهاجاً كلما حقق هدفاً في لعبة كرة السلة، وها هو راميش يلتقط عدوى هذه العادة منه.

هاي، إنني جائع، أيضاً. هل لي من شيء آكله؟" قال فرانك.

ابتسمت إيلي. "من ذا الذي نقوم بمخاتلته؟ فأنا أيضاً يمكنني الانخراط في تناول الطعام في هذه اللحظة". فتّشت في داخل سلة الطعام، مستخرجة منها الأطباق التي كان براكاش قد قام بتوضيبها لهم. "واوو، لا بد أن براكاش ظنَّ أننا نصطحب معنا نصف سكان جيربوغ إلى هذه النزهة".

صفَقَ راميش ركبته بكفّه فجأة مطلقاً ضحكة مصوصئة. "تقولين نصف سكان جيربوغ"، قال لها. "إنك مضحكة يا إيلي".

نظر كلٌّ من فرانك وإيلي إلى صاحبه نظرة مستغربة. وفي نهاية الأمر قال فرانك. "توقف الآن عن الضحك والا فإنك ستغص بشطيرتك".

لكن تلك الملاحظة لم تؤدِّ براميش سوى إلى زيادة الاسترسال في الضحك. "تجاهله"، قالت إيلي متمتمة إلى فرانك. "إن ذلك هو أفضل ما يمكن عمله عندما يكونون في مثل هذه الحالة".

لامست يد إيلي شيئاً ليِّناً في أسفل السلة، وبعد أن أزالت رقائق الألمنيوم، وكشفت عن محتويات الصرَّة الصغيرة، فإذا بها ترى مقبِّلات المخلّل التي كان راميش قد طلبها من والده."

"إن والدي لم ينسَ"، صاح راميش في ابتهاج. فتح الولد شطيرته ووزّع المخلّل فوق قطع صلصة الدجاج. ثم قضم منها قضمة كبيرة.

"يُوْخّ"، قال كلٌّ من فرانك وإيلي في وقت واحد.

"هاااهـ؟" قال راميش.

"راميش، هذا فظيع. كيف تفسد نكهة الدجاج بهذا المخلّل؟"

لعق راميش شفتيه."إن المخلّل يجعل طعم الساندويتش لذيذاً وإلا فإنه يصبح لا مذاق له".

أظن أنه لا يختلف عن طعم الخردل فوق الـ: هوت دوغ"، قال فرانك مخاطباً إيلي. أفلتت منه آهة مفاجئة. "يا إلهي. كم أدفع الآن ثمناً الشطيرة هوت دوغ لذيذة؟"

"أأنت تأكل الكلاب[٣]؟"، نظر راميش مُغضباً نحو فرانك، فانفجرت إيلى بالضحك ـ

"هو ليس كلباً في الحقيقة. لكن التسمية هكذا. إنه في الحقيقة -" ضاعت كل الأفكار من رأسها. هل الهوت دوغ يصنع عادة بالضّبط من لحم العجل أم من لحم الخنزير؟ إنه مجرد لحم" أضافت بنبرة ضعيفة.

"وإنني أقول لكما. في يوم صيف حار مثل هذا اليوم، ليس هنالك ما هو أمتع طعماً من الهوت دوغز". كان فرانك لا يزال يوغل في حنينه إلى الوطن.

وفيما هو يتابع المضغ، "لنقم بإعداد هذا الطبق عند عيد الميلاد هذه السنة". قال راميش. "سأطلب من والدي إعداد هذا الطبق".

"كلا كلا..... هذا الطبق لا يصلح لمناسبة الميلاد. إنه مجرد طعام صيفيّ" - أغلق فرانك عينيه. "إنه الطبق الذي ربما يتناوله المرء في عيد الرابع من تموز/ يوليو. زجاجة من الجعة الباردة، وشطيرة بيرغر دسمة طازجة، وقِطع من الهوت دوغ".

"توقف عن هذا"، ابتسمت إيلي. "إنك لتثير عليّ مواجع الشوق إلى الوطن".

"الرابع من تموز/ يوليو هو عيد الاستقلال في أميركا"، أعلن راميش. "لقد تعلمنا ذلك في المدرسة".

"صحيح؟ أُوو!"، قال فرانك.

"متى هو عيد استقلال الهند؟" سألهما راميش. "هل تعرفان؟"

نظرت إيلي وفرانك، كل إلى الآخر في ذهول وبغتة. أيعرفان الجواب؟ تذكَّرا وجودهما مرة في بومباي في السنة الماضية لأن المصارف كانت مقفلة، فقفل المصنع أيضاً في يوم عطلة. "أعرف أنه يقع في شهر آب/ أغسطس"، قالت إيلي وهي تتأتىء ومرتبكة في كلامها قليلاً. "هل هو في السابع عشر من آب/ أغسطس؟"

"بل هو في الخامس عشر منه"، صاح راميش. ثم حملَق بهما قائلاً: "إنني أعرف تاريخ يوم الاستقلال في أميركا، لكنكما تجهلان تاريخ يوم استقلال الهند".

"حسناً يا "باكرو [٤]، لقد قلتَ الذي تريد قوله. أمَّا الآن، فهل لك أن تكفَّ عنا". قال فرانك.

"بكارو، هل هي كلمة تشبه كلمة 'كانغارو؟'" ضمَّ ساعديه إلى جنبيه وطوى ذراعيه مطبقاً كفيه، رافعاً إياهما إلى أمام صدره. "أتريدان رؤيتي وأنا أقفز أمامكما مثل الكانغارو؟" وقيل أن يتمكنا من الجواب، خطرت له فكرة جديدة. "آي ي ي. دعونا نطهو طعام الهوت دوغز في يوم استقلال بلدكما. إنني واثق من أن والدي يعرف كيفية إعداد هذا الطبق".

أرتعش فرانك بشكل ملحوظ، وعرفت إيلي أن فكرة تكليف براكاش بإعداد طعام من الهوت دوغز يعتبر عملاً مدنِّساً للاعتقادات الدينية بالنسبة إلى الأخير. ولكنه توجِّه إلى راميش بمجرد القول، "أخشى أن ذلك غير ممكن. لأننا سوف نكون في بومباي يوم الرابع من تموز/ يوليو".

نظرت إيلي نحوه نظرة المستفهِم، لكنها ما لبثت أن تذكرت أن القنصلية الأميركية في صدد ترتيب حفل استقبال دعت إليه الأميركيين المقيمين في بومباي وجوارها. ولأن فرانك يعرف نفورها من حضور مثل هذه اللقاءات، فإنه عمد إلى رشوتها برحلة في القارب لمشاهدة مغاور إليفانتا إذا ما هي وافقت على الذهاب معه. ولقد وافقت أخيراً وكان جلُّ دافعها إلى الموافقة إرضاؤه ليس أكثر.

"تذهبان إلى بومباي؟" صرخ راميش.. "أأنتما ذاهبان إلى بومباي؟ أيمكنني الذهاب معكما؟"

راقبت إيلى كيف أن وجه فرانك قد ذهاب في عدة التواءات لدى سماعه كلمات الصبي الأخيرة. ففي بادئ الأمر، بدأ منذهلاً، كما لو أن الفكرة لم تخطر من قبل بباله. ثم احتمال مرافقة راميش له جعلته يشرق. ومع ذلك، فإن الإشراقة قد اختفت على الفور، لقد أطفأتها حقيقةُ تذكُّره بأن إيلى لن تستلطف هذا التدخُّل بينهما إبان رحلتهما. وهذا اليقين تبعه امتعاضٌ حادٌّ جارح بسبب اضطراره إلى التضحية بسعادة بدافع واجب مجاملة زوجته. وفي نهاية الأمر القى فوق تعبير وجهه غطاء من الغموض واستدار لمواجهة راميش.. "كنت أتمنى لو كان بمستطاعك ذلك يا صديقي"، قال له. "ولكن ليس هذه المرة".

لكن إيلي قرأت التمني في قسمات وجهه، كما قرأت، وفي ما يتعدى رفضه المتعجِّل لطلب راميش، أسفه الأليم ليس للاضطرار إلى ردِّ رغبة الولد فحسب، بل إلى إحباط رغبته هو، القلبية الأصيلة أيضاً. ولم تستطع أن تحتمل كونها السيب الكامن وراء هذا الرفض. فهي إلى هذه الحدود تحبه. وهي إلى هذه الحدود مدينة له بعدم التسبب بحرمانه من الحصول على هذا الصبي الهندي الذكي الذي ينتمي إلى الغير. كذلك فإنها شعرت بالأسى العميق عندما رأت وجه راميش الذي بدا عليه الاغتمام فجأة، فما كان منه سوى أن نكَّس رأسه في انكسار. تذكرت كل الأماكن التي كان باني قد رآها عند بلوغه السنة السابعة من عمره - ديزني لاند، نيويورك سيتي، فلورنسية، جزيرة كابتيفا، باولدر، كايب كود - وقارنت كل ذلك بحقيقة أن راميش لم يغادر بلدته مرة. فهو لم يشاهد مرة المدينة العملاقة التي لا تبعد عن قريته سوى رحلة بضع ساعات بالسيارة. ومن ذا الذي يدري ماذا قد تعني زيارة هذه المدينة بالنسبة إلى هذا الصبي، وما هي الأحلام الهاجعة التي يمكن لتلك

الرحلة أن توقظها وتحرّكها، بل ما هي الآفاق التي يمكن أن تفتحها أمامه؟ وتذكَّرت إلى كيف أن رحلتها إلى مدينة برشلونة قد أثرت فيها، عندما كانت لا تزال في الحادية عشرة من عمرها، "ارجعوا جميعكم إلى بلادكم"، كانت قد قالت لأهلها عندما أزِف موعد المغادرة. "فإنني قررت البقاء هنا". وضحكوا يومئذ جميعاً من سذاجتها، وهي بالطبع، قد قامت بزيارة مرتفعات شاكار، وتعرف أن قسما مرن شخصيتها - خاصة ذلك الجزء من شخصيتها، الذي يتعلق بالطموح، وبالمواطنية العالمية، وبالشؤون الدنيوية – قد تكوَّن إلى الأبد بتأثير تلك الرحلة. وقد كانت هي لينة بروفيسور في التاريخ، ابنة كانت قد نشأت في بيت ملؤه الخرائط والأطالس والكتب، فهي لم تكن غريبة على أمجاد العالم وأبهته. فكيف لها الآن أن تحرم راميش من فرصته الفريدة في وضع قدميه خارج تخوم حياته المحدودة؟ فما تستطيع هي وفرانك أن يقدِّماه إلى هذا الصبي، ودون أيِّ تضحية، بل بمجرد تحريك إصبع، لا بد له من أن يستدعي من براكاش وآدنا عمراً طويلاً من التقتير والتوفير والمشقة. فتأمين رحلة للولد إلى بومباي فوق قدرتهما.

"وما المانع الذي يمنعه من الذهاب معنا؟" سألته.

اختلج رأس فرانك إلى الأعلى، والتمع ضوء من عينيه لم تكن إيلي قد رأته منذ سنتين. "إنني.... إنني افترضتُ.......... أعتقد أنه لا يوجد سبب حقيقي يمنعه.."

"أعني أتظنُّ أن جماعة السفارة قد يعترضون؟" قالت وهي تستسيغ هذه القدرة لديها على جعل فرانك سعيداً، فأرادت الاستطالة في الأمر.

"تباً، كلا أعني إن بطاقة الدعوة تقول: إن الأطفال مرحَّب بهم. إنها مجرد نزهة في كل حال، إنه شان عارض". بدأت عين فرانك اليسرى تُرمِّش، وقد لاحظت إيلي ذلك في افتتان. فعينه لا ترفُّ في العادة سوى في أوقات الضيق. كم هو مستميت لحصول ذلك! فكرت في دهشة وعجب. وكم هي المشقَّة التي يبذلها كي يخبئ هذه الحاجة عني! فللمرة الأولى تشعر إيلى بالامتنان لوجود راميش في حياتهما، إذ لعل هذا الصبى هو حبل الخلاص الذي سيسحب زوجها من بُركة أحزانه الغارق فيها. بل لعله يستطيع أن يكون الخيط الحريري الرفيع الذي يصلح لإعادة وصلِ حياتها بحياة فرانك.

ولم يقطع استرسالها في أفكارها سوى حركات الجذل التي بدأت تصدر عن الصبي الجالس بقربها. "نعم نعم نعم يا إيلي"، كان راميش. يقول. "شكراً لكِ، شكراً لكِ. كنت دائماً أرغب برؤية مومباي. إذ إنني أريد أن أقابل شاه روخ خان".

"ومن يكون شاه روخ خان هذا؟" سألت إيلي فسمعت راميش يشهق دهشة"

ألا تعرفين شاه روخ خان؟ إنه الممثل الأكبر. إنه بطلي السينمائي المفضل".. قفز راميش عن البساط، ثم اتخذ وضعيَّة رياضية قتالية، ثم بدأ يستظهر حواراً مأخوذاً من فيلم خان الأخير. أصغيا إلى الولد لعدة دقائق، ثم استدار فرانك نحو إيلي. "شكراً لك"، قال لها في كل بساطة.

أمسكت بيده واعتصرتها. "إنها ليست بالمسألة الكبيرة الأهمية، إلى جانب أنه سيكون من دواعي الترفيه أن نصطحبه معنا".

"أتساءل عمّا إذا كانت المدينة ستعجبه؟ أم أنه سيخاف منها؟" أبتسم فرانك. "هل تذكرين عندما اصطحبنا بَنّ إلى نيويورك؟ كيف أنه أراد الذهاب لمشاهدة البيب شوز [صندوق الفرجة] لأنه اعتقد أنه لا بد من وجود فراخ دجاج في الداخل؟"

ردَّت عليه بابتسامة. "بالطبع، وهل تذكُر زيارتنا إلى سانت باتريك؟"

كانوا قد تجوَّلوا حول الكاتدرائية الرائعة عصر يوم السبت. ولكن بالرغم من طفولتهما الكاثوليكية، فإنه لم يكن أحدّ منهما ورِعاً بشكل خاص. لذلك عندما دلفا إلى داخل جناح جانبي للكنيسة وتمشيا في الممر الذي يفصل بين الكراسي، وتطلعا نحو الشبابيك ذات الزجاج الملوّن، ونحو الأسقف العالية، والمذبح المزخرف، فإنهما لم يكادا ينتبها إلى المجموعات الصغيرة من المؤمنين الذين جلسوا على مقاعد الكنيسة برؤوس خفيضة وأعين مغلقة. وقد قامت إيلى بإضاءة شمعة على نية أخيها ثم استدارت نحو ولدها البالغ الخامسة من عمره، وسألته عما إذا كان جاهزاً للانصراف. "لكننا لم نصلِّ بعد"، أجابها باني. وقبل أن يتمكنا من التفاعل مع ملاحظته، فإنه انطلق إلى الأمام وجلس في مقعد مجاور لرجل يبدو عليه الشعث، وكان يرتدي معطفاً رثاً، ويحدِّق في الفضاء، جلس باني بعينين مغلقتين تماماً إلى جانب الرجل، الذي تنبعث منه روائح البول والكحول قرابة عشر دقائق. وكانت شفتاه تتحركان من وقت لآخر. أخيراً، فتح الولد عينيه، وقال كلمة "وداعاً" بصوت عالٍ لجاره الأشعث، قبل أن ينضم إلى والديه. "حسناً لقد انتهيت من حديثي مع الله الآن"، قال.

وحتى نهاية ذلك اليوم، بقيت إيلي تنظر إلى ولدها بشيء يقارب الخشية، متيقّنة أن الولد الكثير التشكي والتطلب، الذي لم يرد سوى حفنة من الأرز المقلي على عشائه لتلك الليلة، والذي أراد أن يقوم والده بحمله على طريق عودتهم إلى الفندق، إنما كان في الوقت ذاته كائناً بشرياً غامضاً كانت شخصيته الإفرادية قد بدأت بالفعل تكوّن نفسها.

كانت قد فكرت في تلك الحادثة الغريبة عدة مرات، خصوصاً بعد وفاة باني. "هل تتذكر؟" قامت الآن بسؤال فرانك.

أومأ برأسه إيجاباً. "بالطبع أتذكّر". أنصت قليلاً، ناظراً إلى الجهة التي يمتد خلالها البحر أمامهم كأنه مائدة فسيحة. "لقد كان ولدنا باني رجلاً صغيراً. ويا له من رجل صغير".

أشاح كل منهما بنظره، وعينا كل منهما تشعران بوخز الدموع. بقي كل منهما يخشى الكلام إلى أن انقضت دقيقة وصارا قادرين على التحكم بصوتيهما من جديد. غطت إيلي كلتا يدي فرانك بيديها. "أراهناك على أن راميش سيحب بومباي"، قالت له في نهاية الأمر. "وكيف له ألاّ يحبها؟ إنها مدينة سريعة الحركة، مليئة بالنشاط، تبهر الأنفاس - فهي تشبهه تماماً".

تنهد فرانك. "لا يزال يفصلنا عن ذلك قرابه شهر. وكم أتمنى لو يكون الوقت أقرب من ذلك فأستطيع استعمال عطلة نهاية أسبوع طويلة".

---

(١) قالها باللغة الإنكليزية مستعملاً كلمة nail التي تعني المسار الحديدي، كما تعني الظفر (المترجم)

(٢) استعملت كلمة tide “ " الإنكليزية التي تعني آلة الذي هو عكس الجزر. (المترجم)

(٣) يسمى الكلب في الإنكليزية: "دوغ" dog

(٤) كلمة "بكارو" buckaroo بالإنكليزية، وتعني

الفصل 10

صرّت إيلي على أسنانها ونبَتْ شتيمة مبهمة عن شفتيها. وكانت آدنا تقف حيالها مولولة، فهي تلطم جبهتها وتلعن حظها التعيس الذي قادها إلى الزواج من مثل هذا الزوج الأحمق الذي لا رجاء فيه. ورغم أن لوعة المرأة بدت لوعة أصيلة بوضوح، إلا أن إيلي لم تستطع مقاومة الشعور بان جزءاً كبيراً من هذه الدراما لم تكن سوى مناورة تقوم بها آدنا من أجلها محاولة التغطية على خجلها الناتج عن عناد زوجها بهذه النوبة من النواح والتذمُّر.

ولم يكن هنالك من شك في أن براكاش قد تحوَّل إلى شخص أبله. فبعد أن بقيت أيام ثلاثة فقط على حلول موعد الذهاب إلى بومباي، إذا به فجأة يغيِّر رأيه بعد أن كان قد سمح لولده راميش بالذهاب معهما. وكانت آدنا قد أرتقت إلى منزل إيلي منذ نصف ساعة وهى تحمل معها هذا الخبر. "ما العمل يا سيدتي؟ إن هذا الأحمق يزداد عنده يوماً بعد يوم كلما تقدم به العمر. إن الله وحده يعلم ما الذي حلَّ بعقله لكنه يقول إنه لن يسمح لـ: راميش بالذهاب".

"هل أخبرتِ راميش بذلك؟"

هنا زادت آدنا من وتيرة لوعتها ومن ارتفاع طبقة صياحها. "كلا مدام. إذا كان هذا البغل يريد كسر خاطر ابنه، فليقم هو بإخباره بهذا النبأ. فإن الولد ما زال يتلهف شوقاً لتلك الرحلة منذ أسابيع. إنه ملتهب بسببها كشهاب المفرقعات".

"حسناً إذن". لم تعرف إيلي أيهما سيكون هو الأشد خيبة أمل فرانك أم غضبه، عندما ستنقل الخبر إليه. شعرت فجأة أنها تضيق ذرعاً بهذا الموقف برمّته، تلك الرقصة المجنونة التي أجبرت عليها بين حب الأنا وقلّة الأمان اللذين يبدوان على هذين الرجلين المتخاصمين، وها هي آدنا تكاد تفتك بأعصابها. يا لها من دراما في هذه الساعة المبكرة من النهار. وفي هذه المرحلة صارت آدنا تستحضر ذكرى حياتها مع والدتها، متمنية لو أنها كانت قد أصغت إلى تحذيرات أمها حول عواقب الزواج من رجل غير مسيحي. "هؤلاء

الهندوس يا مدام"، قالت وهي تجهش. "إنهم لا يشبهوننا. فبعد وقت قريب أو بعيد لا بد لهم من الظهور على طبيعتهم الحقيقية. لقد كانت والدتي على حق. فهذا الرجل عديم المنفعة تماماً".

ضحكت إيلي رغماً عنها. "أرجوك يا آدنا"، قالت. "هذه مسألة بسيطة تتعلق بوالد لا يرغب بالسماح لولده بالذهاب معنا —— حسناً من الذي يدري سبب ذلك؟ دعينا من تحويل هذه المسألة إلى حرب دينية".

بدت آدنا كالمطعون في إحساسه، لكنها استمرت في دمدمتها على نحو غامض، متذمرة من أساليب براكاش. وما لبث عويلها أن توقف في نهاية الأمر. وخلال لحظة الصمت تلك، قررت إيلي أن تأخذ المبادرة. "هل براكاش في البيت؟" سألت آدنا.

"بالطبع، مدام".

"إني أريد أن تحدث إليه"، قالت. "أيمكننا الذهاب إلى بيتكم؟" تمكنت من التقاط نظرة آدنا المنذهلة. إذ لم تكن قد عبرت الفناء الخارجي لتدخل منزل آدنا مرة. وهنا، وعندما أيقنت إيلي أنها لا تعرف أبداً شكل منزل خادمتها من الداخل رغم أنهما تشتركان في العنوان نفسه، فإنها شعرت بالخجل من نفسها. "لنذهب"، قالت بصوت أجش.

كان الكوخ المؤلف من غرفة واحدة يحتوي على سريرين، واحد في كل ناحية من ناحيتيها. وكان ثمة فراش ثالث ينطرح على الأرض بين السريرين. كما أن نصف قاطع كان يُفضي إلى مطبخ صغير. وقد خمّنت إيلي أن الحمّام لا بد أن يكون واقعاً خلف ذلك الباب الأصفر الذي بدا في أقصى نهاية الغرفة. هذا وكان ثمة كرسيان متداعيان مسنودان إلى الحائط، بينما قعد جهاز تلفاز صغير على إحداهما. ورغم أنها كانت تعلم أن مسكن آدنا هو أفضل بكثير من مساكن العديد من القرويين، إلا أن أيلي قد صُعِقت لمدى تقشف الحياة التي يحياها خدم بيتها. ولا عجب إذن أن يتطلع المسكين راميش دوماً إلى فرصة لقضاء المزيد من الوقت في منزلها هي. وعجِبت ما عساه يكون انطباع الولد عن مسكنهما. كما أنها شعرت برعدة من التوجُّس من اصطحاب راميش إلى فندق "تاج" حيث من المقرر أن يستقر الجميع أثناء إقامتهم في بومباي. فالفندق الذي هو من درجة خمسة أنجم سوف يكون دون شك خلف كل خيال يمكن أن يدور في َخلد هذا الصبي. وأخذها شيء من التعجُّب عمّا إذا كان إصرارهما على أخذ الصبي معهما صواباً أم خطأ، لكنها ما لبثت أن رأت براكاش مقعياً القرفصاء في منطقة المطبخ، فإذا بمزاجها يغلي.

بقي براكاش محافظاً على قِعدته، لكن إيلي لمحت النظرة القاتلة التي رمى بها زوجته بسبب هذا الاقتحام. وهنا أيقنت أن آدنا لا بد من أن تدفع

الثمن، لكن الموقف الراهن لم يكن يسمح لها بالتفكير في هذا الأمر. وكلّ ما أرادته هو حلُّ هذه المسألة قبل أن تصل إلى علم فرانك. "براكاش"، قالت بصوت عنيف. "لقد أخبرتني آدنا أنك تعارض ذهاب راميش معنا. ولقد أزعجني هذا النبأ، فقلت لنفسي لا بد من وجود خطأ ما. لذلك فإنني رغبتُ في سماع الأمر من فمك بالذات".

أطرق براكاش المسكين أرضاً. "لا ليس هنالك من خطأ"، قال مغمغماً، ثم رفع نظره إليها ليكرر بصوت أكثر ارتفاعاً، "ليس هنالك من خطأ".

سمعت إيلي نبرة التحدي في صوته. "حسناً إذن"، قالت متباطئة لبعض الوقت. "هل لي أن أعرف السبب؟"

الآن، صار براكاش يتكلم في سخرية مكشوفة. "ما الذي حدث لهذه الدنيا"، قال موجهاً كلامه إلى لا أحد. "أيفترض في الأب تبرير شيء يتعلق بعلاقته مع ولده بالذات" سمعت إيلي صوت آدنا وهي تشهق خلفها.

"يا براكاش"، قالت إيلي. "لقد علمتَ بهذا الأمر منذ بضعة أسابيع. ونحن قمنا بإجراء ترتيباتنا، وعملنا على حجز الغرف في الفندق". قامت بعملية حسابية سريعة وقرّرت أن تلعب معه لعبة الخداع. "إنها ستكلفنا مئات الروبِّيات".

ولكن حتى الآن يبدو أن الرجل لم يتزحزح عن موقفه. "هذا ليس شأني"، قال مدمدماً.

سلوكه الوقح نال من أعصابها كلَّ منال. "كلما اصطحبنا راميش إلى مكانٍ ما في هذه الأيام، تقوم قيامتك وتفتعل المشاكل! هل تريدنا أن ننفض أيدينا من شؤونه؟ إذا كان هذا يسرُّك فسيسرُّنا أيضاً". كان بإمكانها القول بعد قراءة تعبير وجهه إن الرجل لم يفهم عبارتها. لكن آدنا فهمت فندَّت عليها صرخة تشبه العواء.

" انظري إليه كيف يجلس فيما هو يحمل هذا الوجه الذي يشبه قرصاً من الزبل"، قالت آدنا. "دون أن يبالي بمستقبل ولده". وجهت إليه ركلة بقدمها العارية. "سوف أرحل عنك"، صرخت في وجهه. "سوف آخذ راميش، وعند منتصف الليل لن ترانا ثانية".

رشقها براكاش بابتسامه خبيثة. "وإلى أين تراكِ ستذهبين؟" خاطبها متسائلا باللغة الهندية.

انفجرت آدنا: "سأذهب إلى أيِّ مكان. سنذهب إلى غوا. سأرجو والدتي أن تقبل عودتنا إليها. وإلا فإنني سأغرق راميش في بئرٍ، ثم سأغرق نفسي وراءه. ما دام أن ذلك يبعدنا عنك".

رفع براكاش يده وهمّ بالنهوض عن الأرض. عندما رأت إيلي ذلك، تحولت خيبة أملها إلى غضب: "إذا خسرنا نقودنا على الغرفة المحجوزة، فإنني سأقوم بحسمها منك"، صاحت به. "سوف أقوم باقتطاعها من راتبك حتى أستردّ المبلغ بكامله، أتفهم؟ هل هذا ما تريد أن تصل إليه؟"

عاد الطباخ إلى الجلوس في مكانه متهالكاً. وبدا الرجل كأنه حِملٌ قد أوقَعَتْه إلى الأرض زوبعةٍ حرَّكها الغضب المنقدح من المرأتين. "لا يحق لكِ حجز راتبي"، قال مدمدماً "فالراتب حق من حقوقنا".

كان باستطاعة إيلي التكهن أن عنفوانه قد فارقه، وهنا شعرت بشيء من النصر. "لكنني سأفعل ذلك يا براكاش "، قالت، "سأفعل ذلك إذا تماديت في دفعنا إلى ذلك كثيراً".

تقدمت آدنا لتقف بينها وبين براكاش. "أيها السافل لا تُضِعِ المزيد من وقت السيدة"، قالت له، "قل لنا ماذا ستفعل، أيها الـ؟"

بدأ براكاش يتأمل الجدار. "كما تشائين"، قال في نهاية الأمر.

لكن إيلي بدت غير مكتفية بذلك. "هذه ليست لعبة نلعبها معك، لا أريد أن أشهد المزيد من هذه السخافات أتفهم ذلك؟"

"نعم أفهم".

"حسناً إذن". خرجت إلى من المنزل بينما آدنا تليها على بعد خطوة منها. اجتازت المرأتان الفناء الخارجي ودخلتا إلى مطبخ إيلي. "مدام"، قالت آدنا في اهتياج. "لقد أحسنتِ تأديبه. إن ما قلته عن حسم الراتب كان قولاً ذكياً". ورغم الجذل الذي كان يبدو على آدنا، فإنه خُيّل إلى إيلي أنها تلمس لديها خيطاً رفيعاً من القلق الذي يساورها، فلقد بدا لها أن المرأة أرادت التأكُّد من أن تهديد إيلي قد كان حقاً تهديداً ظاهرياً.

"كنت أخادعه حول ذلك"، قالت لها. "تعرفين كنت ألعب لعبته". أومأت آدنا برأسها إيماءة حماسية. "أعرف ذلك، أعرفه. حسناً فعلتِ يا مدام إن كومة الزبل هذا خاف ألاَّ يبقى له مال لشراء زجاجة خمره. إنه يخشى على زجاجات شرابه أكثر من خشيته من أجل تدبُّر الطعام لأسرته".

ثم تمادت آدنا في التعبير عن فرحها بتمكن إيلي من وضع براكاش عند حدد، ومن قيامها بتنفيسه وجعله أشبه بالعجلة الفارغة من الهواء. لكن إيلى لم تكن لتشعر بتلك النشوة التى بدت آدنا تشعر بها. فعند ما قامت بمراجعة أدائها، والطريقة الإمبريالية المتعالية التي كلّمت بها الطبّاخ، وكيف أنها قامت باستعمال سوط الثروة لجَلد براكاش حتى الاستكانة والخضوع، عند ذلك شعرت كأن الدوار ينتابها. وكيف أنها قد انزلقت بسهولة إلى دور سيدة الدار

العاتية، إلى دور السيدة الأجنبية البيضاء. تذكرت كل المناسبات التي كانت خلالها تلوم زوجها بسبب قيامه بالسلوكيات ذاتها مع مرؤوسيه، فقد كانت تحيد عنه في خجل كلما رأته يمارس سلطته على عماله. لكنها هنا قد فعلت الشيء نفسه. حاولت أن تتخيّل موقفاً يكون فيه أحدهم - كان يكون مثلاً جاراً لهما في آن آربور، أو معلِّماً أو قريباً - يحاول التنمُّر على فرانك أو عليها من أجل القيام بالتراجع عن قرارٍ كانا قد اتخذاه بخصوص ولدهما باني. ولم تستطع أن تخرج بأيِّ سيناريو معقول. فمن المؤكَّد أن براكاش لا بد له من أن تكون له الحقوق نفسها لتقرير ما يصلح لأمر عائلته، ومن المؤكَّد أن حق الأبوَّة لا بد أن يعطيه تلك الصلاحية على الأقلّ، أليست له صلاحية أن يقرر ما إذا كان من الخير لولده أن يذهب هذه الرحلة إلى المدينة مع أناس يكاد لا يعرفهم ولا يحبـهم؟ ولكن ما الذي جعلها تدوس هذا الحق بمثل هذه السهولة؟ ولكن ورغم أنها قد طرحت على نفسها ذلك السؤال الأخير: فإنها كانت تعرف أين يكمن الجواب؛ إنه يكمن في ثروتها وامتيازاتها.

لكن، وبكل تأكيد ألم تكن هنالك مسالة أخرى هي أن تكون محقة في موقفها؟ فمن المؤكد أن يكون من العدل أن يتوقع المرء من براكاش أن يقف عند كلمته وعند وعده، أليس من العدل إفهام هذا الرجل أنه لا يمكنه استغلال شغفها وشغف زوجها بولده، وأنه لا يحق له أن يجعل أهواءه تتلاعب بهما تلاعب الهواء بالريشة؟ أليس هذا ما كان يمكنهما قوله بالطبع لكلِّ من – الجار في آن آربور مثلاً – يتجرأ على معاملتهما بمثل هذا الاستخفاف؟ حاولت إيلي الاطمئنان إلى هذا الخط من التفكير. لكنها ارتعبت للنبرة التي كان يتخذها صوتها، وبالقساوة التي كانت تبدو على سلوكها، وبالتهديد الذي كانت تنضح به كلمتها. لقد بدت شخصيتها أكثر شبهاً بشخصية فرانك، وقد هالها أن تجد نفسها كذلك.

وفرانك. لقد كان هو السبب الذي يقف وراء كل مجابهتها مع براكاش في كل حال. لقد كان خوفها من الحزن الذي سينتابه لفكرة أن راميش لن يرافقهما في رحلة عطلتهما هو الدافع الأول الذي دعاها إلى التكلُّم مع براكاش بالطريقة التي كلَّمته بها. وللحظة، ساورها شعور بالامتعاض من زوجها بسبب وقوفه سبباً لتحوُّلها إلى شخص لا ترغب التحوُّل إليه. لكن حسّ العدالة لديها ما لبث أن تدارك ذلك الشعور. فهو لم يكن قد طلب أن يقوم راميش بمرافقتهما إلى بومباي، لا بل إنه حاول في الحقيقة إخفاء رغبته تلك عنها. كما أنه لم يكن هو الذي دفع بها إلى اقتحام منزل براكاش والوقوع في نوبة من اهتياج الطباع. كلا، أن أسلوب فرانك في التعامل مع براكاش كان سيكون أكثر نظافة وأقلّ شحناً عاطفياً - إنه كان لا بد له من أن يمسك بالعنق الأعجف للرجل ويعتصره بيديه البيضاوين النظيفتين إلى أن يخنقه. ابتسمت

إيلى لكنها ما لبثت أن توقفت عن الابتسام عندما رأت النظرة الفضولية ترتسم على وجه آدنا.

هزت رأسها. "إنني مرهقة قليلاً يا آدنا"، قالت لها. "هل تستطيعين العودة لإجراء أعمال التنظيف ربما بعد ساعة من الآن؟ إنني أرغب في الخلود قليلاً إلى الراحة".

باتت آدنا جزعة عليها على الفور. "بالطبع مدام، بالطبع. إني أستميحك العذر". أسرعت إلى الباب لكنها ما لبثت أن توقفت. "مدام أرجوك أن تسامحي زوجي". ابتسمت في هدوء. "إنه ليس برجل شرير، مدام. إنه مجرد - إنه يحب ولده ويشعر بالخوف".

يشعر بالخوف من ماذا؟ كانت إيلي على وشك إطلاق هذا السؤال، لكنها لم تفعل. فهي تعرف الجواب. لقد سمعت كل ما كان التأدُّب يمنع آدنا من قوله علناً. إن زوجي يخاف من قيام زوجك بانتزاع ولدنا منا، الأمر الذي لا يستطيع أن يعمل شيئاً له. كما إنه خائف من أن يقع طفلنا الوحيد تحت إغراء ثروتكما وعالمكما المليء بالحقوق الخاصة والامتيازات، وهو عالم لا تملك إزاءه قوة ولا دفاعاً. إنه خائف من قيامكما بتقديم ولدنا إلى حياة فيها كل هذه البهرجة والرفاه بحيث لا يعود قادراً على العودة إلى الحياة مجدداً في عالمنا وفي بيتنا. وما الذي سوف يحصل مع راميش بعد ذلك؟ إنه سيتحول إلى شبح غريب، إلى شخص يعيش منفياً وسط أهله ومواطنيه. وهذا هو الموضوع الذي يفهمه زوجي الأمّي اليتيم أكثر مما يفهم أيَّ شيء عداه. وزوجي يفضّل الموت قبل تعريض ولده إلى هذا المصير.

مرَّت نظرة عابرة بين المرأتين. وكانت إيلي هي أوّل من تحوَّل بنظرته عن الآخر. لقد شعرت أن آدنا، وبألطف اللمسات، قد وبّختها، وأدانتْها بالقيام بسرقة شيء ما شعرت بالارتباك. منذ نصف ساعة مضت، كانت آدنا تنوح وتولول في مطبخها، كانت تلعن براكاش وتلعن أساليبه القصيرة النظر. كما أنها ساعدت إيلي في هجمة الكلمات التي رشقتا بها براكاش حتى هزمتاه وأنزلتاه عن مجثمِه المحقّ والمتشدد. وها هي الآن، ودون أن تنبس بكلمة واحدة، جعلتها تنظر إلى داخل قلب براكاش المحطَّم. لكن إيلي ما لبثت فجأة أن أدركت السر الكامن وراء كل ذلك، إذ أن آدنا كانت امرأة مثلها هي بالضبط، امرأة تعيش حالة تناقض وصراع. فهي عالقة بين مشاعرها القلبية الخاصة، وبين حاجتها القاهرة إلى لعب دور الأم مع زوجها وإلى رعايته وحمايته من شر شياطينه هو بالذات. تأملت وجه المرأة الشاحب، تأملت الغضون على جبينها، والشعر الذي بدأ في التحوِّل إلى الشيب قبل أوانه. حاولت أن تتصور كيف كان لا بد لوجه آدنا أن يبدو عندما كانت عروساً فتيَّة شديدة الحبور، والدفء، والعطف، والعناد. عندما كانت صبية صغيرة تؤمن

بقوة انعتاق الحب. وتخيلت حياة آدنا عبر السنين، تخيلت اندفاعة آمالها في عودة اشتمال عائلتها بعد ولادة ابنها وكيف نوى هذا الأمل في بطءٍ عندما اتضح لها أن غوا قد باتت جنة مفقودة. كما تخيلت كيف أن براكاش هو بدوره قد بات طريداً عن صدر المحلَّة التي عطفت عليه عندما كان يتيماً مشرَّداً، فإذا بها تنكره عندما عاد إليها وهو يصطحب عروساً له من غوا. شعرت إيلي بعزلتهما، وتوحُّدهما واعتماد كل منهما على شريكه دون سواه من أجل العضد والقوت، وما كان بعد ذلك من تفتت هذا الزواج تحت ثقل هذه العزلة. وكان راميش هو القارب الذي رمى إليه كلاهما أحلامه المحطة، حتى بات هو السبب الوحيد الذي يجعل لاستمرار زواجهما أيَّ معنى. تخيلت شعورهما معاً بالفخر والأمل عندما قامت لأول مرة هي وفرانك بإبداء إعجابهما واهتمامهما بولدهما المشرق النبيه. وتخيلت كيف أن هذا الفخار بات يتحول إلى قلقٍ وامتعاض، ثم عدوانية، كلما تمادى فرانك في تجاوز حدوده بقيامه بالإشراف على واجبات راميش المدرسية، وقيامه بلعب كرة السلة معه، واصطحابه للولد إلى المطعم في شاليمار، حيث تكلف وجبة الغداء هناك مبلغاً يوازي راتب والديه الشهري معاً. والآن جاءت الإهانة الأخيرة - أخذُ ولدٍ في التاسعة من عمره إلى مدينة كانت مجرد حلم بالنسبة إليه. فهي مكان خرافي بالنسبة لوالديه، بعيد ومستحيلة عليهما بُعْدَ واستحالة باريس أو إنكلترا. مدينة تتخيلها عائلة راميش مكاناً يسرح فيه نجوم السينما في الشوارع وينفجرون بالغناء كلما تنزَّل الإلهام عليهم.

"آدنا"، قالت لها بلطف. "أعرف أن براكاش يحب ابنه كثيراً. بالطبع، إني ــــ إننا ــــ نعرف ذلك. وهنالك شيء واحد عليك أن تعرفيه، إننا لن نفعل أيَّ شيء يصيب ولدكما بالأذى. لأننا نعلم ما يعنيه بالنسبة إليكما".

تهدَّج صوت آدنا وعبرت من جانب المطبخ إلى جانبه الآخر، ثم تناولت يدي إيلي ورفعتهما إلى عينيها البليلتين ثم قبلتهما. "ليبارك لنا الله بك يا مدام"، قالت باكية. "جزاك الله خير".

شعرت إيلي بشيء من الروع من جرَّاء هذا الاختراق المفاجئ للأتيكيت. فخلال كل الأشهر الماضية بقيت آدنا حريصة على الحفاظ على المسافة التي يبقيها الخدم الهنود عن مخدوميهم. لكن مبادرة الإخلاص الصادرة من آدنا كانت أيضاً قد هزت مشاعر إيلي. وبترددٍ، لامست كتف آدنا وقامت بتمسيد ذراعها. "لا باس عليك"، قالت متمتمة. "لا تقلقي كثيراً. سوف يكون كل شيء على ما يُرام.

لكن هذه العبارة لم تكن سوى خاطئة، فها هي آدنا الآن تنتحب بطريقة تتجاوز السيطرة. مزق ذلك قلب إيلي، لقد آلمها أن تشهد تهذا الحزن العميق الدفين. "إنني شديدة الشعور بالوحدة..." كانت آدنا تقول. "ليس لي من

أتحدث إليه. إنني أفتقد عائلتي. يا للطفك. إنني سعيدة جداً بوجودك هنا يا مدام. أنت الإنسان الوحيد الذي يمكنني الكلام معه. إن زوجي... له أيضاً مخاوفه الخاصة به. وفي السوق يمتدح الجميع لطفك يا مدام. عسى أن يعوِّضك الله خيراً".

تنهدت إيلي. إن لديها الكثير مما ينبغي عمله في هذا اليوم، ولم يكن في برنامج يومها أساساً مجابهة المسكين براكاش وسحقه. نظرت إلى المرأة المنتحبة أمامها. "يا آدنا"، قالت بثبات صوت. "استمعي إليّ. اذهبي أنت واجلسي في غرفة الجلوس. وسأقوم أنا بإعداد شيء من الشاي لي ولك".

أمسكت آدنا عن النحيب فوراً، إذ هزَّها هذا الانقلاب في الأدوار. وفيما هي تمسح عينيها بظهر يدها قالت، "كلا، يا مدام. أنتِ تجلسين وأنا التي تقوم بإعداد الشاي".

"ليكن ذلك"، قالت إيلي. ذهبت إلى غرفة المعيشة وجلست على الأريكة، ملقية رأسها بين راحتيها. وبقيت على هذه الحال إلى أن سمعت طقطقة صينية الشاي، التي نبهتها إلى أن آدنا متجهة نحو الغرفة.

الفصل 11

بومباي

يا لها من كلمة خادعة، كلمة شديدة نعومة الجرْس، تذوق على اللسان كما تذوب قطعة من الحلوى الطريَّة. وحتى الاسم الجديد للمدينة، مومباي، يحمل تلك العذوبة المستديرة ذاتها، بحيث إن زائرها يصبح غير مهيَّإٍ لملاقاة حقيقة هذه المدينة العملاقة المربِكة، تلك الحقيقة التي هي ليست أقلّ من اعتداءه على كرامة الإنسان، وصفعة على وجهه. فكلُّ ما في المدينة ينقضُّ عليكَ على الفور. ينقضُّ عليك حالما تدخلها مغادراً الطبيعة الخضراء الهادئة للتلال التي تقع خارج تخومها - إذ تصدمُكَ صفوف الأزقَّة التي تبدو كأنها صنيعة الطيور العملاقة الغريبة، أو كأنما هي قد صُنعت من أجلها بدلاً من أن تكون قد بنيت من أجل سكنى البشر؛ كذلك تصدمك المباني العتيقة المتداعية التي لم تذق طعم الطلاء منذ عشرات السنين، بل والكثير منها لم يبق واقفاً إلَّا بفضل الدعائم والسقالات؛ أما الأبنية الحديثة العالية فترتفع من الشوارع البالية كالأصابع الرفيعة المشيرة نحو السماء الملوَّثة القذرة؛ ناهيك عن موسيقي التانغو المجنونة التي تصدر عن جوقة عربات الرِّكشة [١]، والسيارات، والدراجات الهوائية والناريّة، والعربات التي تجرها الثيران، والكلُّ يتسابق ويتنافس على مساحة إنش واحدٍ من الشوارع، الأمر الذي يخلق وكراً صاخباً جهنمياً من الأبواق الزاعقة، والأصوات الصارخة الشاتمة؛ أما المتسولون،- ومنهم من فقد ذراعيه، أو أصابعه، أو عينيه، ومنهم المجذوم، ومنهم الذي حتى قد فقد أنفه ويا لرحمة السماء - فيندفعون بين العربات، وقد اتخذ فاقدو السيقان لأنفسهم ألواحاً خشبية ذات عجلات، هي من صنع بيتيٍّ يجثم الواحد منهم فوقها ويتحرك لها جاعلاً تحديد مكانه بين العربات أمراً بالغ الصعوبة على السائقين؛ وفوق ذلك كله، تطالع المرء تلك الكتلة الكثيفة الدائمة الوجود من آلاف البشر في كل شارع، وكلها تتدفق من الأرصفة المتصلة بالأزقة القذرة لتغمر الطرقات، والكلُّ مندفع إلى داخل سبيل المرور أو خارج منه، ومنهم من يداور غطاء محرِّك هذه السيارة أو تلك خشية أن تصدمه. أما الحركة الدائمة فسيدة الموقف... إنه طوفان من

البشرية لا يهدأ ولا يستقر به قرار. فأنت إذ تدخل المدينة من الضواحي التي ليس لها شبه بهدوء الضواحي الخضراء للمدن الأميركية، فإنك تعبر الشارع بعد الشارع فلا ترى سوى المطاعم الصغيرة والدكاكين التي تبيع كل شيء ابتداء من ملابس الجينز إلى الحليِّ الذهبية، إلى التوليفات التي لا تغيب من أوراق نبات التنبول التي تُعرف هناك باسم "بّان"، والتي يبدو أن كل ذكر هنديٍّ من طبقة اجتماعية معينة هو في ولَعٍ دائم بمضغها. وقد يصادفك من وقتٍ لآخر اسم تجاري تُحسِن تمييزه - سوني، رانغلر، نوكيا - ومن المستحيل على المرء أن يتجاهل لوحات الإعلان التي تعلن عن البيبسي أو الكوكاكولا، فبعض معارك الحروب من أجل الكولا كانت قد جرت في أرجاء البلاد، لكن معظم كل ذلك المشهد لا يسجله وعيُك لأن انتباهك لا ينفكّ عن التوزُّع في شتى الاتجاهات - فها هنا سيارة تاكسي تقترب من يمينكِ حتى تكاد تصطدم بسيارتكِ الكامري فتحاولين السيطرة على زمام ردة فعلكِ، وتعضين على لسانك، لكنكِ في اللحظة الأخيرة تصرخين على ساتيش كي ينتبه، وتشعرين بشيء من الخجل عندما تخطئ السيارة المندفعة سيارتك بإنشاتٍ قليلة كما يبدو أن الحالة تكون عليه دائماً. وهنا يلقي ساتيش بابتسامة عبر المرآة الخلفية. وها هنا يجد المرء نفسه وقد توقفت السيارة به عند إشارة مرور ضوئية فأحاطت بها العشرات من الفتيات المتعبات الوجوه وهن يحملن أطفالهن على خصورهن، ويخفقن زجاجِ نوافذ السيارة براحات أكفِّهن فيما هن يستجدين النقود، وها أنتَ تبدو عابقاً بالخجل والارتباك ولا تدري إلى أين تذهب بنظراتك لأنك تعلم مدى خطورة التقاء نظرتك بنظرة إحداهن، ولذلك فإنك تحدق، أمامك، وتشعرُ بأنك في موقف ضعيف، وفوق كل ذلك فإن ساتيش يقوم بتقريعك حتى لا تضعف فتقوم برمي بعض النقود المعدنية لهنَّ، والسبب هو أنه يتوفر من الشحاذين أكثر مما يتوفر من النقود المعدنية. وهكذا، فإنك تجلس في داخل سيارتك المكيّفة الهواء متجاهلاً خفق الأكف على الشباك بقربك، شاعراً بنفسك أنك الآن في موقف أشبه بموقف قرد في قفص في حديقة حيوان، وتتذكر كيف أنه مرة منذ بضعة أشهر كان ثمة خفق لأكف أكثر غضباً على بدن سيارتك، فيعاودك ذلك الخليط القاتل من الشفقة والتأزم الذي تثيره الهند فيك دائماً. ثم وفي اللحظة الأخيرة فإنك تحسُّ أن زوجتك لا تستطيع احتمال المزيد من هذا، فإذا بها تمدُّ يدها إلى محفظة نقودها بحثاً عن القليل من الروبيّات المعدنية، وحالما تلاحظ الجماعة ذلك من خارج السيارة فإنها تصبح في حالة جنون واهتياج، فأنت تستطيع إحساس كل ذلك حتى من داخل أمان سيارتك. وفجأة يتضاعف حجم عدد الشحاذين، فيتدافع أفراد الجمع تدافع أفراد وكرٍ مستنفرٍ من النمال. وتقوم إيلي بإنزال زجاج الشباك قليلاً عندما يبدأ ساتيش بتحريك السيارة. هنا تصبح الأكف الممدودة ماثلة في داخل جوف السيارة تحاول التقاط النقود التي تقوم إيلي يرميها إلى الخارج، وبعضهم الآن يحاول الجري

خلف السيارة المتحركة فيخرج واحدهم من مجرى السير ويدخل إليه غير مبالٍ بالسيارات وتركيزه كله متجه لالتقاط قطعة معدنية واحدة دون أي اهتمام بسلامة الحياة أو سلامة طرفٍ من أطراف الجسد. "ارفعي شباك السيارة يا مدام"، يصيح ساتيش، رغم أنه يضغط على زرِّ التحكُّم بالزجاج الآلي بنفسه. ولم يكن ساتيش قد بكَّر في ذلك لحظة واحدة، لأن الزجاج المنخفض كان قد أدخل إلى جوف السيارة ما هو أكثر من مرأي وجوه النساء والأطفال الكالحة، إنه الخليط الذي تبعثه المدينة من روائح البول، والعرق ومن سخام العوادم الأسود، ذلك الخليط الذي يلسع العيون، ويعبق في الأنوف، ويحرّض الحلوق على التقيُّؤ. تلك الرائحة الحارقة اللزجة تسدُّ عليك المنافس من كل صوب مع أنها تتبدد قليلاً ما إن تكون قد شققت طريقك إلى خارج الدوائر الداخلية الجهنمية التي هي أحياء: باريل، لالبوغ، بهندي، والبازار - إلى الأحياء الخارجية - كراوفورد ماركت، فلورا فاونتين، وكولابا.

وعندما توقفت السيارة عند إشارة ضوئية أخري في باريل، فإن راميش انفجر باكياً. "أريد العودة إلى البيت". كان يقول منتحباً، "لقد كرهتُ بومباي. إن فيها الكثير من الناس التعساء".

وتقوم إيلي بإحاطة الصبي بذراعها. "أعرف ذلك يا عزيزي"، قالت له. "لكن الأمور ستنجلي. وسنكون في فندقنا في وقت قريب. وسيكون هنالك بركة للسباحة، وسنمضي هناك وقتاً ممتعاً، أوكّي؟"

هنا نظر راميش إليها دامعاً، كما لو أنه لم يستطع أن يتخيّل إمكانية قضاء أي وقت ممتع في هذه المدينة. "لكن يا إيلي إن ذلك الولد لم تبق له يد واحدة"، قال لها كما لو أن ذلك يشرح كل شيء. هنا تنامت جلبة جماعة المتسولين من حولهم عندما شاهدت هذه الجماعة الحدث الذي يحدث في داخل السيارة. وحتي مع وجود الزجاج مرفوعاً فإن فرانك كان يستطيع الإحساس بالاهتياج الذي يدور في الخارج. لقد كان الكلُّ يناور للحصول على أية أفضلية، ويفتش عن منفذٍ تخرج له منه بعض القطع النقدية المعدنية. شعر بالعجب الذي تمازجه الضغينة. وفكَّر في أن هذا الموقف هو موقف لروح المقاوَلة في أوج نشاطها.

لكن الحقيقة كانت أيضاً، أنه شعر بالسعادة لمرأي زوجته وهي تجلس محيطة راميش بذراعها. فإلي مبلغ علمه، لقد كانت هذه هي المرة الأولي التي تقدم فيها إيلي على هذا العمل. وهنا وجد نفسه يفتح حافظة نقوده ويخرج منها ورقة من فئة العشر روبيات. "أقول لك ماذا"، قال لراميش. "تستطيع إعطاء هذه الورقة إلى والدة ذلك الصبي. كيف تري هذه الفكرة؟"

وحالما لاحظ الشحاذون أن الرجل الأبيض يتلمس حافظة نقوده، صار النقر على شباك السيارة أكثر اهتياجاً. صاح ساتيش بصوت عال. "لا تقدم على فتح الشباك يا سيدي. أرجوك أن تنتظر إلى أن تبدأ سيارتنا بالتحرك، وعند ذلك تستطيع رمي الورقة النقدية إلى الخارج، وإلا فإننا لن نكون في مأمن بينما نحن لا نزال واقفين عند إشارة المرور". قام بتخفيض الزجاج قليلاً. "ابتعدوا فوراً"، صاح بهم مهدداً باللغة الهندية، وعند ذلك ابتعد الملاصقون للسيارة عنها بضع إنشات فقط، لكن رعدة صوته اتخذت سبيلها كموجة سارية بين الجماعة، ثم وفي اللحظة التالية تلاشت الموجة ليندفع الجمع نحو السيارة من جديد.

جلس راميش وهو قابض على ورقة العملة في يده. "كيف لي أن أضمن أن الولد دون سواه هو الذي ينال النقود؟" سأل. "وماذا إذا قام سواه بالاستيلاء عليها؟"

"أتريدني أن أقوم بذلك بدلاً منك؟" سأله فرانك، متمنياً لو يكون الضوء الأحمر قد تبدَّل، لكن راميش هزَّ رأسه رافضاً الفكرة بحماسة. "لا، بل أريد أن أقوم أنا بإعطائها إليه".

قاموا بإنزال الزجاج قليلاً عندما بدأت سيارتهم أخيراً بالتحرك من النقدية إلى يدي المرأة ذات العينين الحزينتين. هنا حاولت عشرات الأيدي أن تنحشر من خلال فتحة الزجاج، لكن راميش رغم شعوره بالرعب بقي ممسكاً بالورقة إلى أن استطاع دفعها إلى يد الأم. ثم انطلقوا في سبيلهم، تاركين وراءهم حشداً متشاجراً متدافعاً من المتسولين الذين اندفعوا نحو السيارة التالية.

وفي داخل السيارة، وبينما كان راميش لا يزال يجلس في حضنه، قام فرانك بملامسة جبهة الصبي المتصببة عرقاً، ثم وضع يده اليمنى فوق قلب راميش. ومثلما ذهب اعتقاده، كان القلب يخفق بسرعة شديدة. أبقى فرانك يده مكانها حتى شعر أن ضربات القلب قد خفَّ تسارعها ولغطها. لقد كانت تلك حيلة قام باكتشافها مع باني، إذ إنه لاحظ السهولة التي يجعل بها إلقاء راحته فوق الصدر الصغير يتسبب بإخلاد ولده إلى الهدوء. ومن طرف عينه لمح إيلي تحدق إليه، فأيقن أنها هي أيضاً قد تذكرت المرات التي كان يقوم فيها بمثل ذلك مع باني، وانتابه شك بأنها قد استاءت في دخليتها من هذه السهولة في استبدال ولد بآخر. لكنه في تلك اللحظة كان قد قرر عدم الاهتمام لذلك. كانوا لم يبلغوا الفندق بعد عندما وجد نفسه يكتشف شعوراً في داخله بالحرية لوجوده في بومباي مع كل من راميش وإيلي. أمِل أن يحسَّ راميش بهذا الشعور أيضاً - أنه بالرغم من حقيقة أن تلك المدينة بدت أشبه بقفص يعلق في وسطه سكانها في خناق ضيق يشبه خنقة الموت،

وبالرغم من حجمها الهائل، وبالرغم من زخمها الذي لا يلقي بالاً لأحد، إلا أنها تطرح على المرء نوعاً من الحرية والإغفال. وخطر في باله أنه يريد لراميش العودة إلى جيربوغ كولد قد اختبر المدن، وأيقن محدودية أفق بلدته، وبات غاضباً بسبب صغر حجمها، وشاعراً باعتصارها له، وكأنها زوج من الأحذية التي ضاقت بقدميه بعد أن كبُر. ففي يومٍ ما، لا بدّ للصبي من أن يري نيويورك ولندن، وأن يُلقي بنفسه في أحضانِ الحرية المتناقضة التي تضفيها المدن الكبرى على قاطنيها.

لكنه كان في الوقت الحاضر يجمح في أفكاره، إذ إن عليه أولاً أن يؤانس راميش، وأن يُعدَّه لعجائب المباني الأجنبية في جنوب بومباي، وكذلك إلى رفاهية غرف الفندق الذي سينزلون فيه بعد أقلِّ من ساعة. وكذلك كان عليه ان يؤوي إيلي إلى كنفه العاطفي من جديد، وأن يجعلها جزءاً من هذه المغامرة، بحيث ولمدة أيام قليلة ثمينة، يستطيعون الادعاء أنهم عائلة واحدة. دفع راميش عن حضنه دفعة يسيرة. "لقد صار وزنك ثقيلاً"، قال مفاخرا. "جسمك كله عضلات".

وكما توقَّع، فإن الطفل انتصب له. "نعم،" قال. "ومن أجل هذا فإنني أربحُ عليك في لعبة كرة السلة". أزاح نفسه عن حضن فرانك إلى المقعد وأضاف: "لقد هزمتُه ستَّ مراتٍ متلاحقة يا إيلي".

ابتسمت إيلي. "هذا جميل"، قالت. لكن صوتها كان بعيداً، وكان فكرها غائماً.

"أين تسرح أفكاركِ يا حبيبتي؟" قال فرانك.

"لا شيء في الحقيقة. فقط حول كل هذا". هنا أشارت بيدها إشارة دائرية إلى الجموع البشرية من حولهم، ثم انحنت إلى الأمام". إن لديك بعض الأقارب في هذه المدينة يا ساتيش أليس كذلك؟"

"صحيح يا سيدتي. إن أختي وعائلتها يسكنون هنا في مومباي. إنهم في الواقع في مكان قريب من المحلة التي نحن فيها الآن". خفّض صوته. "لقد تزوجت من رجل مسلم يا مدام".

"إن المسلمين يأكلون لحم الأبقار"، أعلن راميش.

قاموا بتجاهله. "أليس أن هذا الأمر لا يسوء والديك؟ "سأله فرانك. أفرد ذراعيه بحيث إنه الآن بات يحتضن راميش ويدني إيلي منه. قامت بإسناد رأسها إلى ذراعه فابتسم لرسالة الألفة التي احتوت عليها تلك المبادرة. تذكر ليلة ماطرة في شاكِر هايتس، إبان موعدٍ جمعَهما مع أختها آن وزوجها بوب. كانوا قد ذهبوا إلى نايت تاون للاستماع إلى موسيقي الجاز، وفي طريق

عودتهم إلى البيت، كان هو وإيلي قد جلسا في مقعد السيارة الخلفي وكانت إيلي أثناء ذلك تلقي برأسها على ذراعه.

استدار ساتيش ليلقي لمحة سريعة نحو فرانك. "إن الأمور قد تحسنت الآن يا سيدي. في البداية حصل الكثير من الخناق والعراك. وكانت أمي تقول إنها لا تريد أن تري وجه يوشا ثانية. ولكن بعد ولادة الطفل الأول سألتني أمي أن آتي بها إلى مومباي لتري المولود".

تنهد فرانك. عندما كانا لا يزالان طلبة في الكلية، قام هو وأخوه بِّيْتْ باستئجار شريط فيلم سينمائي من أفلام بوليوود، وذلك بدافع الفضول لمعرفة سر كل هذه الجلبة التي تدور حول الأفلام الهندية. ولقد أطلقا صيحات الاستهزاء المرحة بعد اطلاعهما على الحوار السخيف فيه، وبعد مشاهدتهما للإيماءات العاطفية المبالغ فيها، وللتصوير الكاريكاتوري لنذالة الوغد، وللمصالحة الميلودرامية التي تجري بين الأم وولدها، وللوصلات الغنائية المتطاولة حتى السأم. لكنه بعد أن عاش في الهند. فإنه لم يعد يرَ في ذلك الفيلم أيِّ أمرٍ مبالَغ فيه، أو بعيد عن الواقع، كما كان يخيَّل إليه أولاً.

فكل عائلة في الهند، وكل بيت، يبدو أنه يعيش قصته الملحمية الخاصة به والتي تدور البطولة فيها على الميلودراما وعلي لوعة القلب. وللمرة الثانية، قام بفتح حافظة نقوده. لكنه في هذه المرة أخرج منها ورقتين ماليتين من فئة المئة روبيَّة. "اشترِ بعض الشوكولا لأطفال شقيقتك كهدية منا"، قال منحنياً إلى الأمام لمناولة النقود إلى ساتيش.

"لا حاجة إلى ذلك يا سيدي"، قال ساتيش في لهجة احتجاج، لكن فرانك، بعد أن نظر إلى وجه فرانك عبر المرآة، فإنه لاحظ أن الرجل قد بدا مسروراً.

"وأنا أيضاً أريد بعض الشوكولاتة"، قال راميش، لكن فرانك لسبعه بلطف على يده.

"وكيف سيمكنك أن تصبح بطل كرة سلة عالمي إذا استبدت بك السُّمنة؟"

"أنا لست سميناً". قال الصبي مُغضَباً، فتضاحك الجميع.

"لا بل أنت نحيل كالقصبة"، قال له ساتيش باللغة الهندية.

"ماذا تعني هذه الجملة؟"، تساءلت إيلي.

"مثل هذا، مثل هذا"، شرح لها راميش بينما هو يرفع سبابته. "نحيف نحيف". قالها باللغة الإنكليزية "thin thin" منحِّفاً حرف الثاء إلى حرف تاء.

"حسناً إذن"، قال فرانك مبتسماً. "tin tin"[٢]. وكان من عادة فرانك إغاظة راميش حول هذه المسائل لحثّه على تحسين نطقه.

"كلا إنني لست تنكاً، بل أنا نحيل"، كان راميش قد لاحظ الابتسامة الماكرة على وجه فرانك فقال له ذلك مسدداً إليه لكمة على كتفه ليكمل قائلاً: "توقف عن الهزء بي". ثم استدار نحو إيلي ليقول لها: "دعيه يكفُّ عن ذلك".

"كفَّ عن هذا"، قالت إيلي بوجه عابس، ثم نظر كل منهما إلى الآخر وابتسما من وراء رأس راميش.

دخلت السيارة إلى المدخل المسقوف بالقناطر، الفندق تاج. وعندما ترجَّل راميش من السيارة رفع رأسه محرِّكاً رقبته إلي الأعلى كي يستطيع رؤية البرج الشاهق لمبنى إنتركونتيننتال، الواقف أمام المبنى الأصلي المقبب. "فرانك"، قال الصبي لاهثاً. "وهل ستكون إقامتنا في هذا القصر؟"

ضحك فرانك. "أجل أظن ذلك يا عزيزي". حاول التقاط إحدى الحقائب من شنطة السيارة المفتوحة، لكن ساتيش هرول نحوه وكأنه يشعر بالمهانة. "دعها من يدك يا سيدي"، قال وهو يشير برأسه صوب المكان الذي يقف فيه أحد خدم الاستقبال بلباسه الأحمر القاني. "هو من سيتولي حملها"، تلبَّث السائق برهة من الوقت كافية له للتأكد من أن الخادم قد أنزل جميع الحقائب، ومن أنه قد أتمَّ جميع الترتيبات مع فرانك حول الموعد الذي سيأتي فيه إليهم في الغد من أجل نقلهم في رحلة التنزه. وبعد أن قام بتسليم مفتاح سيارة الكامري إلى الخادم المختص، مشي ساتيش مبتعداً بخفة ليقوم بإيقاف الحافلة التي ستقلّه إلى منزل شقيقته.

وبعد أن تقدم فرانك نحو البهو الضخم الفسيح للفندق، فإنه حرص على إبقاء يده الحانية حول كتف راميش. بقي الولد كاتماً أنفاسه مع أن عينيه كانتا فاغرتان دهشة لرؤية الثريات العملاقة، وزُمر الأناس ذوي البشرة البيضاء من السواح ورجال الأعمال، كما لرؤية النساء الباهرات الجميلات العاملات في قسم الاستقبال وهنّ يتحدثن بلهجات هامسة، كما للإحساس الذي لا يكذّب بالجاه والفخامة التي يضفيها كل ما في هذا المكان على زائره. انتظر على إحدى الأرائك الجلدية إلى جانب إيلي بينما كان فرانك يقوم على إتمام إجراءات دخولهم. وقد بقي على هدوئه حتى بعدما ركبوا المصعد الذي تسلق بهم إلى الممر الذي يقود إلى غرفتهم. وعندما استقروا في تلك الغرفة الفسيحة، فإنه جال في صمت على نواحي غرفة النوم المفروشة بالسجَّاد، والتي تحتوي على سرير ضخم مريح وعلي كرسيٍّ طويل من الخشب الماهوغاني الذهبي والأحمر، بإزاء النافذة المطلة على بحر العرب، كما جال

على غرفة الحمّام المبلّطة بالرخام، والتي تحتوي على حوض للاستحمام وعلي نُضُدٍ للزينة والتبرُّج في إحدى زواياها. ثم ما كان من الصبي سوي أن ألقي بنفسه على إحدى الكراسي الجميلة المعتَّقة وانخرط في نوبة بكاء ثانية لذلك اليوم.

"ما الخطب يا راميش؟" سأله فرانك. "هل أنت مريض؟"

هزَّ الولد المنتحب رأسه مجيباً على السؤال بالنفي. "لا لست مريضاً". حاول أن يقول المزيد لكنه بدا عاجزاً عن النطق. تحرك فرانك في مكانه وهو يهمُّ بالاقتراب من الصبي لكن إلى أوقفته عن القيام بذلك. "دعه يبكي"، قالت هامسة له. "إنه مبهور بالموقف ويحتاج إلى التنفيس عن احتقان شعوره، بالبكاء".

وفيما تطلَّع فرانك إلى إيلي في غير يقين، إذا براميش يدخل يده في جيب بنطاله. وبعد أن فتَّش جيبه جيداً إذا بيده تخرج من ذلك الجيب في نهاية الأمر حاملة ورقة نقدية متجعدة متسخة ما لبث أن قام برفعها نحو فرانك. وهنا لاحظ الزوجان أن الصبي يحرص على إبقاء أنظاره متجهة إلى الأرض.

"من أجل ماذا تدفع لي بهذه الورقة يا راميش؟" سأله فرانك وهو يقوم بتسوية ورقة العملة التي هي من فئة العشرين روبيَّة.

بقي الولد مُطرقاً نحو الأرض. "لقد أعطتني أمي إياها"، قال. "كمصروف لي" ثم رفع عينيه عن الأرض أخيراً وأجال بنظرته حول الغرفة، وعاودته موجة جديدة من البكاء. "لكن هذه الغرفة لا بد أن تكون لها تكلفة كبيرة جداً، ويجب أن تأخذ مني هذه الورقة النقدية يا فرانك".

وصلت إيلي إليه أولاً: "أوه يا عزيزي"، قالت له. "هوّن عليك. إننا نستطيع أن نوفر تكلفة الغرفة". قامت بتقبيل راميش في رأسه. "كانت بادرة جميلة جداً منك أن تعرض علينا هذه الورقة. لكن عليك إبقاءها لنفسك، أوكي؟"

هزَّ الولد رأسه بحميَّة. "كلا، بل إنني أريد إعطاءها لكما. وعليكما أن تقبلاها مني".

اقول لك ماذا يا عزيزي"، قال فرانك. "ما رأيك في أن تقوم بادخارها من أجلنا في الوقت الحاضر؟ فلربما قمتَ بشراء البوظة لنا جميعاً في وقت آخر من هذا النهار؟"

فكَّر راميش في هذا العرض للحظة. "حسناً"، قال. جلس الثلاثة على السرير في صمت لبرهة من الوقت. رمق فرانك إيلي بنظرة. أترين إلى خُلُق هذا الصبي؟ كانت نظرته تقول لها. أرأيت كم هو حسَّاس هذا الصبي؟ لكن

إيلي ردَّت له نظرة خالية من أيِّ تعبير، الأمر الذي جعله في حيرة من أمره بسبب غياب أيِّ فكرة لديه عن حقيقة تفكيرها.

"وأين سأنام أنا؟" قال راميش. "هل سأنام على الأرض؟"

"كلا، يا عزيزي". قال فرانك ضاحكاً. "سنجعلهم يحضرون لك سريراً خفيفاً. أيرضيك هذا؟"

"نعم يرضيني".

نهض فرانك عن السرير وتمطَّي. "حسناً؟ ما الذي تريدان عمله في ما تبقي من هذا اليوم؟" كان يعرف ما هي خطة الأيام الباقية من هذا الأسبوع - حضور لقاء النزهة الذي أعدته القنصلية العامة بعد ظهر غد، ثم القيام بزيارة إلى كهوف إليفانتا التي تتحرّق إيلي شوقاً لزيارتها يوم الأحد. لكن كل ذلك أبقي فترة بعد ظهر يوم وصولهم فترة مفتوحة.

"سوف أقوم بأخذ قيلولة"، قالت إيلي على الفور. "فإنني أشعر بالإرهاق".

همَّ فرانك بالاحتجاج على هذا القرار، لكنه ما لبث أن فكَّر بالأمر ببعض التروِّي. إذ إنه وجد أن تمضية بعض الوقت مع الصبي على انفراد أمر جيد جداً. "ما رأيكِ إذن في أن أخرج معه لبضع ساعات؟" سألها. "لعلني أستطيع أن أريه بوابة الهند، أو ربما قمت بأخذه لينال قسطاً سريعاً من السباحة في البركة؟ هل سيعطيكِ ذلك متسعاً كافياً من الوقت لنيل شيء من الراحة لوحدك؟"

غام شيء ما في عيني إيلي، لكنها عندما تكلمت، فإن نبرة صوتها لم تكن لتفصح عن أية مشاعر. "أن الأمر لا يتعلق برغبة مني في الاختلاء بنفسي يا عزيزي. كل ما في الأمر أنني متعبة وأحتاج إلى حفنة قليلة فقط من النوم، هذا كل ما في الأمر".

"أفهمك"، قال لها بسرعة خائفاً من قيامها بتبديل رأيها، وأن تقرر مرافقتهما. نظر إليها في خشية من أن تكون قد التقطت في صوته نبرة التوق للانفراد مع الصبي، ومتعجبا عما إذا كان هو يتخيّل حقيقة أن الجو بينهما قد تحوّل فجأة نحو التوتر والشحن. فلقد مرَّ زمان كان وجه إيلي خلاله أشبه بشاشة تُسجَّل عليها كلَّ عاطفة وكلَّ خلجة تمرُّ في تفكيرها. فمنذ متي تُراها تعلمت كيف تقفل شاشة وجهها كالباب المغلق عن أيِّ تعبير؟ أم لعله، بكل بساطة، فقد قدرته على قراءة وجهها؟ تذكَّر ما كان قد أسرّ به في أذنها يوم زفافهما - إنك جزء مني؟ إنك تعيشين على جلدي. وكان قد أعاد تكرار هذه الكلمات إليها لملايين المرات منذ ذلك اليوم. ومع كل ذلك، فها هو اليوم

يحاول تنحيتها عنه جانباً، ويحاول استراق ساعات قليلة من المتعة بصحبة راميش، وبنوع من الشعور بالذنب.

أشاح عنها بوجهه خشية قيامها بتسجيل شيء مما يرتسم على وجهه. "سوف نراك لاحقاً"، قال، ثم أكمل كلامه دون التفات، "تعال يا راميش. البس سروال السباحة الذي اشترته لك إيلي تحت سروالك القصير".

وكم كانت جميلة مشاهدة قوس بوابة الهند، المبني من الحجر الأبيض، بل كم كانت مشاركة معاينة التاريخ جميلة في صحبة راميش، وكم كان من الجميل إخباره أن هذه القنطرة تشبه قوس النصر الفرنسي في مدينة باريس، بل كم من الجميل إخباره عن مخابز باريس وحوانيتها. وكم المتسولين وباعة الفستق والبالونات الذين يتبعونهما. نظر فرانك في غبطة وتأثر نحو فروة الرأس المشعّة للولد المشرق الذي يمشي بالقرب منه. "هل أنت على ما يرام يا عزيزي؟" قال له. "إنك لست خائفاً، أليس كذلك؟"

هزَّ راميش رأسه نافياً، "كلا"، قال، "إنني أحببت هذا الحي من بومباي. فحتى المتسولين هنا لا بأس بهم. إنهم أقلُّ مرضاً".

ابتسم فرانك لوجهة نظر راميش. "إنك على حق يا حبيبي. فهذا حي غني. وهكذا، فإني أعتقد أن المتسولين هنا هم حتى أكثر غني".

قهقه راميش. "أتقوم بمناداتي بكلمة حبيبي؟"

"وماذا في ذلك؟"

"ذلك يعني...". هنا خفَّض الصبي صوته محترساً من أكثر الأولاد الصغار المتسولين إصراراً على اللحاق بهما، "إن هذه الكلمة لا يقولها سوي الصبي لحبيبته، أو البنت لحبيبها". رمق فرانك بنظرة نصفها تبجح ونصفها الآخر خجل.

تظاهر فرانك بأنه صار غاضباً. "راميش. أنت ولد سيّئ السلوك. من ذا الذي علَّمك عن الأحباء والحبيبات؟"

"علمتني بذلك بنت في مدرستي"، قال راميش. "إنها تقول لي إنها سوف تتزوجني".

"وهل أنت تحبها؟"

اكتفي بهز كتفيه. "إنها جميلة".

ابتسم فرانك في غضب واستهزاء. "حقاً إنها جميلة؟ جميلة؟ إن هذا لا يكفي لقيام شخص ما بالزواج من فتاة". وهنا تحوّل فجأة إلى لهجة جادّة.

"بالإضافة إلى أنك يا ولدي عليك أن تكون مركَزاً انتباهك نحو دروسك، صحيح؟ ليس هنالك وقت تصرفه على الحبيبات، أتسمع؟"

أومأ راميش براسه بحماس. "أعرف ذلك، أجل أعرف". التفت إلى الأعلى صوب فرانك مرة جديدة، كما لو أنه يحاول معايرة شيء ما. "لقد قامت مرة بتقبيلي فوق أنفي".

"هل قامت بتقبيلك في أنفك؟"

"لا تضحك". بدا صوت راميش مغضباً. توقف عن متابعة المشي. ثم واضعا يده على خصره، نظر إلى فرانك نظرة سخط. "هذا ما يفعله الآباء والأمهات "، أكمل شارحاً. "قبل أن يولد طفل لهما".

سمع فرانك نبرة إحباط مثلما سمع نبرة أخري - لعلها الحيرة - في صوت راميش. فتوقف هو أيضاً عن متابعة المشي "تعال إلى هنا"، قال جارّاً الولد إلى قرب جدار أسمنتي. "لنجلس هنا قليلاً". أبقي ذراعه ملتفَّة حول كتف الولد، وفكر في الخيارات المتاحة له. أيكون هذا هو الوقت المناسب لتلقين هذا الطفل درساً عن سلوك الطيور والنحل؟ وهل يكون هذا المكان هو المكان المناسب أيضاً؟ وهل من عادة الأولياء الهنود تلقين مثل هذه المعرفة لأطفالهم؟ إذ من الواضح أن براكاش وآدنا لم يفعلا شيئاً من ذلك، وقد ضايقته هذه الفكرة. أيكون من المؤكد حقاً أن هذا الصبي قد غدا كبيراً بما يكفي للتعرُّف على طريقة عمل أعضاء جسده؟ لقد كان يدهشه أن يري راميش دائماً أقلّ نضجاً من نُظرائه الأميركيين، ولكن، ومع كل ذلك، فإنه من السخف أن يعتقد من هو في مثل عمره أن المرأة تصبح حبلي بسبب قبلة على أنفها. تمني فجأة لو أن إيلي موجودة معهما في هذه اللحظة. فهي أعرف منه بكيفية إدارة مثل هذا الموقف.

"ومن الذي قال لك أن المرأة يصير لها جنين بسبب قبلة؟" وجّه سؤاله بكل احتراس.

"بارفاتي قالت لي ذلك"، أجاب "إنها صديقتي في المدرسة".

وجد فرانك ثغرة يدخل منها للحديث. "وهل ستلد بارفاتي طفلاً؟ لأنها قامت بتقبيلك؟"

نظر راميش إليه كما لو أنه ينظر إلى مغفّل ساذج. "كلا يا فرانك"، قال له بتلطّف. "لقد قامت هي بتقبيلي، ولكن لكي يولد الطفل يجب أن يكون الصبي هو الذي قام بتقبيل الفتاه".

جرض فرانك بريقه في صعوبة، وقام بتحويل وجهه نحو البحر "حسناً، إذن". قال. لقد خطر في باله أنه لم يكن عليه أبداً الانجرار إلى مثل هذا

الحديث الصعب مع الولد. لقد كان هو وإيلي على الدوام شديدي الصراحة مع ولدهما، وكانت إيلي قد شرحت لابنها في أكثر من مناسبة أنه في واقع الأمر يقوم الأب بإيلاج قضيبه في رحم الأم من أجل قيامهما بإنجاب ولد. لقد كانت إيلي شديدة الإصرار على توفير الكثير من الحيرة على ابنهما حول مسائل الجنس. حتى إن بعض أصدقائهما كانت تصدمهم طريقتها الشديدة الواقعية حول ذلك. ولا زال فرانك يتذكر زيارة قامت بها ديلور، والدة إيلي، لهما في آن آربور، عندما أصرت على القيام بتحميم حفيدها البالغ آنئذ فقط السنة الثالثة من عمره. لقد سمع هو وإيلي ابنهما وهو يقوم بتصحيح معلومات جدته قائلا: "يا جدتي.. هذه ليست حمامتي التي أتبوَّل بواسطتها، بل هذا هو قضيبي". أما النظرة التي بدت على وجه الجدة، فقد توافقا على أنها كما يقولون في الإعلانات التجارية، لا تقدَّر بثمن.

ومع ذلك، ومع راميش، فإنه يتردد. كم سيكون الأمر أشدّ سهولة لو أن راميش كان ولده. أو لو كان على يقين أن هذا الولد سيترعرع في بيئة متعلّمة تقدميَّة في آن آربور. لكن الحقيقة هي أن راميش هو ولدٌ لسواهما. فهو ينتسب إلى والد يبدو أنه قانع بترك الولد يقوم بتربية نفسه بنفسه. إلى جانب ذلك، فإن فرانك يعلم كم أن الهنود غريبين عجيبين حول مسائل الجنس، إذ إنه كان عارفاً بالخليط العجيب الذي يجمع بين المبالغة في الاحتشام الأنثوي، وبين عدوانية الذكور، تلك الخلطة التي تشكل الدفعة الأساسية لأفلام بوليوود السينمائية، تلك الدفعة التي يعرف أنها تدفع الثقافة الهندية الإجمالية ذاتها. فلم يكن هو المؤهل لدور تثقيف راميش حول مسائل الجنس، وقد هبط قلبه حزناً عندما أيقن ذلك.

وكان راميش يتمعّج حوله توقاً لإعادة مباشرة المسير، لكن فرانك الذي أدرك رغبة الولد، قال: " أصغِ إليَّ"، حالما تابعا سيرهما من جديد. "عليك ألّا تنشغل الآن بالفتيات، هل فهمته عليك أن تصبَّ كل تركيزك على مذاكرة دروسك، هل ستتذكر ذلك؟"

"سوف أتذكره"، قال راميش.

تردد فرانك لحظة وجيزة ثم أطلق الكلمات التي ارتسمت على شفتيه. "هذا إلى جانب أنك إذا شئت أن تدرس في أميركا فإنه يجب عليك أن تكون حائزاً على علامات جيدة".

"لكنني الأول منذ الآن في صفي يا فرانك" بدا صوت راميش كئيباً.

"أعرف ذلك يا عزيزي. لكن دخول المدارس الجيدة أمر صعب للغاية". وهنا أشار نحو مجموعة من الطلبة المتغربنين، والذين هم من طبقة ثرية على ما يبدو بكل وضوح، وكانوا يقفون مستندين إلى سيارة هوندا. "أترى

هؤلاء الناس؟ إن من سيكون عليك التنافس معهم هم من أمثال هؤلاء، حتى إذا شئت الانتقال إلى كلية في بومباي".

حدّق راميش نحو جماعة الأولاد وهم في سراويل الجينز الزرقاء، والقمصان القطنية الشفافة. غدت حدقتاه واسعتان، واهتزّت ذقنه، وعندما لاحظ فرانك ما حلَّ بالصبي، أدرك مبلغ حماقته بذكر مثل هذا الكلام فوبخ نفسه في سره. "ولكن لحسن الحظ"، تابع حديثه بلهجة متفائلة، "ليس عليك أن تقلق حول هذه الشؤون في الوقت الحاضر". توقف ورفع رأسه ناظراً نحو راميش. "أتريد الاستمرار في المشي أكثر من هذا الحد؟ أم تري أن علينا الذهاب للقيام ببعض السباحة في البركة؟"

حوّل راميش عينيه عن مجموعة الأولاد المتضاحكين. "دعنا نذهب للسباحة في البركة". قال. وهنا تذكَّر فرانك ما كان الصبي قد ذكره لهما في السيارة وهما في طريقهما إلى بومباي من أنه لم يسبق له مرة أن جرب السباحة في بركة.

"حسناً"، قال. "لنقم بعد ذلك بإيقاظ إيلي والذهاب معها إلى مكان ما. فعلينا أن نحتفل بمناسبة مجيئك الأول مرة إلى بومباي".

أمسك راميش بيد فرانك، وقاما بعبور الشارع.

---

(١) عربة الركشة (rickshaw): عربة خفيفة ذات دولابين وغطاء يجرها شخص أو أكثر، تُستعمل في بلدان الشرق الأقصي. (المترجم).

(٢) معنى Tin بالإنكليزية، تَنَك، وعلبة تنك.

الفصل 12

أقيمت نزهة الرابع من تموز/ يوليو على الأرض المحيطة ببناء حجري ضخم في مالابار هِلّ. تبادلت إيلي وفرانك النظرات عندما أوقف ساتيش بهم السيارة عند البوابة المصنوعة من حديدٍ مطاوع. قال فرانك صافراً: "لقد كدت أن أعتاد العيش في تلك الحفر". استدار نحو راميش. "هذه الناحية هي المكان الذي اتخذ فيه عمدة المدينة مسكنه. أتستطيع أن تتخيَّل كيف يمكن أن يبدو منزله؟"

بدا راميش صغيراً وخائفاً في داخل السيارة. رفع ياقة القميص الأخضر الفاتح الذي كانت إيلي قد اشترته له من أجل هذه المناسبة. ومثله مثل فرانك كان يرتدي تحتها سراويل تشينو كاكياً من القطن.

توقف ساتيش وقام بتخفيض زجاج شباكه، فتقدم شاب أميركي منهم وهو يحمل في يده لوحاً مشبكياً. وكان في إثر الشاب المذكور رجل مخيف الإطلالة يلبس بذلة ويضع فوق عينيه نظّارة سوداء كبيرة تلتف حتى أذنيه. انحنى الرجل الشاب قرب نافذة السيارة. "مرحبا"، قال لهم. "أهلاً وسهلاً بكم، هل لي أن أتعرف على أسمائكم؟"

خفض فرانك زجاج شباكه ودفع إليه ببطاقة الدعوة. فتَّش الشاب عن أسمائهم في لائحته. "أهلاً بكما يا سيد وسيدة بانتون"، قال وهو يبتسم ابتسامة مشرقة. لكن الابتسامة ما لبثت أن تلاشت فوق وجهه عندما حدَّق في جوف السيارة ووقع نظره على راميش. "ومن يكون هذا؟"

"إنه آت معنا"، قال فرانك. وآمل ألّا يكون في ذلك أية مشكلة".

تجهّم الرجل الشاب. "إنني لا أدري"، قال وهو يمسح بناظريه الأسماء الواردة في اللائحة. "إن اسمه غير مذكور هنا. كما أن بطاقة دعوتكما محدَّدة لشخصين فقط".

شعر فرانك أن النار تشبُّ في وجهه. "إنه ولدي"، قال. "إنه - إننا لم نقرر إحضاره معنا سوى في اللحظة الأخيرة. ثم إن بطاقة الدعوة تقول إن الأطفال مرحّب بهم". أحس بإيلي وهي تضع يداً مهدِئة على فخذه. "هل تريدني أن أرفع هذه المسألة إلى توم أندروز؟" وتوم هذا، هو القنصل العام للولايات المتحدة في بومباي، وهو صاحب الدعوة إلى هذه المناسبة.

"لن يكون ثمة داعٍ من أجل ذلك، يا سيدي"، قال الرجل الشاب بنعومة "من دواعي سرورنا أن نستضيف – ولدلك. طاب نهاركم".

أيقن فرانك أن فكيّه كانا منقبضين عندما دخل ساتيش بسيارة الكامري إلى طريق السيارات الداخلي المتلوّي. وبالقرب منه سمع إيلي تطلق الشتائم الخافتة قائلة: "يا للبيروقراطية اللعينة. إن هؤلاء يمثلون بالضبط الفئة التي أنفقنا عمرنا في اجتنابها. وها نحن اليوم مرغمون على قضاء نهارنا بكامله معهم".

كلمات إيلي كسرت التوتر، فإذا به يطلق ضحكة عالية. كما أنه كان سعيداً لأنها تصب جام غضبها على الرجل الذي يحمل اللوحة المشبكية وليس عليه هو بالذات، كما لأنها لم تُصب بالأذى عند إشارته إلى راميش على أساس أنه ولدهما. "من الخير لكِ أن تراعي قواعد التهذيب يا عزيزتي". قال لها مكشِّراً.

استردّ راميش أنفاسه عندما اقتربت السيارة من المنزل الذي شاهدوا فخامته وغناه. نظر إليهما. "هل يسكن مهراجا بومباي في هذا المكان؟"

لكن لم يبق ثمة مهلة لإجابة السؤال لأن أحدهم كان يشير إلى ركاب السيارة بالترجُّل منها. نزلوا من السيارة، وقام ساتيش بتسليم مفاتيحها. "سأعود لالتقاطكم في وقت لاحق يا سيدي"، قال "استمتعوا بأوقاتكم".

وقفوا في الطريق المؤدي إلى المدخل، وهم ما بين رغبة تدفع بهم للانضمام إلى الجمع الذي كان قد تكوَّن من قبل فوق الأراضي المزروعة بالعشب، وما بين ما يقتضيه البروتوكول منهم لناحية وجوب التوجُّه أولاً للبحث عن توم للسلام عليه قبل القيام بأي شيء آخر. صعدوا السلَّم المؤلف من خمس درجات رخامية، وهو الذي يقودهم إلى داخل قاعة فسيحة أرضها مبلَّطة بالموزاييك ولها سقف عال. وكان توم آندروز يقف هنالك محاطاً بجماعة من الضيوف الآخرين. صافح فرانك العديد من رجال الأعمال الأميركيين الآخرين حالما اقتربوا ببطء من القنصل العام. ولم يكن فرانك يتوقع أن يكون القنصل العام لا يزال متذكراً اسمه، لذلك فقد أصابته الدهشة عندما سمع القنصل يناديه، "مرحباً، يا فرانك. إنني سعيد لرؤيتك من جديد. كيف حالك بحق الله؟ وهذه السيدة لا بد من أن تكون زوجتك الفاتنة إيلي أليس كذلك؟"

إنها اللعبة الدبلوماسية المعروفة، لعبة استظهار الأسماء، ولكن رغم كل ذلك، فإن هذه المبادرة استلفتت فرانك كثيراً. "يا إيلي، هذا هو توماس أندروز"، قال لها.

ابتسم القنصل العام ابتسامة عريضة. "نادني توم. وإني أهنئكما لمناسبة عيد الرابع من تموز/ يوليو". قبَّل إيلي قبلة سريعة على خدِّها ثم استدار بعد ذلك بأنظاره. "لا بد أن تكون زوجتي في مكان ما من هذا الجوار. وستسعدان بالتعرف عليها".

شخص ما اندفع لاستلفات نظره، فانهمك عندها توم بمصافحة حفنة أخرى من الأيدي. لكنه استدار من جديد دورة أخرى وقال دون التفات "اذهبا إلى الحديقة. فهنالك يجري الاحتفال الحقيقي". غمز بعينه "ستجدان ما يحلو لكما من شطائر البيرغر والهوت دوغز الجيدة الحقيقية المجلوبة من الوطن جواً خصيصاً لهذه المناسبة".

لقد أراد فرانك أن تسنح له فرصة كي يقوم بتقديم راميش إلى توم، نظرًا لمعرفته بأنه قد يحتاج لمساعدة الأخير إذا ما أراد راميش زيارة الولايات المتحدة برفقته. لكن هذا الوقت بدا غير مناسبٍ. أمسك يد راميش وقال له: "تعال معي.. دعنا نخرج إلى الحديقة ألست جائعاً؟"

أومأ راميش برأسه بالموافقة. "إنني لا أعرف أحداً هنا".

"لكنك تعرفنا" خرجت الجملة في وقت واحد من فم كل من إيلي وفرانك. أمسكت إيلي باليد الأخرى لراميش. "تعالَ معي يا عزيزي"، قالت له. "لا شيء هنا يوجب المهانة ".

وقفوا على الدرجات الرخامية يستعرضون مشهد الناس المنتشرين فوق المساحة الأمامية المزروعة عشباً. وإلي أقصى اليمين كان هنالك خمس شوَّايات للحوم يقوم عليها طباخون منهمكين في شواء مجموعة أصناف من اللحوم، وكانت رؤوس هؤلاء الطهاة تكاد تختفي خلف سُحب من دخان الشواء المتصاعدة. ويلي الشوَّايات، نضدٌ للشراب، وحتى من تلك المسافة، كانوا يستطيعون رؤية انعكاس أشعة الشمس على زجاجات الشراب العتيق، المصفوفة في صف واحدٍ. وفي الباحة الواقعة أمامهم مباشرة كان ثمة خيمتين بيضاوين منصوبتين لاحتواء ضيوف الوليمة، ثم يليهما إلى اليسار باحة مخصصة للهو الأطفال، تحتوي على منصة قديمة الطراز لتقديم الليموناضة، وثمة خيمة أصغر احتوت على صفوف من الطاولات وفيها سيدة يبدو أنها تقوم بطلاء الوجوه. وقد لاحظ فرانك أن العديد من الأطفال الذين يتوزعون بالقرب، كانت وجوههم مطلية باللون الأحمر والأزرق. كما أنه لاحظ أيضاً وجود الضيوف الهنود القلائل وهم يلبسون ملابس رسمية جداً بالقياس إلى

ملابس الضيوف الأميركيين. وكانت النساء الهنديات يبدين في أزيائهن "الساري" كالملكات اللواتي يتمشين بين الفلاحات. أما في أسفل التلة فقد تربع المنزل على المَطلِّ الذي يبهر الأنفاس بإشرافه على بحر العرب الذي يتعرج شاطئه من السواحل الرملية في شاوباتي إلى المباني الإدارية الشاهقة في ناريمان بُّوينت.

"أتريد الذهاب للعب مع الأطفال الآخرين؟" وجَّه السؤال إلى راميش. لكن قبضة راميش على يده ازدادت اشتداداً. "كلا".

"وماذا لو قمت بالذهاب معك؟"

تراخت قبضة الصبي. "حسناً".

مشى الثلاثة في اتجاه خيمة الأطفال حيث تزاحمت عشرات الرؤوس الشقراء والزُّرِّيَّة الفروة، وكلها تنحني فوق دفاتر التلوين. وفي خارج الخيمة، كان ثمة مجموعة من الأولاد الذين يلعبون لعبة بالونات الماء الشديدة الحيوية، حيث يقوم كل واحد منهم بصفق رفيقه ببالون الماء بشدة، حتى إذا انفجر أحد هذه البالونات مرة أعقب انفجاره هذا عاصفة من الضحك. بدا راميش منجذباً إلى اللعبة، لكن فرانك جذبه في اتجاه طابور الأطفال الذين ينتظر كل واحد منهم دوره لطلاء وجهه. وفيما هم ينتظرون، طاف خادم حولهم بصينية فتناول كل من فرانك وإيلي كوباً من الخمر الأبيض عنها. طلبات إيلي زجاجة كوكاكولا من أجل راميش، فما كان من الصبي سوى أن قام بكرعها على الفور كرعاً.

وأخيراً، جاء دور راميش لطلاء وجهه. ابتسمت له المرأة السنجابية الشعر. "أهلاً. أهلاً حبيبي"، قالت بلهجة بريطانية صارمة. "أي صورة تريدني أن أرسم لك؟ إنني أستطيع أن أرسم لك إما العلم، وإما النسر الأميركي".

تطلع راميش رافعاً نظره نحو فرانك وابتسم في حياء. استطاع فرانك قراءة وجه الصبي- إذ يبدو أنه لم يفهم كلمة واحدة مما خاطبته به السيدة. "أعتقدُ أنه يفضِّل العلم"، قال لها.

وقف راميش ساكناً فيما مزجت المرأة الألوان في حُقِّها ببراعة ثم همَّت بوضع اللون الأزرق على وجه راميش. لكن قبل أن تلامس الفرشاة وجهه، ندَّت عنه صرخة استنكار. "هاي، لمَ تحاولين طلاء وجهي باللون الأزرق؟ أليس لون العلم أخضر؟ أليس هو زعفرانيٌّ وأبيض وأخضر؟"

وإن صمت قصير، ثم كان ثمة قهقهة عالية عن يمينهم. كان ذلك توم أندروز الذي يحيط زوجته أليسَّا بذراعه. وأليسا امرأة رشيقة القوام جذَّابة الشكل وتبدو أصغر من زوجها بكثير. "هنا لدينا ولد جريء" قال مبتسماً. إذن أنت تريد ألوان العلم الهندي أليس كذلك؟ حسنًا يا ماديل هل نستطيع القيام

بتلبية طلبه؟ لا يمكن ذلك؟" هنا رسم على وجهه نظرة حزينة. "نأسف من أجل ذلك يا عزيزي. ألا تستطيع اليوم تحمُّل الألوان الحمراء والبيضاء والزرقاء؟ فاليوم هو الرابع من يوليو/ تموز بعد كل شيء".

وضع فرانك يده فوق كتف راميش. "لا بأس عليه"، قال. "أعطه الألوان المعتادة كالآخرين. وهو سيكون على ما يرام".

"ولكن يا فرانك" –انطلق لسان راميش، ولكن لتسكته نظرة من فرانك "أوافق"، قال مغمغماً.

وبينما كان راميش يتلقى الطلاء على وجهه، فان فرانك استدار نحو توم. "أريد استطلاع رأيك في مسألة معينة يا توم"، قال بهدوء، "فإذا استطعت أن تقول لي متى تستطيع توفير دقيقة واحدة من أجلي فإنني أكون شاكراً لك".

"ليس هنالك وقت أفضل من الآن"، قال تومّ في كرم ولطف "معذرة منكما أيتها السيدتان" ألقى ذراعه حول فرانك واقتاده إلى خارج الطابور. شيء ما في لغة جسده بينما هو يكبُّ باهتمام لسماع ما يقوله فرانك أوحى إلى بقية الضيوف أن الحديث لا يحتمل المقاطعة، وهي حقيقة سُرَّ فرانك من أجلها كل السرور.

"تريد أن تكلمني بخصوص حادثة القائد النقابي أليس كذلك؟" قال توم، وقد استدعى الأمر من فرانك بعض الوقت قبل أن يدرك أن توم لم يحسن قراءة الموقف.

"كلا، ليس هذا هو الأمر في الواقع. وإني أقصد أن الموقف قد بات الآن هادئاً والفضل يعود لطيبة القلوب. لكن هذه مسألة لها بعض الطابع الشخصي". أنصت برهة ليتابع كلامه من جديد. "ما أريد أن أكلمك به يختصُّ براميش، الولد الذي رأيته منذ قليل. وهو... هو شخص نعرفه في جيربوغ. طفل خارق الذكاء. رغم أن والديه معدمان. إنه طفل غير معقول يا توم. فهو شديد التفوق في الرياضيات. وإنني أعتقد أنه لو تيسر التعليم الجيد لهذا الطفل، فإن حدوده هي السماء وليس أقل من ذلك". لاحظ كيف أن توم كان ينظر إليه نظرة غريبة، مثبتاً نظرة تلك العينين العميقتين الزرقاوين عليه. خفِّف من حميّتك، خاطب نفسه. لا تفسد الأمر على نفسك بالاندفاع الأخرق، ولا تكن عاطفياً بحق السماء.

"وفي كل حال"، تابع كلامه محاولاً تعديل لهجته لتتخذ لهجة الشخص الذي يبقى اهتمامه عند حدود مجرد التمني، "إنني أريد اصطحاب الولد معنا عندما تغادر خلال المرة القادمة لزيارة الولايات المتحدة. سيكون ذلك لمجرد اطلاعه على الحياة هناك، ولأري مدي قدرته على التكيُّف، وما شابه ذلك من الأشياء. وكنت آمل ألا يكون حصوله على تأشيرة دخول مسألة ذات صعوبة".

"أمن أجل هذا قمت اليوم بإحضاره معك؟" قال توم. "لترى مدى قدرته على التكيف؟" كان ثمة شيء ما، في نبرته، رعشة لم يدرِ فرانك كيفية تفسيرها. أيمكنه أن يكون متأكداً أنها ليست قرينة على الغضب؟

"حسناً، لا ليس من أجل ذلك"، قال متلعثماً. "أعني إننا كنا سنحضره إلى بومباي في كل حال، و—"

" أيدري والداه أنك تفكر في اصطحابه معك إلى الولايات المتحدة؟" الآن لم يعد هناك شك في حدَّة صوت توم.

سمح فرانك لشعوره بالمهانة، بالارتسام فوق وجهه. "حسنًا، بالطبع يا توم. فإنني لم أكن لأسمح لنفسي بالتكلم معك في هذا الأمر لو لم يكن والداه —"

رفع توم يده في ما بدا أنه تراجع عن السؤال. "حسناً. حسناً. إني آسف. لقد كنت أقصد مجرَّد التأكُّد. فأنت لا تدري مبلغ المواقف الحرجة التي تم وضعُنا بها هنا". خفَّض درجة صوته. "منذ سنتين كان هنالك زوج وزوجة جاءا إلى الهند لزيارة معلِّم مرشد في مُحتبَسِه لمدة أسبوعين. لقد كانا من النوع الذي يؤمن باستفتاء المرشد هاتفياً حول كل أمر، وهو نوع باتت تتمخض عنه أميركا كل يوم". هنا أدار عينيه بمحجريه. "وفي كل حال، فقد وقع الزوجان تحت سحر جاذبية طفل متسوِّل كان يعيش في الشارع الذي يقابل المعتزَل. وهكذا، فإنهما انسرقا في أحد الأيام مع الطفل وجاءا إلينا يطلبان تأشيرة دخول له. أتستطيع تخيُّل هذا الموقف الأحمق؟ فذلك الطفل له والدان، وله أقران، لكنهما شعرا أنهما يملكان حقاً على الولد". فرك محجريه براحتيه. "لقد كان الأمر كابوساً مخزياً مرعباً، مسألة إعادة هذا الطفل إلى ذويه".

"حسناً. إني أستطيع أن أؤكد لك أننا، أنا وزوجتي، لن نقدِم على اختطاف راميش"، قال فرانك بجفاف.

ربت توم على ظهر فرانك. "حسناً، سنقوم بعمل كل ما نستطيع عمله من أجل المساعدة. لكن أرجوك أن تخدمني في مسألة. إذا كنتما تفكران في الذهاب إلى الوطن في فترة الميلاد، فعليكما إعطائي مجالاً زمنياً كافيا. فالمكان هنا أشبه بحديقة حيوان".

أراد فرانك الاتجاه عائداً نحو إيلي وساتيش، لكن توم كان لم ينته مما يريد قوله بعد. "انتبه. عليَّ أن أقول لك شيئاً. إن الذي حصل مع ذلك القائد النقابي لم يكن مقبولاً، فتلك الحرب الملعونة في العراق تدمي سمعتنا في كل مكان من العالم. لقد صرفت أربعة وعشرين عاماً من عمري في هذا العمل الدبلوماسي، ولا أذكر أن الأمور قد وصلت معنا مرة إلى هذه الدرجة

من السوء في ما يتعلق بصورتنا أمام العالم. إن علينا ألّا تكون وطأتنا ثقيلة أينما كنا. ولهذا فإني أسألك، ما هي التنازلات التي سوف تُقدم عليها –"

"لقد قدمنا تنازلاتنا، يا توم. لقد قمنا بإعطائهم مَطالبهم. لقد عاد كل شيء إلى طبيعته الآن".

ومع كل ذلك، فإن توم بقي يتلبَّث. لاحظ فرانك في إجفال، أن العينين الزرقاوين قد صار لهما فجأة حوافٌّ حمراء. وتساءل عمّا إذا كان توم ما زال يشرب منذ بداية العصر. "إنني موظف عيّنني الحزب الجمهوري"، قال توم. "رئيسه هو رئيسي. لكن ليس هنالك من مجال للتساؤل - إن هذا الوضع القائم في العراق إنما هو ورطة. إنها كارثة علاقات عامة تتوزع وطأتها بالجملة وليس بالمفرّق".

"حسناً، إنها أكثر من مجرد أزمة علاقات عامة عمومية. إنها أزمة أخلاقية أيضاً". كان هذا الكلام كلام إيلي التي اقتربت برفقة زوجة توم. لقد كانت المرأتان قد تقدمتا حتى صارت خلفه مخترقتان الدائرة العازلة اللامنظورة التي كان توم قد رسمها حولهما.

أحسّ فرانك أن عضلات معدته قد تقلَّصت. ألا تدري إيلي متى يكون عليها إبقاء فمها البذيء مغلقاً؟ حاول التفكير بشيء ما، يكون من شأنه أن يخفف من وطأة المزاج العالق بكلمات زوجته، لكن قبل أن يتمكن من ذلك، انحنى توم. "الحق معك"، قال لها.

لكن هذا لم يكفِ إيلي. "أيقوم أمثالك من معشر المسؤولين بالتكلم مع الرئيس؟ أيقوم أحدٌ منكم بإطلاعه على حقيقة الأمور في المجرى الحقيقي لهذه الدنيا؟"

ابتسم توم لكنه لم يُجب على سؤالها. فهو سيد الدبلوماسية يمارس فنه على أرض الواقع، هذا ما خطر في بال مارك. "أين هو راميش؟" وجّه فرانك سؤاله إلى إيلي على أمل منه بتحوير مجرى الحديث. أومأت برأسها نحو ثُلَّة الأولاد الذين ما زالوا منهمكين بلعبة التقاتل ببالونات الماء. "لنذهب إذاً لإحضاره"، قال ماسكاً يد زوجته بثبات. ابتسم نحو توم وإيليسَّا "شكراً لك على ما صرفته معنا من الوقت يا توم"، قال.

"هذا هو ما نحن موجودون هنا من أجله"، قال توم. "تفضلا بزيارتنا في المرة القادمة عند قدومكما إلى مومباي."

انصرفا بعيداً فيما لا يزال فرانك قابضاً على يد زوجته. "صار بإمكانك الإفراج عن يدي الآن"، قالت له بجفاف. "وأعدك الآن ألَّا أعطي توم المسكين أية نصائح أخلاقية أخرى".

"كنت آمل ألّا تفعلي ذلك. لقد وضعتيه في موقف عارٍ. وإنني في بعض الأحيان أعجب فعلاً من طريقة حكمك على المواقف يا إيلي ".

أفلتت يدها من يده. "ربما من الأفضل لك أن تكون أقل قلقاً من طريقة حكمي على الأمور، وأكثر قلقاً من طريقة حكم رئيس بلادك عليها. بل أكثر قلقاً بسبب إصرارك على مخالطة هؤلاء الدبابير، وعلى وضعي في مواقف لا يكون باستطاعتي فيها التعبير بحرية عمَّا يجول في تفكيري ".

كان حريصاً على إبقاء صوته خفيضاً. "تبدين سخيفة مضحكة. لقد كان موقف توم داعماً جداً لشركة هيربال صوليوشنز، ولقد ساعدنا في أمر التفاوض مع الحكومة الهندية، كما في مليون مسألة أخرى. وليس لديه ما يستطيع فِعله بشأن العراق". شعر أن مزاجه يلتهب. "إنك فعلاً تحتاجين إلى الكفّ عن تقديم المحاضرات للناس حول شؤونهم الأخلاقية يا إيلي. لقد صارت عادتك السيئة هذه مثيرة للقلق".

بدت مجروحة لبرهة قصيرة ثم ما لبثت أن لبست وجهاً صاغراً. "حسناً، إني آسفة. سوف أحسّن سلوكي". لكنها شعرت أن إجابتها لم تكن كافية للتخفيف عنه. "دعنا الآن من هذا ومن القتال حوله. كل ما في الأمر هو أنني _____ أنني لا أشعر بالارتياح عندما أكون بصحبة مثل هذا الجمع من الناس البيض اللاحمين كالخنازير".

"ها أنت تعودين إلى سيرتكِ الأولي"، شرع يردُّ عليها، لكنه أيقن أنها تضحك، ودون إرادة منه وجد نفسه يضحك أيضاً. "سحقاً لكِ يا إيلي"، قال لها، لكنه تناول يدها من جديد. وكانت قبضته في هذه المرة لطيفة وحميمة. "أقسم أنك ستتعرضين إلى عملية سين جيم عندما نعود إلى الولايات المتحدة ".

استدارت لتنظر إلى وجهه مباشرة. "في اللحظة الحاضرة، إنني لا أستطيع حتى أن أتخيّل ضرورة للعودة إلى الوطن. إني أشعر كأنني أنتمي إلى هذا المكان، إلى الهند، ألا تشعر أنت ذلك أيضاً؟

"أيشعر هو ذلك حقاً؟ إن الحقيقة هي أنه لا يشعر بالانتماء إلى أي مكان أبداً. فإذا كان يشعر بالانتماء، فهو انتماء للناس وليس للبلدان. فهو يشعر بالروابط العائلية وبالتاريخ كلما هاتف والدته مرة في الأسبوع. وفي الليلة التي أعقبت العشاء عند نانديتا، كان قد شعر بالرابطة القديمة مع إيلي، لقد شعر بالاعتقاد المطلق أن مكانه ليس سوى بين ذراعيها، حيث يستطيع هناك أن يبني بيتاً ووطناً له في عينيها العميقتين السوداوين. وخلال الأسبوع الذي مضي عند ما كان برفقتها على الشاطئ مع راميش، حيث كان كلاهما يلعب بالماء، فلقد شعر أن له من ينتمي إليه تحت تلك السماء الواسعة المفتوحة وقرب

تلك المياه المتلاطمة العائدة لبحر العرب، فقط ما دام ذلك الصبي الصغير موجوداً إلى جانبه.

انحنى وقبَّل إيلي على خدِّها. "في اللحظة الراهنة، إن انتمائي هو إلى المساحة الواقعة قبالة منصَّة الهامبرغر"، قال. "تعالي، لنذهب لإحضار راميش ونُقيِل على الطعام".

وجدا راميش منهمكاً في معركة بالونات المياه، الضارية. لقد انتقعت ملابسه والتصق شعره على جبهته، فيما الألوان تسيل على وجهه. وكان قد خلع نعليه وصار يعدو حافياً، مطارداً، صارخاً كأنه شيطان جهنمي، راقصاً كأنه عفريت، كان يجتنب البالونات ثم يعود بإلقائها من جديد على أنداده في لذة واستمتاع. وقد وقفت بعض العائلات الأميركية لمراقبة الولد الأسمر النحيف بينما هو يداور في الميدان، وكلهم إعجاب به "هاي" ناداه فرانك. "توقف عن هذا للحظة يا راميش".

أرخي راميش البالون الذي كان يرفعه خلف ظهر ولد طويل كستنائي الشعر. "آو"، صرخ الولد عندما انفجر البالون الذي صوبه راميش إليه، وضحك راميش ضحكة هادرة. لكنه توقف في وسط ضحكته عندما اندفعت إليه فتاة صغيرة ورمت نحوه بالوناً مصوباً من مسافة قصيرة. "توقفْ عن ضرب أخي"، صرخت في وجهه، بوجه أحمر محتقن. انحدر البالون السيِّئ التسديد عن صدر راميش إلى الأرض دون أن ينفجر، لكن راميش تجمّد في مكانه مأخوذاً بالتعبير الضاري الذي ارتسم على وجه الفتاة. تدخَّل فرانك مستغلاً اللحظة لسحب راميش إلى خارج دائرة تضاحك الأطفال وصراخهم.

"انظر إلى هيئتك التي صرتَ فيها"، خاطب الولد ساخراً معنِّفاً. "إنك منتقع بالماء حتى الجلد"

كان راميش لا يزال يوجِّه نظراته نحو الفتاة، التي ما لبثت أن استأنفت لهوها، "هي غاضبة مني"، قال راميش.

"دعك منها"، قال له. "إنها مجرد طفلة مزعجة مدلَّلة ". انتبه إلى إيلي التي كانت ترميه بنظرة تحذير فالتقط رسالتها الصامتة إليه التي تحثه على عدم مفاقمة الموقف إلى درجة أكبر. "وعلي كل حال. ألست جائعاً يا نُقعة الماء الصاخبة اللاعبة؟ كيف سيمكننا الآن القيام بتجفيفك؟"

"دعنا نلقي به في نشافة الغسيل"، قالت إيلي ممازحة، مُغيضة، "بذلك سيصبح جافاً بسرعة قصوي"،

"كلالا لالا لالا لالا "، صاح راميش. "إذا وضعتموني في داخل النشافة فإنني سأصبح كالثياب، وسأدور هكذا"، هنا نزع يده من يد فرانك، وقام ببعض

القفزات الهوائية البهلوانية الأمامية فوق العشب، وتناثرت بعض نقاط الماء منه فوق الأعشاب في الجوار.

استدار فرانك صوب إيلي. "أنتِ مَن بدأ هذه المناورات"، قال هذا بينما هو يندفع نحو راميش والإمساك بيده. "حسناً الآن"، قالت له "يكفيك هذا، وعليك العودة إلى السلوك العاقل". استدارت نحو المنطقة التي يعرض فيها الطعام. "دعنا الآن نذهب لتناول الطعام، ممكن؟" قالت: "فأنا أتضوّر جوعاً".

"أريد قطعة من الدجاج المشوي في التنور"، قال راميش، وكانا قد عرَّفاه على طبق الدجاج المشوي بتلك الطريقة في مطعم شاليمار، فصار الآن طبقه المفضل.

"لقد أكلتَ هذه الأكلة في مطعم خيبر ليلة أمس"، قال له فرانك معنِّفاً. "وفي كل حال، هذه نزهة أميركية. وإني أريدك أن تجرِّب بعض الأطعمة الأميركية".

هنا توقف بعد أن صدمته فكرةٌ. إن راميش هندوسي، والهندوس لا يأكلون لحم البقر. ماذا عساه يطعمه هنا بحق السماء؟ ولكن عندما تابعوا مشيهم قدماً في اتجاه مراكز الشواء، لاحظ أن أحد الطهاة يقوم بشواء الدجاج.

كانوا لا يزالون في منتصف تناولهم لوجبتهم - دجاج، هامبرغر، هوت دوغز، سلطة البطاطا، فستق محمّص، وأكواز ذرة محمَّصة - عندما الولايات المتحدة إلى الهند. تأوَّه فرانك. "أعتقد أنه عليَّ الذهاب للوقوف في صف المنتظرين للتسليم على السفير".

"ابقَ مكانك وأكمِل تناول وجبتك"، قالت له إيلي. "ما الذي يجعلك تهتمُّ لقدوم السفير الأحمق؟"

"هذا شيء يساهم في تسهيل الأعمال، يا إيلي. إنه وقت لاستعراض الوجوه".

أدارت عينيها في محجريهما. "مهما يكن. ولكن خط الاستقبال سوف يكون مديداً، وبإمكانك متابعة تناول طعامك الآن، رغم ذلك".

رأى التزاحم الشديد حول الرجل الفارع الطول، الفضيّ الشعر، فوجد أن إيلي على صواب في رأيها. فقضم قضمه كبيرة من شطيرة الـ: هوت دوغز وأغمض عينيه في تلذُّذ.

"بماذا تفكر؟" حتى بينما عيناه مغلقتان، فإنه كان لا يزال باستطاعته سماع الضحكة في صوتها.

" نمور ديترويت"، قال لها على الفور. "أفضل المقاعد في القاعة، تماماً خلف زاوية الملعب. ويقوم أخي سْكُوْت بشراء شطيرة هوت دوغز كبيرة من الإستاديوم ويكون فيها وفرة من الخردل والكاتشاب وتوابعهما. ويقوم فريق النمور بإيقاع الهزيمة بفريق اليانكي آنذاك". تنهد. "كنت لا أزال في الخامسة عشرة من عمري في ذلك اليوم".

"يا عزيزي فرانك"، قالت إيلي. "إنك غارق في مرض الوِطان حتى أذنيك".

وفجأة الهبه بالفعل شوق إلى الوطن. أراد أن يحسّ نسمات الصيف الباردة العليلة على شاطيء بحيرة ميتشيغان، بل أراد المشي برفقة إيلي على شارعهما في آن آربور مستمتعين بألوان الخريف الصاخبة، أراد الاحتفال كالمعتاد، بعيد الميلاد في نيويورك بصحبة سْكُوْتّ ووالدته، وبليلة عيد رأس السنة مع عائلة إيلي في كليفلاند. فجأة افتقد العاب البيسبول والمجمّعات السينمائية والأسواق التجارية العملاقة الشديدة النظافة. افتقد الأفلام التي تستعرض معارض الفنون، والمسارح الجيدة، والقراءات الشعرية في يُوْ أوف أمّ. كان قليلاً ما يحسُّ بحقيقة أن حنينه إلى الوطن إنما هو حنين لحياة كان قد عاشها لمدة طويلة. لكنه لم يبالِ. لقد كان سعيداً بفقدان مرابع شبابه في ميتشيغان، كما كان سعيداً لمغادرة أيام الدراسة الجامعية، وبداية حياته مع إيلي عندما تخرج حاملاً شهادة الماجيستير في إدارة الأعمال، وذهب للعمل في شركة صغيرة بينما استمرت هي في الإعداد لنيل شهادة الدكتوراه، وقد خططا يومها للتريث في الإنجاب إلى أن تكون هي قد أنهت دراستها المؤهِّلة لنيل درجة الدكتوراه. لكن الحياة شاءت آنئذٍ لهما مشيئة أخرى، وهكذا، فقد جاء باني إلى الحياة بعد أسبوعين فقط من نيل إيلي لدرجة الدكتوراه.

"هل تذكرين أليكس؟" قال فرانك الآن، فانفجرت إيلي بالضحك "يا إلهي، كيف لي أن أنساه". أجابت.

"ماذا، ماذا؟" تساءل راميش منقِّلاً أنظاره بينهما. "ماذا تعنيان بـ: ألّ أكس؟"

"ليس ألّ أكس. بل أليكس، إنه اسم الإنسان. لقد كان أليكس حاضن أطفال - وقد إعتاد الحضور إلى منزلنا لرعاية ابننا عندما نكون في العمل. لقد كان موسيقياً أَبْلَه. فهو يستطيع القيام بجميع صنوف الحيل الموسيقية حتى إنه كان يلعب الموسيقي أحياناً باستعمال المكنسة وسلة المهملات".

بات راميش مهتاجاً "وكيف له أن يفعل ذلك يا فرانك؟"

"لست أدري. يصعب شرح ذلك. وهو أيضاً يستطيع إطلاق تلك الأصوات التي تبدو وكأنها صادرة عِن جوقة مِن العازفين أثناء العمل".

ابتسمت إيلي له. "أتتذكر وجه أمي عندما قمنا بتقديمها للمرة الأولي إلى أليكس؟ فأنت تعلم الطريقة التي كان يلجأ إليها في اللباس، تلك السراويل الجينز الزهرية والبنفسجية اللون. كما ذلك الشعر، يا لله كيف كان ذلك الشعر. اعتقدتُ يومها أنها ستقوم بالإبلاغ عنا إلى مؤسسة رعاية الأطفال".

"صحيح، لقد ساورني اعتقاد دائم أن لديلوريس ضلعٌ في اتخاذ أليكس قراراً بطلب رزقه في ألاسكا".

جذب راميش طرف كُمِّ فرانك. "توقفا عن الكلام حول ماضيكما القديم"، قال. "إنني أشعر بالوحدة". بدا صوته كئيباً، لكن فرانك تنبَّه.

"آسف يا عزيزي،" قال. "لقد تشعب بنا الحديث حتى أنسانا آداب الصحبة".

"إن أبي وأمي يفعلان معي الأشياء نفسها أيضاً". قال راميش. "إنهما لا يكفان عن التحدث عن أشياء حدثت قبل ولادتي. إنه لشيء مضجر".

وللحظة، تخيّل فرانك براكاش وآدنا وهما يتجاذبان الحديث حول أيام شبابهما، أيام حبهما الأولى، قبل أن تقسو الحياة على حبهما وتنغصه. تذكَّر إيلي وهي تخبره كيف أن آدنا قد قامت بالهرب مع براكاش وكيف أن أهلها قد أنكروها في نهاية المطاف. شعر بموجة مفاجئة من التعاطف مع هذين الزوجين، لكنه قاوم ميله إلى تليين العداوة التي بات يكنُّها لبراكاش.

"حسناً. وما الذي تريد التحدث عنه بدلاً عن ذلك؟"

لم يكن من حاجة لدى الصبي للتفكير في الجواب. "عني أنا"، قال.

انفجرت إيلي ضاحكة. "إني أشخّص بذرة نرجسية في طور نموها في تكوين هذا الولد"، قالت. وقبل أن يتمكن راميش من الاستجابة، "اهدأ الآن يا راميش. وتذكر أننا موجودين وسط الحفلة".

كان الولد على وشك الردّ عليها عندما دخل شاب يافع وعلى وجهه مظاهر التعجُّل، إلى داخل الخيمة التي كانوا يأكلون فيها. "أرجو المعذرة"، قال مرة ثانية. "إن صاحب السعادة بيلّ ريتشاردز موجود هنا، وهو يرد قول بعض الكلمات بعد دقيقتين من الآن. هلّا تفضلتم باللحاق بي إلى داخل البهو؟"

نظر فرانك نحو الطعام الباقي في طبقه بتوق. "إنه توقيت رديء"، همس إلى إيلي، لكنه كان قد بدأ النهوض على قدميه فيما عيناه تناشدان زوجته أن تحذو حذوه أيضا.

ألقت إيلي نظرة على الأطباق المتروكة حولها بعد أن غادرها الجميع ناهضا ثم قامت باتباع الخادم الفتى. "إنها الدولارات المقتطعة من ضرائبنا،

في ميدان الإنفاق الفعلي"، دمدمت لكنها رافقت فرانك وراميش عندما عبرا الممر العشبي الأمامي وقاما بصعود السلّم الرخامي من جديد.

كان السفير قد بدأ بإلقاء كلمته عندما دخلوا إلى داخل القاعة، وتوقفوا أمام المدخل المفضي إليها. هبَّة من النسيم الخفيف هبَّت من البوابة الأمامية المفتوحة فتلاعبت بأطراف تنورة إيلي القطنية. مفكراً بشطيرة الهمبرغر التي تركها تبرد في طبقه، صلّى فرانك ألّا يطول خطاب السفير. ومن نتيجة حكمه على طريقه الجمهور المحيط بالسفير، وقيامهم في الانفجار في الضحك، أيقن فرانك أن خطاب السفير سيكون كلمة خفيفة مابثة. كان هنالك لحظة من عدم اليقين عندما أنهي السفير كلمته، وسرت بين الجميع همهمة خفيفة عندما استأنف الحاضرون نقاشاتهم وحرّكوا أقدامهم في غير يقين من البروتوكول اللازم. وكان فرانك على وشك الاستدارة نحو إيلي والتشاور معها ما إذا كان من الأفضل لهم أن يعودوا إلى خيمتهم عندما سمعوا__ سمعوا صوتاً رائقاً كالزجاج يتغنى بكلمات مألوفة ومحبوبة ألفة المرء ومحبته لأسماء أحبابه المقرَّبين. "آه، قولى ألا تستطيع أن ترى؟" صدح الصوت بكلمات الأغنية، فأدار الجميع رؤوسهم لرؤية شاب نحيل لا يجاوز الثمانية عشرة من عمره، وهو يلبس زياً رسمياً مؤلفاً من قميص أبيض من الكتان فوق سراويل غامقة اللون، وهو يمشي في اتجاه المكان الذي وقف فيه السفير، شاقاً الجمعَ من أمامه بفعل صفاء صوته، وبسحر الإخلاص في سحنته. وبلحظة، كان الجمهور قد انضم إلى غناء المغني مترنماً بالكلمات في نغمة خفيضة، خشية عدم الطغيان على شعلة الصوت الجميل التي انطلقت من حنجرة ذلك الشاب. وجد فرانك أن قامته تنتصب وأن قشعريرة تسري في ذراعيه وبين كتفيه. ارتفعت يده اليمنى تلقائياً ليستقر كفه على قلبه. أحس بوجود راميش الذي يلتصق به، لكنه تجاهل الصبي، بعد أن استحوذت عليه رهافة تلك اللحظة. وعند ذلك المنعطف المفضل لديه_ عندما يأخذ النشيد الوطني ثنية جميلة ويتحوَّل إلى تسبيحة أو صلاة، تلك اللحظة الحزينة التواقة عندما تسأل عبارة النشيد ذلك السؤال الباقي في الأجيال: "آه.. قولي ألا تزال تلك الراية المتلألئة بالنجوم رفرافة خافقة؟" استدار نحو إيلي، زوجته ومواطنه، وكان قلبه يخفق بحب وطنه، كما يخفق لجميع الأناس المجتمعين في ذلك المكان. فإذا به يصاب بالدهشة للوضعية التي اتخذتها. إذ إنه لاحظ على الفور كيف أن إيلي قد وقفت وهي ترخي ذراعيها إلى جانب جسدها، وأن ثمة نظرة أكاديمية فضولية ترتسم على وجهها، كما لو أنها قد توقفت لمجرد دراسة هذه الظاهرة الطبيعية. تباً، جال في ذهن فرانك، إنها تقف كعالمة إناسة أو شيء من هذا القبيل. إن موقفها هذا ليتجاوز حتى كلَّ ما هرفت به هذا النهار، ذلك الهدوء السلبي، وتلك السخرية الصامتة، استثارا غيظه. وكان يعرف أنها تجد أن العبارات التي تشير إلى الوطنية هي كلمات بسيطة وسطحية، وتكاد تكون

سخيفة ومضحكة. لكنه لم يكن يري أيَّ شيء بسيط أو رخيص في ما يختصُّ بالعواطف الجياشة التي اجتاحت كيانه حالما أيقن أنه حيال كلمات النشيد الوطني لموطنه. شعر كأنه يتخذ موقف الدفاع، وكرِه أن يجدها تضعه في موقف الدفاع عن عزَّته وافتخاره بموطنه.

"ألا تستطيعين التظاهر على الأقل؟" همس لها.

"أتظاهر بماذا؟ أتظاهر بأننا لا نمارس الإرهاب في العالم؟ وأن بلادنا هي فعلاً حرة؟ ألم يسبق لك أن قرأت الجرائد؟"

لقد فعلتها ثانية. لقد نجحت في هز كيانه، وفي صدِّه وتثبيطه بطريقة لم تكن لتقدر عليا عندما كانت تنخرط في جدالات جريئة مع أخيه، تلك الجدالات التي كانت قد أدانت خلالها حتى فكرة إدارة الأعمال ذاتها، كان ذلك على مائدة غداء ضمت عميد كلية إدارة الأعمال، وهو لا ينسى حين عنّفته بسبب ما تسببه شركة هيربال صوليوشنز للاقتصاد في جيربوغ. لقد كان زواجهما سلسة من المجادلات الفكرية الطويلة _ وعلي امتداد السنوات التي تناقش فيها معها كانت أحيانا تقوم بإدانته كمرتكب لأعمال غير أخلاقية، وكانت أفكارها في أحيان أخرى مصدر متعة له، وكان يطلق عليها لقب "الشيوعية التافهة" عندما تتمادى في أفكارها كثيرا. لكنه في أغلب الأحيان كان يجد نفسه متفقاً معها، وحتى عندما لا يقدر على الاتفاق معها، فإنه لا يَعْدَم أن يشعر بالافتخار بهذه الزوجة المتمردة المستقلة الرأي. لكنه لم يشعر مرة بالغضب الحارق الذي يشعر به في هذه اللحظة. وخلال كل تلك السنوات التي مضت، كانت انتقادات إيلي وملاحظاتها عن أميركا تبدو ممكنة التحمل والتقبُّل لأنها اتخذت دائماً شكل القلق النفسي الذي ينتاب والدة تتحسر على عدم وصول ولد مميّز لها إلى الدرجة الواعدة التي كانت تأمل في أن يرقى إليها. لكن ما يلاحظه الآن، إنما بدا شيئا مختلفاً، بل جديداً. فهو لم يتعرف مرة على هذه الإيلي الباردة الساخرة. وهنا عرف أن سبب وقوع الفرق عائد إلى الموقع وإلى الأرض التي يقفان الآن فوقها. فالهند قد فعلت في هذه الزوجة فِعلها الذي يتجاوز تحويل المرء إلى شخص راديكالي. إذ لقد حوَّلتها إلى إنسانة مريرة، وقامت بوضعها موضع مختلف على رقعة الحياة. فها هي الآن تنظر إلي أميركا بالطريقة نفسها التي ينظر بها باقي العالم إليها. ولم يعد الأمر مسألة انتقادية، بل أنه تعدّى ذلك ليأخذ شكل نظرة أمٍّ إلى سلوك ولد لها منحرفٍ عاصٍ. لقد صارت نظرتها الآن إلى أميركا نظرة المتَّهِم القاسية الصادرة عن شخص غريب.

"ماذا؟" قالت له. "أليس لديك من شيء تقوله؟"

أدبر بوجهه عنها متخوفا من الامتعاض الذي بات يشعر به. لقد شعر بمثل هذا الكُرهِ نجوها مرة واحدة فقط قبل الآن_ وكان ذلك في اليوم الذي مات

فيه باني. والآن، فإن جميع مشاعره القديمة الآتية من ذلك اليوم قد عادت تندفع إليه من جديد. "دعينا نطرح هذا الأمر جانباً"، قال لها بشيء من الجفاف. "ليس هنالك من جدوى من التحدث معك عندما تكونين في مثل هذا المزاج"

عادوا إلى المساحة التي تجري فيها نشاطات النزهة، حصل فرانك على طبق جديد من الطعام، لكن طعم الذرة قد بدا الآن تافهاً، وبدا اللحم متفحِّماً وصعب المضغ. شعر فجأة بالخجل من الاستهلاك المنافي للذوق السليم _ تلال اللحوم المشوية، السيل المنسكب من الكحول، الأكوام المكوَّمة من نفايات الصحون البلاستيكية والزجاجات_ وكلها متجمّعة حولهم، وها هو يحقد على إيلي لأنها أرغمته على هذا الشعور المخجل بذاته. تظاهر بأنه يصغي إلى ثرثرات راميش العصبية، وتبادل بعض المزاح مع بوب رجل الأعمال الأحمر الوجه الذي يجلس قربه، لكن ذلك كله لم يكن نابعا من قلبه. وللحظة، عِلقت عيناه على زوجة بوب النحيفة الشقراء، وهي التي تمتلك مواصفات الشعر الأشقر الفاتح وشكل القوام الذي كان يصبو إليه بعد أن بلغ الخامسة عشرة. لكنه بعدما كبر ليصبح شابا جادا، فإنه غير ذوقه حول هذا النوع من النساء بعد معاشرته لنساء من أمثال جورجي هذه، إذ إنه كان يشعر بوحدة يائسة عندما يجد نفسه في مواجهة ثرثراتهن الفارغة العقيمة، لكنه في هذا اليوم قد خُيّل له_ يا لله، فإن بوب، على الأقل، لن يقلق بسبب قيام زوجته بإهانة القنصل العام. لكن إيلي كانت قد كفَته كلّ حاجاته، ومن جميع النواحي_ جنسياً، وفكرياً، وعاطفياً_ ومع ذلك فإنه للحظةٍ، عجبَ كيف ستكون حاله مع جورجي، وكيف سيبدو شعوره في ظل زواج يستطيع أن يستدير في ظله بعد علاقة جنسية جيدة، ليستغرق في النوم بدلاً من العيش مع امرأة تكلمت عن الإرهاب وعن المذابح حتى في برنامج نزاهة يقام لمناسبة الرابع من تموز/ يوليو. رفع أنظاره فإذا بإيلي تحدِّق نحوه. وحالما التقت نظراتهما رفعت نحوه أحد حاجبيها ورمته بابتسامة بطيئة. طفح وجهه خجلا لإدراكه أنها استطاعت قراءة أفكاره. شعر بالانكشاف والارتباك. وأراد لو يستطيع مسح تلك الابتسامة عن وجهها_____ لو يستطيع مسحها بصفعة من يده.

نهض فجأة على قدميه، مقاطعاً بوب في وسط جملته. "إنني آسف، صار علينا الانصراف"، قال.

حدَّق بوب نحوه. "لابد أنك تمزح يا رجل، فالحفلة لا تكاد تكون قد ابتدأت".

"أعرف ذلك". تناول ذراع راميش ورفعه. "لكن لدينا ارتباط آخر". نظر نحو إيلي، مستجدياً إياها مجاراة لعبته. نهضت على قدميها بتثاقل، تاركة أنظارها مثبتة على أنظارها فرانك.

"كان الحديث معكما ممتعاً"، قالت. "ذكرى استقلال سعيدة".

"على أمل الاحتفال بهذه المناسبة في السنة القادمة على الأرض المجيدة للولايات المتحدة"، قالت جورجي. "إنني لا أستطيع الانتظار للرحيل عن هذه الأرض الملـ __" لاحظت وجود راميش فعدَّلت جملتها لتقول: "الجميلة".

بعد مرور عشرين دقية، كانوا قد ودّعوا من يريدون وداعه، وقاموا بمصافحة توم، وإيليسّا، والسفير، واستقروا في سيارة الكامري التي يجلس ساتيش وراء مقودها.

"هل تناولت أيَّ طعام يا ساتيش؟" سألته إيلي حالما صاروا خارج جميع البوابات.

بدا ساتيش خجولاً. "نعم، لقد أكلت في الحقيقة يا مدام. لقد كان السائقون جميعاً في الباحة المخصصة لوقوف السيارات. لكن أحدهم جاء إلينا وأعطانا الكثير من الطعام، وكان أكثر الطعام من الدجاج".

"إننى سعيدة لأن شخصاً ما، قد فكَّر بتأمين الطعام لكم"، قالت إيلي مستجيبة. لاحظ فرانك أنها لم تفاتحه بكلمة منذ قيامهما بوداع بوب وجورجي.

"إن الأميركيين جيدين في كل هذا، يا مدام". بدا ساتيش ميَّالًا على غير عادته إلى الاستفاضة في الكلام، وقد عجِب فرانك ما إذا كانت الوجبة المقدمة للسائقين قد تضمّنت كأساً من الشراب. "إنهم يفكرون بنا على الدوام. ولو كانت هذه الحفلة مقامة في قنصلية هندية، فلن يكون الطعام مخصصاً سوى للضيوف".

ابتسم فرانك في عبوسه. أخيراً ها هو أحد الناس يقدِّر الأميركيين، قال لنفسه، إن عليه أن ينفح ساتيش بمئة روبيَّة بسبب المساعدة التي قدمها بحديثه هذا الذي سدَّ بواسطته فجوة الخصام الصامت بينه وبين زوجته.

الفصل 13

أسندت إيلي رأسها إلى باب السيارة وحدّقت بأنظارها نحو المطر الذي يهطل في خارجها. فخلف جدار الماء الزجاجي الموشّى، بدت الأشجار مجرد غشاوات خضراء. كانت قد نبّهت ساتيش إلى ضرورة التخفيف من السرعة لبضعة مرات، مؤنبة إياه لقيادة السيارة بسرعة في مثل هذه الظروف الجوية، ولكن دون طائل. وهكذا، فإنها يئست من الأمر كله، مثلما يئست أيضاً من قبل من إقامة تواصلٍ كلاميّ هيِّن بينها وبين فرانك. وفي كل حال، فإن كلاً من فرانك وراميش يغطّ في نوم عميق، كان فم فرانك مفتوحاً، بينما راميش يخرخر في هدوء، وثمة خيط من الريق يترقرق من فمه نزولاً إلى ذقنه.

إن للإحباط طعماً، إلّا أنها لم تنتبه إلى ذلك من قبل. فطعمه أشبه بطعم الرماد، وهو جافٌّ وله خاصيَّة نثار الريش. لقد غادرت جيربوغ إلى بومباى منذ ثلاثة أيام وكلها أمل ورجاء، وها هى الآن تعود من حيث أتت مصحوبة بالندم كما لو أن باقة من الأزهار النضرة قد ذبلت بين راحتيها. ملاحظةٌ بسيطة، نظرة لم تكن حتى لتدرى بها أثناء النزهة، تبعها بعض التعقيبات المتطرفة، كان من شأنها إفلات غضب فرانك البارد. ولم تستطع أن تغالب تفكيرها أن هذا لم يكن سوي رجع لغضب دفين. أما الطقس فلم يلعب دوراً مساعداً أيضاً. فالرحلة التي كانت تتطلع إليها، أى زيارة كهوف إليفانتا، الواقعة خارج بومباى، قد تم إلغاؤها بالأمس بسبب هطول الأمطار. إذ لم يجرؤ ملاحُ زورقٍ واحدٍ على مَلءِ زورقه بحملٍ من السيّاح من بوابة الهند إلى الجزيرة القريبة التي تضم الكهوف التي تحتوي على المنحوتات القديمة. وبدلاً عن ذلك، فقد أمضوا معظم يوم الأحد عالقين في دائرة فندق تاج، إيلى تقرأ كتابة في غرفتهم، بينما يقوم فرانك وراميش بزيارة المحلات التجارية العديدة التي يضمها الفندق، ثم تناولوا غذاءهم في مطعم غولدن دراغون (التنين الذهبي) في داخل الفندق. وبالرغم من ملاحظتها لعدم سعادة فرانك معها أثناء نزهة يوم السبت، إلا أن إيلي اندهشت لاكتشافها أن غضبه قد استمر حتى اليوم الذي تلاه حاولت تركيز تفكيرها على الرواية التي كانت تقرؤها، إلا أن قلبها كان يقفز كلما سمعت صوتاً قادماً من الممر، آملة أن يكون قد أتى إليها

لاصطحابها، وأنه قد يدخل في أيِّ لحظة إلى غرفتهم ليقول لها كم هو مفتقد لصحبتها، وكي يطلب منها إغلاق هذا الكتاب والمجيء إلى مشاركته ومشاركة راميش بكل ما هما منشغلان به. وحوالي الساعة الرابعة بعد الظهر، نازعتها نفسها لدخول الحمام للابتراد من جديد، لكنها تخلَّفت عن هذه الرغبة نظراً لخوفها من أن تضيِّع على نفسها فرصة مباغتة فرانك لها في أية لحظة. أخيراً، وعند الساعة الخامسة، فإنها طلبته على الهاتف الخلوى. "مرحباً، هذا أنا، ما الذي تفعلانه الآن؟"

"لا أشياء شديدة الأهمية إنني في بهو الفندق أتحدث مع نزيل آخر".

"هل هي نزيلة جميلة؟" سألته نصف ممازحة. لكن الصمت المؤلم الطويل كان قد أخبرها أن كلماتها قد أصابت الهدف. استجرَّت نفَساً حادّاً، الألم الناتج عن الإصابة العرضيَة، بدا أقسى عليها من كلِّ ما توقعت. وسمعت فرانك يقول: "عفوك"، فتخيلت أنه ابتعد الآن عن المرأة التي هو منهمك بها، ثم قال، "ما الذي تريدينه مني يا إيلي؟"

"لا شيء. لقد أردتُ أن أعرف ماذا أنتما فاعلان. وما إذا كان لدينا خطة لتناول العشاء معاً. ما لم تكن لديك مخططات أخرى"، تلعثم لسانها فجأة من فرط عدم ثقتها مما تريد قوله.

سمعت نبرة التبرُّم في صوته. "إنني في إجازة استجمام مع زوجتي، ويرافقنا طفل في التاسعة من عمره. فما هي المخططات التي يمكن أن تكون لدي؟".

وبالرغم من سخريته، وبالرغم من الحقيقة التي بدت باردة فإنها شعرت بدفقة من السرور. إذ من الواضح أن فرانك ليس شديد الغضب منها إلى درجة تدفعه إلى التخطيط لقضاء مسائه بعيداً عنها. فأيقنت عند ذلك أن ذلك الفكرة هي التي تقف خلف قلقها المستديم منذ الصباح.

"حسناً". قالت "سأكون مسرورة بالذهاب معك إلى حيث شئت أن تتعشى".

ولا بد من أنه كان قد أحس نبرة الخضوع في صوتها، بدليل أن صوته صار أهدأ وألْيَن حينما تابع كلامه معها. "كلا، فهذا اليوم كان من المخطط أن يكون يومك أنتِ إلى أن أطاحت هذه الأمطار اللعينة بجميع المخططات. لذلك فإن عليك أن تقرّرى ما هو المكان الذي ترغبين في أن نذهب إليه لتناول العشاء"

"لست لأبالي بالمكان"، شعرت بأنها تريد البكاء، ولأنها راغبة في كسر هذا الجليد بينهما فإنها قالت. "كل ما أطلبه هو أن أكون معك".

"دعيني أذهب للتفتيش عن راميش"، قال لها على الفور. "وسنكون عندكِ في خمس دقائق"

أقفلت خط الهاتف، وقد عاد إليها بعض الهدوء لإدراكها أنه لا يزال ما يكفي من الشعلة القديمة بينهما - أو على الأقلِّ، ما يكفي من النوايا الطيبة - بدليل أنه استطاع التقاط حاجتها إليه وقام بالاستجابة إليها. وبكل تأكيد، فإن الباب انفتح بعد دقائق قليلة ليدخل منه راميش متواثباً فيما يمشي مارك في أثره. وكان الولد يحمل ثلاث قمصان جديدة له ومنديلاً حريرياً لأمه، منديلاً كان فرانك قد جعله يعتقد أنه قد اشتراه بالعشرين روبية التي هي له. تقلصت معدة إيلي عندما تصوَّرت كيف ستكون عليه ردة فعل براكاش على هذه الهدايا المسرفة. فهى تشك في أن يكون الطباخ مرة قد استطاع شراء ثلاثة قمصان لولده معاً. وهم إذا كانوا قد ابتاعوا هدية من أجل آدنا، فلمَ لا يبتاعون هدية رمزية صغيرة لـ: براكاش؟ وعجبت ما إذا كانت مثل هذه البادرة قد مرّت ولو مروراً سريعاً، في ذهن فرانك. لكنها ستعني الكثير لـ: براكاش دون شك. وفي أية مناسبة أخري، فإنها لم تكن لتتأخر عن لفتِ نظر زوجها إلى هذا الأمر، ويكون صوتها معنِّفاً بلطف. لكن ليس في هذه المرّة. وبدلاً عن ذلك، فإنها قررت أن تلقي بعض النقود في يد براكاش، قائلة له أنهما لم يدريا ما الذي يشتريانه له. ولا بد من أن تتبخَّر النقود ساعتنئذٍ تبخُّر الكحول التي سيشتريها بها، لكن ذلك هو أمر لا فكاك منه.

وكان فرانك مهذباً معها، ومهتماً بها أثناء العشاء، لكنها كانت تعيسة. إذ إن تهذبيه معها كان يلسعها أكثر من غضبه منها – كان يعاملها معاملة غريب اقتضت من الظروف أن يكسر لقمة الخبز معه. وكانت شاكرة لله فضل وجود راميش الحيوي بينهما، وثرثراته التي لم تنقطع طيلة العشاء. وقد همّت عدة مرات بتوبيخه بسبب قيامه بالتحدث رغم أن فمه ملئ بالطعام، لكنها كانت تلجم نفسها عن ذلك في كل مرة لأنها تجد نفسها فجأة قلقة حول حقيقة دروها في هذه العلاقة. وعندما راقبت فرانك وهو يتفاعل مع الولد أثناء العشاء، فإنها أحست بتحوُّل في عواطفه، كما أيقنت أن شيئاً ما، يجري حتى تحت ناظريها بالذات. ولو كان الأمر يتعلق بامرأة أخري تنافسها على الاستئثار بعواطف فرانك، فإنها كانت ستعرف ماذا ينبغي عليها أن تفعل في هذه المنافسة. لكن المنافس الذي سلب منها قلب زوجها لم يكن سوي طفل وديع في التاسعة من عمره ولا يمكن لأحد أن يشعر نحوه برغبة الانتقام. والأمر هذا كله يحصل تحت عين رقابتها، حتى في اللحظة الحاضرة، وليس بيدها حيلة لمنع هذا التآكل البطيء في مكانتها وسط هذه الديناميات الحادثة التي حدثت بين ثلاثتهم. فالمسألة مع باني كانت تسري مسريً معاكساً - لقد أكمل باني الرباط بينها وبين فرانك وأوثقه بحيث دمج كلاً منهما في الآخر. ثم خطر لها أن السر يعود إلى الدور الحيوي والمهم لأمومتها ولجسدها الأنثوي الذي مان قد

جمع بينها وبين زوجها. لكن أثناء جلوسهم إلى هذا العشاء فإن إيلي وجدت نفسها تحمل جسداً ثقيلاً عديم الأهمية، كما شعرت أنها لا تستطيع استعمال هذا الجسد لصياغة رابط بينها وبين راميش لأنها لم تكن أمه. وفي الحقيقة فإنها لم تعد أماً لأحد وربما لن تستطيع أن تكونّ أماً لأحد في المستقبل. فحملها الوحيد الذي حملت به بعد ولادة باني قد انتهى إلى الإجهاض، ورغم أن طبيباً واحداً لم يستبعد إمكانية تمكنها من الحمل من جديد، إلا أنها لم تحمل بعد ذلك أبداً.

وبعد وفاة باني، أصرَّ فرانك على رجوعها إلى عادة تعاطي حبوب منع الحمل. ولم تقاوم هي إصراره هذا، لأن الحقيقة كانت أنها مرتعبة. بل متعبة أيضاً. فعملية تلقي مولود له وجه كالخوخة ثم القيام بعد ذلك بتربيته ليصبح ولداً مفعماً بالحيوية والذكاء في السابعة من عمره، إنما هي عملية كانت لذيدة ولكنها مضنية. وكل شيء خلال تلك السنوات السبع كان يدور حول باني – فمن الرضاعة، إلى مشاكل التسنُّن، إلى التدريب على النظافة وإفراغ الأمعاء، إلى الإصابة بالحصبة، إلى حفلات عيد الميلاد، إلى المنامة خارج البيت، إلى الواجبات المدرسية، إلى المخيمات النهارية، إلى مساعدة برنامج Shreka، بدلاً من برنامج Before Sunset (قبل الغروب)، أو أشرطة The Three Stages (الجواسيس الثلاثة) بدلاً من أفلام الفن في مهرجان الأفلام في آن آربور. سبع سنوات كانت هي وفرانك لا يتخذان خلالها خطة ولا قراراً دون أخذ حاجات باني في الحسبان قبل كل شيء، ولكن ليتكشّف الأمر في النهاية أن كل ذلك لم يجِد نفعاً. فكونها والدة جيدة مجتهدة لم يشكل طلسماً كافياً يحول دون قساوة هذه الدنيا المكشَّرة الغضوب. لقد غفلت عيناها لثوان قليلة، وفي تلك الثواني ضاع ولدها منها. لقد ابتلعته الأرض وحوّلته إلى تراب، ثم ما كان من إيلي بعد ذلك سوي الاستلقاء في فراشها وهي تحترب مع الأفكار التي تصوِّر لها الديدان وهي تلتهم ذلك الجسد الغالي العائد إلى ولدها، أفكار لازمتها طويلاً إلى أن صارت تتخيل انتقال الديدان تلك إلى داخل دماغها هي بالذات تنخر فيه وتآكله. مضت أشهر على دفنهما لولدهما، لكنها كانت لا تزال تناضل ضد صورة الديدان، فإذا بها تصحو من نومها في منتصف الليالي وهى تحكُّ فروة رأسها وترتعب من العودة إلى النوم من جديد خشية عودة الكابوس إليها. وفي كل يوم كان عليها أن تعالج بالمحسنات الدوائر السوداء المرتسمة حول أجفانها وبالمضي في نهارها مستمعة إلى قصص مرضاها. ومرة وحيدة فقط، كانت قد سمحت لنفسها بالتنفيش عن كربها إلى مريضة لها، وهي مدرِّسة متقاعدة كانت قد فقدت طفلاً لها منذ خمس وعشرين سنة. وكانت المرأة قد أكدت لها أن لا جناح عليها في ذلك، إلا أن إيلي قد ارتعبت من فكرة عدم تعويض المرأة. لذلك، فإنها أصرت على عدم تقاضي أتعاب الاستشارة من زبونتها، إلا أن لويس شاقر الطبيبة النفسية التي تملك العيادة

التي تعمل إيلي فيها ما لبثت أن سألتها عن سبب عدم إصدار فاتورة عن مدة هذه الزيارة، فما كان من إيلي سوى أن أخبرتها عن السبب. هنا نظرت لويس إليها نظرة مليَّة ثم قالت لها بهدوء. "أعتقد أنك قد بكَّرت كثيراً في العودة إلى العمل يا عزيزتي، ولكن حتى في هذا الوقت، إذا شئت أن تأخذي إجازة استراحة من العمل فإنه لن يكون لدى مانع من ذلك. فإننا سنجد طريقة لتأمين تغطية غيابك".

تململت إيلي في مقعدها عندما تذكرت كلمات لويس. وكانت لم تقبل الاستفادة من العرض الذي قدمته لها لويس، لكن، وبعد مرور بضعة أسابيع اتصل إلى علمها الاقتراح الذي قدَّمه بّيت تيمبرلايك إلى زوجها فأصرت عليه أن يقبل العرض دون الاستطالة في التفكير فيه. وكانت كلما ازدادت في حديثها مع فرانك حول هذا الموضوع، ازدادت اقتناعاً بأن هذا الخيار هو الخيار الصحيح، أي بدء حياة جديدة في الهند، البلد الذي لا يعرفان أحداً فيه، ولا يعرفهم فيه أحد بوصفهما والدىّ بانى. ولشدَّة دهشتها، فإن جميع الأشخاص في عائلتها وعائلة زوجها – باستثناء والدتها - قد أجمعوا على موافقتها الرأي. أما المعارضة التي كانت تتوقعها من جانب والدها، ومن جانب والدة فرانك، فإنها لم تظهر أبداً. إذ لربما أن الدوائر القاتمة التي باتت تحيط بمحجريها، وحقيقة أنها كانت تتصارع كل ليلة مع كوابيس صور الديدان التي تنخر داخل جمجمة ولدها... لربما تكون كل الأشياء أقلَّ خفاء على المحيطين بها مما كان قد تراءى لها. دولاريس فقط هي التي عارضت القرار وخلال إحدى المكالمات الهاتفية الطويلة بينهما في ساعة متأخرة من الليل، قالت لها: "إن الهرب إلى الهند لن يغير شيئاً من حقيقة ما حدث يا عزيزتي، ومثلما يقول المثل ’عليكِ بالذهاب في آخر السهرة إلى البيت الذي جاء بك إلى حلبة الرقص؟‘"

"لست أدري ما الذي تقصدينه بكلامك يا أمي"، قالت إيلي بلهجة باردة. كانت قد اتخذت قرارها، وانقضي الأمر. ولم تعد ترغب التعاطي هذه الليلة مع عبارات والدتها، الملغَّزة.

"كل ما قصدتُ قوله يا عزيزتى، هو أن كل ما ينبغي عليك أن تفعليه أنت وفرانك إنما يجب أن يُعمل هنا في هذه البلاد، حيث يوجد لك عائلة وأصدقاء يسندونك. من ذا الذي سيهتم لأمرك هناك في الهند يا عزيزتي؟"

في هذه اللحظة عضَّت إيلي على شفتها عندما تذكرت الجواب الحاسم الذي كانت قد أجابت أمها به. "لست في حاجة إلى قيام أحد بالاهتمام بأمرى يا أمي". لقد كانت إجابة تدخل في فئة ردود الفعل العكسية، ردَّة فعل يعود مرجعها إلى سنواتٍ من عمر مراهقتها المتمردة النازعة إلى استقلال التفكير في مواجهة والدتها المفتوحة الأعين عليها، الشديدة نزعة الحماية لها. أما الآن، وهي تسرع في داخل سيارة في الأرياف الهندية، فإن إيلي تعضُّ على

أصابعها ندماَ على إجابتها المتهوّرة لأمها. فاليوم فقط شعرت بأنها قد صارت بعيدة عن المرأة المفجوعة، لكن المؤمنة، التي كانت قد آمنت أن الهند - رغم أن الهند بلاد اليوغا واليوغيين، ونهر الغانج، ومدينة بيناريس المقدسة - سوف لن تكون هي الجواب على الأزمة الروحانية والعاطفية التي سبَّبها موت داني لكل منها ومن فرانك. وها هي الآن مجرد امرأة في حاجة إلى أحدٍ يواسيها - وها هي لا تستطيع الاعتماد في ذلك على زوجها، زوجها الذي هو الآن بالذات يغفو على المقعد الخلفي للسيارة فيما فمه مفتوح وصدره يوسِّد رأس صبي كان قد أشار إليه في وقت سابق بصفته ابنه – كل امرئ لديه شخص آخر ينسبه إليه، هكذا بدا الأمر إلى إيلي - شخص يكون قد أحبه، أو تزوجه، أو تبناه، أو أنجبه، أو استعاره بكل بساطة. هذا هو شأن كل شخص عداها هي. شعرت فجأة بالحنين لسماع صوت أمها. شعرت بجوع إلى لُقيمات الحكمة المكتسبة بأثمان غالية، التي كانت دولاريس لا تنفك تنزلها عليها دون أن تقصد ذلك على ما يبدو. وهي قد لا تمكِّنها الطبيعة من أن تكون أماً بعد الآن، لكنها ستستمر في كونها ابنة امرأة ما، وفي هذه اللحظة شكرت إيلي ربها شكراً عميقاً بسبب هذه الحقيقة. وقررت القيام بالاتصال بوالدتها فور وصولها إلى البيت.

استدار ساتيش بسيارته منعطفاً. وللحظة، مدت الشمس خيوط أشعتها من خلف الغيوم السوداء، غامرة الطبيعة الريفية بضوء أشبه بضوء أبيض اصطناعي. ولم تلاحظه إيلي سوى قليلاً. وبدلاً من ذلك، فإن أنظارها اتجهت إلى الأشجار المرتعشة وقد عانت أوراقها ما عانته من وطأة عنف الأمطار التي لا ترحم، وكان ثمة بقرة عارضة، نحيلة ومهزولة ومبللة، تلتمس الاحتماء من المطر تحت إحدي الأشجار. ورغم كون جو السيارة دافئاً وآمناً، فإن إيلي شعرت بالتوحُّد مع تلك الأشياء الموجودة في الخارج في الطبيعة، وقد أخذت الأمطار منها كل مأخذ، وتركتها عارية عن الحماية والأمان في هذا العالم المحفوف بالخطر.

وبقلبها المليء بالهواجس والرِّيَب، مدت إيلي أنظارها على امتداد الطريق التي تتمطّى أمامهم. تخيلت أن هذه الطريق أشبه بطريق مستقبل حياتها - طريق معتمة ولا نهاية لها واضحة، وعلى جانبيها تطبق الغيوم الرعدية المهددة الكثيفة.

الكتاب الثاني

صيف وخريف العام 1993

آن آربور - ميتشيغان

الفصل 14

لقد أراد أن .يشتريها

ولأنه شعر بالخجل بسبب تفاعله الأولي، فإنه سيحاول أن يتذكر الحقيقة بطريقة مختلفة، فيقول لنفسه إن تفاعله الأول عندما رأى إيلي لم يكن ذلك التفاعل الشديد أو غير المقبول سياسياً، فهو سيعدِل لاحقاً إلى القول إنه يعتقد أنه عندما ألقى نظرته الأولى على إيلي فإنه شعر بميل شديد يدفعه لامتلاكها، أو حتى إنه عرف منذ تلك اللحظة أنه يرغب في الزواج منها، لكن الحقيقة هي أنه قبل أن يستطيع التأكد من أفكاره، فإنه أراد أن يشتري تلك المرأة الجميلة التي ترتدي قميصاً أسود دون كمّين فوق بنطال فضفاض، والتي كانت تنحني على آلة الكمنجة، وكان شعرها الأملس الأسود ينثال عبر وجهها الذي تراءى له كأجمل وادقّ منحوتة وقعت عليها عيناه. لقد أراد أن يشتريها بالطريقة التي يتمنى بها المرء شراء مزهرية عاجية صينية دقيقة الصنع من متحف للمعروضات القديمة ،أو لوحة يقع المرء في حبها في صالة فنية.

حوَّل أنظاره عنها، خجلاً من الأفكار التي ساورته، لكنه في اللحظة الثانية عاد من جديد لتركيز أنظاره عليها، وقد فتنته في هذه المرة ساعة اليد الرجَّالية التي ترتديها في معصمها، وعروق يدها الزرقاء الغنية البارزة التي تمتد عبر معصميها النحيلين السمراوين بلذعة الشمس. ولقد سحرته أيضاً طريقتها في احتضان الكمنجة الكبيرة الحجم، وتلك الأنامل الطويلة التي تلاطف الآلة لتجعلها تمتثل لأداء ما تدعوها إليه. وهنا انتابته مشاعر وأفكار وتصورات جنسية مثيرة حولها فما كان منه سوى أن تعمَّد حفظ خطوط وجهها وشكل جسمها غيباً خشية ألا تسمح له الظروف بمشاهدتها ثانية، وهكذا، فإنه في حال تم إغراؤه للنوم مع إحدى حسناوات جامعة ميتشيغان العرَضيات، وما أكثرهن في أنحاء الجامعة، فإنه سوف يتذكَّر نسخته المثالية عن صورة المرأة الجميلة التي يتمناها.

وعندما تنبّه لنفسه أنه يطيل النظر إليها، حوّل فرانك أبصاره عنها خجلاً إلى الأشياء المحيطة به. وكان الزمان بعد ظهر يوم رائع من أيام حزيران/ يونيو. وكانت إيلي تعزف في فرقة وترية رباعية استأجر خدماتها ويلفرِد تيرنر، الذي كان والداه يقيمان له حفلة تخرج استلحاقيه على أرض ملكيتهما العقارية الواسعة. وكان ويلفرد يسبق فرانك بسنة جامعية واحدة في برنامج الماجيستير في إدارة الأعمال في جامعة ميتشيغان.

كانت الفرقة تعزف كونسيرتو براندنبيرغ رقم اثنين، لكن فرانك قلَّما كان يصغي إلى صوت الموسيقى فيما هو يشق طريقه بين المدعوين الذين يجولون في خطوط دائرية حول المكان الفسيح، بحثاً عن ويلفرد، "حفلة طيبة، يا صديقي المميّز "، قال له. "كيف تجري الأمور معك؟"

زمّ ويلفرد وجهه. "سوف أكون في حالٍ أفضل بعد أن تغادر هذه الجموع، وسوف نستطيع عندها أن نذهب لاحتساء بعض زجاجات الجعة في مقهى ماك لاري، فإن معظم هؤلاء هم أصدقاء دراسة ليس إلا".

أومأ فرانك برأسه إيماءة عارضة. وتظاهر بالتلفُّت حوله. "فرقة موسيقية رائعة "، قال وهو يحرص على إبقاء لهجته خفيفة. "أين عثرت عليهم؟"

تضاحك ويلفرد. "انس الأمر يا صاحبي"، قال. "إنك الشخص السادس الذي يقوم بطرح هذا السؤال علي، فالمعلومات التي سمعتها تقول إن لها خليلاً".

"وعمَّ أنت تتكلم؟"

"لا تتغابى عليَّ يا فرانك، إنك لن تخدعني. إما أن تكون صارت تهتم فجأة بالموسيقى الكلاسيكية، أو أنك صرت معجباً بالرجال الكهول"، قال ويلفرد مشيراً بذقنه في اتجاه الموسيقيين الكهول الثلاثة الذين يكملون الفرقة.

"قبحاً لك يا ويلفرِد"، قال فرانك منصرفاً عنه.

وسمع ويلفرد يقهقه وراء ظهره. "وهذا هو السبب الذي يستحق قيامهم بتسمية فرقتهم: أشعة القمر".

قضى الساعة التالية وهو يجوس حول المرجة الخضراء، متبادلاً كلمات بسيطة مع الطلبة الآخرين، ملتقطاً من وقت لآخر شيئاً من المقبّلات عن صينية خادم ما، عابر أمامه، ومحتسباً الخمرة البيضاء، ومتجنباً لقاء ويلفرد ووالدته. أخيراً توقف العازفون عن العزف لأخذ استراحة قصيرة، فاستغل فرانك الفرصة متخذاً طريقه كالنحلة إلى المكان الذي تقف عليه عازفة الكمنجة وهي تنتظر مرور خادم بها لتلتقط من صينتيه كوباً آخر من الخمر.

"مرحباً"، قال لها، "اسمي فرانك. ولا بد أنك قد صرت منهكة. ألا تريدين كأساً من الشراب؟"

قبلت منه الكأس المعروض عليها دون أن توليه التفاتاً كبيراً. "شكراً لك"، قالت له وشرعت في الانصراف عنه.

"مهلاً"، قال لها، فتوقفت لتنظر إليه في دهشة، فوجد نفسه يقول لها: "لي صديق يفتش عن عازف من أجل حفلة ميلاد ساهرة سيقيمها، هل تحملين بطاقة زيارة أو أي شيء من هذا القبيل؟"

أومأت إليه برأسها. "عليك بالتحدث مع تد. فهو الذي يقوم بترتيب جميع الحجوزات".

ومن طرف عينه استطاع فرانك رؤية الشباب الآخرين يحوسون في الجوار في انتظار فرصة مؤاتية للتحدث مع الفتاة. "حسناً، المسألة وما فيها، هي أنه لا يتوفر لدى صديقي سوى مكان ضيق. وهو يريد استئجار خدمات عازف واحد". وقد بدا هذا المنطق أعرج حتى في سمعه هو بالذات. "أتعرفين عازفاً يستطيع العزف منفرداً؟ عازف يجيد العزف على آلة القيثار الكلاسيكية، أو شيء من هذا القبيل؟

"حسناً، إني أعزف على آلة البيان".

آلة البيان؟ وما المشكلة في ذلك، إن ذلك سيكون رائعاً للغاية. إنه - صديقي - لديه مكان لا يتسع كثيراً لهذا، دعيني أتصل بك، أليس لديك بطاقة؟"

بدا أن حديثه يروق لها "آسفة، لا بطاقات لدي. فأنا أقوم بهذا العمل كعمل جانبي، لأكسب منه بعض النقود الإضافية. فالكليات الأساسية ليست رخيصة، كما تعلم".

أضاءت عينا فرانك. " أتذهبين إلى كلية الموسيقى بجامعة ميتشيغان؟"

"كلا، فقد بدأت التحضير لشهادة الدكتوراه في علم النفس في الخريف".

"واوو... واوو إن ذلك ممتاز". رأي فرانك ويلفرد يلوّح إلها بين ما هو يقترب منهما، "إذن دعيني آخذ رقم هاتفك"، قال ساحباً قلماً كاد ويلفرد الآن أن يدركهما، خربش رقم الهاتف على راحة كفه حالما قامت هي بالتلفُّظ به.

تقدَّم ويلفرِد وقبّل الفتاة قبلة واحدة على كل خد على الطريقة الأوروبية. شعر فرانك بموجة من الغيرة تجتاحه، يا له من متفاخر متزلفٍ لعين، جال في ذهنه." كيف تسير الأمور معك يا حبيبتي؟" قال لها ويلفرِد. " هل يقوم صديقي هذا بمضايقتك؟"

سارع فرانك إلى الكلام قبل أن يتسنّى لها وقت للإجابة. "أستطيع أن أدعكما تتحدثان "، قال. مبتسماا لها، "لقد سعدتُ بلقائك".

هزَّ رأسه نحو ويلفرِد رافعاا يده كما لو أنه ينوي حكَّ أذنه، بحيث يستطيع أن يُرِي صديقه رقم الهاتف مرسوماا على كفه، "حفلة طيبة يا ويلفرِد"، قال له. "أعتقد أن عليَّ الذهاب للتحدث مع أمك".

كان عليه أن يراقب خطواته جيداا بينما هو يبتعد عنهما، ولم يتذكر أنه لم يسأل المرأة التي ترك قلبه عندها عن اسمها سوى بعد أن وصل إلى المقصف للحصول على كأس جديدة.

هذه الحقيقة جعلت الأمر مربكاا عندما قام بالاتصال بها في اليوم التالي. وكان بإمكانه بالطبع القيام بسؤال ويلفرِد عن اسمها، لكنه لم يرد إعطاءه متعة التسيُّد عليه، كان يقوم بمضايقته والعبث به والأسوأ من ذلك كله، القيام بتوجيه المواعظ له، بل هو لا يجد أي رغبة في الكلام إلى ويلفرِد مطلقاا. وفي الحقيقة فإنه لا يرغب التحدَّث مع أي شخص سوى الفتاة. تلك الفتاة التي كانت قد تسللت إلى أحلامه خلال الليلة الماضية، الفتاة التي هي مسؤولة عن تصاعد ضربات قلبه، وعن رطوبة بيجامته التي لاحظها عند نهوضه من النوم. الفتاة التي أرجعته إلى مراهق غرير من جديد، لا يملك سيطرة على جسده بالذات. وكمراهق صعقه الحب، كان قد قام بنسخ رقم هاتفها على طبق من الورق عندما عاد إلى بيته من الحفلة، ثم قام بإعادة رسمه على باطن يده لأنه كاره زوال رقم هاتفها عن راحة كفه.

أسقط نفسه عن سريره عند الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، نظف أسنانه، وتخلص من أدران الصباح، وقام بترقيم رقمها، وقد أجابته بعد الرنَّة الرابعة. "مرحباا؟" قالت له. لكن هذه الكلمة الواحدة كانت لوحدها كافية لجعل بدن فرانك يتلوّى شوقاا.

"مرحباا"، قال لها. "إنني فرانك. ولقد التقينا في حفلة ويلفرِد بالأمس. وقمت بسؤالك إذا كنت تستطيعين العزف في حفلة صديقي؟"

ساد صمت وجيز، ثم قالت: "صحيح، أتذكّر ذلك".

ألا يمكن لها إبداء شيء من السرور؟ تساءل فرانك ضمناا، ولكن يا للفرح، فها هي تتذكَّر على الأقل، "عظيم"، قال لها. "حسناا، إنني أتصل بك اليوم لمتابعة الموضوع معك. فصديقي يريد استئجار خدماتك على وجه التأكيد".

ومتي سيكون موعد الحفلة؟"

التاريخ؟ يا للعنة. "إنه لا يعرف حتى الآن. لكنه سيكون في وقت ما، من شهر تموز/ يوليو، لكنه لا يدري حتى الآن متي سيكون الموعد على وجه التحديد".

"حسناًا، عليه أن يخبرني حلما يصبح متأكداًا من الموعد. لأن شهر تموز/ يوليو هو شهر كثيف الطلب. فكل شخص فيه يصبح راغباًا في الزواج". هل آنس شيئا ما في صوتها؟ هل فيه شيء من المرارة أو السخرية؟ هل هي ضد فكرة الزواج؟ أتكون هي ضد فكرة الحب والغرام ضد الرجال بشكل عام؟

"ألو؟ "ناداه الصوت من الطرف الآخر لخط الهاتف. " هل أنت لا تزال معي؟

"نعم، أنا هنا أسمعُكِ"، قال فرانك. فكَّر في سرعة. "تعرفين أنه قبل أن أقوم بتقديمك إلى صديقي، علينا أن نلتقي معاًا لنخرج بلائحة مواعيد تكونين فيها حرة، ونمرّ خلالها على الترتيبات الموسيقية. فهل أنت حرة للاجتماع على فنجان من القهوة أو شيء من هذا النوع خلال هذا الأسبوع؟"

"أتريد أن تستعرض أنواع القطع الموسيقية التي أحسن عزفها؟" هذه المرة لم يكن ثمة مجال للخطأ أو الارتباك حول نبرة صوتها. ولكن قبل أن يتمكن هو من الاستجابة، فإنها قالت، "حسناًا، سوف أحضر روزنامة عملي معي، ونستطيع تحديد بعض المواعيد. كما أستطيع أن أريك لائحة بالمختارات، ولكن ألا يجدر بصديقك أن يكون حاضراًا معنا؟"

تباًا لمسلسل الكذب هذا، إنه مصدر للمشقة والعذاب. كان قد بدا ينتابه شعور الشخص القذر العجوز. "لا تقلقي حول هذا الأمر. إنني - نحن نوعاًا ما نشترك في استضافة هذا الحفل معاًا".

لكنني ظننت -" بدأت جملتها قبل أن تغيِّر رأيها "مهما يكن".

"انتبهي"، قال لها، "إن لديّ فكرة، لقد كنت أنوي أخذ غداء سريع في مطعم على بابا عند الساعة الواحدة بعد ظهر هذا اليوم، أتعرفين مكان هذا المطعم في شارع ستايت ستريت؟ أيمكنك مناقشة هذا الأمر على طاولة الغداء؟

بعد أقلِّ قدر ممكن من التردد جاء الجواب بـ "نعم".

نعم؟ أيكون الأمر بمثل هذه السهولة؟ تنفّس فرانك الصعداء بعد أن أيقن أنه كان يحبس أنفاسه طيلة الوقت الذي كان لا يزال يكلمها فيه على الهاتف.

"عظيم"، قال آملاً ألّا تكون قد أدركت الرَّعدة البسيطة في صوته. "أراكِ عند الساعة الواحدة".

وفي اللحظة التي أغلق فيها خط الهاتف، أيقن أنه نسي حتى الآن أن يسألها عن اسمها.

وعند الظهر وجد نفسه يغيِّر قميصه للمرة الثانية فأوقف نفسه عن متابعة ذلك، كفى انهماكاً بالهندام، قال مخاطباً خياله في المرآة. إمّا أن تستسيغك أو أن لا تستسيغك، وأنت لن تكون خاضعاً لتجربة أداء دور. والطريقة التي كان يتصرف بها أرجعته بالذاكرة إلى الأيام التي كان فيها يتلبث على شرفة المنزل الأمامية في غراند رابيدز مرتدياً البذلة التي يرتديها عادة إلى الكنيسة كل يوم أحد، وهو ينتظر عودة أبيه. ولخمسة أشهر بعد مغادرة والده أبقى عينه يقظة بعد الخروج من الكنيسة كل يوم الحد، راغباً في أن يكون على خير هندام عندما يرجع والده، ثم وفي يوم رأى نفسه وهو في الثانية عشرة من عمره يرتدي البذلة التي باتت صغيرة على أخيه وهو يتأرجح على الأرجوحة الكبيرة البيضاء، وقلبه يقفز من صدره كلما مرت سيارة على الشارع الهادئ، رأى عقم ذلك الأمل الذي كان يشتعل في صدر ذلك الصبي، فدخل إلى داخل المنزل وخلع عنه تلك البذلة بأقصى سرعة استطاعتها.

اتخذ لنفسه مائدة في الفضاء الطلق في مطعم على بابا. وكان يتصفح كتاباً مستعاً من مكتبة عندما رفع بصره فرآها تقف أمام طاولته. وقد أيقن أنها قد لاحظت نظرته المندهشة المسرورة التي عبرت على وجهه عندما وقع نظره عليها. كانت ترتدي فستاناً أبيض بسيطاً يحمل طيات عريضة وله أزرار كبيرة سوداء من أمامه، أما نظارتاها الشمسيتان فتستريحان في شعرها. ولأنها محاطة بالرجال والنساء الذين يرتدون قمصان التي شيرت: فقد بدت بين الجميع كأنها زهرة في صحراء. شعر فرانك بجفاف ريقه عندما وقف لتحيتها والترحيب بها.

"مرحباً،" قالت له.

"أهلاً". ابتسم رغم معرفته أن ابتسامته كانت عريضة جداً قياساً على مناسبة اللقاء، لكنه لم يكترث. لقد كان يشعر بالسعادة للجلوس في مقابل هذه المرأة الجميلة. ولم يبالِ بمن يدرك أو لا يدرك ذلك، "لقد انتقيت مائدة في الباحة الخارجية. وآمل أن يناسبك اختياري". "خيار رائع". نظرت حولها ومدت أحد ذراعيها مشيرة.. "إنه يوم بديع".

أجل إنه كذلك "، قال لها. "نهار في كمال التمام ". وكان لا بدّ لها من أن تسمع شيئاً ما، في صوته لأنها نظرت إليه ملياً قبل أن تعود إلى خفض

أنظارها، طلبت لنفسها شاياً مثلجاً وسندويتشاً من الفلافل، وطلب فرانك لنفسه سفائن دجاج كما طلب طبقاً من الحِمَّـص ليتشاركا عليه.

"حسناً، لدي اعتراف عليَّ أن أقوم به"، قال عندما غادرهما الخادم. إني ما زلت أجهل حتى اسمكِ".

"آه، إني آسفة لذلك. إن اسمي هو إيلي".

إيلي، قلب الاسم فقرر أنه أشبه بجرعة خمر أحمر تدور في فمه.

"إنني سعيد للقائك يا إيلي"، قال لها.

"وأنا أيضاً. وهكذا، أنبدأ باستعراض روزنامتينا؟"

اقتطع لنفسه قطعة من طبق الدجاج وغمسها في طبق الحِمّص، "دعينا نؤجل ذلك إلى ما بعد الغداء"، قال لها. "فالطاولة صغيرة الحجم".

"آسفة. كلامك معقول".

"حتى وإن كنتِ مستعجلة؟"

"كلا، إنني مرتاحة. إذ ليس لدي مخططات لهذا اليوم، بحمد الله ".

"إذن ما الذي يدعوك لدراسة علم النفس؟ " سألها، بينما تدور في ذهنه فكرة تقول: إذا رفضت فكرة النوم معي فإنني سأحترق على الفور.

"إنه الأمر الذي كنت أتوق إليه دائماً مساعدة الناس على النقاهة من مشاكل حياتهم، واعتقد أن هذه الرغبة هي أيضاً إحدى أسباب انجذابي الدائم نحو الموسيقى".

" صحيح. بعدما سمعتك بالأمس، إني الأعجب كيف أنك لا تختارين دراسة الموسيقى. لقد كنتِ رائعة".

"أشكر ثناءك. عندما كنت صغيرة، راودتني فكرة احتراف الموسيقى. ولقد قمت باختيار مقررات موسيقية قبل أن أتخرج".

"وأين تدريسين؟"

"في أوبرلين".

"وهل المكان هو مسقط رأسك؟"

"كلا، فلقد ترعرعت في شاكر هايتس، قرب كليفلاند، لكن والدي يقوم بالتدريس في جامعة أوبرلين، لذلك..".

"لقد سمعتُ عن شاكر هايتس، ألا يزال أهلك يسكنون هناك؟" كان فرانك دارياً أنه يتخطى حدود الجراءة بمتابعة طرح كل هذه الأسئلة، لكنه لم يجد استطاعة على التوقف عن ذلك. وجد نفسه مفتتناً بالعذوبة التي تتكلم بها إيلي. وهي لا تمتلك شيئاً من ذلك الخجل والإحساس بالذات الذي ينتاب النساء الجميلات عادة.

"يبدو أنك عشتِ طفولة سعيدة"، قال لها، كارهاً مسحة التعجب والغيرة التي سمعها في صوته.

بدا الحياء على وجهها. "هل يبدو الأمر لك جلياً بهذه السهولة؟ أعتقد أن عليَّ أن أجعل ذلك سراص شخصياً حريزاً عن مرضاي. لكن الأمر صحيح - لقد كانت طفولتي سعيدة، يمكنك أن تتصور ذلك ".

ابتسمت، فشعر بأنه يصبح مبلبلاً فكل شيء حول هذه المرأة كان يرمي به إلى خارج جادته. ولم يدرِ ما هو الشيء الذي هو من الأجدر به القيام بالتركيز عليه فيها – أيكون ذلك الشيء هو بشرتها الصافية الملوَّنة بأشعة الشمس، أم هو إشراق وجهها، أم هو طريقتها اللامبالية التي تزيح بها شعرها عن وجهها، أم هو طريقتها في تحريك يديها بينما هي تتكلم بتلك الكلمات الفضية التي تنثال من فمها انثيال مياه شلال. وقد عرف فرانك أنه ذو إطلالة جميلة. فبينما كان لا يزال جسمه ينمو كان يلاحظ الغرباء يقبلون إلى أمه ليقولوا لها كم أن ابنها بارع الجمال: أما جَني وايت، البنت التي تسكن في الجوار فقد قامت بإعطائه أول قبلة في حياته عندما كان لا يزال في الثانية عشرة من عمره، لكنه شعر فجأة بالتوتر وبقلَّة اليقين في نفسه مثلما حصل له في الليلة التي قبَّلته فيها جني وايت خلف الكاراج.

"هل سمعتَ أي كلمة من الذي قلته لك؟" كانت إيلي تقول له.

" عفوك، إني متأسف لأن ذهني قد ذهب شتاتاً للحظة ".

قطبت جبينها." هل صحبتي مضجرة إلى هذه الدرجة؟"

أيقن أنها تقوم بمعابثته، فجعله هذا اليقين يضحك مستبشراً كلا، كلا، بل العكس صحيح".

"كنت أسألك عن المكان الذي نشأتَ فيه".

"في غراند رابيدز، وهي تبعد أكثر من مئة ميلٍ من هنا بقليل، لكن بُعدها الآن عني أشبه ببُعدِ كوكب"؟

"ماذا تعني؟"

نظر إليها نظرة غير المتأكد من الطريقة التي عليه أن يفسَّر لها الأمر بها.

"لقد ولدتُ في غراند رابيدز"، قال لها، "لكنني ما شعرت مرة أنني أنتمي إلى ذلك المكان. ولكن، ومنذ يومي الأول هنا في آن آربور، فإنني شعرت كأنني - - في بيتي وفي مكاني".

هزت راسها هزة استيعاب. "وماذا عن والديك؟"

"إن والدتي لم تكن شديدة التعلق بتلك المدينة أيضاً، لكنها ما زالت رغم ذلك تقيم فيها. أما والدي -"أمسك عن الحديث لبرهة عابرة ليتأكد من أن صوته سيبقى هادئاً وواقعياً عندما يستأنف الكلام، "والدي – غادرنا عندما كنت في الثانية عشرة من عمري. لهذا فإنني لا أدري ما الذي كان يعتقده حول تلك المدينة".

هنا احتقبت العينيان السوداوان شيئاً ما، فيهما. ذكاء حادٌّ مختبر. "أني آسفة "، هذا كل ما قالته، وببساطة.

أشاح بنظرته عنها خشية أن يلمح دمعة تعاطف معه في عينيها. وعادت به الذاكرة إلى اليوم الذي عاد فيه من المدرسة إلى البيت فوجد أمه تذرف دموعها في غرفة المنامة. فلم يكن منه سوى أن وجه الملامة إلى نفسه على الفور، واسترجع الطريقة المتحدّية التي كان قد خاطب بها أباه عندما طُلب منه القيام بإزالة بعض الحاجات عن الطاولة في الأسبوع الفائت، كان قد اقتنع بأنه قد نقل إلى والده دون قصد منه ذلك الشعور المتنامي الدفين بالعداوة والاحتقار، الذي كان قد بدأ يشعر به تجاهه. ولمدة أسابيع بقي يداوم الجلوس على الشرفة متفاوضاً مع الله. أما في المدرسة فقد هشم أنف زميله تومي هافنز لأن الأخير كان قد تجرّأ على سؤاله عمّا إذا كان يشعر بأنه على ما يرام بعد رحيل والده.

"كان ذلك منذ وقت طويل"، قال لها الآن. كانت نبرة صوته محسوبة ولطيفة، كما لو أنه يخبرها عن نزهة سالفة.

"حسناً"، قالت، وفتحت فمها وكأنها تهمُّ بقول المزيد، لكنه تصلب بطريقة شديدة الخفاء. "أوكيّ؟" تابعت، "ألا يجدر بنا العودة إلى مناقشة المسالة التي اجتمعنا من أجلها؟"

حدَّق في وجهها كمن لا يدري بشيء. "وما هي تلك المسألة؟" سبقه لسانه إلى القول.

ضحكت. "أليست هي مسألة الحفلة؟ التي ستقام في بيت صديقك؟ لقد اعتقدتُ أنني هنا للبرهان على جدارتي بإحياء الحفل؟ ألا تريد الخروج بتحديد لبعض المواعيد المحتملة وببعض المقطوعات المنتقاة؟"

أتراها قد أدركت أنه قام باختراع هذا الموضوع من أساسه؟ لم تكن باستطاعته الإجابة الحاسمة على ذلك التساؤل. وفى تلك اللحظة كره نفسه لقيامه باختلاق قصة الثور والديك هذه، لكنه ربما لم يكن ليصبح السعد حالاً لو أنه قام بإعلامها صدقاً بحقيقة الأمر، حقيقة أنه سيموت في الحال إن هي رفضت مضاجعته. لكنه ما إن بدا يحاول اتخاذ قراره عمّا إذا كانت هذه هي اللحظة المناسبة للاعتدال في جلسته على كرسيّه والقول لها إن ثمة اعتراف لديه، وعليه الإدلاء به، حتى وجدها تسحب روزنامة عملها وقد بدت عليها سيماءٌ أنبأته أنها لا تزال لا تمتلك فكرة أنه ليس ثمة من صديق ولا من احتفال بعيد ميلاد.

شيء ما، تحرّك في داخله، شعور عميق بالحنان تجاه هذه الفتاة الغريرة التي تثق بالناس، والتي تكبُّ في هذه اللحظة برأسها فوق دفتر مواعيدها الكبير. وها هي الآن تنحني فوق حقيبتها لتستخرج منها حاسوبها الـ: نوت بوك، وأيقنت أنها قد دوّنت فيه بعض المختارات الموسيقية المحتملة للمناسبة المزعومة. حرّك كرسيّه نحوها إلى مسافة أقرب وقال لها. "لنلق نظرة"، وكان صوته أبحَّ من فرط رغبته الجنسية العارمة، بحيث إنه استغرب كيف أنها لم تلاحظ ذلك، شعر كأنه منحرف مارق يستمدُّ متعته لمجرد الاقتراب إنشاً واحداً من هذه الفتاة الجميلة.

بدأت تعطيه فكرة موجزة عن كل قطعة موسيقية فيما هو نصف مصغٍ إليها بينما هو في حالة نصف هذيان، فهو يستمتع برائحة الصابون الذي اغتسلت به، وباستنشاق ريح عطرها الذي تعطرت به، ولا يتورع عن استراق نظرة وجيزة إلى وجهها كلما سنحت له الفرصة بذلك." أتعرفين ماذا؟" قال في النهاية عارفاً أنها كانت تنتظر منه استجابة ما، على اقتراحاتها العديدة. "أنت تقررين في مسألة اختيار القطع الموسيقية، فإن لي ثقة مطلقة - بحسن ذوقك، وسلامة اختيارك". وفي هذه المرة سمح لنظرته بالتلبث قليلاً فوق وجهها، وجالت نظرته على عنقها، وعلى المكان الجميل الذي تلاقى فيه فستانها مع صدرها. احمرّ وجهها خجلاً فأشاحت عنه بأنظارها، لكنها عندما عادت وتكلمت، فإن كلماتها كانت خفيفة جذلة. "لا مشكلة. لنتفق إذاً على مسألة الموعد".

"هل أقول لك شيئاً لم لا تقومين بإعطائي ثلاثة مواعيد مبدئية أقوم بعرضها على صديقي؟"

"فكرة جيدة".

شعر بضيق شديد لفكرة أنه سيكون مرغماً على وداعها الآن بعد انتهاء الغداء. فالافتراق عن إيلي بات يمثّل له صحوة من نشوة الخمر. " رويدكِ"،

سمع نفسه يقول، "لقد كنت أفتكر في المشي إلى متحف الفنون. هل تعرفين شيئاً عن معرض شاغال؟ وهل لديك أي ميل لمرافقتي إليه؟"

"لقد سبق لي أن شاهدته، قالت له. هنا غابت الشمس من قرص الفلك كما لو أن يداً ساحرة قد اقتطفتها منه عنوة، "لكنني شغوفة بشاغل. فإذا كنت تريد الذهاب، فلا مانع لدي من مرافقتك لمشاهدته من جديد"، وهنا استعادت الشمس مكانها الأثير كالمعتاد في وسط السماء.

"ممتاز. لنذهب إذاً"، قال لها واضعاً ورقة نقدية من فئة العشرين دولاراً على المائدة، وعندما مدّت يدها نحو جزدانها، لامس يدها برفق وقال. "هذا غير ممكن، فإنني كنت من دعاك إلى هنا، وقد كان في تلك الدعوة سروري ومتعتي". وخلال الوقت كله كان يخاطب نفسه قائلا: لا تنس هذه اللحظة لأنها اللحظة الأولى التي قمت بملامستها بها.

أمضيا ثلاث ساعات سعيدة في تجوالهما في المتحف. وعندما غادرا، أرادت إيلي زجاجة كوكاكولا فذهبا إلى مقهى مجاور، وسرعان ما وجد فرانك نفسه يتحدث عن المطعم الصيني الرائع الذي كان قد فتح أبوابه مؤخراً في شارع ماين، وقالت إيلي أنها تحب الطعام الصيني فانتهى الأمر إلى قبولها دعوته لها إلى تناول العشاء في المطعم المذكور. وكانت الساعة قد قاربت التاسعة ليلاً حينما افترقا، ولم يكن ذلك سوى بعدما رفضت إيلي فكرة فرانك المتكررة بأن يقوم بإيصالها إلى منزلها، وهنا قام باجتياز الشوارع مشياً إلى بيته وهو يصفر لنفسه فرحاً، موعده الأول معها استدام ثماني ساعات، أي طيلة ساعات يوم عمل كامل، فبينما يمضي التافهون الآخرون نهارهم عبيد الساعات تنقيب بطاقات الدوام، فيما هم يمالئون الرؤساء في العمل، ويصرفون نهاراً كاملاً في الكدح، فإنه قد انتهى لتوه من تمضية ثماني ساعات في رفقة امرأة بدا له أنها تزداد جمالاً بين كل دقيقة وأخرى. هذا ليس أمراً سيئاً بالنسبة لموعدٍ غراميٍّ أوّل يا عزيزي فرانكي، قال مدللاً نفسه. إنه ليس سيئاً أبداً.

وقام بمخابرتها في اليوم التالي، لكن إيلي كانت خارج البيت ولم يستطع أن يكلمها، لكن ردت مكالمته عند المساء وتكلما لمدة ثلاث ساعات. وقبل أن ينهيا المكالمة، قام بسؤالها بصورة عرضيَّة عمّا إذا كانت غير مرتبطة في موعد الغداء يوم السبت، ولم تكن مرتبطة أبداً. وهي ستكون تعزف في مناسبة زفاف يوم الأحد، لكن عليها الذهاب في اليوم ذاته لاستلام كتاب من بوردز حيث كانت رتبت للحصول عليه بموجب طلبيَّة خاصة، وهل يمكنه الذهاب معها؟ طبعاً يمكنه ذلك، ولكن ماذا عن التزوُّد بغداء سريع قبل القيام بذلك؟ ربما في مطعم على بابا مرة ثانية إذا كان هنالك متسع من الوقت.

حضر إلى المطعم وفي نيته القيام بالاعتراف لها بما قام به من مخادعتها. تدرّب على كيفية إبقاء لهجته خفيضة، وعلى كيفية إظهار وجه حزين لها، معترفا ااًا أنه قد وقع تحت سحر نجوميتها. وقد وجد أنها قد سبقته إلى الحضور إلى هناك. "مرحباً"، قال لها بإشراق، فاستدارت لمواجهته، لكن عيناها كانتا باردتين. جلس في المقعد المقابل لها لكن. شعوراً مفاجئاً بالخوف غلّف كيانه.

"ما الأمر؟" قال لها من غير تأكُّد لكنها قاطعته قائلة، "أريد أن اعرف منك شيئاً وأن السلك قول الحقيقة. ليس هنالك من صديق لك، صحيح؟ كما أنه ليس هنالك من حفلة عيد ميلاد لأعزف فيها؟"

هزَّ رأسه محاولاً استحضار ذلك التعبير الجرويّ (من الجرو) الحزين الذي كان قد تدرّب عليه، لكنه فجأة رأى أن الموقف، كما تراه هي، ليس مجرد خديعة بريئة يقوم بها رجل صعقه الحب، لكنه ينمُّ عن خطة مدبَّرة يحيكها رجل هو من القساوة بما يكفي للكذب من أجل الوصول إلى مبتغاه. "إني آسف"، قال لها. "ولقد كان في نيتي الاعتراف لك بالحقيقة في هذا اليوم".

هزَّت رأسها في غضب، فأيقن أن ما حسبه برودة منها منذ قليل، لم يكن في واقع الأمر سوى الغضب، "شيء واحد عليك أن تعرفه عني يا فرانك، إني أكره أن يكذب احدٌ عليّ، حتى وإن كانت الكذبة من النوع الذي يسميه الناس كذبة بيضاء"، هزت رأسها مرة ثانية "يا إلهي، إني لأشعر شعور الخائب الخاسر لست لأصدق أنه يمكن لي الوقوع ضحية لمثل هذه المناورات المكشوفة. لقد تبيَّن تلك الذهني في هذا الصباح. وفي كل حال. أعتقد أن المهزلة قد مرَّت علي". دفعت كرسيها إلى الوراء ونهضت.

"إلى أين - إلى أين أنت ذاهبة؟"

كان صوتها خفيضاً ولكن عامداً "ذاهبة إلى التي طريق يبعدني عنك". انصرفت عنه ثم التفتت إلى ورائها، "أرجوك ألا تحاول أن تكلمني مرة أخرى".

جلس إلى الطاولة مشلولاً ذاهلاً، وهو يراقبها تبتعد عنه حتى غابت صورتها عن ناظريه تماماً لم يشعر بالحزن، بل شعر بالغضب. غضب من نفسه لأنه نسف الأمر برمّته عندما لجأ إلى الكذب من أجل الحصول على شيء اعتقد أنه لا يملك حظاً واقعياً موفوراً يمكّنه من الحصول عليه بطريقة أخرى. ولينتهي الأمر بخسارته لها في كل حال. كما شعر بالغضب منها لأنها لم تتفهم الأمر، ولأنها عاملته كما لو أنه نبتة طفيلية متسلِّقة أو شيء من هذا القبيل، بدلاً من أن تنظر إليه كمجرد فتى في الثالثة والعشرين من عمره، وقد وقع قلبه بشكل ساحق في غرام امرأة، تباً لها، قال مخاطباً نفسه. إنها لا تستحق هذا الحب. وربما تكون معتادة على الشخير أثناء نومها. قام بتقسية

قلبه تجاهها، وعاد من جديد ابن الثانية عشرة الذي بعد أن توقف عن صلوات المساء لعودة والده، لم يعد يستطيع السماح لنفسه بخسارته من جديد. لقد حماه غضبه، لقد مكّنه الغضب من مغادرة المطعم دون أن يذوب إلى كتلة من الدموع.

لكن دموعه ما لبثت أن فاضت حالما أدار المفتاح في باب بيته ودخل إلى شقته التي بدت فارغة ولها وحشة القبور. تهالك على أريكته فيما ذهنه يتصفّح الصور التي رسمها خلال الأيام القليلة الماضية – صورة إيلي برأسها الحاني فوق آلة حاسوبها النوت بوك، إيلي الحانية فوق آلة الكمنجة انحناءة الحبيب العاشق، إيلي المتبحِّرة في وجهه بعينيها الذكيتين اللتين لا تخفاهما خافية – وها هو يعود صبياً مراهقاً من جديد، يبكي خسائره، ويعود إليه ألمه لخسارة والده عودة سريعة شريرة، هي أشبه بعودة رجل غاضب يشهر سكيناً وهذا الألم يندغم في آلامه الناتجة عن آخر خساراته. وتدخَّل الجانب المنطقيُّ من عقله محاولاً إقناعه بأن هذا السلوك إنما هو سلوك مجنون، فهو لم يكد يتعرّف على هذه المرأة، وأنه إنما يبكي خسارة شبح من الأشباح، لكن كل ذلك لم يجِده فتيلاً. أدار جهاز الستيريو بحيث لا يسمع نشيجه أحدٌ من الجيران، ثم بكى في سأمٍ وهو لا يكاد يدرك أن الأصوات الصادرة عنه إنما هي أقرب إلى أن تكون أصوات مراهق غرير من أن تكون أصوات رجل بالغ. فكر في القيام بالاتصال هاتفياً بأخيه سْكوت، لكن الاتصال الهاتفي يقتضي منه قدرة على إخراج كلمات وهو يشعر أنه لا يقوى حتى على إخراج الكلمات في هذه اللحظة.

امتنع عن الطعام نهاراً كاملاً بعد حديثه الأخير مع إيلي. كما امتنع عن حلاقة ذقنه لمدة أربعة أيام، ولم يغادر شقته سوى لماماً. كما تجاهل اللتين تركتهما أمه له على مجيب الهاتف، وبقي يدير قرص جيم ماريسون على الستيريو في كل ليلة ويكرع زجاجتين من الجعة قبل أن يتهالك في سريره.

وفي اليوم الخامس، نهض من فراشه باكراً، فحلق نقنه، وارتدي ثيابه. وقرر التوقف عن التصرف تصرف الأحمق المعتوه، قرر الخروج في نزهة على الدراجة الهوائية، فركبها متجهاً نحو النهر. بعد النزهة التقى صدفة نفسه عندما تمكن في نهاية المطاف من العودة إلى منزله عند الساعة الرابعة بعد الظهر، فخوراً لأنه طوى نهاراً واحداً دون أن يمضيه في التفجع على خسارته لإيلي. أخذ حمّاماً سريعاً، ثم وعند عودته إلى غرفة المعيشة شاهد الضوء اللامع على مجيب الهاتف.

"انتبه إليَّ"، كان صوت إيلي، المسجّل، يقول. "إن طلبي منك ألّا تحاول الاتصال بي أبداً لا يعني أن عليك الاتصال بي – وعليك أن تعرف أنه ليس لك أن تتصل بي من جديد".

وكان قد بدأ بترقيم رقمها حتى قبل الانتهاء من الإصغاء إلى بقية الرسالة المسجَّلة.

الفصل 15

امتاز ذاك الخريف كله برائحة البطيخ، وباحتراق حطب المواقد، وكان الهواء زجاجياً وشفافاً مشى فرانك وإيلي في انبهار في ذلك الخريف، تحت سماوات زرقاء صافية تطوف فوقهما طوفان نهر سريع الانسياب. وفي بعض الأيام كان يخيّل إليهما أنهما يجلسان عند حافة الكرة الأرضية، وأنهما لا يكادان يحافظان على توازنهما خشية السقوط عن ظهر الكوكب. وكانت الشوارع مغطاة بالأوراق الذابلة الجافة، الأمر الذي انضاف إلى هذا الشعور بالترنح، ولم تنقطع الأشجار التي خولطت في أمرها عن النزيف، وكان نزيفها عبارة عن أوراق ملوَّنة بالأصفر والأحمر والذهبي، وهذا الإسراف الفاحش الذي تبرّجت به الطبيعة جعل فرانك وإيلي يتوردان خجلاً. ولم يسبق لميتشيغان أن بدت من قبل على هذه الدرجة من الجمال، وعلى هذه الدرجة من التوحُّد. لقد أمضيا الساعات تلو الساعات في ذلك الخريف وهما يتمشيان عبر الشوارع المليئة بن ثار الشجر في آن آربور، فهما يتسلقان المنحدرات المحاذية لضفاف نهر هورون، ويتّبعان في ذلك مسالك المشاة في المناطق المشجّرة. وفي عطل نهاية الأسبوع كانا يعتزلان أصدقاءهما ويركبان سيارة إيلي الفورد الصفراء، إلى المناطق المجاورة المخصصة للتخييم، وينامان تحت النجوم وهما يحدقان في الأقمار التي تتراوح من الصريحة المستديرة إلى تلك التي لا تكاد تشكّل أكثر من خدش فضيٍّ بسيط في صفحة السماء. والأمر الذي لم يكن منه بدٌّ، هو أنهما تبادلا لذاذات الأجساد، وكانت العلاقة الجسدية بينهما تقام بنوع من الانفعال العنيف، كما لو أنهما منخرطان في جدال صامت ليس له نهاية. وكلما جذبهما نداء الرغبة تركهما منهَكَين مستهلكَين، وكلما حاولا أخذ بعض الاستراحة بالانفكاك الجسدي ولو مرحلياً، وجدا أنهما لا يقويان على ذلك. ولا يجدان حيلة تحولُ دون اشتباك العيون والشفاه والأيدي. فإذا انفكَّ اشتباكهما وجدا أنهما يتصرفان بطرق تصدمهما وتخجلهما.

وكانت إيلي تضع اللوم في ذلك على الطقس. وإذا بها تعوِّل على تبدُّله لعل الهواء القارس يتحوَّل إلى جليد ويحررهما من هذه اللوحة المكوَّنة من العشق المثير للاستهجان، التي انحدرا إليها، فالخريف لم يكن فصلاً عاقلاً مدرِكاً، ولذلك فإنه جعل كل شخص يتصرف بشيء من السُّكرِ والنزوة، وقد تعامت إيلي عن حقيقة أن سلوكها النزويّ قد ابتدأ في شهر حزيران/يونيو بعد أن كانت قد التقت فرانك للمرة الثانية في مطعم على بابا وقالت له إنها لا ترغب في رؤيته مرة أخرى. لقد مشت بعد ظهر ذلك اليوم وكان ملؤها الغضب المبرَّر، لكنها في تلك الليلة شعرت أن الألم في جسدها بات حاداً حتى اعتقدت أنها مصابة بالأنفلونزا. لكن وبعد مرور أربعة أشهر، فإن ذلك الألم لم يتبدّد عنها، أو يبارحها، وبصرف النظر عن عدد الساعات التي تصرفها مع مارك، والليالي التي تقضيها إلى جانبه وهما يتحدثان، وعدد المرات التي يتطارحان بها الغرام النزوي، سواء أحدث ذلك بينهما بشراسة أم بلطف، وباندفاع أم ببطء. فإن كل ذلك كان يبدو لهما غير كافٍ. وهي لا تزال على تعطُّشها إلى هذا الرجل الذي أوجعها حضوره في حياتها.

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي تقع فيها في الغرام، ولهذا فإنها لم تكن مهيَّأة لهذا. لذلك فإنها ألقت اللوم على الطقس. وانتظرت انحسار هذه النوبة عنها، لتصحو منها كما يصحو الحالم من حلمه. لقد خُيّل إليها أن المسألة هي مسألة وقتٍ فقط قبل أن تسأم هذا الرجل، لذلك فإنها كانت تنتظر مجيء صباح ينهض فيه من فراشها فلا ترفع رأسها عن الوسادة لتشرب بعينيها جمال جسده. كانت تصلي لقدوم مثل ذلك الوقت الذي يتركها فيه يوماً من الأيام في حالها جسده الجميل، الحسن النحت والقوام - من ساقين عضليتين طويلتين تحمل ركبة الساق اليسرى منهما آثار جرح رفيع، إلى كفلين منقرين، إلى الاستدارة الفاتنة في أسفل ظهره، إلى لوحتي كتفيه المنبسطتين إلى الخارج كانفراج جانحي ملاك، إلى القوة الحيوانية في عنقه الطويل الملتف، إلى وجهه الوسيم الذي يضارع جمالُه جمالَ وجه النساء لولا أنفه المنكسر. لكن ذلك اليوم لمّا يأتِ بعد. وفي بعض الأحيان، عند ما تنظر إلى جسده العاري فإنها تشعر بنوع من الفظاظة، والعنف، وهي إثارة كانت دائماً تتخيل أنها ذكورية. لقد أفزعتها تلك الدرجة من الشبق، وذلك الشعور العاري، وتلك الشهوانية، لأنها جميعاً تتحدى أيَّ فكرة لديها عن الأنوثة.

ووجودها مع فرانك قد جعلها قويّة، وأوقد جميع شهواتها وقدراتها، فهي باتت تلعب لعبة السكرابل بما يتعدى غريزة القاتل، وتضحك، كما تتكلم، بصوت أعلى من المعتاد، حتى إنها باتت تأكل وجبات طعام كبيرة في حضوره. جلست في غرفة المعيشة وساقاها منفرجتان، تاركة الشهوة تسجل في عينيها حتى وجدتها تتقد في عينيه. ومع ذلك لم يكن هنالك أيٌّ من الحياء أو الفتنة الأنثوية في سلوكها، بل كان هنالك نوع من المساواة الصافية حول

علاقتهما الجسدية. وكانت في العادة تغادر شقتها عند الصباح مرتديه إحدى قمصانه حاملة رائحة جسده فوق جسدها بينما هي تقود سيارتها إلى بيتها، مستعذبة الآلام التي أوقعها فرانك بنهديها، وبأماكن أخرى، ومستمتعة بكلِّ علامةٍ أو خدشٍ أو أثرٍ تركته العلاقة الجنسية على جسدها. وفي كل آونة وأخرى كانت تفاعلاتها وأفكارها تتسبب لها بالإحراج كانت تفعله وتتصرفه مع فرانك يتم على حساب احترامها لنفسها. فلو أنه اقترح عليها مرة أن ترتدي ثيابها بطريقة معينة، أو أن تقوم بتلبية بعض نزواته الذكورية الحمقاء، فإنها ما كانت سوى لتفقد رغبتها فيه. لكنه لم يفعل شيئاً من ذلك مرة. لقد كان موجوداً على الدوام وجاهزاً لملاقاتها في رغباتها، ولأنهما يقفان على قدم المساواة، فإن غزارة بسيطة في نظرته إليها كانت المساعدة الوحيدة الكافية التي تحتاجها منه كي تلتهب.

وبالرغم من أنها لم تكن مرة على هذه الدرجة من الشبق في حبها لأي رجل كانت قد لحبته من قبل، فإنها أقنعت نفسها بأنها كانت فعلاً كذلك، فإذا بها تقوم بغربلة الماضي، وتخرج بالسماء بعض الرجال الذين لم تعد تتذكر أسماءهم سوى بصعوبة لتضفي عليهم تلك الغزارة في الشعور الذي لم تكن في حقيقة الأمر رقد أحست به مرة أيام كانت تقوم بمواعدتهم. من ديفيد، إلى ميسيان، إلى ريتشارد، إلى جوزيه، لكنها كانت تقنع نفسها أنها كانت تعشق كلاً منهم بجنون، كما كانت تقوم بتذكير نفسها كيف أنها كانت تبرأ من حب الواحد منهم فجأة، فهي فكَّت علاقتها مع ديفيد لأنه قال لها أنه لا يرى أية حاجة إلى تعديل قانون المساواة في الحقوق. وفكَّت علاقتها مع سيان لأنه ضرط أثناء مشاهدتهما لأهم مشهد في فيلم بيرسونا، لمخرجه بيرغمان، الذي كانا قد استأجراه لمشاهدته، وهي فكّت علاقتها مع جوزيه لأنه كان قد أسرّ إليها أنه قد شاهد فيلم لستوري، اثنتا عشرة مرة وحفظ قصته عن ظهر قلب. وهي فكّت علاقتها مع ريتشارد لأن العلاقة الجنسية معه باتت ذات وتيرة متوقعة ومضجرة، وهي قد انتظرت أن يحصل شيء من هذا القبيل معها، في علاقتها مع فرانك، وقامت بعدّ أيام الخريف حتى تنقلب إلى شتاء فيتوقف في داخلها ذلك الاهتياج، وأن تنكسر تلك الحمّى.

ولكن بدلاً من ذلك، فإنه طلب إليها الذهاب معه إلى نيويورك لمقابلة أخيه سْكُوت في أوائل تشرين الثاني / نوفمبر. وكانت أمه لا تزال تعيش في غراند رابيدز في ذلك الوقت، لكنه لم يكن قلقاً من أمر تقديمها إلى أخيه. لقد استشمّت أن مقابلتها مع سْكُوت هامة بالنسبة إلى فرانك، ولذلك فإنها كانت على وشك أن ترفض التعرف عليه. لكن ما خرج من فمها بدلاً من ذلك، إنما كان جواباً ينطوي على اقتراح - اقتراح يقول إنها إذا وافقت على السفر معه بالسيارة إلى نيويورك لمقابلة أخيه، فإن عليه في المقابل أن يوافق على التوقف في طريق العودة لرؤية عائلتها في شاكر هايتس، قائلة له إنها بهذه

الطريقة سوف لن تشعر بالكثير من الإثم بسبب عدم ذهابها إلى البيت يوم عيد الشكر، لكن حقيقة غاية هذا الاقتراح هو أنها أرادت تقديم هذا الرجل الفاتن إلى أختها الكبرى آن، آمله أن تستطيع الأخيرة بفضل بعض الكلمات الساخرة الجيدة الانتقاء ان تساعدها على أمر جعله يسقط من الراجحة في عينيها.

أما الأمر الذي لم تعقد الأمل عليه، فهو أن تحب سْكُوت، إذ إن كلَّ ما كانت تعرفه عنه - وهو جمهوري، ومؤيد للرئيس ريغان، ومؤيد للحياة المحافظة، ومصرفيٌّ يعمل في وول ستريت - كان يهيِّئُها لعدم محبته. أما الأمر الآخر الذي لم تكن مهيأة له، فهو أن يكون لديه شبه جسماني مع فرانك – فبالرغم من كون سْكُوت أكبر من فرانك ببضع سنوات، وهو أثقل منه وزناً بقليل، وله شعر أكثر ميلاً إلى السواد، وطبع أكثر صلابة بالمقارنة مع الميول الجنسية القططية التي يمتلكها فرانك، فإنه لم يكن هنالك مجال للتساؤل حول كون هذين الرجلين أخوين. لكن الأمر الذي جعلها تنقلب راساً على عقب إنما كان الأسلوب الحمائي، الذي يكاد يكون أسلوباً والدياً، الذي يحيط به سْكُوت أخاه فرانك. وقد بقيت كذلك إلى أن خبرَت كم أن سْكُوت كان أصيلاً في حمايته لفرانك، ولم تكن ثمة فكرة لديها عن حاجة فرانك إلى حماية. وهذا جعل إيلي تدرك أن الطريقة المرتجلة الخالية من الرتوش التي أخبرها فرانك بها عن قصة حياته العائليّة - رحيل والده عندما كان في الثانية عشر من عمره، وقيام والدته بتربيته وتربية أخيه الأكبر سْكُوت بينما هي تدير محلاً لبيع المفروشات القديمة في غراند رابيز – لم تكن في الحقيقة سوى طريقة للتنفيس وتهدئة الآلام التي لا يزال عُرضة لها. وللمرة الأولى، طرحت إيلي على نفسها سؤالاً خطيراً: هل يمكن أن يتروَّض اشتهاؤها العارم لهذا الرجل في يوم من الأيام ليتحوّل إلى نوع من الحب الهادئ المستمر؟

كانت الأشجار في المتنزَّه العام قد صارت عارية في تلك الأثناء، وشعرت إيلي أن منحنى حياة الأشجار وأوراقها يشكل رجعاً لمسيرة علاقتها مع هذا الرجل الغامض. فهما كانا قد التقيا في عنفوان خصوبة الصيف، عندما كان الطقس دافئاً وغنياً، واستمرا في غرامهما المحموم خلال سكرة الخريف المجنونة، عندما باتت الأشجار ذاتها لغزاً محيّراً لكن الآن كاد الشتاء أن يدخل، وقد باتت العظام العارية للدنيا مكشوفة للأعين، فإن الوقت قد صار وقت إقامة دائمة أو رحيل عاجل. وهي قد قررت الرحيل.

"لمَ تبدو شيوعيتي المفضّلة لدي صامتة في هذا اليوم؟" قال فرانك معاكساً ومازحاً، فيما ثلاثتهم يتمشون حول البحيرة. "هل فقدَت محاور جدالها المأخوذة من الكتاب الأحمر للمعلّم ماو؟ وما هو سبب سكوتها المفاجئ؟"

أعطته ضربة على كتفه. وكانت الضربة جامدة. ولم تمض ثلاثة أيام على وجودهما مع سْكُوت حتى بات الثلاثة أشبه بعائلة واحدة. "من ذا الذي يستطيع قول كلمة مواربة عندما يكون الأخوان بينيتون مجتمِعين معاً؟" قالت "وعندما يكون الطقس شديد البرودة بحيث يمكن للكلمات أن تتجمد على الشفاه لحظة خروجها من الفم؟"

ثم حصل الأمر، إذ حالما اعترفت إيلي أنها تشعر بالبرد فإن الرجلين اقتربا منها معاً، بدافع الغريزة، إلى مسافة ملاصقة لها من كل جانب، ولف كل منهما ذراعه حولها وضحك الثلاثة معاً فرانك وسْكُوت بدافع الارتباك. وإيلي بدافع الابتهاج. لقد شعرت فجأة أنها تعود طفلة صغيرة من جديد. طفلة تحبو على السرير في ليالي كليفلاند الباردة لتلتصق تحت اللحاف بشقيقتها آن. وكي تضمن لنفسها أنهما لن يبتعدا عنها، فإنها القت بذراع حول خاصرة كل من الرجلين محتفظة بهما إلى جانبيها. استدار فرانك وقبلها في قبة رأسها، " شكراً". ابتسمت له فرد لها الابتسامة، وتجمد المشهد ليصبح أشبه بواحدة من تلك اللحظات الرائعة المحفورة التي يأخذ الدماغ عنها لقطة يحتفظ بها في أرشيف الذاكرة لتجري استعادتها في مناسبات لاحقة.

كان هذا شعوراً جديداً، شعوراً بالحنان. وقد أخافها ذلك، مثلما ضاعف من سرورها لأنهما سيغادران إلى كليفلاند، حيث يمكن لأختها الكبرى أن تدير عدسة نظرتها الناقدة حول آخر عشَّاقها وتساعدها في العودة إلى صوابها، فهذه العلاقة مع فرانك كانت حتى الآن قد تمادت كثيراً في الزمن، هذا ما قرّ عليه قرارها، وهي قد بدأت الآن تحضير رسالة لدرجة الدكتوراه، الأمر الذي سيحتاج منها كل وقتها وانتباهها، وليس من الرشد الشروع في علاقة غرامية جديدة بينما يشرع المرء في التحضير للدكتوراه، وهذه حقيقة معروفة للجميع. أما المستقبل الذي تتطلّع إليه فليس فيه مجال لرجل بدأ حجمه الحقيقي، وعمق الأذى الذي عاشه في طفولته، يظهران الآن. وفي اليوم الذي تلي النزهة إلى الحديقة العامة المركزية، نهضت إيلي باكراً وقررت أن تعدّ لنفسها زبديَّة من رقائق الذرة المحمصة. لكن سْكُوت كان قد سبقهما إلى المطبخ لإعداد التوست الفرنسي المحمص لهما، ولم يكن ثمة خدمة تعرضها عليه سوى جرُّ كراسي المقصف إلى الوراء والقيام بخفق البيض نيابة عنه. ودون أن تتوقع منه ذلك، إذ به يتحدث إليها بصوته الهادئ العميق مقدماً لها الشكر بسبب إسعادها لأخيه، ومخبراً إياها عن فينسيل تِيْنَا، صديقة فرانك الأخيرة، وكم أنه كان يعتقد أنها غير مناسبة الأخيرة. ثم أدار تينك العينين الزرقاوين نحوها وقال: "لكن أنت تشكلين الصفقة الحقيقية يا إيلي. فأنت الإنسانة الوحيدة التي واعدها فرانك واعتقدت أنها تستحقه". حاولت ممازحته والاستخفاف بمحبته المتينة لأخيه، لكنه لم يكن لديه أيٌّ من هذه الأمور. إذ بقي على جديته واتزانه. "إنني لا أمازحك". قال لها. "أعرف أن هذا الشاب

يمكن أن يؤخذ مأخذ العرض والخفة، لكنه ليس في الحقيقة كذلك. "ثم قام بإخبارها عن الأشهر التي تلت غياب والدهما، وعن النذور والصلوات التي حافظ عليها أخوه على جانب الشرفة، وكيف أنه كان يقطع العهود أمام الله والتي كان يسمعها هو كلما مرّ بالقرب من غرفة نوم أخيه، هزّت إيلي رأسها وهي تريد معرفة هذه الأمور بقدر ما هي لا تريد معرفتها، لكن كلمات سْكُوت كانت قد رسمت تأثيراتها، فصورة المراهق البالغ الثانية عشرة من عمره وهو يجلس على شرفة المنزل الأمامية يوماً بعد يوم، كانت قد نسجت لها مكاناً في رأس إيلي.

وهذا هو السبب الذي جعلها تفتعل خلافاً مع فرانك حالما خرجت سيارتهما من تخوم المدينة. نظر إليها مندهشاً مذهولاً في بداية الأمر، ثم حاول أن يستفسر منها عن سبب غيظها، لكنها لن تقول، بل لا تستطيع أن تقول له. وسرعان ما التهب طبعه لملاقاة طبعها الملتهب، وهكذا قادا سيارتهما إلى بنسلفانيا بما يشبه الصمت المطبق، وعندما مد يده مرة إلى راديو السيارة وأداره مفتشاً عن محطة إذاعية تكون جيدة الإرسال، فإنها ما لبثت أن مدت يدها إلى الراديو وأغلقته. نظر إليها نظرة غاضبة لكنه لم يفُه بكلمة.

وبدت الأمور كأنها تميل للتحسن بينهما بعد الغداء - حتى إن فرانك مدّ يده بنصف حماس إلى أعلى تنورتها - لكن التلف بينهما كان قد وقع. وفي الوقت الذي وصلا فيه إلى كليفلاند عند الساعة الخامسة مساء، كانت فكرة كلٍّ منهما تنصب على الانفكاك من صحبة الآخر. وقد قررت إيلي أنها لم تعد بحاجة إلى أيِّ مساعدة تتلقاها من شقيقتها لحسم أمرها والانفكاك عن فرانك.

وثبَت من السيارة، وأسرعت فوراً إلى داخل المنزل المسقوف بالقرميد الأحمر فور دخول السيارة إلى مدخل بيت آن.

"إنه شخص رائع"، همسات آن في أذن أختها عندما انسحبتا إلى المطبخ لإعداد كأسٍ من الجِن المخفف من أجل فرانك.

"أجل، وهو قليل الجدوى، ومنطوٍ على ذاته".

أحقاً تقولين؟" باتت عينا آن فضوليتين، "لقد خُيِّل إليَّ أنه رجل رائع بالفعل".

عبست إيلي "إنه لكذلك في معظم الأوقات. لقد نشب بيننا خصام بينما نحن في الطريق إليكم".

مدت آن يدها وتناولت قارورة الجِن، سكبت منها مقداراً سخياً في كل كأس، "وما هو سبب خصامكما؟

"كي أكون صادقة معك، إني لا أدري. إنها مجرد واحدة من تلك السخافات الـ.. ". تجهم وجهها فجأة. " أعتقد أنني أحاول مقاومة الارتباط النهائي به، يا آن.. إن الأمر يتعلق بعدم استعدادي للارتباط بأيٍّ كان في الوقت الحاضر. إن لديَّ الكثير من الشؤون الخاصة التي عليّ الانصراف إليها".

أضافت إن مكعبات الثلج إلى الكؤوس، "أتمنى لك التوفيق في التمكُّن من مقاومته"، قالت هازلة.

عندما دخلتا إلى غرفة الجلوس من جديد، كان فرانك يستند إلى حافة الشُبّاك. "يبدو أنه شارع جميل"، قال بتأدُّب. وإني أرى فيه الكثير من الأطفال".

إنه جوار شديد اللطف مع الأطفال"، وافقت آن على كلامه مناولة إياه كأسه. "أتحب الأطفال يا فرانك؟

شهقت إيلي بعد أن صدمتها شدة صراحة أختها، لكن فرانك لم يبدُ عليه أنه انزعج من هذا السؤال على وجه الخصوص. "إنني أتعشَّق الأطفال"، قال. ثم عاد للنظر من الشباك من جديد. "إن شارعكم يذكرني بالجوار الذي تربّيت فيه. كنا نلعب خارج البيت نهاراً وليلاً". استدار لمواجهة آن، "أتريدان أنتِ وزوجك إنجاب أطفال؟"

عجبت إيلي ما إذا كان فرانك وأختها يتباريان في طرح الأسئلة الشخصية. نقّلت نظرها من واحدٍ منهما إلى الآخر وأيقنت أنهما يتبادلان الابتسامات، دون أن يعنيهما شيء من وجودها، فلم تحاول حتى اللجوء إلى إخفاء نبرة الهزء في صوتها، بالنسبة إلى زوجك"، قالت لها، في أي ساعة يعود إلى البيت؟ ومتى أمي وأبي يعودان؟"

نظرت آن إليها كما لو أنها ذبابة مزعجة تحاول إفساد نزهة جميلة. "ماذا؟" قالت بصوت أجوف، "أوه، لم أقل لك؟ إن بوب موجود خارج المدينة. إنها رحلة عمل طارئة". لاحظت إيلي بشكل غامض أن أختها ليست شديدة القلق لغياب زوجها. "وبقية الأسرة سيجتمعون هنا حوالي السابعة". استدارت من جديد لمواجهة فرانك. "الأمر الذي يترك لنا وقتا فسيحاً لأخذ شراب جديد".

"بالتأكيد". ابتسم فرانك إلى آن. واعتقدت إيلي أنه بدا وسيماً بشكل ساحق. بل إنه بدا أكثر جمالاً في عينيها، أكثر من أي وقت مضى. تقدَّم فرانك ولامس يد آن بلطف. لكن دعيني أساعدك في إعداد الجولة الثانية من كؤوس الشراب". وعند ذلك غادر صديقها واختها الغرفة وتمشيا نحو المطبخ. ولم يغرب عن انتباهها أنَّ أيّاً منهما لم يعرض عليها كأساً جديدة.

غير أن المساء لم يكن سوى أشدّ سوءاً. فقبيل وقت وصول والديها، كانت آن تقول، "يا إلهي. لقد كدت أن تقنعني يا فرانك بمزايا الحصول على درجة جامعية في إدارة الأعمال". هزت إيلي رأسها غير قادرة على التصديق. ذلك لمعرفتها بأن آن ماركسية على رؤوس الأشهاد.

أما والدتها، فقد وقعت على الفور تحت سحر فرانك، وحتى إيلي كان لا بد لها من الاعتراف بأن سلوكه كان متألقاً ولا تشوبه شائبة. فهو قد أصرّ على مساعدة آن في شؤون المطبخ. وتكلم بلغة العارفين عن الحملة الرئاسية الأخيرة، مع والدها، وحتى ومع استمراره بعابثة من دون خجل، إلا أنه كان يفعل ذلك بطريقة لم تبدّ جليَّة سوى بالنسبة إليها. أما أحاديث المائدة فقد جرت بسهولة تثير الدهشة، بخلاف حفلات العشاء المتكلفة التي كانت تحدث عندما تقوم هي بإحضار عشاقها القدامى إلى البيت. وفي منتصف وجبة العشاء، نزل على إيلي إدراك جديد. إنه يلعب علينا جميعاً، جال في ذهنها في خشية ورعب. إن الأمر يبدو كما لو أنه يقوم بتوجيه فرقة موسيقية - هزة من الرأس مبالية من هنا، وابتسامة من هناك، ونكتة موجهة إلى شخص هنالك، ولا عجب أن تكون قد أمضت الصيف والخريف وهي مجنونة في صحبة هذا الرجل.

لكن ذلك يبدو سخيفاً — وفرانك هذا، كان يتصرف بطريقة غير مشروعة إطلاقاً بقيامه بمعابثة جميع أفراد عائلتها.

فوالداها اللذان يذهبان دائماً إلى النوم عند الساعة العاشرة، لم يغادرا إلى بيتهما هذه الليلة قبل الحادية عشرة. كما أنها لاحظت شدة الحرارة التي صافح بها والدها يد فرانك قبل الانصراف.

أما آن، فلقد صنعت لهما فطوراً كبيراً في صباح اليوم التالي وزودتهما بسندويتشات يتناولانها عند وقت الغداء. وعندما توقفا قليلا في المخرج المؤدي إلى الطريق، تقدمت آن وقبّلت فرانك على خديه، "عليك أن تعود لزيارتنا ثانية، هل سمعت؟" قالت له. بينما كانت قامة فرانك منتصبة.

جرت بينهما محادثات متقطعة طيلة طريق عودتهما إلى البيت. وعندما أدركا الشارع الذي تسكن فيه إيلي، فإنها أفلتت بعض التثاؤبات. "حسناً كانت الرحلة ممتعة"، قالت متكاذبة. "ولكن، يا إلهي إنني متعبة جداً".

"ألا تريدين الذهاب معي؟" قال لها على الفور.

استدارت إلى مواجهته حالما أوقف السيارة في المكان المحدد. "إذا كان هذا لا يزعجك يا حبيبي، فإن عليَّ الكثير من الأعمال التي ينبغي لي إنجازها، هل لي أن أراك من وقت لآخر؟"

"هل لي أن أراك من وقت لآخر؟" قال مقلَداَ إياها. لكنه لم يجادلها في قرارها.

أحست على الفور تقريباً بخيبة الأمل بعد دخولها إلى شقتها وإقفال الباب وراءها. كذلك الآن، وبعد مغادرة فرانك فإنها لم تستطع أن تفهم تماماً ما الذي جناه فرانك من عمل يبرّر معاملتها له بكلِّ هذا البرود، جالت في أنحاء شقتها وهي مستغرقة الفكر في الحكم على سلوكها المحيّر، خاصة وأنها ليست متأكدة تماماً ما الذي حدث واستدعى اعتكار مزاجها منذ أن غادرا نيويورك إلى أوهايو. أدارت التلفاز لدقائق قليلة ثم ما لبثت أن أغلقته. تناولت كوباً من اللبن الزبادي. خلعت ملابسها واستبدلت بها قطعتي ثياب خفيفتين، قالت لنفسها إن أقلّ ما يمكن لها عمله هو أن تحافظ على كلمتها وتقوم بعمل بعض الأعمال الدراسية.

وعند الساعة السابعة من تلك الليلة اتصلت هاتفياً بمطعم أمايزينغ ولك وطلبت إيصال وجبة من الطعام الصيني إلى شقتها. وعندما رنّ جرس الباب، ذهبت إليه، وهي تحمل بطاقة الائتمان في يدها، ولكن بدلاً السابعة عشرة من عمره، فإنها لقيت فرانك هناك، ترنح قلبها لرؤيته، وكان هذا هو كل ما استطاعت عمله من أجل ألا ترتمي بين ذراعيه. لكن تجهُّمه أوقفها. هنا ترنح قلبها من جديد، ولكن بدافع الخوف في هذه المرّة. "هل من خطأ في أي شيء؟" قالت، متسائلة عمّا إذا كان قد جاء لفكِّ علاقته بها.

"ليس مجرّد شيء واحد"، قال لها، داخلاً إلى غرفة الجلوس دون استئذان، ثم استدار لمواجهتها، "بل كل شيء".

" ما الذي تعنيه؟"

"أعني أننا، ومنذ لقائنا ما زلتِ تبحثين عن سبب لفكِّ علاقتك بي. ولقد اعتقدت أن معرفتك بأخي سوف تقنعك بأنني لست ــ أنت تعرفين، إنساناً ذئباً أو أيَّ شيء من هذا القبيل. لكن بدلاً من ذلك، فقد حدث عكس ذلك، وإني لا أعرف ما الذي قاله لك سْكُوت عني، لكنه قد أفزعك حتى صرتِ شرسة، وإن أقلّ حق لي عليك هو أن تقولي لي بالضبط، ما هو السبب الذي يدعوكِ إلى التخلُّص مني".

حدّقت به وهي عاجزة عن الكلام. إذ لطالما كانت قد طرحت هذا السؤال على نفسها من قبل. "إني خائفة"، سمعت نفسها تقول. ثم ومن أجل التغطية على ما صدر عنها من قول رغم إرادتها: " وأنت كنت تعابث أختي دونما خجل. اختي المتزوجة".

"لا تكوني سخيفة. إنك تعرفين أنني لا أستطيع النظر إلى امرأة سواك في هذه الأيام، ولقد كنت أقوم بملاطِفة أختك المجرّد استلفات نظرك".

إنهما الآن على أرض أكثر أماناً "هذا هراء"، قالت له. "لقد كنت فاسقاً غبياً ليس إلا، وماذا أيضاً-"

"إيلي"، قال بينما اتخذ خطوة إلى الأمام وأمسك بها من كتفيها. "توقفي. فقط توقفي. هذا انحراف عن الموضوع وأنتِ تعرفين ذلك. قولي الحقيقة فقط ما الذي فعلتُه لك حتى استحقُّ منك كلَّ هذا؟"

"إني لا أعرف"، صاحت باكية. حاولت أن تفلت نفسها من قبضتيه. "إني لا أعرف"، قالت له مكررة.

"أصغِ إليّ"، قال وهو يهزُّها هزّاً خفيفاً "إنني لم أكن أنتظر هذا أيضاً، أتعرفين؟ إنني لم أكن أخطط للوقوع في غرامك. لكنني وقعت، أما الآن يا إيلي، فإن كل ما أستطيع أن أدركه هو أن يوماً يمرّ من دونك هو يوم لا أريد أن أراه".

"ما الذي تقوله؟"

"أقول إنني أريد الزواج منك. وإنني أريد أن أمضي بقية أيام حياتي معك".

"وكيف يمكنك أن تكون واثقاً من الأمر إلى هذه الدرجة؟ أعني أننا ما زلنا صغيرين يا فرانك، ماذا إذا – ماذا لو التقى الواحد منا شخصاً آخر بعد ستة أشهر من الآن؟"

نظر إليها نظرة حزينة. "إذا كنت تستطيعين طرح مثل هذا السؤال على نفسك، فإني أظن أنه يقول لي شيئاً ما".

أشاحت بوجهها عن الحزن الذي رأته في وجهه. إنني لم أرِدْ مرة أن أسبِّب لهذا الرجل بـأيِّ يومٍ من الحزن، فكرت. انحنت إلى الأمام وأسندت رأسها إلى صدره. "إني آسفة"، قالت، "لم أكن أدري حتى بما يفوه به لساني، إنني لا أدري ما هو سبب رعبي. الأمر كله هو أنني لم أشعر بمثل هذا القرب مع أي شخص آخر، وهذا ما يجعل مزاجي متقلباً. وأظن أنني أخاف الثقة بهذا الشعور لأنني أشعر بأنه سيُنتزع مني، أتفهم ما الذي أعنيه؟ "

قام بتمسيد شعرها. "أصغ إليّ يا إيلي. أعرف أنني لست عريساً يمكن أن تعقد عليه الرهانات الكبيرة في الوقت الحاضر. وبحق الجحيم،فإنني لا أعرف كم هي المدة التي سأبقى فيها أبحث عن وظيفة بعد التخرج. لكنني أعدك بما يلي - إنني سأبقى دائما أحاول ما أستطيع محاولته من أجل إسعادك، وستكونين دائماً قادرة على الاعتماد علي، لأنني لن أتخلى عنكِ أبداً".

ولقد بقي وفياً لوعده لها. لقد تزوجا بعد مرور سنة واحدة، وبقيت إيلي قادرة على الثقة به على الدوام. هكذا دائماً حتى جاءت تلك الليلة القاتلة، ليلة

وفاة باني. وعندما باتت بحاجة إليه أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، فإنه نبذها من أجل معالجة جراح قلبه المحطَّم.

الكتاب الثالث

صيف العام 2005

آن آربور، ميتشيغان

الفصل 16

لم يبدُ أن الدنيا كانت مرة مثلما بدت عليه من قسوة في ما يتعلق بسخائها وعطاياها يوم جلس فرانك متململاً في مقعده على الطائرة، هيّا، تحرّكي، كان يقول في سرّه بينما يداه تضغطان على حاشيتي المقعد الذي جلس عليه منحنياً بهامته إلى الأمام كما لو أن زخم تعجّله يستطيع أن يجبر الطائرة على الإقلاع وعلى سرعة الانطلاق. تذكَّر ولده باني عندما كان صغيراً، وكيف أنه اعتاد عندما يركب السيارة في المقعد الخلفي، أن يغرس قدميه في حشية المقعد الأمامي ويدفع بهما اعتقاداً منه أن مثل هذا العمل من شأنه المساعدة على تحريك السيارة وجعلها تسرع في سيرها. باني. إن مجرد مرور اسم ولده على شفتيه كفيل بجعل قلبه يرتعش بالمحبة، ويرتجف بالخوف. لا يمكن أبداً أن يحصل أيّ مكروه لباني، لا يمكن ذلك أبداً. فهو لن يكون قادراً على الاستمرار في الحياة لو حصل ذلك لولده. يا لله، ألم يكد هو أن يموت مرة عندما انكسر معصم باني في أحد باحات اللعب منذ سنوات قليلة؟ إن مجرّد فكرة عابرة تخطر في باله عن إصابة ولده الحبيب بأيّ نوع من الألم كافية لإثارة شيء ما، في داخل فرانك، لا يستطيع أن يجد له السماء هذا بالإضافة إلى شعور آخر يستطيع تسميته - إنه الإحساس بالعجز والفشل. فبعد كل شيء إنه المسؤول عن حماية هذا الولد، كما عن الدفاع عنه. فولده هو وظيفته ومسؤوليته ومتاعه الثمين. فهو ليس مجرد والد - فكل صعلوك قادر على أن يكون والداً حتى دون أن يدري بذلك. وفرانك يعتبر نفسه أكثر من والد إنه أب. والآباء من شأنهم أن يفعلوا أيِّ شيء لحماية عائلاتهم، كما إنهم لا يبخلون من أجل ذلك بدفع أيِّ ثمن، وها هو جاهز لعمل ذلك، ولكن أرجوك أيها الرب العزيز، إن باني يجب أن يبقى بخير. إنه يجب أن يكون جالساً على سريره يضحك ويأكل كاساً من البوظة عندما أصلُ إلى البِّيت .

لا ليس إلى البِّيت ، صحّح دعاءه، بل إلى المستشفى، فباني هو الآن في المستشفى. إنهم يتحدثون عن إمكانية نقله إلى وحدة العناية المركّزة حالما

تستقر حالته، هذا ما كانت إيلي قد أسرّت به إليه في مكالمتها الهاتفية الأولى من قسم الطوارئ بالمستشفى كما قالت له انتهم وضعوا أنبوباً للتنفس فوق أنفه. لقد كرهها بعد تلك المكالمة، كرهها لأنها استطاعت نطق هذه التعابير عن ولدهما. لقد شعر بغضب جديد قديم، فهو جديد لأنه لم يغضب من إيلي مرة من قبل، ولم يساوره تجاهها شعور مثل هذا. وهو قديم لأنه يشبه الشعور الذي أحسَّ به تجاه أمه في الأشهر الأولى التي تلت رحيل والده عن البِّيت . لو كنت قد أحببته أكثر من ذلك، لما غادَرَنا، وكان قد بصق في وجه أمه مرة، وقد كان يشعر بالخزي لرؤية وجه أمه الذي صار شاحباً، وها هو الآن يشعر شعور الغضب نفسه تجاه إيلي. يغضب لقيامها بتزويده بمثل هذه الأخبار عن ولده على الهاتف عند الساعة السادسة من مساء هادئ في بانكوك. لقد كان يجلس إلى جانب مقصف في الفندق يحتسي كأساً من شرابٍ مع المستر شيبلا مندوب شركة هيربال صوليوشينز في تايلاند. "مرحباً يا حبي"، كان قد أجاب مكالمتها بإشراق وسرور، رغم دهشته لأن إيلي تتصل به في مثل هذه الساعة المبكرة من المساء، ناسياً للحظة أنه حتى الفجر يكون بعد لم يبزغ في هذا الوقت في ميتشيغان، ثم ها هو يصغي إلى صوتها الهادئ القلِق، عندها اشتعل شراب الـ: جن الذي كان يحتسيه، فجأة في معدته. وشعر بذلك الغضب الحادّ الذي لم يستطع له ردّاً، تجاه إيلي. لقد شعر كما لو أنه يريد تكميم فمها براحة كفه وإرغام ما نطقت به من كلام على العودة إلى حنجرتها - "يقول الأطباء إن حالته حرجة، يا فرانك. إنهم متأكدون من أن هذه هي حالة التهاب السحايا الدماغية. ومن الأفضل لك أن تأتي إلى البِّيت ".

ولقد كان شبيلا رائعاً، إذ قام بتشغيل الهواتف كرجل مجنون، محاولاً أن يحصل له على رحلة إلى خارج بانكوك في ذلك المساء بالذات. إنني احتاج إلى مغادرة هذه المدينة فوراً، كان يقول وهو يذرع أرض غرفة الفندق، في اهتياج شديد، رامياً كل ما وقع تحت يده من ملابسه في داخل كيس أغراضه الشخصية، وأخيراً وضعوه على متن طائرة متجهة في رحلة لها إلى باريس، فيما يواصل شبيلا وعوده بترتيب حجز له لرحلة استكماليه إضافية أخرى إلى ديترويت من مطار شارل ديغول، على أن يكون الحجز جاهزاً حتى قبل وصوله إلى المطار المذكور. "اتصلْ مع بّيت"، قال لزميله التايلاندي حالما ترجل من السيارة في مطار دون موانغ الدولي. "إنه يعرف ماذا عليه أن يفعل". وكان عليه أن ينتظر سبع ساعات في مطار شارل ديغول، ولم يكره فرانك المطارات مرة في حياته مثلما كرهها في ذلك اليوم. لقد أغضبته البارات التي تقدِّم المارتيني، كما أغضبته المحلات التجارية المتلألئة بالأنوار، والتي تبيع العطورات والشوكولا المعفاة من الرسوم الجمركية، كما أغضبه جميع الناس الذين يسيرون من حوله باستعجال في كل اتجاه، وكيف لهؤلاء أن يكونوا في هذه الحيوية والنشاط بينما يستلقي ولده في المستشفى على السرير وهو

مصفّد بالأنابيب البلاستيكية؟ كان ينظر إلى الساعة الرقمية المعلقة على الجدار كل بضعة دقائق، كما لاحظ أن الشتائم باتت تفلت عن لسانه بصوت مسموع. أمسكْ زمامَ نفسِك يا فرانك، عنّف نفسه. لكنه لم يبقَ لديه نفْسٌ كي يمسك بزمامها، فإن أصل كيانه بات متداعياً منهاراً ليحل محله الخوف، الخوف الذي يتصاعد متبخراً كالغاز الذي يملأ كيانه الجسدي الذي بدا هيكلاً أجوفَ. رابطته الشديدة بالعالم، ذاتها بدت الآن وكأنها قد أفلتت لم يستطع تصديق ذلك. فبينما هو يجلس في المطار في باريس تحيط به الثروات والمغاني والأشياء المادية التي تستطيع هذه الدنيا توفيرها، فإن ابنه يدخل في صراع وجود مع ـــــ هزّ راسه حرقة. إنه لن يدع تفكيره يستحضر تلك الكلمة الرهيبة.

فتش عن هاتفه الخلوي، ليخابر إيلي من جديد. كان قد حاول ذلك ست مرات منذ هبوط طائرته في باريس، لكنها لم تكن لتلتقِط مكالماته، وبعد أن كان قد ترك لها رسالة انفعالية في المرة الأولى، فإنه ما لبث أن أدرك أنها ربما لا تستطيع استعمال الهاتف الخلوي في داخل المستشفى. لذلك فإنه ترك لها رسالة أخرى ألطف من الأولى هذه المرة، مكرراً لها المعلومات عن رحلته وعن موعد وصولها، وطالباً منها ملازمة مكانها، ومخبراً إياها أنه سيكون في البلاد حالاً، وأنه سيجتمع شملهم معاً من جديد. هذه المرة قام بترقيم رقم هاتفها دون كبير أمل في أن يتلقى جواباً وشعر بهبوط في معدته عندما ردت عليه قائلة "الو؟"

"حبي؟ هذا أنا. كيف أنتِ؟ وكيف حاله؟"

لقد خرجتُ قليلاً لأردّ على مكالمتك"، قالت إيلي، وحتى من خلال تلك المسافة البعيدة، فقد استطاع أن يسمع كم هي تبدو مرققة وقاسية.

"إذاً.. كيف يبدو الوضع لك؟"

"ليس جيداً". سمع النشيج في صوتها. "ليس جيداً إنني خائفة يا فرانك إني أعتقد أنه لن - أنه ربما لن - ينجو".

انقبض فكاه، لكن صوته بقي لطيفاً عندما تكلم. "أرجوك.. أرجوك يا حبي لا تقولي ذلك، هذا ليس وقت للاستسلام. إن علينا القيام بإنقاذه، فهؤلاء الأطباء لا يعرفون كل شيء"، قال لها.

"لقد سأل عنكَ قُبيلَ نقله إلى وحدة العناية المركّزة"، قالت له، فشعر أن العالم يتزعزع من حوله، تطلّع إلى الأعلى بعينين حمراوين كبركتي دماء، وبدا كأن كل شيء يتحوّل عن شكله – فالمحالّ التجارية المتلألئة التي لا يحطّ عليها غبارٌ، ذابت في نظره إلى جداول من الذهب والزجاج المصهور؟ أما الأناس المتوردي الوجوه، الذين يسعون حوله فقد بدوا له مجرد جماعة من

التافهين والأغبياء. لقد سأل عنه ولده، فلم يجدهُ بقربه. لقد كان ولده عليلاً - حتى إنه يموت – وهو لم يكن إلى جانب سريره، يمسك بيده، يتكلم معه، يحاول سحبه وإرجاعه إلى عالم الأحياء.

"فرانك؟" نادته إيلي"ألا تزال معي؟"

رمَش بجفونه عدة مرات قبل أن يثق بقدرته على مواصلة الكلام. " قولي له إنني قادم"، همس لها "قولي له أن – يصمد حتى أصلَ إليه".

سمع صوتاً خلفياً يأتي من طرف الخط الذي تتحدث منه إيلي، ثم سمعها تقول له، "إنهم يوجهون إلى نداء. وعليَ بالذهاب".

"اتصلي بي"، صاح. "إذا حصل... أي شيء، التركي لي رسالة على هاتفي".

وعندما أقلعت بهم الطائرة في النهاية، فقد بدت باريس خضراء وهادئة من الجو، ولم يشعر بثقة تجاه باريس. فالعالم كله قد انقلب فجأة إلى عالم من الشر والأذى. عالم يوجد فيه صبي يملك أعذب ابتسامة في الوجود، ومع ذلك فهو يكافح من أجل البقاء على قيد الحياة. شعر وكأنه يحدق إلى العظام العارية لهذا العالم، يحدِّق نحو الحفرة القميئة الموجودة في منتصف هذا الوجود. حفرة يجري تمويهها عادة بالأعشاب والأشجار والفراشات وأزهار دوار الشمس. شعر بسخافته بسبب أنه قد اعتقد مرة أن هذه الدنيا هي مكان مأمون. أما الآن، فإنه يرى الأشياء بوضوح - ليس جمال هذه الدنيا سوى خدعة، مجرد شرود ذهن، مجرد لعبة، مجرد شيء يهدف إلى جعل الموت المحتوم أمراً مقبولاً ومحتملاً.

إنني في حاجة إلى كأس من الشراب، خُيِّل إليه. وكان حتى تلك اللحظة قد رفض الكحول المجاني الذي كانت تعرضه عليه المضيفات الحسان. أما الآن، فإنه ضغط على زر النداء وطلب كأساً من شراب الكوكتيل (بْلُدِيْ ماري) وذلك لمساعدته على تهدئة الرعدة التي ما انفكت تهاجم جسده في موجات باردة، وكذلك لتلطيف النواتئ المسننة للأفكار التي باتت تساوره.

وبعد الانتهاء من كأسه الثانية، تراخى شيء ما، بداخله. التقط الهاتف المثبت على خلفية المقعد الموجود أمامه، وقام بترقيم رقم هاتف سْكُوت. سْكُوتْ؟" قال حالما سمع صوت أخيه "هذا أنا".

"مرحباً". بدا سْكُوت مبهور الأنفاس كما لو أنه قد انتهى لتوه من جري مسافة ميل. "إننا نسير إلى المستشفى في هذه اللحظة".

"هل أنت في آن آربور؟

"نعم. لقد وصلت إلى هنا لتويّ. ألم تقل لك إيلي؟"

"كلا. بالكاد أنني تمكنتُ من الاتصال بها. لقد بقي اتصال كل منا بالآخر متعذراً. كيف ـــــ هل ماما معك؟"

"نعم، أكيد، أتريد أن تسلّم عليها؟ وقبل أن يتمكّن من الإجابة، سمع فرانك صوت أمه تقول، "حبيبي"؟ كيف حالك؟

كان يحاول ألّا يختنق بصوته، خاصة وأنه غير مرتاح لشعوره بوجود رجل إيطالي يجلس عبر الممر ويصغي إلى كل كلمة يقولها "إنني بخير ماما"، قال. "وأحاول جهد استطاعتي للوصول إلى البلاد بسرعة". بلع ريقه بصعوبة؟" قبّليه نيابة عني، أتسمعين ماما؟"

كانت لهجة والدته هادئة. "أعدك بأن أفعل ذلك يا حبيبي. كما أريدك أن تتوقف عن القلق فإن باني سوف يكون في حال طيبة عندما تصل جدته إليه. وما عليك سوى أن تنتظر وترى".

هبط قلبه لاعتقاده بأنه لا يستطيع تصديق كلمات أمه. ومع ذلك فإنه ابتسم بهدوء السماعة الهاتف. " شكراً لك أمي. هل لي أن - هل لي أن أتكلم لحظة مع سْكُوت؟

سُمعت خشخشة، ثم عادت نبرة صوت سْكوُت العميقة من جديد، "هل تعرف إيلي جدول رحلتك يا فرانك؟"

"أظن ذلك تركتُ التفاصيل على هاتفها الخلوي". تردد قليلاً "يا سْكُوت، أريد أن أطلب منك خدمة. تذهب لترى باني وتقول له إن والده آت على الطريق وأن عليه — ـ أن عليه أن يصمد".

سمع التهدُّج في صوت أخيه. "كل ما عليك هو الوصول إلى هنا يا عزيزي". قال سْكُوت بصوت أبحّ.

إنني أحاول ذلك، ولو اعتقدت أن قيامي بخطف طائرة سيسرِّع وصولي فإنني ما كنت لأتأخر عن ذلك". لقد تأخر ليدرك أنه يرسل كلماته في مكان غير مناسب لإرسال الكلمات الملتهبة. لكنه، وبعدما ألقى التفاتة سريعة إلى المرأة التي تجلس إلى يساره، فإنه لاحظ أنها تضع على أذنيها لواقط استماع الموسيقى. فهي لم تسمع شيئاً من كلامه، وكذلك لم يسمعه أحد غيرها، فشكر الله.

احترس يا فرانك"، قال له سْكُوت، ثم أضاف. "إنه بين يدي الله يا فرانك صلِّ من أجله".

ولم يتأخر فرانك عن الصلاة إلى الرب، طيلة الرحلة من باريس إلى ديترويت.

فهو قد اتكأ إلى الوراء في مقعده فيما عيناه مفتوحتان، محدِّقاً في القمرة المعتمة. اصنع إليّ يا رب، قال، إني لم أطلب منك طلباً واحداً منذ مدة طويلة، أي منذ أن غادر أبي البِّيت على وجه الدقة. لهذا بات لدي بعض الطلبات المستحقة، ألا تظن ذلك؟ مع أن الضمير يوجب على القول إنك لم تعطني أسباباً تسوِّغ لي طلب أيِّ شيء خلال كل تلك السنوات. لقد كنتَ يا رب على وجه الجملة كريماً جداً معي. فإني نلت كل شيء أتمناه حقيقة ـــ زوجة رائعة، ووظيفة جيدة، وطفلاً جميلاً. وإن كل ما أنا لطلبه منك هو أن تحفظ لي ما لديّ. وإني لا أريد زيادة على ما لدي. لأنك إذا أخذت منّا ما أعطيتنا تكون قد عاملتنا بخلاف عدلك، وحاشاك.

سمع نبرة الغضب والتحدي في صَلاته، فراجع نفسه. إن سْكُوت كان قد طلب منه أن يصلي لولده، ليسترحم الرب، أما ما وجد نفسه يفعله فلم يكن سوى زمجرة وتجديف. وهكذا، فإنه عاود صلاته من جديد. يا الله الطيب اللطيف، لا تأخذ ولدي مني. لن أستطيع أن أتحمل ذلك أرجوك أيها الرب، قاصصني بالطريقة التي ترتئيها لكن ليس بهذه الطريقة، ليس عن طريق باني. قام ببعض المحاولات الأخرى في هذا المزاج، مزاج تقديم الوعود إلى الرب.

إذا كان لا يستطيع إقناع الرب بالاسترحام، ولا بالوعود، فإنه سوف يبذل جهده من أجل إنقاذ حياة باني ومن أجل الدفاع عمّا هو له. ولأن باني ينتسب إلى هنا، إلى كوكب الأرض الذي يعيش عليه أهل الفناء، لأنه ينتسب إليه هو، وإلى إيلي. ولذلك فهو سيدخل إلى تلك المستشفى بعد ساعات قليلة لكي يُبقي عيناً يقِظة على ولده، وسيبقى ملازماً له إلى جانب سريره مهما استغرق الأمر ذلك. فهو لن يغادر المستشفى قبل مغادرة باني له.

كلم أخاه سْكُوت مرة جديدة فور هبوط طائرته على الأرض في ديترويت آملاً أن يقوم أخوه بالرد على المكالمة، "كيف هو الآن؟" سأل حالما سمع صوت أخيه يقول "آلو".

"إنه على قيد الحياة"، أجابه سْكُوت، فسرتْ موجة من الارتياح في أوصال فرانك. باني لا يزال حياً، وها هو الآن قد صار في مدينة ولحدة مع ولده، بدلاً من أن يكون محلِّقاً في السماوات. "وأين أنت؟" سأله أخوه.

"إنني في المطار، خارج صالة استقبال الأمتعة. وسأراك بعد دقائق قليلة".

وكان بِّيت تيمبرلايك قد رافق سْكُوت إلى المطار، رأى فرانك الرجلين يُجْفِلان عندما نظراً إليه - ملابسه مجعدّة، ولحيته غير حليقة، وعيناه حمراوان – وكذلك شَعَر هو بلحظةٍ من الارتباك. "مرحباً"، قال لأخيه الذي تناول منه حقيبته وقام بفتح صندوق السيارة. "شكراً لمجيئك يا بيِّت"، أضاف قائلاً.

تناوله بِّيت في عناقٍ حار. "هل أنت تمازحني؟" قال له. ثم اتخذ خطوة إلى الوراء. "شُدَّ حيلك يا صديقي".

هزّ كتفيه وصعد إلى السيارة بينما استدار سْكُوت والقى بجثته الضخمة خلف مقود القيادة. انطلقت السيارة حتى قبل أن يتمكن فرانك من إحكام حزام الأمان. نظر فرانك نحو أخيه الكبير. "كيف حال إيلي؟" قال بهدوء.

رَمَقه أخوه، بنظرة عجولة. "إنها ما بين يأسٍ ورجاء"، قال له. "وهي قلقة لترك إلى جانبها".

هزّ رأسه، "وهل أوصلْت أيّة رسالة منّي إلى باني؟

لقد فعلتُ ذلك". مضغ سْكُوت شفته العليا. لكن يا فرانك، على أن أقول لك، إنه لم يكن قادراً على تبلّغ الرسالة. ويقول عنه الأطباء إنه ليس في غيبوبة بالمعنى التقني. لكنني لا أستطيع الجزم عمّا إذا كان يسمع أيّ كلمة تُقال له. وإنني أردتُ أن أحضّرك لمثل هذا الموقف ــ إنه... لقد وضعوه تحت التنفس الاصطناعي".

نظر فرانك إلى خارج الشبك خائفاً أن يفقد سيطرته على جسده أمَرَ عقله بإهمال كل ما سمعَه من أخيه، وبطرحِ كل فكرة مخيفة بدأت تتجذَّر في كيانه. شعر بيد سْكُوت تمتد إلى فخذه، لكنه تجاهَل ذلك، كان همّه منصباً على كنسِ كل الأنقاض التي تركتها كلمات سْكُوت في تفكيره لقد كان منهمكاً في مهمته الحميدة، بحيث إنه سمع الأصوات الرهيبة تخرج من فمه في الوقت نفسه التي سمِعها منه رفيقاه، ولذلك فإن هذه الأصوات أجفلَته مثلما أجفلتهما. لقد بدا أشبه بحيوانٍ أصابَتهُ رصاصةٌ في قَدَمه، إذ كان هذا هو ما شعر به. جريح، كسيح، وخائر القوى.

انحرفت السيارة. كان سْكُوت يجلس جلسة نصف مستديرة على مقعد القيادة فيما إحدى يديه على عجلة القيادة، والثانية على أخيه. "يا فرانك"، قال "ليس عليه شر.. يا أخي، وسيكون على ما يرام. إن حوله الكثيرين من الذين يصلُون من أجله".

لكن الضجة الحيوانية لم تهدا ولم تستكن. انحنى فرانك إلى الأمام، ويداه تطوّقان معدته. أمّا الأصوات التي كانت تخرج منه فكانت قديمة قِدَم العالم ذاته. فهو لم يدرِ مرة أن الصوت البشري يمكن أن يخرج على هذه الصورة،

وقد أيقن أنه يتسبب بذلك بإقلاق سْكَوت، وشعر بوجوب تطمينه، لكن القدرة على إخراج أصواتٍ بشريّة كانت خارج نطاق قدرته في تلك اللحظة. لقد وقع في قبضة خوفٍ هو من الكِبر بحيث إنه بدا وكأنه يبتلعه جملة وهو على قيد الحياة. بدا ذلك الخوف وجودياً وينتسب إلى ما قبل التاريخ. شعر كان باني لم يعش معه سبع سنوات فقط بل هو مسكونُ به إلى الأبد. إنه جزء من لحمه. وصورته محفورة في كل خلية من خلايا جسده إلى الأبد. بدا الأمر له كأن باني بدأ حياته عندما وُلد فرانك ذاته، وأنهما قد تربّيا معاً بحيث أنهما لا يُنفصلان ولا يختزلان، واحتمال خسارته لولده صار يعني احتمال خسارته لجلده، ولم يكن هنالك لغةٌ إنسانية تكفي لاستيعاب مثل هذه الخسارة، ولم يعد هنالك سوى الصوت، صوتٌ مِثْل نباح كلبٍ معتوهٍ، أو مثلُ صهيل حصان كُسرت ساقُه، أو مثل قُباع خنزيرٍ احتُزت عنقه. لا بل هو صوت يبدو أنه حتى أقدم من كل تلك الأصوات واقلّ تحديداً. إنه صوت العالم اليتيم المفجوع. عويل، وصخب، ونحيب، وصريف بدا كأنه يخرج من أحشاء الأرض.

"يا فرانك"، قال سْكُوت في نهاية الأمر، هل تريدني أن أوقف السيارة جانباً؟"

"كلا"، استطاع أن يُخرج بعض الكلمات. أسرِعْ قدر المستطاع. أريد أن أكون مع ولدي".

قطع سْكُوت ثلاثة إشارات ضوئية حمراء متلاحقة قبيل اقترابهم من المستشفى. أوقف السيارة عند البوابة الأمامية، فقفز بِّيت منها مع فرانك. "مِن هنا"، قال بِّيت حالما مشيا في الممر الذي يؤدي إلى وحدة العناية المركّزة.

كانت ردهة الانتظار خارج وحدة العناية المركّزة مليئة بالناس، فقد كانت والدته هناك بالطبع، كما كان بّوب، وآن، ووالدي إيلي، ونصف أصدقائهم وجيرانهم كان هناك أيضاً. وقد بدا لفرانك أن أحداً من الحاضرين لم يجرؤ على النظر إليه عيناً لِعَينٍ عندما تقدم بإيجاز لمعانقة أمه. شعر أن حنجرته تكاد تنفجر من الامتعاض، وأيقن الآن أنه خلق من أيِّ مشاعر يتحلى بها رجل الأعمال. ما الذي يدعوهم جميعاً إلى المجيء إلى هنا؟ لقد أرادهم أن يجتمعوا بهذه الطريقة فقط، للاحتفال معه بالمناسبات السعيدة ــ في أعياد ميلاد باني، ولدى تخرجه من المدرسة الثانوية، ومن الجامعة، وفي يوم عرسه، إنه لم يدعُ أحداً منهم إلى هذه المناسبة. "أين هي إيلي؟" سأل والدته، لكن بِّيت كان يقوده إلى خارج الغرفة بين مجموعة من الأبواب المعدنية الهائلة. وحالما دخلا، لاحظ فرانك كم أن الأنوار خافتة في هذه الوحدة. قبض على خناقه خوف بارد عندما مشيا خلال ممر قصير إلى غرفة باني.

كاد أن ينفجر بالبكاء عندما وقع نظره على إيلي التي كانت تتحدث عند الباب إلى إحدى الممرضات. كان قد غادر إلى تايلاند منذ خمسة أيام فقط، وها هو الآن يعود ليلقى امرأة مختلفة. لقد تقلّص حجمها. وبدا عليها الكبر. وبدت أخاديدُ في وجهها لم يعهد وجودها من قبل، كما تكهّف كتفاها إلى زاوية تشي بالانكسار والهزيمة. كما تقوّس فمها إلى الأسفل، أمّا عيناها اللتان كان يشبّههما دائماً بعيني طائر العقعق، إذ هما كانا دائماً مليئان بالشيطنة والعبث، أما العينان اللتان تتطلعان إليه الآن فكانتا صديقتين لكنهما ميتتين. نظرت إليه بشيء من الاهتمام والتقدير، وحتى بالحب، أما وراء تلك النظرة فقد كان ثمة نظرة أخرى. وكانت هذه النظرة الأخرى هي التي أفزعته. إنها النظرة التي لخبرته عن درجة خطورة حالة ولده.

وصل إليها وقبّل وجنتيها، "إنني الآن هنا"، قال لها. وحاول أن يقول المزيد لكن صوته اختنق. "إنني هنا يا حبي"، استطاع أن يقول في النهاية." وسوف نقوم باستخلاصه من هذه المحنة".

أراحت خدها على كتفه للحظة سريعة. ثم نظرت إليه، وكانت عيناها تتفحصان وجهه. "لستُ أريدُكَ أن تنهار عندما تراه، مفهوم؟ أتعدني بذلك؟"

"أعدُكِ"، قال لها، وكان ذلك خير ما فعله لأنه وجد نفسه محتاجاً إلى كل ذرة من القدرة على السيطرة على نفسه للامتناع عن البكاء بصوت عالٍ عند ما رأي باني في سريره بالمستشفى، عندما وجد أمامه جسد ولده الصغير تحت مدينة من الأنابيب والمصارف التي تعبر جسده وتحيط به. سمع الحشرجة الرتيبة لجهاز التنفس الصناعي فخُيِّل إليه أنه لم يسمع صوتاً ينذر مثله بالشؤم من قبل. لكن الأمر الذي أقلقه أشدّ القلق، كان ملاحظته للطّفح الجلديّ الذي يغطي بشرة يدي باني ورقبته ووجهه. وعندما كانت إيلي قد أخبرته عن الطفح الجلدي عبر الهاتف فإنه تصوَّر أن الأمر يقتصر على درجة بسيطة وخفية كما لو أن منديلاً حريرياً بنفسجياً يغطى وجه باني ولم يكن ثمة شيء قد هيأه لرؤية شراسة مثل هذا الطفح. أما هذه الطفرة وهذه البقع البنفسجية فإنها بدت كأنها هجوم كاسح يقوم به جيش شديد الإبادة، عضّ على شفته السفلى ونظر إلى يدي باني، فشاهد الأنامل التي استحال لونها إلى أسود. وكم كان قد أحب هاتين اليدين. لقد كانا هما أوّل جزء يقوم بتقبيله من بين أجزاء بدن ابنه. كان ذلك بعد دقائق من إلقاء باني بين ذراعيه للمرة الأولى. كما كان قد أحب انتفاخات الدهون فوق هاتين اليدين عندما كان باني لا يزال يحبو، كما لحب بعد ذلك نعومة ذلك الجلد. كان قد قبل هذه الأنامل واحدة بعد أخرى، كما قام بتقبيلها مجتمِعة. أمّا الآن، فإنه التقط يد باني المترهِّلة ورفعها إلى شفتيه. وقبل أن ينتهي من القيام بهذه البادرة، أدرك أن

هذه المرة قد تكون إحدى المرات القليلة الأخيرة التي قد يستطيع فيها ملامسة ابنه وهو لا يزال يحيا في جسد لم تفارقه الأنفاس.

وبالقرب منه صدر صوت عن إيلي هو أشبه ببكاء حيوان صغير. أدار عينيه الكسيرتين إليها، وهو غير قادر على منع هذه الفكرة الغادرة الأخيرة من أن تتسجّل على وجهه. وهكذا، ذهبت جميع قراراته بالدخول إلى المستشفى وجلبِ الراحة إلى إيلي، والانحناء فوق باني والهمس في أذنيه والطلب منه بأن يقاوم ويقاوم.. كل هذه القرارات قد خانته الآن وسقطت عاجزة أمام وجه الحقيقة الرهيب. نظر نحو إيلي، التي كانت في حاجة إليه دون شك، نظرة تقارب الامتعاض. لقد كان منهَكاً وخائراً في صدمته. وقد وقع عبء توقعاتها منه موقعاً ثقيلاً عليه، مثلما خيَّبتْه الحقيقة التي تقول إنه لا يستطيع ملاقاة التحدي المتمثّل في التفريج عنها، وأنه سيخيِّب آمالها في هذه المسألة. وقف في صامت إلى جانب سرير ولده، وكانت عيناه ترمحان بنظراتهما ما بين الشاشة وبين وجه باني المرضوض والمبقّع "باني"، همس، "باني إني هنا، لقد عدت إلى البِّيت يا باني، وإني سوف لن أفارقك الآن، لن أفارقك حتى الدقيقة واحدة". وبحذرٍ شديد كي لا يجذب أياً من الأنابيب، قام بتمسيد شعر ولده.

"قبْلَ ساعات قليلة، لم يكن يُسمح لي حتى بملامَسته"، قالت إيلي في وتيرة منخفضة. "كان لا يزال قابلاً لنقل العدوى، لقد قالوا، لذا كان يطلب منا أن نلبس قناعاً واقياً، كما أنهم قاموا بوضعنا جميعاً على دورة علاج بالمضادات الحيوية أيضاً. كما لو أنني أهتم لنفسي، أو حتى أريد أن استمرّ في العيش لو حدث مكروه لباني".

"لا تقولي هذا"، هسهس لها بغضبٍ". فلن يصيبه أيّ شيء ". ومن خارج زاوية نظره استطاع أن يلمح سْكُوت وهو يدلف إلى الغرفة. لاحظ كيف أن أخاه أحاط كتف إيلي بذراعه. ملأت هذه اللفتة في بسلطتها فرانك بالخجل والحرقة. تذكّر أن إيلي لم تذقِ النوم منذ ما يقارب الستّ وثلاثين ساعة. نظر إلى الكنبة الموجودة في أقصى نهاية الغرفة، وقال، "إيلي، لمَ لا تأخذين قسطاً من النوم ولو لبضع دقائق؟ إنني أسطيع الآن إراحتك قليلاً".

تجاهلت عرضه. "لم أكن أعرف كم ينبغي على أن أقول لك عليّ الهاتف"، قالت، "إذ إنني لم أكن راغبة في استثارة فزعك. وفي كلّ حال، فإن هذا الطفح الجلدي لم يكن على هذه الدرجة من السوء عندما أتيت به إلى المستشفى، إذ لقد تفاقم أمرهُ هنا كثيراً -"

عرف ماذا ينبغي عليه أن يفعل " متى رآه الطبيب لآخر مرة؟ فإنني أريد التحدث إليه، إذ لربما استطعنا نقله من هنا إلى مستشفى أكبر. فحقيقة أنهم لم يستطيعوا تخفيض درجة الحمى هو أمرٌ غريب".

استدار سْكُوت لمواجهة فرانك، "لقد سبق لنا أن درسنا هذه الفكرة يا فرانك"، قال بهدوء. "لكن باني يتلقى في الحقيقة أفضل عناية ممكنة هنا، أما المسألة الثانية، فإنني لا أعتقد أن القيام بنقله إلى أي مكان فيما هو في هذا الوضع، هي فكرة عاقلة، وأنت تعرف ذلك".

فتح فمه ليجادل، لكن سْكُوت أبقى نظرته مثبتة عليه، وكان فرانك هو أوّل من قام بتحويل نظره، "إذن ما الذي علينا أن نفعله؟" قال مهمهماً دون أن يستطيع رفع نظره إلى إيلي.

"علينا أن ننتظر"، قال سْكُوت. كانت عيناه تلتمعان فيما هو ينظر إلى فرانك، وعندما تابع كلامه، فإن صوته كان لطيفاً ولكن واثقاً. " وعلينا أن نعمل كل ما هو صواب بالنسبة إلى باني".

وعند الساعة الخامسة من ذلك المساء أطبق النوم على جفني إيلي بينما هي في منتصف جملتها. "إنها منهكة"، قال سْكُوت لأخيه مكتفياً بتحريك شفاهه. "دعنا نتركها تنام لبضع ساعات. ويمكننا الانتظار في الخارج".

نهض في غير حماس، فهو يعرف أن إيلي في حاجة ماسة إلى النوم، لكنه أيضاً كاره للتخلي عن وجوده في غرفة باني حتى ولو لدقائق قليلة. وعندما وصلا إلى الباب، فإنه استدار نحو سْكُوت هامساً. "تابع أنت إلى غرفة الانتظار. أما أنا فسوف أبقى هنا مكتفياً بالجلوس بهدوء إلى جانب سرير باني، وإني أعدّك بعدم التسبّب بإيقاظ إيلي".

سحب كرسياً دون ظهر، بكل هدوء، وجلس وهو يضع يده على معصم ولده. حلق نحو وجه باني الذي يشبه وجه شبح، وهو ينتظر أن يلمح إشارة ولو ضئيلة تعطيه سبباً لمتابعة الأمل. لكن عيني باني بقيتا مغلقتين، وأُبقي فمه مفتوحاً بسبب مرور الأنبوب البلاستيكي الصافي لجهاز التنفس الاصطناعي الذي كان يبقيه على قيد الحياة. بقي يمعن النظر في الوجه الحبيب الذي اختفى وراء هذا القناع البنفسجي الذي يخنقه. وعدا عن قرقرة جهاز التنفس، فقد كانت الغرفة صامتة. وكان قد مضى على فرانك نفسه أكثر من ثلاثين ساعة لم يذق فيها طعم المنام، لذلك فإن تيار النعاس بدا يغالبه. حاول أن يطرد النوم عن جفنيه بفتح عينيه ملياً وتحريك بؤبؤيهما من جانب لآخر. لكنه وجد نفسه ينجرف مع تيار النوم، وللمرة الأولى منذ تلقيه الأنباء الرهيبة، شعر بسلام غريب، فهو في الوطن، وهو موجود في غرفة شحيحة الإضاءة مع ابنه وزوجته، وباني لا يزال على قيد الحياة، وها هم جميعاً مجتمعون في فقاعة واحدة، والفقّاعة تنجرف بهم إلى جزيرة غريبة مظلمة محاطة بوحوش بحرية بلاستيكية. لكنهم كانوا معاً. وكان باني حياً لقد كان هذا هو الشيء الأهم. لقد كانوا أحياء جميعاً حتى وإن كان ثمة مخلوق ميكانيكي يضخُّ الأنفاس إلى جسد

ولده. إنني أستطيع التعوُّد على هذا الواقع، مرّ في باله، فأمضي أيامي هنا ساهراً على ولدي، يا إلهي العزيز حتى هذا الحال، وهذه الأيام التي أستطيع فيها أن أتحدث إلى ولدي وألامسه، ولدي الذي لا يقوى لا على الحديث ولا على الملامسة سوف يكون بالنسبة لي خيراً من زوال باني عن هذا العالم. إنني مستعد للقبول بهذا الواقع إذا كان هذا هو كل ما تُقَدِّمه لي.

أنت أيها الأناني الشاذ، عنّف نفسه. أهذه حياة يحق لك أن تتمناها لولدك؟ هذا العذاب المتمثل في هذه السربلة إلى هذه الماكينة؟ تذكّر ما كان سْكُوت قد قاله له من أن عليهم أن يفعلوا فقط ما هو الأفضل بالنسبة إلى باني، أرجوك يا إلهي، صلّى، لا تضعني في ذلك الموقف، لا تدعْ مثل تلك الساعة تأتي أبداً. لا تطلب مني ما لا يمكن أن يُطلب من بشر مثلي، فقط دعني أخرج من هذه المستشفى برفقة ولدي.

مات باني بعد الساعة السادسة بقليل من صباح اليوم التالي، اجتمع الجميع حول سريره، جلس والداه كلٌّ إلى جانب من جانبي سريره يمسك بيد من يديه. وبصوت خفيض مترجرج غنَّت إيلي أغنية "إن القبلات أشهى من التمور"، وهي إحدى أفضل الأغنيات عند ولدها باني، ثم ما لبثت أن لثمت جبهته الرطبة الحارة وقالت: "لا بأس عليك يا حبيبي، لقد كنت ولداً قوياً شجاعاً، لكنك لست بحلجة إلى المزيد من المقاومة، أسَمعتني؟ تستطيع الاستسلام والرحيل في سلام".

لقد أراد فرانك أن يوقفها عن قول ذلك، لأنه حتى بعدما أخبرهم الطبيب المناوب ليلاً عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل بأن الوقت قد حان لدعوة أفراد العائلة لإلقاء نظرة الوداع، وحتى بعد أن أتى الدكتور بيرنتوود وأخبرهما أن آخر نتائج الفحوص المخبرية قد بيَّنت ظهور تعفُّنات خطيرة في الدم، حتى بعد ذلك، وحتى بعد خروج فرانك من الغرفة لاستدعاء سْكُوت وليطلب منه إحضار أفراد العائلة من جديد إلى المستشفى، إلا أنه رغم كل ذلك، بقي متشبثاً بنوع من الأمل الأحمق بأن تحصل معجزة ما. لقد أراد أن يقول لولده بأني عكس ما كانت تقول له أمه تماماً. فبدلاً من أن يطلب منه الاستسلام وعدم المقاومة، فإنه كان يريد أن يحثه على مقاومة المرض، أراد أن يطلب منه مصارعة الموت، أراد أن يطلب منه النهوض من فراش الموت وأن يستعيد مكانه الصحيح في هذا العالم. إنه لا ينتمي إلى هذه الغرفة القذرة في هذا المستشفى القذر.. كان يريد قول هذا. إنك تنتمي إلى فريق ليثيل لكرة القدم، إنك تنتمي إلى بركة مسبح "سي فلَوَر لايك"، وإنك ستذهب إلى مدرسة لندن إيليمنتري. إنك تنتمي إلى سرير تنام فيه بين أمك وأبيك كل صباح يوم أحد، وأن تجلس بالقرب مني في السيارة بعد ظهر أيام السبت عندما أصطحبك معي للتمرن على كرة القدم. إنك تنتمي إلى شاطئ مسبح

"هيلتون هَد" في أيام الصيف، وتنتمي إلى زلاجتك الصغيرة على التلة الواقعة خلف بِّيت نا في الشتاء.

أغمض عينيه في شبه ابتسامة مع نفسه عندما خطرت له فكرة عن باني المرِح وهو يتزحلق إلى أسفل التلة فوق زلّاجته الزرقاء في الشتاء المنصرم، حيث كان شعره الأشقر الذي هو بلون الشاي الفاتح يتلألأ تحت أشعة شمس الشتاء، وبينما كانت عيناه لا تزالان مغمضتين، سمع نحيب إيلي، "يا إلهي لا تأخذ مني باني". وعندما فتح عينيه كان ولده قد فارق الحياة.

عند ذلك مالت جدران الغرفة، ثم اعتدلت، ثم مالت من جديد. وعندما مالت الجدران رأى إيلي ترتمي بجسدها فوق باني، لا تؤذه، أراد أن يقول لها، لكنه وجد ما يشبه نسيج عنكبوت يكمّم فمه ويمنعه من الكلام. وها هي خيوط العنكبوت تتمدّد الآن لتغطي عينيه أيضاً لأن عيناه قد استحالتا إلى شقين مستطيلين لا يرى منهما سوى نصف المشاهد. وكان سْكُوت يقول شيئاً ما، لكنه لم يستطع أن يسمع سوى الكلمة الخامسة، كما لو أنه يستمع إلى مكالمة هاتفية ذات اتصال رديء ـــــــــ رمش بعينيه محاولاً تركيز بؤرة نظره على إيلي وأن يستمع إلى ما كانت تقوله له، حاول أن يرى وجهها بكامله، لكن شكل وجهها بدا له أشبه بلوحة تكعيبية - لقد استطاع أن يرى فمها المتألّم المفتوح، كما لمح الرعب البادي في عينها اليمنى، وتابع مسار دمعة واحدة منحدرة، لكنه عجز عن جمع الجزاء الصورة جميعها.

أمّا ما كسر لحظة الذهول المسحورة في النهاية، فقد كان قيام إيلي بمد يدها فوق جسد بأني المتلاشي لتتناول يده بين يديها. "فرانك"، قالت نائحة "تكلّم معي يا فرانك".

رأي غيمة قِمعيَّة من الكلمات التي تغادر فمه. كما لاحظ وجه إيلي المعبّر يتفاعل مع الكلمات. فعرف أنه كان يفوه بالكلمات الصحيحة. وسر من أجل ذلك. سَرَّ بِقِمعِ الكلمات المعزية الصادرة عنه، لأنه من داخله، كان قد بات تلفاً أجوف هائماً خلال متاهات العذاب في قلبه المستنزَف القريح.

الفصل 17

كان هذا الإحباط شعوراً جديداً. فمنذ اليوم الأول الذي قابل فيه إيلي، كان شديد الافتخار بها على الدوام. فهي واحدة من الأناس الذين يتميزون في كل مَولِج يلِجونه، وفي كل عملٍ يفعلونه – فهي عازفة بارعة على آلة الكمنجة، وهي قد تخرَّجت بمرتبة الشرف في دراستها لنيل درجة الدكتوراه، وهي معالجة نفسية مرموقة الاحترام. هذا عدا عن كونها شريكته الرائعة المخلِصة والأم الساهرة اليقظة. وهذا هو السبب الذي جعله عاجزاً عن استيعاب السبب الذي جعلها تغفو بعد أن عرفت أن باني يشكو من ارتفاع في حرارته. لقد صدَّقها في قولها إن الحرارة كانت منخفضة عندما غالبها النعاس. ولكن أليس من المؤكد أنه كان بإمكانها أن تنام في غرفة الولد في مثل تلك الليلة المشؤومة. غير أن أسوأ ما في هذا الامتعاض هو أنه لا يستطيع البوح به إلى أحد، لقد حاول تنفيس شيء من مشاعره هذه إلى أخيه سْكُوت في اليوم الذي سبق يوم الجنازة، لكن أخاه الكبير نظر إليه نظرة طويلة قبل أن يقول له، "ليس ثمة خطأ من جانب إيلي يا فرانك. بل ليس هنالك من أحدٍ مخطىءٍ أبداً. لقد سمعتَ كلّ ما قاله الطبيب. ذلك أن بضع ساعات لم تكن لتغيِّر من الأمر شيئاً". لكنه لم يستطع القبول بهذا الكلام. فساعات قليلة كان يمكن لها أن تغيِّر الكثير من وجه هذا العالم. ساعات قليلة أخرى من جرعات المضاد الحيوي، ومن السوائل، ومن عقاقير ضغط الدم - من يدري كم كان من الممكن لها أن تؤثّر؟ فإذا لم تنفع بأيّ شيء من هذا، فعلى الأقل كان بإمكانه تلقّي مكالمة إيلي في وقت أبكرَ من الوقت الذي تلقّاه فيها، ولربما كان ذلك سيعني العثور على رحلة جويّة أكثر تبكيراً للعودة إلى الوطن ومزيداً من الوقت الثمين الذي يقضيه إلى جانب سرير ولده.

تقلَّب في السرير، عارفاً أنّ عليه أن يكون في الطابق الأسفل مع إيلي التي نهضت من نومها مثله في وقت مبكّر بعدَّة ساعات. لكنه لم يفعل، ذلك أن ذكرى أخرى قد سمَّرته إلى السرير، ذكرى كانت سابقاً قد تسرَّبت إلى

زاوية مظلمة من ذهنه. لكنها الآن تُذكي النار التي يغلي فوقها امتعاضه من إيلي. إنها الليلة التي سبقت حادثة الإجهاض التي تعرّضت لها، لقد تذكَّرها الآن، كانت قد خرجت مع بعض صديقاتها في الكلية التي تخرَّجت منها. ذهبت إلى مربع ليلي راقص كانت إحدى فرق الجاز تحيي فيه حفلة موسيقية. لقد عادت إيلي إلى البيت عند الساعة الثانية بعد منتصف ذلك الليل، عادت سعيدة ومنهكة وهي لا تكفُّ عن المفاخرة كيف أنها تمكنت من الرقص مدة ثلاث ساعات متواصلة. بعد وصولها بست ساعات، بدأت تشعر بالتنقُّع. وأخيراً أُجهِض منها الجنين بعد بضعة أيام، ورغم أن طبيباً واحداً لم يربط حادثة الإجهاض بسهرة الرقص، فإنه بشكل غامض كان قد ربط بينهما. وها هو الآن يشعر بموجة جديدة من الغضب الساكن في ذاكرته. إنها مستهترة. مستهترة، دمدم في سرّه، رغم أن الجانب المنطقي من تفكيره كان يلحُّ عليه بأنه غير عادلٍ في حكمه عليها. لكنه الآن يشعر شعوراً جديداً بخسارة ذلك المولود الجهيض. في ذلك اليوم شعرا بالانسحاق، لكنهما لم يفقدا الأمل. ولأن باني كان نجم حياتهما المضيء، فلقد عزّى كلٌّ منهما الآخر بأنهما سيحاولان الإنجاب من جديد، وإن لم يسعفهما الحظ، فإن الحظّ قد نفحهما بطفلهما الرائع باني، وفي ذلك ما يكفيهما. لكن في هذه اللحظة، شعر فرانك بفداحة خسارتهما للمولود الجهيض. فكم سيكون يوم الأحد هذا أشدُّ احتمالاً لو كان ثمة سبب يدعوه إلى مغادرة السرير - كأن يكون لهما ربما طفلة جميلة شقراء الشعر، طفلة تأتي لتقبيل والدها وتحثُّه على عدم الاستغراق في نومه هذا الصباح.

فتح عينيه وحدَّق في الساعة. إنها الحادية عشرة قبل الظهر، لكنه تأوّه واغلق عينيه من جديد. وهو لم يستطع التذكّر أنه قد سبق له يوماً ما أن استغرق في النوم إلى هذا الحدّ، إذ لقد كان السماح لوالديه بالتكاسل في الفراش حتى الساعة الحادية عشرة هو أمر مخالف لكل عقيدة في نظر ولدهما باني. لكن هذا كان يوم الأحد الأوّل، منذ سبع سنين، الذي يكون هو فيه في البيت من دون وجود باني معه ـــــــ إذ من عادة باني أن يقفز صعوداً ونزولاً على سرير والديه حتى يتيقّن كلاهما أن تهدئته هي أشبه بتوقُّع المرء من خرطوم سيارة الإطفاء استعادة ما ينقذف منه من ماء، وحتى يذعنا لطلباته رغماً عنهما؛ باني الذي لا يكف عن الاندفاع والجري في غرف المنزل حتى تهتزّ الجدران لصوت ابتهاجه. باني الذي لا يكفُّ عن اللجاجة على إيلي حتى تنهض لتصنع الكعك وحلوى البان كايك من أجل الإفطار، منصاعة لطلباته؛ باني الذي لا يكفُّ عن إعداد لوائح الطلبات التي يريد منهما القيام بتنفيذها معه حتى قبل أن يكون لهما فرصة إلقاء تحية الصباح كلٌّ على الآخر. وأفضل شيء ربما، هو عندما يتسلق باني إلى سريرهما عند الساعة السادسة صباحاً ليدسَّ نفسه بينهما، أمّا إذا كان الطقس بارداً فإنه يتغلغل بجسده

الصغير في جسد فرانك، وكأنه قطة صغيرة تلتمس الدفء في مطبخ دافئ. وعند ذلك يشعر فرانك بشيء ما، في صدره ناعم رطب، شيء أنثوي يتخيله فرانك على أنه أشبه بشعور الأم التي تقوم بإرضاع وليدها. فمداعبة باني تجعله يعيد تقييم كلَّ شيء، تجعله يعيد تشكيل جسده، تجعله على يقين بأن كل شيء كان يعتقد أنه عائد له – حتى عضلاته، وقلبه، ويداه القويتان، وصدره العريض - إنما هو يعود إلى ولده. لقد أعطى ذلك الشعور جسده هدفاً مختلفاً، كما لو أن يديه ليستا مصممتين سوى لغاية وحيدة هي مداعبة جسد باني: أمّا بطنه فما من غاية منه سوى التقعُّر كي يتغلغل فيه جسد باني الصغير طلباً للدفء؛ أما صدره فلم يُخلق سوى ليكون وسادة يرتاح عليها رأس باني الجميل، فهو قد يستلقي في سريره صاحياً ويمسِّد شعر ولده ومبتسماً إلى زوجته المستلقية إلى الجانب الآخر من السرير، شاعراً أنها تحسُّ المشاعر الغزيرة نفسها التي يحسُّها هو، هذا ما ربطه بها، هذه المعرفة التي بطريقة أو بأخرى لم يشعر مرة أنه قد ارتبط بأحدٍ سواها بمثل هذه الطريقة مع أيِّ بشريٍّ آخر. لقد كانت مضاجعته لها دائماً هي لغة تواصل بحدِّ ذاتها، لغة مليئة بالتعابير والكلمات والتوقفات لإعادة متابعة الحوار الذي لا ينقطع لكن حتى هذا الشعور بالتوحُّد والتواصل مع إيلي قد بدا شاحباً مقارنة بما يشعر به عند اشتراكهما في السرير مع ولدهما. إن باني يكمل حلقة الحوار الذي كان قد بدأه مع زوجته منذ بضع سنوات.

سمع صوت تحطُّم صارفٍ في الأسفل، فانتصب واقفاً على قدميه حتى قبل أن يتمكَّن من فتح عينيه جيداً. اللعنة، جال في ذهنه بينما هو يهبط السلم الخشبي نزولاً. هل أصاب إيلي أيّ أذى، تشنجت عضلات معدته خشية أن يرى إيلي مصابة تتألم. "إيلي؟ " ناداها. "أين أنت؟"

لم يسمع جواباً، لكنه بدلاً عن ذلك، سمع صوت تحطُّم آخر يأتي من جهة المطبخ. وفي الباب وقف متسمُراً في أرضه. كانت إيلي تقف أمام المجلى محاطة بنثار الزجاج المحطَّم. وبعد كل عدد قليل من الثواني كانت ترفع بطريقة منهجية طبقاً أو كوباً، وترمي به بقوة إلى حوض الستاينلس ستيل، وهي قلّما ترتعش كلما تحطم شيء وتناثر زجاجه باتجاه وجهها. وحسب ظاهر الأمر كانت حتى اللحظة، قد حطّمت عدداً ليس بالقليل من الصحون. كان وجهها أحمر عابقاً وعليه آثار بكاء، أما شعرها فكان أشعث. اتخذ فرانك خطوة إضافية، ثم توقف، بينما طوَّحت زوجته بصحن جديد في اتجاه الحوض. "إيلي"، صاح بها، وبعد أن أيقن أنها لم تنتبه إليه، "إيلي. توقفي. توقفي". قطع المسافة الباقية بينهما وألقى بذراعيه حول وسطها جاعلاً إياها ترخي قبضتها على قدح لتقديم الخمر. "حبيبتي توقفي. ما هذا الذي تفعلينه؟" شدَّ قبضته على معصمها مديراً إياها نحوه وجاعلاً إياها تبتعد عن الحوض.

هنا استُبدل صوت تحطّم الزجاج بأصوات البكاء والتلوُّع والنشيج. "إنني أفتقده"، قالت، "إنني لا أتحمّل السكون المخيِّم على هذا البيت".

اجتذبها نحوه فدفنت وجهها في صدره وهي تجهش بالبكاء بصوت مرتفع. ارتعش وبات يحسُّ أن كل انتحابة تقع عليه وقوع الضربة المسدَّدة، مذكرة إياه بمدى ضعفه وقلّة حيلته. لقد كانت زوجته في عذاب وحرقة وليس في يده شيء كي يسرِّي عنها، فمن جُعالته الشحيحة بعد التخرُّج، كان قد اشترى لها سيارة جديدة بعدما باست سيارتها الفورد الصفراء التراب في نهاية المطاف. وهو الذي كان قد اشترى هذا البانغالو (منزل صغير فخم) الرائع في فن عمارته لسبب بسيط هو أنه أعجبها بينما كانا يتمشيان قربه في أحد الأماسي. وكان قد قام بالاتصال بمالكي المنزل في اليوم التالي ليسعفه الحظ بأن يجد أنهما عجوزان يفكران في الانتقال من منزلهما هذا إلى منزل آخر يمضيان فيه حياة التقاعد. وفي ذلك الوقت كان قد عرف ذوق إيلي ليدرك أنها تحب الأرضيات الخشبية، والديكورات التاجية، والخزائن المصنوعة من خشب الكرز. وحتى مع معرفته بأن السيولة لن تكون غزيرة، فإنه مضى قدماً في شراء ذلك المنزل وقام بمفاجأتها بصكّ الملكية في الذكرى الأولى لزواجهما. وفي بداية حياتهما الزوجية كان قد قطع عهداً على نفسه بأن يقوم بكل جهد يكون في حدود طاقته من أجل جعل إيلي غير نادمة أبداً على قرارها الذي اتخذته بالزواج منه.

لكنها الآن تطلب منه بعْثَ ولدها من بين الموتى، وهي تجعله لا يجد بداً من النظر إلى عينيها السوداوين المشتعلتين ألماً وحرقة ليعلن بعد ذلك فشله وعجزه. فشعوره هو بالذات، بالحزن والخسارة، كان بحدِّ ذاته فوق قدرته على الصبر والاحتمال. شعر أن كيانه يترنح تحت وطأة حزنه الخاص، ها هو لا يملك فكرة عن كيفية صموده تحت عبء تعذيب إيلي له. أشاح بأنظاره، شعر بشدَّة وطأة اليأس الذي يراه في عيني زوجته. "ليس هذه المرة"، ودّ لو أنه يستطيع أن يقول لها. لقد كان إلى جانب إيلي عندما عانت آن من الارتعاب من الإصابة بسرطان الثدي. وكذلك عندما احتاج والدها إلى عملية قلب مفتوح لإجراء عملية تحويل في شرايين القلب. وهو قد كان إلى جانبها عندما أقدم مريض من مرضاها على محاولة الانتحار. وفي كل مرة من هذه المرات كان قادراً على دعمها، ولم يتأخر أبداً عن ملاقاة التحدي الذي تطرحه المناسبة، فإذا به يقوم بطرح الأسئلة الصحيحة على الأطباء، ويقول الكلمات الداعمة والمناسبة لزوجته. لكنها الآن تطلب منه أن يملأ الصمت الطويل الذي خيم عليهما بعد ظهر الأحد، ذلك الصمت الذي ترامى أمامهما وكأنه حاجز من الشريط الشائك، وهو لا يملك أدنى ذرة عن كيفية فِعل ذلك، إنها الآن تطلب منه القيام بتعويضها عن فقدان باني، وها هي جعبته خاوية ويداه مكسورتان.

"حبيبتي"، قال لها متألماً. "يا إلهي، إيلي".

وقفا في وسط المطبخ وكلٌّ يلتصق بصاحبه. وانسكبت أشعة الشمس إلى داخل المطبخ لتتراقص على نثار الزجاج وتسخر من تعاستهما، ومرت اللحظات، ثم شعر فرانك برِعدةٍ تنطلق من أدنى فقاره لتتسلّل صعوداً على امتداد بدنه، تجالد للبقاء منتصباً ومتماسكاً، لكن الوقت كان قد تأخر. لقد بدأ جسده يرتعش وألفى نفسه يبكي بصوت مرتفع، طفت إلى السطح فقّاعات من الحزن المكشوف. صار يرتعد بين ذراعي إيلي، ذراعيها اللتين بدتا أشبه بقارب مصنوع من الأغصان التي لا تستطيع مقاومة أنواء المحيط الذي يشكله حزنه. "أنا آسف يا إيلي"، قال لها متلعثماً. "لست أدرى ما الذي أقوله أو أفعله من أجل مساعدتك. إنني أكاد ألّا أستطيع أن..".

غطّت وجهه بالقبلات. "أعرف ذلك"، قالت، "لا بأس عليك، لا عليك إن لم تكن قوياً بالنسبة لي".

لكن الأمر يعني بالنسبة إليه، وإخفاقه في أن يكون قوياً جعله يشعر بعدم الجدوى وضحالة الرجولة. مرَّر راحة كفه فوق وجهها، ماسحاً عنه الدموع، لكنه أدرك عقم مبادرته نحوها حتى بعدما قام بها. إذ لسوف يكون هنالك المزيد من الدموع، خُيّل إليه. إنه مجرّد يوم الأحد الأول من سلسلة عمر من أيام الآحاد التي سوف تلي - أيام مفتوحة غير مخطَّطة، وليس لها شكل أو هدف أو معنى. أيام سوف تمتد أمامهما كسُفرة ممدودة لا يشتهيان شيئاً من مأكولاتها. "سأقوم بالاتصال بجَرِي وسوزان"، قال متمتماً "فلربما استطعنا بصحبتهما تجاوز بعض الساعات".

استدارت نحوه استدارة الجرو الجريح الشريد، "لكن بيرتي في البيت "، قالت بكل بساطة، وهنا أدرك قصدها على الفور. كان بيرتي في الثانية عشرة من عمره، لكن حضوره الصاخب كان لا بد له من أن يذكّرهما بولدهما باني. أدار ذهنه في كل اتجاه مفتشاً عن نشاط مأمون يمكنهما القيام بواسطته بتمضية أصيل ذاك الأحد بشكل يحوِّل انتباههما ولو لمدة عشر دقائق عمّا ألمّ بهما من مصاب. لكنه خرج بنتيجة فارغة مطلقة. كما كرِه أن يكون هو المعنيُّ بالخروج بخطة معيّنة.

"فرانك،" قالت له فجأة، فيما على وجهها تعبير لم يسبق له أن لمحه من قبل. "خبِرتُ حلماً غريباً في الليلة الماضية. لقد حلمتُ ـــ وهذا سيبدو لك شاذاً، أعرف ذلك، لكنني حلمتُ أننا نحن الاثنين نتجرّع ذاك الشراب الورديّ - إنه شراب يبدو أشبه بتركيبة البيبتو - بيسمول أو ما شابه ذلك ـــ وقد صرنا قادرين على رؤية باني من جديد".

فهمَ على الفور قصْدَها ومرماها، فهم الذي تطلبه منه، وتقترحه عليه، فهرب قلبه منه. كانت إيلي شديدة الاعتداد بنفسها لتتلفَّظ بكلمة "الانتحار" لكنه عرفها جيداً، وبما يكفي لمعرفة أنها تجسّ نبضه حول هذا الأمر، وأنها تقوم بمحاولة سبر مدى عمق بركة شعوره بالإحباط. فهِمَ كم قد كلَّفها إشراكه هذا الأمر معها، عرف ذلك من التعبير الماكر المجنون الذي ارتسم على وجهها، ذلك التعبير الذي يشي بمقدار قلة سيطرتها على عواطفها ومشاعرها، كما يشي كم هي تأمل بكلِّ حرارة أن يقوم بمشاركتها الفكرة حتى وإن كانت في الوقت نفسه تصلِّي كي لا يوافقها عليها. لقد كانت إيلي معالجة نفسية - وهي بحكم مهنتها، كما بحكم شخصيتها تؤمن بوفرة الاحتمالات اللامتناهية في هذه الحياة، كما تؤمن بتجاوز المصائب، وبالتمسك بالأمل كواجبات أخلاقية. فبالنسبة إليها إن مجرد التفكير بالانتحار، خلا عن التعبير عن الرغبة فيه، إنما يعني أنها قد باتت تنظر إلى قلب هذا العالم فلا تجده سوى أسود، وأنها مثله، لم تعد تستطيع سوى أن تتخيّل سلسلة لا متناهية من أيام الآحاد البليدة الفارغة من كل معنى، آحاد يلي كل منها ستة أيام أخرى في كل أسبوع. آحاد تبدو له كما لو أن نهوضه في الصباح دون باني يعني أن الشمس لن تكون موجودة في السماء في ذلك الصباح. ليوم لا جدوى منه.

رفع ذقنها بحيث صارت تنظر في عمق عينيه، "لن نتجرَّع البيبتو - بيسمول"، قال لها. "نحن لسنا من هذا النمط من الناس". التمع شيء ما في عينيها، لكنه لم يستطع إدراكه. "هل نحن من هذا النمط؟" أضاف. وعندما لم تجب عن سؤاله، "هل نحن من هذا النمط يا إيلي؟"

"لا، لا أعتقِد ذلك".

حدَّق إليها للحظة أخرى. "إنكِ كل ما أملكه في هذه الدنيا الواسعة"، قال لها بهدوء. "فإذا كنتِ تكنين لي أيَّ مقدار من المشاعر، فإن عليكِ أن تعديني في هذه اللحظة".

لم تقل شيئاً.

"إيلي".

هزّت رأسها. "انسَ أنني قلت لكَ أيَّ شيء. فمثلما قلت لك، إن الأمر مجرل حلم غريب عابر. ثم أردفت. "وإني أعدُك".

تنبَّه عندئذٍ إلى أنه كان يحتبس أنفاسه. "حسناً".

"أأستطيع أن أسألكَ شيئاً؟"

"بالطبع".

أيمكننا القيام برحلة طويلة في السيارة إلى مكان ما".

أطلق تنهيدة تنمُّ عن الارتياح لأنه قد سُئِل سؤالاً يستطيع تلبيته. "طبعاً، حبيبتي، أيّ شيء تريدينه، أقول لك ماذا؟ اذهبي وخذي حمّاماً سريعاً، صحيح؟ وسوف أقوم أنا ـــ سوف أقوم بإزالة هذا الركام من الحوض".

أظهرت إيلي وجهاً حزيناً "إنني شديدة الأسف".

"لا تهتمي".

غادرا المنزل بعد ذلك بساعة ليذهبا في رحلة بالسيارة، وصار هذا هو نظامهما التقليدي عند كل عطلة نهاية أسبوع ـــ دائماً يقودان إلى مسافات طويلة من أجل الذهاب إلى أماكن لا يعرف أحد فيها اسميهما، ولا يقابلان فيها بتعابير التعاطف والشفقة في الشوارع والبقالات.

وبهذه الطريقة، تمكّنا من اجتياز الأشهر الأربعة الأولى من حياتهما الجديدة.

الفصل 18

أرادته أن يضحك، لكن الضحك بدا مستحيلاً. لهذا فإنها أرادته أن يبكي. فالبكاء قد يكون شيئاً صحياً حسب اعتقادها. وهو قد يكون مقدمة للكلام، أي قد يكون الخطوة الأولى لاستعادة فرانك مما هو فيه.

أربعة أشهرٍ مضت على وفاة باني. وها هو فرانك يتباعد عنها بصمت كأنه غيمة تتباعد في الفضاء. شعرت إيلي بكلّ حدة بخسارتها لرجُلي حياتها، ولدها وزوجها. كانت المرة الأخيرة التي انهار فيها فرانك في حضورها قد جعلتها تدرك عمق غصّته وعذابه، ولقد كان ذلك في ذلك الأصيل الذي كانت هي تقوم فيه بتحطيم الكؤوس والصحون، ومنذ ذلك اليوم إذا به يبني صدَفة عظمية حول نفسه، صدفة هي شديدة الصلابة والهشاشة معاً، بحيث إنها حتى لو لامَستها مجرد ملامَسةٍ بإصبعها، فإنها لا بد لها من أن تترك على إصبعها نثاراً من الغبار الأبيض. لقد جعلها ذلك تشعر بالوحدة، وحدة هي أقسى مما شعرَت به حتى في ذلك الصباح في المستشفى قبل أن يصل لموافاتها إلى هناك أول عضو من أعضاء العائلة؛ وحدة هي أقسى مما شعرَت به يوم الجنازة حينما كانت تسمع جميع أنواع الكلمات من المعزين كما لو أنها تسمعها من خلف جدار من الزجاج. ولأنها تعرف شيئاً عن موت الروح، فإنها عرفت أن هذا الخدر سوف ينتشر انتشار نقطة من الأيودين (اليود) فوق اللسان، وهذا ما أقلقها على فرانك. فرانك الجديد، الذي وجدت نفسها تسميه، وفرانك الجديد هذا، بدا متحوِّطاً متحفظاً، ويتحرك حولها بنوعٍ من الخجل. كانت قد تاقت إلى رفيقٍ لها، إلى رفيق سفرٍ يستطيع مساعدتها على اجتياز هذا الإقليم الجديد من الحزن الذي تعبره، ولكن بدلاً عن ذلك، إذا بها تتعامل مع غريب، بل أسوأ من ذلك، مع ند. مع ندٍّ كان قد بذر محصوله من الألم على رقعة الأرض الخاصة به، كما بدا ممتعضاً كلما تداخلت حدود رقعة حزنها مع حدود رقعة أحزانه. وبسبب من هذا، فإن إيلي شعرت أن رخصة السماح لها بالبكاء والانهيار في حضوره باتت رخصة مسحوبة أيضاً.

في الليلة الماضية كان قد حصل بينهما اتصال جنسي للمرة الأولى منذ أربعة أشهر. وكان الاتصال رديئاً، إذ كان يخالطه التردُّد، والشكليات، وذلك إلى درجة جعلت هذا الاتصال يبدو غريباً عنهما وجديداً. وقد حاولت إقناع نفسها بأن فرانك في كل هذا، كان يحاول أن يكون ناعماً وحسّاساً معها، بل وحريصاً عليها، لكنها أدركت أنه إنما كان في الحقيقة حذِراً معها.

ولقد كانت هي الطرف الذي ابتدأ استثارة الشريك. إذ إنها انقلبَت نحوه عند منتصف الليل وضغطت جسدها إلى جسده. ثم رفعت يده ووضعتها فوق نهديها ثم بعد ذلك بين فخذيها. كما قامت بلثم شفتيه برغبة عارمة، كانت تتصنَّع جَعْلها تبدو صادرةً عن شهوة حقيقية. ولقد استجاب فرانك لها. لقد قبّلها بشغف. واتخذ جسد كلٍّ منهما طريقه وآلياته نحو جسد الآخر، وذلك على نحو لا جهد فيه كما هي عادتهما. لكن إيلي أحسَّت رغم ذلك بنوع من التحفُّظ من جانب فرانك، بل أحسَّت بتردد، وبحرارة مفقودة. كانت قد أرادت لعلاقتهما في تلك الليلة أن تكون مَطْهراً وفِعْل نسيان. لقد أرادت أن تبكي، وأن تنهار، وأن تمزق بأظافرها قناع العالم الغافل عنها. أرادت الذوبان في نقعة من العرق والدموع. أرادت أن تتلقى العفو وأن تمنحه، وأن تجعل هذا العفو يأخذ مكان الصمت البارد المخيّم بينهما، وأن يُبدل به علاقة مؤكَّدة تشتعل بالحيوية والثبات. أرادت من احتكاك جلد جسديهما أن يشعل الحرارة في دمائهما المتجمدة صقيعاً، ولكن، وبدلاً عن ذلك، فإن فرانك انقلب بجسده مبتعداً عنها بعدما أوصلها إلى الرعشة. ابتعد عنها إلى زاويته البعيدة من السرير. وبدلاً عن كل ما تمنته، إذا بها تستلقي إلى مدة قصوى، تستلقي وهي تشعر بالوحدة والابتعاد عن زوجها إلى درجة لم تبلغها مرة خلال الأشهر الأربعة الماضية.

استيقظت صباح اليوم التالي بنوع جديد من التصميم، فبدلاً من القلق على فرانك إذا بها الآن تقلق على نفسها. لقد أيقنت كم أنها كانت قريبة من حافة الهاوية بينما هي تمشي خلال الأشهر القليلة الماضية، وهي قد عرفت نفسها جيداً وبما يكفي لتدرك أنها لا تستطيع تحمُّل هذه الدرجة من الابتئاس. وأنها تريد الانتماء من جديد إلى هذه الدنيا، وأن يمتدّ ظلُّها في هذه الحياة بامتداد حزنها، لا أن يتقلّص وينحسر. وبأنها لا تريد استعمال المصيبة التي نزلت بها كعكاز تتعكز عليه، ولا أن تستعمله بالطريقة التي هي أسوأ من ذلك أي لتجعل من هذه المصيبة عصاً تنهال بها على سواها من الناس. بل هي أرادت أن يهذِّبها الحزن، ويجلوها، ويجعلها أكثر إنسانية. حتى وإن كان ذلك يعني تعريض نفسها إلى جراح جديدة، وإلى معاطب حادثة. وها هي الآن تشعر أنها جديرة الآن بهذا التحدي. وهي تشعر بعزمٍ جديدٍ لإسقاط غشاوة الخدر التي كانت تحدِّق من خلال ثقوبها إلى هذا العالمٍ خلال الأشهر القليلة الماضية. فهي لن ترتجف، ولن تتحوَّل إلى حلزون منسحب إلى داخل قوقعته لتعيش بداخلها مثلما يعيش فرانك. وأهمُّ من كل ذلك، إنها لن تسمح لنفسها بالاعتقاد

أن الحزن هو واجب عليها أن تؤديه إلى ولدها المتوفّى. بل عليها ألّا تحاول إقناع نفسها بأنها تخلّد ذكراه بامتناعها عن عيش حياتها عيشاً كاملاً. وكم سبق لها وأن عاينت مرضاها وهم ينحدرون إلى إغراء هذه الخرافة الجميلة ـــــ نساء امتنعن عن مواعدة الرجال على امتداد عقود من السنين بعد الطلاق، شباب وشابات يمتنعون عن تناول الآيس كريم من جديد لأن الأمهات والآباء قد تنغّصوا من قلة تناولها فيما هم على فراش الممات، نساء غادرهن أزواجهن، فإذا بهن يتخذن من الترمُّل فضيلة. وكأن المزيد من الابتئاس قد كان يوماً يصلح علاجاً للابتئاس. لا، بل إن الطريقة الفضلى للاحتفاظ بذكرى الميت هي الإقبال على الحياة. لقد خيَّبا ولدهما باني خلال الأشهر الأربعة الماضية. فلو أن ولدهما المشرق المحبّ للحياة نظر إليهما مرة من أعلى السماء، فإنه لن يتعرّف عليهما نظراً للحالة المزرية التي وصلا إليها.

وهي قد قررت تغيير هذا الواقع. لم يكن الموعد المقرَّر لاستقبال أولى مريضاتها واقعاً قبل الساعة الواحدة بعد منتصف هذا النهار، وهكذا، فإن هنالك متسع من الوقت لقيادة السيارة إلى محل بائع الأزهار للعودة إلى البيت بباقة كبيرة من الورود. نضّدت الأزهار في زهرية كبيرة الحجم وقامت بتركيزها فوق طاولة المطبخ.

وبينما هي تقود سيارتها إلى العمل، سمحت لنفسها بإنزال زجاج نافذة السيارة لتمتع أنظارها بجمال وروعة هذه الدنيا. وقد لاحظت للمرة الأولى منذ أشهر كم هو جميل مذاق لذعة أشعة الشمس فوق جلد مرفقها، وكم هو منعش ولذيذ ملمس الأنسام وهي تنزلق إلى داخل سيارتها، وقد لاحظت الجمال المتلالىء للأزهار البرية الصغيرة الصفراء والزرقاء النامية على جانب الطريق. ولم تصل إلى عتبة مكان عملها إلا وكان وجهها ممتلئاً بالحرارة والحياة.

وكما يشاء الحظ، فإن زبونتها الأولى ستكون آمي فلورانتين، وهي مدرّسة متقاعدة، امرأة طويلة خشَّنها الزمان إذ بلغت نهاية عقدها السادس. وكانت هي وزوجها فْرَدّ، الذي مرّ زمان طويل على زواجها منه، قد جاءا لاستشارة إيلي منذ أربع سنوات حول بعض المشاكل الزوجية. كان ذلك بعد مدة طويلة من توقفهما عن الحاجة إلى تلقّي الاستشارات الزوجية معاً. أمّا آمي، فكان عليها المرور ثلاث أو أربع مرات كل سنة لعمل ما كانت تسميه جلسات تعديل إيقاع السلوك.

لكن هذه الزيارة كانت الأولى بعد وفاة باني، وتساءلت إيلي عما إذا كانت زبونتها قد علمت بالأنباء. ولم يطُل عجبها كثيراً لأنه ما إن دخلت آمي إلى العيادة حتى مدت يدها مصافحةً إيلي معبِّرة لها عن أسفها.

"شكراً لكِ"، قالت إيلي. جلستا متقابلتين، وقد قاومت إيلي رغبتها في إسدال الستارة على وجهها بحيث لا تقرأ آمي عليه موكب المشاعر التي طافت به لمجرد الإتيان على ذِكر ولدها.

"حسناً، كيف تجري الأمور معك؟" بدأت آمي كلامها، "أنتِ تتذكرين أنني كنت قد فقدتُ ولدي جيم منذ حوالي خمس وعشرين سنة"، قالت، "وإني أقول لكِ يا عزيزتي، لا تزال هنالك أيام لا يمرُّ عليَّ بعضُها سوى بصعوبة. لهذا كوني رحومة لنفسك".

وكانت إيلي لا تزال تتذكَّر. حادث غطسٍ قفز خلاله جيم إلى بركة فاصطدم رأسه بصخرة. كانت آمي وزوجها قد ذكر هذه الحادثة لها منذ جلستهما الأولى معها، وكان فْرَدّ خلال فترة الكلام عن ذلك، يمسك بيد زوجته معاضداً. لقد أحبتهما إيلي على الفور، لكنها عجِبت كيف يكون هذان الزوجان بعد أن أمضيا كل هذه السنوات الطويلة معاً، لا يزالان يحتقبان مشاكل زوجية في نهاية عقد حياتهما السادس. أمّا الآن فإنها قد باتت بالأمر أدرى.

كذلك فإنها باتت أدرى أيضاً بعملها، بحيث إنها لا ترمي بشجونها عند أقدام زبائنها، لكن وجه آمي كان طافحاً بالتعاطف والتفهُّم، كان وجهها مختلفاً جداً عن بقية وجوه الزبائن الذين لم تقرع المآسي الكبيرة أبوابهم. كانت تختلف عن الأناس الذين يتفوهون بالكلمات المعزية، المناسبة، المحسوبة ثم يعودون على أعقابهم إلى الأضواء الباهرة التي توفرها لهم حيواتهم المحظوظة. لهذا، فإنها وجدت نفسها تسأل، "تُرى أيمكن لمثل هذا الألم أن يهدأ مع مرور الأيام؟"

نظرت آمي فلورانتين نحوها نظرة مليَّة. ثم هزت رأسها. "إنك تطرحين السؤال من زاوية خاطئة. وإن ما تحاولين القيام به يا إيلي - بل ما نقوم جميعنا به – هو استنقاذ شيء ما، من حياتنا السالفة. لكن هذه الطريقة لا تنفع أبداً. إن ما تفعله وفاة ولدٍ في العائلة يعني أنها تمسح كل شيء قديم وتزيله. إنها تنظف جميع الأرصفة التي تجتاحها. إن الحقيقة الجليّة يا عزيزتي، هي أن ما كنتِ تملكينه مرة قد ذهب وانقضى أمرُه. وكل ما يبقى عليك، هو البدء في حياة جديدة، حياة جديدة من الصفر. والمؤسف في الأمر، هو أنه لا يبقى لديك الشيء الكثير مما يمكنكِ إعادة النهوض ابتداء به. لذلك، تقومين بجمع كلِّ الحطام الذي بقي متوافراً لك، كلَّ غصنٍ هزيل، وكلَّ ورقة يمكنكِ العثور عليها من أجل إعادة بناء حياتك من جديد".

إنني لا أزال أُخدع طيلة الوقت"، قالت إيلي. "ففي كل صباح أنهض من نومي، فتأخذني الفكرة الأولى إلى أن باني سيتأخر عن الوصول إلى مدرسته،

أو أنني قد نسيت أن أعدَّ له طعام الفطور. ثم تخطر الحقيقة في بالي، واشعر عند ذاك كأنني أموت بالتقسيط موتة جديدة صغيرة في كل يوم".

"إن هذا الجزء سيزول ويذهب مع الوقت". قالت آمي. "لكن عليَّ أن أقول لكِ شيئاً منذ الآن يا إيلي. شيء لن يقوله لك أحد سواي. إن الحرقة سوف لن تغيب مرة. فهي ستبقى هناك حتى بعد مرور سنوات وسنوات. وهنالك ضغط شديد عليك لدفنها، إذ إن هذه هي طريقة ثقافتنا – إنها ثقافة حتى الحزن يأتي فيها مع تاريخ لانتهاء الصلاحية، أتعرفين ذلك؟ إن من المتوقع منك أن تهزّي رأسك بالموافقة وأن تبتسمي لأن العواطف العارية تسبب الحرج للآخرين".

"لقد سبق لي وأن لمست ذلك بنفسي". قالت إيلي هامسة. "فعندما التقيت مدرِّسة باني القديمة في المتجر في ذات ليلة، قامت بسؤالي كيف تجري الأمور معي، فما كان مني سوى أن صارَحتَها بحقيقة الأمر. قائلة لها إنها تجري بطريقة رديئة. فما كان منها على الفور سوى أن غيَّرت الموضوع".

"أعرف ذلك. فلقد كان ولدي جيم في العشرين من عمره عندما توفي. وكل أصدقائه الذين كانوا معه عند البحيرة في تلك الليلة، خاصة الأولاد الذين تربُّوا على وجه التحديد في بيتي – لا شيء. إنهم جميعاً يدبرون بوجوههم عني عندما أحاول الاقتراب منهم". ركَّزت نظرتها فوق وجه إيلي. "إنني أقول لك كلَّ هذه الأشياء حتى لا تأخذي الأمور على محملٍ شخصيّ عندما تحصل معك. إن الأمر كله يتعلق بالطبيعة البشرية يا عزيزتي. وهم لا يقصدون شيئاً يكون موجَّهاً ضدك عندما يفعلون ذلك".

ابتسمت إيلي. "أشعر كأن من واجبي أن أدفع لك ثمن هذه الاستشارة".

"هذا هراء"، أجابت آمي على الفور. "لقد جئت أنا وزوجي لاستشارتك أوّل مرّة لأننا سمعنا أنكِ إنسانَةٌ بكل معنى الكلمة. ولست واحدة من أولئك الذين يدّعون معرفة كل شيء، ولا من تلك الدمى الآلية التي تفرِّخها النظريات، والذين يطلقون على أنفسهم لقب المعالجين النفسانيين". أدارت عينيها في محجريهما. "ولا تدعيني يا عزيزتي أقوم بذكر الأسماء".

"أعرف ماذا تقصدين"، قالت إيلي. "لقد ذهبتُ إلى الكلية مع بعضهم".

لم تنتهِ من العمل حتى السادسة من مساء ذلك اليوم، لكنها عادت إلى البيت مشحونة بشعور جديد ملؤه التصميم. كان فرانك قد وصل قبلها إلى البيت وهو يجلس على كَنَبة، ويحتسي كأساً من البيرة. ذهبت تواً للجلوس إلى جانبه. "هذا يبدو مشوِّقاً". تنهدت وهي تنظر إلى كأسه. كان من شأن فرانك القديم أن يقوم على الفور بتقديم رشفة لها من كأسه على الفور. أما فرانك

الجديد فقد نهض عن مقعده ليسكب لها كأساً خصوصياً. تظاهرت أنها لم تدرِك الفارق. "شكراً لك حبيبي". قالت بابتسام، "كيف كان نهارك؟"

هزّ كتفيه، "لا شيء غير اعتيادي. ما زال كل قديم على قِدَمه". ولم يقم بمبادلتها السؤال نفسه عن نهارها، وتظاهرت هي أيضاً أنها لم تلحظ ذلك.

انتهت من احتساء كأسسها فنهضت عن الأريكة. "إن سِندي شيهان تقدم محاضرة في حرم الجامعة هذه الليلة. كنت أفكر في الذهاب إلى المناسبة بعد العشاء، وأظن أنك ترغب في الذهـاب؟"

حدّق نحوها. "ما هذا الذي تتحدثين عنه؟"

"إنك تعرف من هي، أليس كذلك؟ إنها الناشطة في سبيل قضية السلام التي كانت قد خسرت ولدها في حرب العراق؟"

"أعرف من تكون يا إيلي، لكنني بكل صراحة. لا أفهم ما الذي يدعوك لتعريض نفسك إلى المزيد من القصص الحزينة في الوقت الذي نحن فيه لم نكد ـــــ" هنا أمسك لسانه. "انسي الأمر".

" لا، بل أكمِل ما كنتَ في صدد قوله".

استدار نحوها، فيما عيناه تلتمعان بالغضب، "لقد قلت ما أريد قوله".

" وما الذي يجعلك حانقاً إلى هذا الحدّ؟ ما الذي يدعوك إلى معاملتي بهذه الطريقة؟

" لا تبدئي شجاراً معي يا إيلي. إنك تبحثين عن سبب للشر لحظة عودتك. حتى منذ قبل ذلك".

شعرت أنه قد بدا يتسبب لها بالصداع. "فرانك! عمَّا تتحدث بحق الجحيم؟ لقد كنتُ في الحقيقة في مزاج سعيد لحظة رجوعي إلى البيت في هذا اليوم".

"أستطيع أن أرى ذلك"، صاح بها، "لقد لاحظتُ. كما لو أن أيَّ إنسان لا يستطيع رؤية هذه المزهرية الحمراء في المطبخ، وتلك الأزهار العينة التي تحتويها".

نظرت إيلي نحو فرانك، نظرة قلق على سلامة عقله. "أهذا هو الأمر الذي أشعل فتيلك؟ حقيقة أنني جلبت أزهاراً إلى البيت؟ لقد كنت أحاول بواسطتها أن أرفع معنويات نفسي".

"وهل ترفعين معنوياتك عن طريق جعل البيت كأنه صالة منحوسة لإحياء المآتم؟ لقد مرَّت أشهر أربع على دفننا لابننا، وإنني لا أزال أراه مسجًّى على نعشه في كل ليلة. وأنتِ، أنت..".

عادت بسرعة إلى الأريكة وطوّقته بذراعيها، "آه يا حبيبي، كان هذا هو آخر ما يمكن أن يمرّ في ذهني. يا إلهي، فرانك. إنني لا أستطيع العيش هكذا. إنني لا أستطيع العيش في بيتٍ تذكِّرنا الأزهار فيه بالمآتم بدلاً من أن تذكّرنا بالأفراح. أرجوك يا حبيبي".

انحنى فوقها قليلاً، لكنه ما لبث أن تجمّد. "فقط اتركيني لوحدي"، قال لها مبرطماً "إنني – إنني أريد التعامل مع هذا الأمر بمفردي وعلى طريقتي". مدّ يده نحو كأسه مستخدماً هذه المناورة للإفلات من بين ذراعيها.

"ألا يمكننا فقط أن نتكلم؟" حاولَت معه، لكن تعبيره المنسحب عندما تطلّع نحوها، كان فيه ما يكفيها من إجابة.

جلسا على الأريكة صامتين لدقيقة، ثم ما لبثت إيلي بعدها أن انسحبت. "أصغ إليّ"، قالت له. "لا أشعر أنني في مزاج القيام بالطبخ لإعداد عشائنا هذه الليلة. ما رأيك في أن يقوم كلانا بتدبُّر أمر عشائه بنفسه؟ كما إنه يوجد الكثير من الطعام المتبقي في الثلاجة".

"إذن أنتِ ذاهبة إلى ذلك الشيء الذي هو تعبئة في سبيل السلام؟" سألها.

تلبَّثت للحظة، متسائلة عما إذا كانت هذه هي طريقته للوصول إليها والطلب منها البقاء معه هذا المساء، لكنها ما لبثت أن تذكرت الحوار الذي أقامته مع نفسها في وقت سابق من هذا النهار. الفكرة التي تقول: إن عليها أن تكبر في حجمها بسبب المصيبة بدلاً من أن تنكمش، وأن عليها أن تستعمل خسارتها من أجل ربط حياتها بحياة الآخرين.

هذا إلى جانب أنه إذا كان فرانك يحتاج إلى بقائها معه، فإن عليه أن يتعلم كيف يكون الطلب.

"نعم"، قالت له، وخرجت.

الكتاب الرابع

خريف وشتاء العام 2007

جيربوغ، الهند

الفصل 19

كان ضرب الطبول مُرجفاً للقلوب — مرسَلاً على رسله ومتوحشاً، ولكنه كان مع كل هذا، تحت السيطرة تماماً جلب كل ذلك إلى قلب إيلي شيئاً ما، لم يسبق لها وأن أحسّت به منذ وقت طويل – إنه ابتهاج عصبيٌ مقرونٌ بسعادة عميقة، إنه نوع من الشعور الذي لطالما شعرت به أمام اتساع المحيط، أو رحابة السماء في الريف. هذه هي الهند، بقيت تخاطب نفسها، ها أنذا في الهند. كما لو أنها قد وصلت إلى هذا البلد في هذه اللحظة.

وأمامها، كانت آشا، تحمل في يدها عصاً حمراء قصيرة، وتراقص رجلاً من أبناء قريتها. كلُّ آثار الاحتشام والخجل التي كانت تبدو على الفتاة لتي تعمل مترجمة مع إيلي قد اختفت الآن. أما الذي حلّ محلّها فهو فتاة تدور وترقص في فتنة وإغواء، وتقوم بقرع عصاها (دانديا) بإيقاع على العصا التي يحملها الشاب الذي يقوم بمراقصتها، كما تتحرك وتتمايل على الإيقاع المتلاحق لقرع الطبول. كان هذا الثنائي يرقص إلى جانب حوالي دزينتين من القرويين الآخرين، على قطعة أرض خلاء تقع أمام عيادة نانديتا ومدرستها.

ويبدو أن جميع سكان جيربوغ كانوا قد خرجوا من منازلهم في أفضل ثيابهم، للاحتفال بعيد الديوالي في هذا اليوم من تشرين الثاني/ نوفمبر، اختلست إيلي نظرةً مواربةً طويلة في اتجاه فرانك. لقد كان كارهاً الحضور، وخائفاً من الاستقبال الذي يمكن أن يستقبله به أهالي القرية. لكن نانديتا زحفت إلى بيتهما منذ بضع ليالٍ مضت وقالت له بصوتٍ عنيد إن عليه الحضور، وأن سكان القرية سيعتبرون تخلفه عن حضور أهم عيد يحتفلون به في قريتهم إهانة سافرة لهم. "هذا إلى جانب أنك قد تجد نفسك تمضي وقتاً ممتعاً يا فرانك ". ختمت كلامها ساخرة. وعند ذلك، ابتسم فرانك وقال لها إنها تشبه إيلي تماماً، وأنه إذا كان يستطيع مواجهة إحداهما على حدة في كل مرة، فإنه لا يقوى على مجابهتهما عندما تتألبان عليه في وقتٍ معاً، وأنه بذلك لن يبقى له أي خيار سوى الاستسلام لرغبتهما.

كانت إيلي سعيدة لحضوره، ومن حكمها على الطريقة التي كان ينقر بها فخذه بأصابعه دون إدراكٍ منه، على إيقاع الموسيقى، فإنها أدركت أنه سعيد أيضاً، كما أنها اعتقدَت أنه بدا أنيقاً جذّاباً بقميصه الأبيض المفتوح وبنطاله الأخضر الغامق. وكانت الشمس تغرُب خلفهم فتلقي بأشعتها على شَعرِه الذهبيّ حتى بدا كأنه ضوء عمود نور.

ويبدو أنها لم تكن هي الوحيدة التي لفتَها جمال فرانك، إذ انطلقت الهتافات من الجمهور عندما قامت موسي - أكبر المعمرات في القرية، امرأة في الثانية والتسعين من عمرها - بالنهوض على قدميها وشقّت طريقها متعثرة إلى البقعة الخالية التي تجمّع فوقها الراقصون، وكان ثمة صبيَّان يأخذ - كلٌّ منهما بذراع من ذراعيها، صبيَّان كانا من بين تلامذة إيلي، وقد افترَضت أن يكونا حفيدَي موسي، ولكن عندما تحرك ذلك الموكب الثلاثي إلى الصف الأمامي الذي كان يجلس فيه فرانك وايلي، ومعهما راميش، ونانديتا، وشاشي، إلى شاشي، فإن موسي ما لبثت أن توقفت. نزعت يدها من يد الصبي الذي كان يمسك بيدها اليمنى ومدّت يدها المعروقة وأرسلت أصابعها البارزة العُقَدِ في شعر فرانك. تجمّد فرانك، واندفعت نظرات عينيه نحو إيلي طلباً للمساعدة. لكن موسي ما لبثت أن سحبت أصابعها وكوَّرتها ورفعتها إلى شفتيها، ثم أطلقت في الهواء قبلة في اتجاه فرانك الذي تدرّج لون وجهه إلى ثلاثة ألوان حمراء. ومن حولهم جميعاً أطلق الجمهور ضحكة مدوّية، كما ارتفعت الصيحات العابثة في الفضاء.

لكن موسي كانت لمّا تنتهي بعد من غزوتها. ومن مكانها الذي ما زالت تقف فيه إلى جانب فرانك قامت بالتحدث معه بالإشارات لتقول له إنها تطلب منه مرافقتها إلى حلبة الرقص كي يرقص معها. بدا فرانك كأنه مسمّر إلى كرسيه. أمّا الأمر الذي لم يسعفه أيضاً فهو وجود راميش بينه وبين إيلي، وقد بدأ الصبي يتواثب إلى الأعلى والأسفل وهو يصيح، "إنها تريد أن ترقص معك يا فرانك"

ولكن بعد ذلك بقليل انسلّ اثنان من الطبّالين من الساحة واتخذا طريقهما إلى المكان الذي يجلس فيه الضيوف. " تشارلوجي تشالو"، نادى أحدهما صادحاً، وعند ذلك ارتفع ضرب الطبول إلى وتيرة هي أعلى من كل ما سبق.

انحنت نانديتا. "أعتقِد أنه لم يعد لك الكثير من الخيار يا فرانك"، قالت ضاحكة تحت ضجة الطبالين، "إن موسي هي التي تقوم عادة باختيار أول شركائها في الرقص".

ولم يسمح فرانك لأحد الطبالين بجره إلى قدميه إلّا بعد أن أطلق شتيمة صامتة لم يسمعها أحدّ سوى إيلي. وهنا هاج الجمهور بالهتاف، وضحكت موسي مظهرة كلَّ أسنانها الثلاثة الباقية لها. وهنا أفسح الراقصون مجالاً للراقصَين الجديدَين. وقدَّم أحد الرجال إلى فرانك عصا رقصٍ، وقام بتعليمه على خطوات الرقص القليلة الأولى.

إنه يبدو مثلاً للرجل الأبيض غير حاذق القدمين، جال في ذهن إيلي بينما هي تراقب زوجها وهو يجاهد من أجل قرع عصاه في الوقت المناسب على عصا موسي. ولم يسعفه الحظ هنا أيضاً لأن موسي التي تقوس ظهرها بسبب إصابتها بمرض تكلّس العظام، كان طول قامتها لا يكاد يصل سوى إلى مستوى خصره، أما ما أحبته إيلي دائماً في فرانك، فهو وقْعُ قدميه الواثق المطواع الذي يجعل منه شريكاً رائعاً في الرقص، لكنه هنا، يرقص في الفضاء المفتوح تحت سماء مظلمة، ويحيط به رجال سمر الجلود، ونساء لابسات لتدرُّج يغشّي العيون من الألوان الحمراء والخضراء والصفراء، ولقد ذكّرها الموقف برجلٍ عجوز في ذلك السروال الأخضر المزركش بالأنماط في ملعب غولف.

ولا بدّ من أن نانديتا قد قرأت ما يجول في فكرها، "عليك الذهاب لمساعدته"، قالت لها "إنه يبدو في وضع تعيس هناك". وقبل أن تتمكن إيلي من الإجابة، كانت نانديتا تسحب كلاً من شاشي وإيلي. "انهضا فإنني أتحرّق شوقاً إلى الرقص".

ولم تكن إيلي بحلجة لتكرار الطلب إليها مرة أخرى، إذ إنها منذ وصولهما إلى مكان الاحتفال هذا، بل منذ اللحظة الأولى التي سمعت فيها موسيقى بوليوود تصدح عبر مكبرات الصوت، ثم لتسمع بعدها دويَّ الطبول، ومنذ اللحظة التي أبصرت فيها الجمال الباهر للنساء القرويات وهن يتضاحكن في بهجة وحبور لمرأى الأطفال الذين يطلقون ألعابهم النارية - من أسهم تندفع في خطٍ متكشِّرٍ في اتجاه السماء، إلى شلالات النار التي تنفجر في باقة من الشرارات الحمر والزرق، إلى الدوامات التي تدور في مدارٍ من الضوء واللون قبل أن تنطفئ - لقد شعرَت أن هنالك شيئاً ما يستريح في داخلها. لقد شعرت بفرحٍ مدوِّخ شديد الامتداد. كما شعرت بإحساسٍ بالانتماء لم تتمكن من تفسيره تماماً. وبالأمس، وبينما كانت تقوم بزيارة بيوت بعض النساء القرويات اللواتي لا يستطعن الحضور إلى العيادة، فإنها لاحظت أن كل كوخ مصنوع من الطوب المشويّ توجد له آلهة من الطين عند مدخله (ديفا). أما بساطة فانوس الزيت، المصنوع من الصلصال فقد جلبَت عقدة إلى حنجرتها. لقد نظرت إلى تلك الفوانيس كرمزٍ لبساطة الوقار الهادئ للناس الذين يقطنون تلك البيوت.

ولقد حاولت أن تشرح عن عيد الديوالي، أو عن مهرجان النور لوالديها خلال السنة الماضية. تصوروا أن يوم الرابع من تموز/ يوليو يستمر أسبوعاً كاملاً، قالت لهما، لكنها علمت أن ذلك لا يلخّص تماماً الغزارة والجمال، والكرم المطلق لهذه الأعياد، وليس أحد مظاهرها سوى الفكرة الإنسانية المطلقة خلف توزيع الطعام ـ ولم يكن لديها من طريقةٍ ممكنةٍ لشرح هذه الفكرة لوالديها المنتميان إلى الطبقة الوسطى. فكل بيت في جيربوغ عليه أن يشتري أو أن يصنع المأكولات المحلاة لمناسبة عيد الديوالي وأن يقوم بتوزيعها على الجيران، والأصدقاء والزوار، فكل النسوة اللواتي أتين إلى زيارتها بالأمس في العيادة جلبن لها معهن قطعاً قليلة من الحلوى. كل النساء فعلن ذلك بصرف النظر عن درجة فقرهن. كذلك فإن أمهات الأطفال اللواتي حضرن إلى المدرسة بالأمس أرسلن عرضاً من نوعٍ ما، وفي إحدى الحالات، فإن أحد الأطفال كان قد أعطاها، بكل بساطة، قطعة ولحدة من السكَّر النبات. فهذه المناسبة شبيهة بمناسبة عيد الميلاد، مع وجود فارق، هو أن المرء هنا يتبادل توزيع الهدايا مع البلدة بكاملها.

والآن، كانت تحاول السيطرة على انسياب حركة رِدْفَيها، محاوِلةً بشدّة أن تقاوم نبرة وقع الطبول التي تجعلها تفقد زِمام سيطرتها، وتتحوّل إلى الرقص الإيقاعي الآلي عن طريقتها في الرقص التي اعتادت عليها في الملاهي الليلية عندما كانت في عمر المراهقة. لكن هذا هو سر الجمال في الرقص المرتبط باحتفالات دانديا —— فهو يفسح في المجال لفرح التناقض الناتج عن اقتران الحركة بالضبط، كما للتسيُّب داخل دائرة الشكل. وهذا الرقص ليس معنياً بالتعبير الفردي بل هو معني بالتعبير المحلي الجماعي.

واستدار فرانك نحوها بلفتة تشبه الشعور بالانشراح. رأت حبَّاتِ العرق على جبينه. "هاي"، صاحت به من فوق الموسيقى ناقرة عصاه بخفّة بعصاها "انت مسرور؟"

"لقد عرفتُ شركاء رقص في السابق أفضل مما لديّ الآن"، قال ساخراً، لكنه ما لبث أن ابتسم، كما لو أنه يستمتع بوقته رغماً عنه.

شقّت نانديتا وشاشي طريقهما إليهما. كان شاشي يحرك وركيه بطريقة طليقة ماجنة، الأمر الذي جعل إيلي تقهقه. كان هنالك شيء ما، سخيفٌ قليلاً، وغريب الأطوار، يحيط بسلوك شاشي. لكنها كانت تحب فيه هذا السلوك.

أمّا نانديتا من جهة ثانية، فقد كانت كتلة حركةٍ ونشاط "تعالَ يا فرانك، تحرَّكْ"، قالت طارقة عصاها بمهارة فوق عصاه. "إنك ترقص بشكل اشبه برقص مجهّز موتي أخرق".

رقصوا في دائرة صغيرة لعدة دقائق، ثم ما لبث الغربيون الآخرون أن انضمّوا إليهم. فقاموا بتوسيع نطاق الدائرة للإفساح في المجال لهم، لكن إيلي فقدت استمتاعها بالرقص على الفور تقريباً، حيث شعرت كان الرغبة تفارقها، كما أنها لاحظت أنهم قد كوَّنوا شرنقة غربية بطريقة عديمة الذوق والذكاء، فدائرتهم الخاصة قد نبذت عنها القرويين. لذلك حالما آنست فرصة لذلك، ما لبثت أن انسحبت من هذه الدائرة لتأخذ في الرقص مع بعض تلامذتها الأصغر منها. ثم ما لبث فرانك أن تبعها بعد دقائق قليلة. وقد لاحظت أنه قد تخلّى عن جموده وصار يستمتع بالرقص استمتاعاً أصيلاً، فالعرق يتصبب منه بحريّة، وهو يقوم بحلّ بعض أزرار قميصه "رويدكِ، ألا تتعبين وتأخذين استراحة قليلة بين رقصة وأخرى؟" قال لها مبتسماً "إن هذا يبدو أشبه بالرقص في إحدى النوادي التقنية".

"أغمِضْ عينيكَ"، ردّت عليه صائحة فوق صخب الموسيقى، "حاول الرقص فيما عينك مغمضتين. إنه لشعور رائع".

"أتريدينني أن أتعرّض إلى المجازفة بقرع رأس تلك السيدة العجوز بعصاي؟ لا، شكراً لكِ، لن أعمل باقتراحك".

"لا"، قالت له فيما هي تمعن النظر إليه. "ارقص معي فقط. وستكون قادراً على الرقص مغمض العينين، وسوف تري الفارق".

وهكذا قاما بتنفيذ الفكرة. نفّذاها لخمس دقائق كاملة رقصا خلالها معاً بأعين مغمضة. ولشدَّة دهشتهما، فقد كانا في تناغم كامل، ولم تمسَّ عصا أياً منهما براجم أصابع صاحبه، كما لم تفلت منهما نقرة طبل واحدة. وكانت إيلي هي أوّل من فتح عينيه. اتخذت لها خطوة أشدُ قرباً منه، وكما لو أنه أحس بخطوتها تلك، صارت عيناه مفتوحتين تماما، "أريت؟" قالت له، كما لو أنها قد أحرزت نصراً كبيراً بنقلها لشيء من المعلومات الضرورية إليه.

"إني أدرِك الفارق الآن"، أجابها، "كما إني أحبك. أحبك كثيراً".

"إنك فتاي". شعرت كأنها جيّاشة بالعواطف وجاهزة لاختراق ذلك الخيط الرفيع الذي يفصل بين السعادة وبين الحزن، لكنها لم تبالِ، لقد بدا لها أن أهمّ شيء في هذه الدنيا هو أن يدرك فرانك ما الذي يعنيه هو بالنسبة إليها.

"اعرف ذلك"، قال لها بهدوء. ثم أردف، "شكراً لكِ للتسبب بإحضاري إلى هنا. إنه لشيء رائع تماماً".

فتحت ذراعيها إلى أقصى المدي، وقامت بتقبيل الرجال الذي يرقص إزاءها بشدة. "هذه هي الهند التي أعشقها"، قالت بنبرة درامية. "وها أنت الآن تري سبب تعلقي بها".

حتى بالرغم من صخب الموسيقى، فإنها سمعت نبرة الحسد في صوته. "أنكِ محظوظة فالهند التي أتعامل معها في كل يوم تتلف الأعصاب".

"لا تفكِّر في كل ذلك هذه الليلة. واكتفِ بالاستمتاع بوقتك فقط".

طار سهم ناريٌ فوق رأسيهما وحطَّ في البقعة الترابية القريبة من الراقصين، ألقى فرانك نظرة شرزاء إلى المكان الذي تحلّقت فيه مجموعة من المراهقين الذين يلهون بالألعاب النارية. "آملُ أن يكون هؤلاء الأولاد عارفين ما الذي يفعلونه"، قال: "لقد كان هذا الِفعل واقعاً عند حافة حدود التسلية".

بعد ذلك تماماً، أشعل أحد الأولاد مفرقعة ذات شكلٍ قمعيّ. فانفجر من فوهتها شلال من النيران الحمراء والزرقاء التي انبعثت في موجات متلاحقة ملوّنة. "يا إلهي"، صاحت إيلي. "كم إنني أحبُّ هذه الألعاب الناريَّة التي تجري هنا أكثر مما أحبُّ مثيلاتها في الوطن، إن هذه المفرقعات أكثر قرباً من الأرض وإنني - لست أدري - أشعر أن هذه المفرقعات أكثر ديموقراطية، بشكل من الأشكال".

ابتسم فرانك. "أما أنا فاعتقد أنكِ واقعة في الغرام مع بلاد الهند".

ابتسمت له. "أنا هكذا فعلاً". حرّكت ذراعيها من جديد، "الْقِ نظرة حولك كيف يمكن للمرء ألّا يقع في غرام بلاد زاهية الألوان والحيوية إلى هذا الحد؟"

جاء راميش إليهما متراقصاً وكان يرتدي قميصاً قطنياً أبيض فضفاضاً دون ياقة (كورتا) فوق بيجامة لها صدريَّة خمرية اللون. تراءى لإيلي أن الصبي يبدو في تلك الليلة أجمل من أيِّ وقتٍ قد نظرت إليه فيه مِن قبل. لقد كان الولد يمشي في خيلاء، وأدركت أن سبب ذلك هو الملابس الجديدة التي وجد نفسه يرتديها، وكم كانت سعيدة لأن آدنا قد اشترت لولدها هذه الملابس من أجل احتفالات الديوالي. وهنا قررت أن تشتري لراميش مجموعة من الثياب الجميلة تحت حجة قدوم مناسبة عيد الميلاد. والآن، ها هي تدير برأسها لتتحرّى مكان وجود أدنا وبراكاش، لكنهما كانا ضائعين في وسط الحشد الكبير الذي جلس خلفهم. ولقد عرضَت على خادمَيّ منزلها الركوب معهما في السيارة في رحلة العودة إلى البيت في تلك المساء، لكن آدنا همست في أذنها بلهجة المتآمر، "لا شكراً لكِ يا سيدتي فإن براكاش في مزاج كريه جداً هذه الليلة. ومن الأفضل أن تعودا لوحدكما، ويمكنكما فقط اصطحاب راميش معكما".

"كم أحبُّ هذه السترة عليك"، قالت الآن للولد فوق صخب الموسيقى، وقد سُرَّت لأن الولد استجاب لملاحظتها برفع هامته.

"إنها من المخمل"، أجابها بلهجة جادة، وهو يلامس القماش الوثير.

"صحيح، وإنك لتبدو كأمير صغير"، قال له فرانك، وكانت لهجته بهيجة وسلسة، بل ممازحة، لكن إيلي استطاعت أن تتحرّى السعادة في صوته بينما هو يرعى الولد بعينيه فيما كان راميش يرقص بالقرب منه.

"عندما أكبر أريد أن أصبح أميراً"، قال راميش. طرح نظرة شقية على فرانك، "وإني أعرف جيداً بأنني، ومن أجل أن أحقق أيَّ شيء أرغب في تحقيقه في هذه الحياة، فإن عليَّ الانصراف إلى دروسي في هذه الأيام".

رمى فرانك برأسه إلى الوراء مستغرقاً في الضحك، وأزّ خلفه سهم ناريٌّ قبل أن يرتفع في أجواز الفضاء الحالك السواد ثم ينفجر في شلال متناثر من الألوان ليعود ويسقط إلى الأرض من جديد. أمسكت إيلي أنفاسها. قام ذهنها بتصوير تلك اللحظة—— فرانك براسه المنحني إلى الخلف، وشعره البليل بالعرق الذي يتفصّد أيضاً من جبينه، بينما تحيط به هالة من الأضواء الصغيرة، صورة محفوظة في الزمان والمكان على خلفيّة من وقع الدفوف والطبول الضاربة في دويٍّ في متلاحق لا يلين.

"لقد جعلتك تضحك"، قال راميش، لقد كانت هذه لعبة جديدة بينهما، إنها نسختهما من لعبة التباري. وفي موضع ما، افترضت إيلي أن أحدهما متقدِّم في رصيده على الآخر بجعله يضحك لمرات عديدة أكثر منه.

وكمثلِ من يتوقف عن اللغط في وسط جملته، سكتت الطبول. لكن الزخم جعلَ جسم إيلي يتابع الرقص للحظة رغم سكوت الموسيقى. نظرت حولها لترى أن بعض الراقصين الآخرين يبدون دائخين مثلها بينما هي تغادر إنه دُوار الرقص، خيّل إليها، فقهقهت من فرطِ سُخف شعورها.

رجل طويل نحيل كانت إيلي تعرفه بوصفه بائع الحليب الجوّال الذي كان يأتي إلى باب منزلهم كلَّ صباح، مشى قدُماً إلى وسط البراح. "إخوتي وأخواتي"، قال باللغة الهندية. "لقد حان الوقت لتناول لقمة طعام معا". ثار لغط الجمهور لكنه ما لبث أن أسكتهم، "لكن قبل كل شيء علينا إكرام الضيوف الذين يتواجدون بيننا". ثم مستديراً إلى المكان الذي تقف فيه إيلي وفرانك، وكلاهما ما زال يلهث، نظر إليهما، ثم فتّش عن نانديتا وشاشي. "نرجوكم"، قال. "تفضلوا بالتقدُّم أمامنا نحو المائدة".

نظرت ايلي حولها مفتشة عن نانديتا التي ما لبثت أن اقتربت إلى جانبها على الفور. "شُكْرِيا"، (شكراً) ردّت عليه قائلة. "إنه شرف كبير لنا أن نكون الآن بينكم". استدارت نحو إيلي وفرانك. "إنهم يريدون منا أن نكون الرعيل الأول الذي يجلس إلى طاولة الطعام، هيّا تفضلا". ابتسمت إيلي لبائع الحليب، لكي تجعله في ثقة من أمره أنهما فهما كلامه ولفتته.

كان موظفو العيادة قد أخلوا المقاعد الدراسية من غرف الصفوف وقاموا بمدِّ مائدة طعام طويلة مخصصة للغربيين في وسطها. أما القرويون فقد جلسوا القرفصاء على الأرض حيث قُدّمت إليهم أوراق البانيان التقليدية. لاحظت إيلي في دهشة كيف تمكنت موسي من ثني ركبتيها اللتين مرّ عليهما اثنتان وتسعون عاما من الدهر ثم أقعت على الأرض. فكّرت في تلك اللحظة في جوزيتّا، زميلتها المعالِجة النفسانية التي كانت قد احتاجت إلى عمليتي استبدال لرضفتي ركبتيها بينما هي لا تتعدى عامها الثاني والخمسين، وللحظة، كادت أن تقترح قيام الجميع بالانضمام إلى القرويين في جلستهم على الأرض، لكن فرانك ومعه المانيان كانوا قد اتخذوا مقاعدهم حول المائدة، لذلك فقد أعادت النظر في الفكرة التي خطرت لها، إذ إنها، ومنذ نزهة الرابع من تموز/ يوليو، وما شهدته من عراك بينها وبين فرانك، باتت الآن تحاول إلى أقصى جهدها أن لا تتسبب بوضع فرانك في مواقف الدفاع والإحراج بسبب كونه ـــــ اميركياً أبيض من الطبقة البورجوازية الوسطى. هذا بالإضافة إلى أنها لم تكن واثقة من أن ركبتيها غير المجربتين ستستطيعان المثابرة على الالتواء في وضع القرفصاء طيلة المدة الطويلة التي قد يستغرقها العشـاء.

ومع كل هذا، ورغم أفضل نواياها الطيبة، فإنها لم تحتمل فكرة الجلوس إلى جانب الثنائي الألماني لتناول العشاء. وقد كان هذا الثنائي متجهاً إلى دهارا ماسالا بعد بضعة أيام لقضاء مدة أسبوعين في أحد معتزلات المتصوفة الهنود، وكانا يتكلمان دون توقف عن أمور العثور على الروحانية والتنُّور كما لو كانت هذه الحاجات أشياء يمكن ابتياعها من كاتالوغ مبيعات. وعندما كانت قد التقت بهما في وقت سابق من ذلك المساء، فإنها حسبتهما يمزحان، أو أنهما يمثلان دوراً هازلاً عن السياح الغربيين الغامضين. ولكن بعد مراقبتهما بعناية للفراغ المتعمّد الذي أحاطت به نانديتا نظرتها، فإنها تنبّهت إلى أن الثنائي كانا جادين في اعتقادهما بأنهما بعد أسبوعين من مجيئهما إلى الهند سيغادران وقد وجدا كلَّ شيء جاءا للبحث عنه. أما هي، فقد وجدت نفسها تميل عنهما إلى ريتشارد توماس، الصحافي البريطاني المِثلي الذي كان يسافر في أرجاء الهند. فهي الآن فتّشت عن ريتشارد هذا، وعندما وجدته اندفعت إليه قائلة: "هلّا جلسنا سويَّة؟" متجاهلة بذلك النظرات المهتاجة التي كان فرانك يرميها في اتجاهها بينما هو يشير إليها بصمت إلى الكرسي الخالي الموجود إلى جانب كرسيّه.

قطّب ريتشارد حاجبيه. "هل جاء إليك إنغرِد وفرانز؟"

ابتسمت، "كلاااا"، قالت مطيلة صوتها، ثم استدارت نحو نانديتا. "قولي لشاشي أن يذهب ويجلس قرب فرانك"، قالت لها بلهجة الرجاء." وسوف أكون مدينة لكِ إلى الأبد".

لم تجرؤ على التطلّع في عيني فرانك عندما جلست بالقرب من ريتشارد، ولكن بعد لحظات قليلة فإن شعورها بالذنب من جرّاء تركها فرانك مع روحانية إنغرد التوّاقة قد تبخّرت وذهبت مع رائحة الطعام الساخن الذي جرى تقديمه. عضَّت على مضغة من طبق الباكورا مع البصل، وقطعت خزعة من خبز الروتي الرقيق والخفيف: غمست الخبز في صلصة الكبرى الكثيفة، برَّدت لهيب لسانها بقطعة من الخيار المغموس باللبن الزبادي؛ رفعت مضغة طريّة من لحم السمك بشوكتها. شعرت بشيء من الروحانية هي نفسها، وانساقت مع نوع من الجذل مع غزارة التوابل. "كيف يمكن لبلدٍ بحق السماء أن يكون له كل هذا التعدُّد الغزير للأطباق الرائعة؟" قالت لاهثة.

"أأنت تتشاورين معي بأمر الأطعمة الجيدة؟" قال لها ريتشارد. "عليكِ أن تتذكري أنني بريطاني".

تضاحكت. "لكن لندن تمتلك بعض المطاعم الراقية".

"أجل، وكل تلك المطاعم، مطاعم هندية".

قدِم أحد تلامذة إيلي الكبار إلى طاولتها وهو يحمل صينية كبيرة من الستاينلس ستيل وهي مليئة بالكؤوس. "أتريدين شيئاً من شراب اللاسي يا سيدتي؟" سألها.

أخذت جرعة كبيرة من شراب اللبن الرائب المبرّد. "أعتقدُ أنني أشهد الآن تجربة خروج من الجسد"، قالت.

"رويدكِ" قال لها ريتشارد. "إن زوجك يقوم بثقب حفائر في ظهري في كل حال، وإني لا أريده أن يعتقد أنني سبب هذه النشوة التي تبدو في كل جلاء على وجهك".

"إنني أستسيغ رفقتك يا ريتشارد، إنك تذكِّرني بأخِ زوجي".

"وهل أخو زوجك مثليٌ مثلي؟ قال ريتشارد بوجه جامد.

شرقت إيلي، قاذفة رشاش شراب اللّاسي من منخريها، "كفاك، لقد رأيتَ ما قد جعلتني أفعله". استدارت نحوه بنظرة رجاء على وجهها، "ألا تستطيع البقاء معنا هنا في جيربوغ؟ إنني أستطيع أن أكلم شاشي ليعطيك سعراً جيداً بالفعل في فندقه".

استدارت نانديتا، الجالسة إلى يسار ريتشارد وهي تتحدث إلى فرانز، نحوها "عمّن بحق السماء أنتما تقومان بالنميمة؟" انحنت لتواجه إيلي. "لسوف يقوم فرانك بقتلك على الطريق، وقبل وصول كما إلى البيت يا غاليتي، لقد استطعتِ أن تمرِّري عليه لعبة قذرة".

بدت إيلي كئيبة "أدري، لكنني لم أعد أحتمل صحبة الأجانب الأغبياء". ثم ألقت لمحة على ريتشارد." أما الصحبة الحاضرة فمقبولة".

"عمّن أنتِ تتفوَّهين بأنهم أجانب غرباء أيتها اليانكي الأميركية؟ لقد كان أبناء شعبي هنا في الهند من قبل أن—

"أدري من قبل أن أتأرجح على أغصان الأشجار".

"شيء من هذا القبيل".

"جميل أن أسمعكما أيها الإمبرياليان فيما أنتما تتخاصمان حول حقوقكما في الهند"، قالت نانديتا. وكانت لهجة صوتها فكهة، وحاجباها مرتفعين، وهكذا، فقد قهقه الجميع.

جاء فرانك إليها حالما انتهى العشاء. "سوف أقوم بمكافأتك على ما فعلتِه بي"، قال لها. لكن لهجة صوته كانت مداعِبة، وكانت عيناه ودودتين.

"إني آسفة. لأني زوجة مرهِقة". القت نحوه بنظرة متعاطفة. "أكانت الصحبة أليمة إلى هذا الحد؟"

"حسناً، إنها مسألة تختلف باختلاف زاوية النظر إليها، لكنني متأكد من أن الإصابة بورمٍ في الدماغ أو بالبواسير في المقعدة ستكون أسوأ من ذلك".

كانت لا تزال مستغرقة في الضحك عندما دنت نانديتا منهما "أرجو ألا تحقد عليَّ لأنني قمت بدعوتهما". قالت لفرانك، "لقد أصرا على اختبار ’التجربة الاجتماعية بكاملها‘. ولم يكن لشاشي المسكين متَّسع من الخيار".

"سوف أسامحكِ مقابل دعوات قليلة على العشاء تقومين بدعوتنا إليها"، قال فرانك على الفور. توقف وقد رسم نظرة جديَّة على وجهه. "لمناسبة الكلام عن الأعشية، فإن هذا العشاء كان مناسبة سخيَّة، كيف يستطيع هؤلاء الناس أن يتحمّلوا هذه النفقات يا نانديتا؟"

بدت نانديتا خجلةً "حسناً، في الواقع نحن، أنا وشاشي قمنا برعاية هذه المناسبة. أعني أنه من التقاليد الدائمة المتّبعة أن يكون لأهالي القرية مأدبة عمومية. ولكن في السنوات القليلة الماضية، اعتاد الفندق على تحقيق أرباح جيدة، حتى إننا عرضنا القيام بالمساهمة".

هزّ فرانك برأسه هزة التفهُّم والموافقة." هذا أمر جيد"، قال بلهجة غامضة. "إذن دعيني أقول لك شيئاً إذا كنتُ ما زلت في هذا المكان خلال السنة القادمة، فإني سأبذل جهدي لجعل شركة هيربال صوليوشينز تقوم برعاية هذه المناسبة. وهذا مشروط على قبولكم بنا".

تكلمت المرأتان في وقت متزامن معاً. "ماذا تقصد بقولك إذا كنت لا أزال هنا في السنة القادمة؟ وما الذي يدعوك حتى لا تكون؟

"واه.. واه". تضاحك فرانك متراجعاً عنهما. استدار لمواجهة إيلي. "وفي حال أنكِ قد نسيت يا عزيزتي، فإنني قد وقّعت على عقد لمدة سنتين فقط، وكل شيء ينبغي إعادة التفاوض عليه من جديد قريباً".

"هذا هراء"، قالت إيلي، "إن بيتر لن يردّ لك طلباً إذا قلتَ له إنك تريد البقاء وتجديد العقد".

ضحك فرانك والقى ذراعاً على كتف زوجته. "سوف أنتزع هذا التجديد بسهولة عندما يأتي أوان البحث فيه، وآمل ألّا يكون التجديد لعددٍ كبيرٍ من السنوات الأخرى"، أضاف.

تقدَّمت نانديتا إلى مسافة أكثر قرباً من فرانك. "إنني سعيدة لسماع ذلك". قالت، "إنني لم أعد أستطيع أن أتخيَّل جيربوغ من دونكما".

"ونحن كذلك". قالت إيلي بعد أن سمعت الإخلاص في صوت فرانك وقد سرَّها ذلك.

لكن مزاجها ما لبث أن اعتكر قليلاً تلبَّثا في العيد لمدة نصف ساعة أخرى وهما يراقبان عروض الألعاب النارية. كما وهمل يراقبان الشباب والصبايا الهنود يرقصون على أنغام موسيقى الأفلام الهندية التي تصدح من مكبرات الصوت. لم يتغير شيء، بقيت إيلي تحدِّث نفسها، ها أنتِ هنا، فكوني صاحبة حضور، وعيشي لِساعتِكِ، لكن مجرد ورود الكلام عن العودة إلى أميركا كان كافياً لطرح حجاب كثيف على ذلك المساء، إذ إن ذلك جعلها على يقين من عدم دوام هذه الحال، ومن أن حياتهما هنا مشكوك باستمرارها واستقرارها. ولم تجلب لها فكرة العودة إلى الوطن سوى الكآبة الكليلة الداخلية، فمنذ أيام قليلة خلت كانت والدتها قد سألتها عبر الهاتف عما إذا كانا قد ابتاعا تذاكر السفر للعودة إلى الوطن لقضاء إجازة عيد الميلاد، وكانت قد سمعت نبرة الفرح والترقّب في صوت أمها فشعرت بضرورة اصطناع ردٍّ حماسيٍّ مزيَّف على هذه الأمنية. أما الحقيقة فكانت أنها تخشى رحلة العشرة أيام هذه. ولقد جعلت الأمر واضحاً من البداية مع فرانك، أنها سوف لن تقوم بزيارة آن آربور. وهكذا، صارت الخطة بأن يطيرا إلى كليفلاند حيث يبقيان مع آن وبّوب. وخلافاً للسنوات الماضية، فإن سكوت ووالدته سيحضرن إلى كليفلاند لمناسبة عيد الميلاد، وسيقوم فرانك بالقيادة براً إلى آن آربور لمدة يومين هناك يقوم بالاطّلاع خلالها على وضع المستأجرين الذين قاموا باستئجار منزلهما، كما يقوم بمقابلة أقرانه في شركة هيربال صوليوشينز، وهو سيأخذ راميش معه إلى هناك.

نعم، راميش. وفكرة اصطحاب راميش هي فكرة فرانك بالطبع. وعندما اقترح هذه الفكرة للمرة الأولى على إيلي في بداية تشرين الأول/ أكتوبر، فإنها كانت قد تلقتها بهدوء، لكنها لم تحاول مقاومتها. لقد كانت تراهن على أشياء كثيرة —— أولها أنه سوف يكون الاستحصال على تأشيرة دخول للصبي أمراً صعباً، وثانيها أن براكاش سيصاب بنوبة من الغضب لمجرّد مفاتحته بفكرة غياب ولده عنه لمدة عشرة أيام، وثالثها أن آدنا التي هي مسيحية قد ترغب في استبقاء ولدها معها لمناسبة الأعياد، أما رابعها فهو أن فرانك نفسه سيتأكد من خراقة فكرة عودته إلى عائلته في أميركا مصطحباً معه راميش.

أما الأمر الذي لم تحسب حسابه، فهو استماتة فرانك لاصطحاب راميش معه، أولاً، كان هنالك استماتة آدنا لتلقُّف كل فرصة تعرف تماماً أنها هي وزوجها السكِّير عاجزان عن تأمينها لولدهما، وكذلك رغبتها المكبوتة في إعطاء ولدها كل ما تراه أنه حق طبيعي له —— الحب الذي كان يجب أن يغدقه عليه جداه لأمه، فإذا بهما يُحجبان عنه، والآن، ها هي ترى وجود فرانك وإيلي كاستجابة غير متوقعة لصلواتها، إذ بهما يمثلان جدَّين واقعيين لولدها. جدَّين يملكان الإمكانيات والوسائل لتقديم الفرص وفتحها أمام راميش، وهي فرص لم يكن حتى أهلها بقادرين على تأمينها له. لقد استحالت آدنا إلى نمِرة، فإذا بها تكشر عن أنيابها حيال أية مقاوَمة يبديها زوجها، وتسحق كل بادرة احتجاج من جانبه "إن الولد سيذهب معهما"، أعلنتها. "سوف يكون ولدي هو أول شخص من أبناء جيربوغ يقوم بزيارة أميركا. وما من احدٍ يمكنه القيام بمنعه من تحقيق ذلك".

ثم كانت هنالك استماتة فرانك، فهو غير قادرٍ على مواجهة الرحلة الجوية الطويلة إلى أميركا، مع ما تحمله من أصداء قديمة لرحلة طيرانه الرهيبة من تايلاند. وهو غير قادرٍ على تخيُّل الجلوس إلى مأدبة العشاء في ليلة الميلاد دون أن يرى الولد الفقيد، وهو أشبه بالمصاب بالشلل أمام فكرة الذهاب إلى آن آربور لتفقُّد أحوال مستأجري بيته، نظراً لمعرفته أن أصداء أصوات ولده الميت وضحكاته لا تزال تتردَّد في غرفه وأرجائه، وهو مرتعب لفكرة التواجد من جديد تحت قبة السماء الأميركية ذاتها، حيث يتنفس الهواء البارد ذاته، ويسير على الأرض الصلبة ذاتها التي مشى عليها ولده يوماً. لذلك، فإنه عمد أولاً إلى استصدار وثيقة سفر لراميش، وقام بالاتصال بتوم أندروز ليطلب منه التوسُّط مع السفارة من أجل استصدار تأشيرة دخول سياحية للولد إلى أميركا.

وأخيراً، كان هنالك استماتة براكاش، ولأنه غير قادرٍ على التفكير السويّ، ولأنه غير عارف من أين نبتت هذه القوة الجديدة الغريبة التي جاءت إلى حياته متخفية في هيئة رجل طويل أبيض مصاب بالاستحواذ تجاه ولده، لذلك، فإنه

كان يقطع لنفسه عهداً في كل صباح ألّا يقارب الشراب بحيث إنه يصبح صاحي العقل لمدة كافية تمكّنه من حلّ هذه المشكلة المحيّرة. لكن يده كانت أبداً تمتدُّ إلى قارورة الشراب في كل مرة دون وعي منه تقريباً، خاصة كلما طالعه نهار جديد بما لا يُحصى ولا يُعدُّ من ضروب الإهانة، وسَيلِ الطلبات والأوامر التي تنزله إلى أديم الأرض. ولأنه بات مؤرجحاً ومجروحاً بالكلام السامّ الذي ترشقه به زوجته، سيما وأنه بات يصدِّقها عندما تهدِّده بأنها ستقوم بتركه إذا لم يخضع لأوامرها، فإن بركاش بات يحوم تائهاً بين التظاهر بالشجاعة وبين الاستسلام. فاحتمال خسارته لزوجته روَّع عقله ترويعاً. وهكذا، فإنه وافق على كُره منه على التخلّي عن ولده للأميركيَّين لمدة عشرة أيام في مقابل احتفاظه بزوجته إلى الأبد،

"ما الخطب؟" قال فرانك لإيلي بينما هما في طريق عودتهما إلى البيت، "لقد تغيّر مزاجكِ بشكلٍ كاملٍ".

آسفة". فكرت للحظة، ثم قررت البوح بما يعتمل في داخلها، "إنني شديدة القلق بخصوص رحلتنا القادمة إلى الولايات المتحدة".

تنهَّد فرانك، "كنت أحسَبُ ذلك. اعتقدتُ أنك قد هدأ خاطرك بعد النقاش الذي جرى حول احتمالات مغادرتنا للهند". استدار في مكانه في السيارة بحيث يستطيع مواجهتها، "أأنتِ حقاً تحبين هذه البلاد إلى هذه الدرجة؟"

"إنني لكذلك، مع أنني في الوقت الراهن أعيش فترة اختلاط للأمور في ذهني بسبب خشيتي من فكرة العودة إلى الوطن، بسبب خشيتي من مواجهة التي كان. لست أدري ما عليّ أن أتوقع —— فمن جهة إني أخشى أية إشارة أو ذكرٍ إلى باني، وأخشى أيَّ تعبير عن الشفقة. ومن جهة أخرى فإنه إذا حاول أهلي تجاهل الأمر ودفعه إلى تحت السجادة، أي إذا تجنّبوا ذكر اسمه، فإن ذلك سيغيظني أيضاً حتى إلى درجة أكبر. يبدو الأمر وكأنني غير قادرة على العدل معهم، أتدري؟"

"كادت سنتان أن تمرّا منذ مغادرتنا للوطن، يا إيلي"، قال لها بهدوء. "وعلينا مواجهة الذي حصل —— وأن نذعن لحقيقة أن الولايات المتحدة هي وطننا ومستقرُّنا".

’كم من السهل عليك قول ذلك‘، ودّت لو تقول له، و’إني أرى كم أنك تفلح في مواجهة الحقيقة، فها أنت ترهن نفسك بكاملها لصاحبة ولد في التاسعة من عمره، وها نحن نقوم عمليا بسرقته من بين أيدي والديه، لأنك غير قادرٍ على تحمُّل فكرة الذهاب إلى الوطن دون اصطحابه معك إلى جانبك‘، لكنها لا تستطيع، ولا تنوي أن تقول له تلك القول بصوت عالٍ. أرادت لزوجها

الاحتفاظ بجميع الأوهام التي يمكن لها أن تجلب له بعض العزاء والتسلية، لقد أرادت له القيام بتزيين حياته بكل ما يتيسر له من نثار أوراق الحظ الملوّنة.

"الحق معك"، قالت له. شعرت بالتعب، وبعدم القدرة على الاحتفاظ بالفرح العارم الذي كانت قد شعرت به في أوّل هذا المساء.

طوَّقها فرانك بذراعه وأدناها إلى مقربة منه. "لا تقلقي يا إيلي". قال لها هامساً: "إنها ليست أكثر من زيارة قصيرة. وسيكون من الجيِّد لنا أن تجتمع العائلة من جديد".

أسندت رأسها إلى كتفه سامحة لنفسها بالتعلُّل بالوعد الذي تضمنته كذبته الجميلة.

الفصل 20

كانت إيلي أول من سمِعَ. إنه صوت بقبقة، صوت بدا عضوياً، ويشكّل جزءاً من هذا العالم الطبيعي، صوت أشبه بأصوات صرصار الليل، أو أصوات الطيور عند أوّل دغشة الظلام. لكن الفرق هو أن الوقت الآن هو مطلع الفجر. كانت هي وفرانك لا يزالان في سريرهما، لكنها استفاقت بعد أن أحسَّت بشيء ما، خارج شبّاك غرفة النوم، شيء يشبه الاضطراب والبلبلة، أو التبدُّل المضطرِب في حركة الريح. جلست في السرير، عركَت النوم عن عينيها ونظرت إلى الخارج من خلال النافذة المفتوحة، لكنها لم ترَ شيئاً سوى الامتداد الأخضر للمرجة المعشبة الممتدة بين البيت وشاطئ البحر.

لكن بعد ذلك أتت ضجة مختلفة، وكما لو أن الأمر يحدث من قبيل الاستجابة فإن الشعر قد انتصب واقفاً على ذراع إيلي، كان الصوت الأخير صوتاً لا ينتسب إلى كوكب الأرض، صوتاً مرتفعاً ومستمراً، بل صوت تفجُّع معلّق في الهواء. وتحت صوت العويل المرتفع الطبقة كان ثمة صوت مرافق - إنه زمجرة عميقة تؤمّن ما يشبه النقر المصاحب للعويل. وطِئت قدما إيلي الأرض، التقطت روبها ومشت عبر غرفة الجلوس نحو الشرفة الأمامية. هبطت أمعاؤها وشهقت. ولجزء من الثانية خالت نفسها لا تزال في رقادها وأن المنظر الذي تراه إنما هو مشهد في كابوس مرعب، ثم استنشقت هواء البحر المالح وشعرت بحبات العرق تتفصّد من جبينها، نظرت إلى المرأة التي كانت تنوح، وعرفت آنئذ أنها حيال أسوا أنواع الكوابيس - إنها أمام كابوس مرعب حقيقي.

حشدٌ من الناس يناهز الثلاثين نفراً قد تجمّعوا على الباحة الأمامية للمنزل. وقد استطاعت أن تتميّز عدداً من الرجال الذين كانت قد شاهدتهم في احتفالات الديوالي منذ أيام قليلة مضت. وفي ذلك اليوم كانت وجوههم رخيَّة بالدفء والمرح. أمّا الآن فإنهم ينظرون إلى المنزل كما لو أنهم في جدل في ما بينهم، أيقومون بإحراقه أم لا. فوجوههم الآن مسلوبة ومشدودة بالغضب والامتعاض. كلّهم كانوا كذلك باستثناء امرأة انهارت على الأرض

تماماَ، فهي تتلوى على الأديم كأفعى وهي ترفع رأسها بين الحين والحين نحو السماء كي تنطلق منها صرخة ما، وبالرغم من تفاعلها المصدوم، فإن جزءاً من إيلي كان قد التقط نوعية صورة المشهد الذي يدور أمامها - ضوء الفجر الرماديِّ الباهت، والبحر الهائج في أقصى المسافة، وحياة لقطة سينمائية ساكنة لجماعة من الرجال المتجمدين، القابضين على نواجذهم، وامرأة متضورة من الألم ترسل عويلاً كأنه نصف غناء تغنيه حزناً في سمع السماء اللامبالية.

لمحها أحد الرجال فيما هي تقف على الشرفة، وعند ذلك تزعزعت ألوان الصورة لتعيد تشكيل نفسها من جديد. أطلق الرجل صرخة، ودلَّ بإصبعه عليها، وفي غضون ثانية واحدة كان ثلث الرجال على الأقلِّ قد انتصبوا في وضعية واحدة وهم يشيرون إليها، وبرغم كونها في داخل منزلها ويفصل بينها وبينهم مسافة تمتد زهاء عشرين قدماً، إلا أن إيلي شعرت فجأة كأنها عارية من كل شيء، وأن منزلها مبني من القش والورق، وأن اللهاث الغاضب لهذا الجمع من الرعاع كفيل بتدميره إلى الأرض. لاحظت في رعبٍ كيف أن أحد الرجال قد انحنى أرضاً ليلتقط حصاة ثم يطوِّح بها في اتجاه البيت، بل في اتجاهها هي خفضت هامتها رغم أن الحصاة قد أخطأت هدفها بمسافة عدة أقدام، لكن الهجوم أيقظ فيها انتباهها، فإذا بها تهرب إلى داخل الأبواب وهي تصرخ مناديه فرانك كي يستفيق، هنا سخرت جماعة الرعاع منها وهي تتراجع إلى داخل بيتها. وفي هذه اللحظة ابتدأ الإنشاد والهتاف.

"هيربال صوليوشينز هي القاتلة"، كانوا يهتفون.

"يا للعار.. يا للعار.. عودي إلى ديارك يا أميركا".

"تسقط تسقط هيربال صوليوشينز".

"يعيش يعيش موكيش بهاي".

أمّا الصوت الذي كان يعلو على هتافات القوم السياسية، وكأنه الصوت الذي يعطي أصدق تعبير عن حزنهم وغضبهم، فقد كان صوت العويل.

"فرانك"، صاحت إيلي بينما هي تندفع إلى داخل البيت. وصلت إلى غرفة النوم فرأت أنه لا يزال غارقاً في نومه - "فرانك"، قالت له وهي تهزه بعنف. "انهض. انهض. إن لدينا حادث شغب في خارج أعتابنا".

انفتحت عيناه، وجلس مستقيم الظهر في سريره "هاه؟ ماذا؟ ما الذي يجري؟

"لست أدري، لكن الأفضل لك أن تنهض وترى بنفسك". كانت إيلي تستطيع سماع الهستيريا في صوتها، فحاولت جاهدة السيطرة على هذا

الشعور. "تعالَ انظر"، قالت مكررة نفسها.

تعثّر فرانك بطاولة القهوة بينما هو في طريقه إلى الشرفة فكظ على أسنانه، وتبع زوجته. شهق للمنظر الذي رآه. كان عدد مجموعة الرعاع قد تضخم الآن بانضمام عشرة جدي إليهم، لكن ما سيطر على انتباههما كان منظر الجسد البشريّ الملقى على المرجة الخضراء أمام منزلهما إلى يمين المرأة النائحة التي أحاطت بجسدها ذلك الجسد البشري الميت باكية فوقه وهي تقرع صدرها بكفَّيّ يديها، وحالما لمح المتجمهرون خيال فرانك، انطلقت صيحة في الفضاء. "فرانك الصاحب هو القاتل" وكانت ترددها فئة قليلة من المجموعة.

"فرانك"، قالت إيلي المذهولة متلعثمة "ما الذي يحدث؟ أعتقدُ أن ذلك الرجل هو رجل ميت".

تحوَّل وجه فرانك إلى اللون الأبيض، بدا مرتاعاً أكثر من أيِّ وقتٍ مضى تراه فيه إيلي، "ليس لديَّ أيّ ذرة ملعونة مما يرشدني إلى فهم ما يجري"، ردّ عليها بصوت أبحَّ.

انفصل شابٌّ عن مجموعة الناس، وكان وجهه ملتوياً بالغضب. مشى حول الجسد المنطرح أرضاً على وجهه واقترب إلى ناحية الشرفة. وبصورة غريزية اتخذت إيلي لنفسها خطوة تراجعية إلى الوراء. ولكن حتى في خوفها وذعرها فإنها لاحظت أن فرانك قد بقي محافظاً على مكانه. وعندما ازداد اقتراب الشاب، تمكنت إيلي من تميُّزه على أنه أحد تلامذتها، لكن دماغها لم يتوقف عن التجمُّد لمدة كافية لها حتى تتمكّن من تذكُّر اسمه.

كان التلميذ يشير إلى جسد الرجل. "انظر"، قال باصقاً "إن موكيش هو الآن ميت. لقد قتل نفسه شنقاً. شنق نفسه من على شجرة جيربال. شجرة تعود ملكيتها إلينا. لكن حرّاسك كانوا يمنعونه من التقاط الأوراق عنها، كان هو وعائلته يتضورون جوعاً. لذلك فقد قام بقتلِ نفسه".

وفجأة، وبلحظة مشؤومة، وقع كل شيء في مكانه بالنسبة إلى إيلي حالما تمكَّنت من تميُّز شخصية المرأة النائحة. لقد كانت هذه هي رادها، مريضتها، ضحية العنف المنزلي التي سبق لها وأن قامت بزيارتها في بيتها. تذكرت الآن مواجهتها مع زوج تلك المرأة منذ بضعة أشهر، ماذا كانت آشا قد أخبرتها عما كان يتفوّه به؟ إنه كان يكسب رزقه عن طريق جمع أوراق تلك الأشجار والقيام ببيعها إلى الناس، بعد أن صارت هذه الأوراق أبعد من أن تطالها أيدي السكان المحليين.

لكن لا وقت الآن للتفكير، لأن فرانك ولدهشتها، وعدم تصديقها، كان يبتعد الآن عنها ويقترب من مكان تجشع الرعاع. "فرانك"، صاحت به. "ما الذي

تحاول فعله بحق الجحيم؟

"خابري ديباك"، قال لها بصوت يشبه الهسيس، "ادخلي الآن واتصلي به. قولي له كي يرسل رجال الشرطة إلى هنا، الآن". لكن إيلي وجدت نفسها عاجزة عن الحركة. وقفت مسمّرة في مكانها بينما هي تشاهد فرانك يتحرك إلى حافة الشرفة وينظر نزولاً نحو الجماعة. "استمعوا إليَّ"، صاح بهم. إنني آسف بسبب – بسبب الذي حدث، لكن هيربال صوليوشينز ليس لها شأن ولا علاقة بهذا الأمر، عليكم الانصراف إلى بيوتكم الآن. إننا لا نريد حدوث أية مشاكل معكم".

تحرّكت إيلي إلى داخل الأبواب ثم اتجهت نحو الهاتف. "ادخل إلى الداخل يا فرانك"، نادته، "اترك ذلك المكان الذي تقف فيه".

كانت يداها ترتعشان ارتعاش الطيور في عاصفة ماطرة بينما هي تقوم بترقيم رقم هاتف ديباك. أقفلت السماعة بعدما طلبت منه استدعاء البوليس إلى المكان. تبعها فرانك إلى داخل البيت، ووقفا معاً في غرفة الجلوس يحدق كلٌّ منهما بالآخر، غير محاولٍ بذلَ أيِّ جهد لإخفاء خوفه وفزعه عن وجهه، "ما الذي علينا أن نفعله إذا تقدموا لاقتحام البيت؟" بدأت هي بالسؤال، ثم توقفت عن ذلك عندما سمعت صوت رادها وهي تنادي باسمها، "إيلي يا أختاه"، كان الصوت ينادي، ثم يتبع ذلك رشق طويل من الكلام باللغة الهندية، ثم تناولت أصوات ذكورية أخرى ما قالته رادها وبدأت الأصوات تردد منشدة. "إيلي، يا أختاه". ثم بصوت أعلى، "يا سيدة إيلي، رادها تريد أن تتحدث إليكِ".

استطاع فرانك قراءة أفكارها. "إياكِ حتى بالتفكير في هذا الأمر"، قال لها، "إنك لن تخرجي أبداً إلى هناك".

اشتعل الإنشاد من جديد. "هيربال صوليوشينز.. يا للعار. يا للعار".

"فرانك الصاحب قاتل".

"يعيش يعيش موكيش بهاي".

"لكنني أعرفها"، قالت إيلي شاهقة. "إنها المرأة التي... هي الآن أرملة. ربما عليّ الذهاب للتحدث معها".

"إياك أن تحاولي"، قال لها فرانك. "ألستِ تسمعين وقْعَ تلك الحجارة التي يحصبوننا بها وتقع على الشرفة؟ ليس هنالك من إمكانٍ لتقدير ما -"

جلسا متضامّين معاً على الأريكة، ينظر كل منهما إلى الآخر في خوف وذعر. ولكن حالما صار تنافر النغمات الواردة إلى سمعهما أمراً لا يطاق ولا يحتمل، فإن أذنيهما التقطتا صوتاً جديداً. وللحظة بدا ذلك الصوت أشبه بسياط

تلذع الهواء، ثم كان هنالك صراخ، وصاح أحدهم، "بوليس اهربوا.. اهربوا بسرعة".

شعرت إيلي أن جسدها بكامله يرتجف. "افعلْ شيئاً"، صرخت فيه. "اِجعلهم يتوقفون".

لكن فرانك جلس بكل ثقله على الأريكة وهو يسند رأسه إلى راحتيه. لقد بدا صغيراً ضئيلاً كما لو أن شيئاً قد تحطم في داخله. "لا أستطيع تصديق ذلك"، قال مهمهماً" أن يحدث شغب على عتبة بابنا ضدنا".

صارت الصرخات أعلى وأكثر ألماً سمعا مجموعة من الصافرات التي ينقر صوتها الآذان. ثم سمعا صوت إصدار الأوامر، ثم فجأة، ودون مقدمات، غدا كل شيء صامتاً، وللحظة، شكرت إيلي ربها، ولكن ما إن تعزّز الصمت واستتبّ الهدوء حتى بدا لها أنه صمت زاحف ينذر بالشر. "ما الذي يجري الآن؟" قالت، أرغمت ساقيها على التوقف عن الاهتزاز وتقدمت ببطء نحو حافة الشرفة من جديد. وصلت إلى الحافة في الوقت ذاته مع وصول مجموعة من رجال البوليس الذين يرتدون الملابس وهم يقودون أمامهم قطيعاً من القرويين نزولاً فوق سلّم الدرج الحجري. أجالت ناظريها مفتشة عن رادها لكنها لم تجدها. لا بد أنهم قاموا باعتقالها قبل الجميع. ارتعشت لمراقبتها الطريقة اللامبالية والمتوحشة التي قام بها اثنان من رجال البوليس بلفِّ الجثة في ملاءة بيضاء، وقاما بعد ذلك بحملها بعيداً. وقعت عيناها على رجل طويل ضخم العضلات في ثياب مدنية، وقد بدا أنه هو الذي يقوم بإدارة المشهد بكامله. راقبت كيف أنه قد تكلم بفظاظة إلى الرجلين اللذين يقومان بإخلاء الجثمان، كما لاحظت اعوجاج سبابته عندما أشار بها نحو المنزل. وكما لو أنه قد شعر بها وهي تحدِّق نحوه، فإن الرجل الذي يرتدي الملابس المدنية نظر إلى الأعلى وابتسم. ارتجفت إيلي. شعرت بأنها متلصّصة، وفاسدة، ومتوّرطة. ومع ذلك حافظت على بقائها في مكانها، محاربة رغبتها في الجري السريع إلى داخل البيت، والغطس في السرير، والتدثُّر بالأغطية إلى ما فوق رأسها، تمنت لو أنها تستطيع أن تدّعي بأن أحداث النصف ساعة الأخيرة لم تحدث أبداً. لقد بدت الهند التي شهدتها في احتفالات الديوالي - الهند الكريمة اللطيفة، الهند ذات التنانير الحمراء الفاقعة، والراقصات المدوِّمات، الهند التي هي البلد ذو القناديل المصنوعة من الصلصال، والمفرقعات النارية التي تنفث الأنوار والأضواء والجمال – تلك الهند بدت الآن ميتة تماماً مثل الجثة التي وجدت في باحة بيتها الأمامية - فجأة وجدت الهند على الصورة التي قُدِّر لفرانك أن يراها بها - بلد ينخره الفساد، ويصعب التنبّؤ حوله، بلدٌ ملتهب، وحتى منذر بالشر الرهيب، بلدٌ يشبه ذلك الرجل الذي كان يتقدم نحو الشرفة والذي

له شفتان مبتسمتان وعينان باردتان برودة صباح يوم من أيام كانون الثاني/ يناير في آن آربور.

"سيدتي"، قال لها، مومئاً برأسه نحوها بينما هو يرتقي الدرج إلى مكانها.

" قف مكانك"، قالت له، إذ لم يكن لديها رغبة بالسماح لهذا الرجل بدخول بيتها. "من أنت؟"

هنا صارت العينان التمساحيتان أكثر برودة من ذي قبل، "لا حاجة بك إلى الخوف يا سيدتي"، قال لها، "إنني غولاب سينخ. رئيس قسم الأمن في شركة هيربال صوليوشينز".

غولاب سينخ، أجهدت إيلي دماغها كي تتذكّر السبب الذي يجعل هذا الاسم مألوفاً لديها. ثم ما لبثت أن تذكرت أن نانديتا قد أخبرتها عن سمعة غولاب الرديئة بين أهالي القرية "كنت أتمنى لو أن فرانك لم يقم بتوظيف هذا الرجل كرئيس لقسم الأمن، يا إيلي"، كانت قد قالت لها مرة "إنه رجل مقيت. لقد ترعرع في القرية لكنه غادرها لعدة سنوات - لست أدري، إنه يقول إنه كان له بعض الشأن في الجيش أو في شيء من هذا القبيل خلال تلك المدة. وفي كل حال، فإن أهالي القرية يمقتونه ويخشونه".

والآن، وبعد أن نظرت إلى وجه غولاب، فإن إيلي شعرت أن فمها يميل عن موضعه مقتاً له. "ما الذي سيحصل لهؤلاء الناس؟" قالت وهي تعجب أين اختفي فرانك. "إلى أين جري اقتيادهم؟"

أصدر غولاب قوقاه استخفاف. "لا تقلقي بشأنهم يا سيدتي"، قال لها "سوف تجري معاملتهم كما يجب أن يعاملوا". ولكن ثمة شيء ما حول سلوكه، وحول تحاشيه أن يقع نظرها على نظره دلّ إيلي على أن الرجل قد لمس عدم استساغتها له. لكن قبل أن تتمكن من الاستجابة لاستخفافه المهين بمصير القرويين، رأته يرفع هامته ويبتسم ابتسامة عريضة، "صباح الخير، أيها الصاحب فرانك"، قال، فشعرت إيلي بوجود فرانك وراءها.

"إنه صباح ليس بشديد الخير يا غولاب"، قال فرانك بفظاظة "ليس صباحاً جيداً أبداً ما الذي يجري هنا؟"

صار غولاب فوق الشرفة الآن، واستشمّت إيلي منه رائحة ضعيفة لكنها نافذة. رائحة عطرٍ نسائي خيِّل لها إن هذا الغبيَّ يحمل عطراً نسائياً على جسده. "إني آسفٌ ألف أسف يا سيدي"، كان غولاب يقول، وكان منظره مُغِثّاً مثل رائحته. "لقد كنت في المصنع عندما سمعت بالخبر، ولم يكن لديَّ أدنى علم أن هؤلاء الأوباش كانوا يعدِّون لهذا الأمر، وإني لكنت قد هشَّمتُ رؤوسهم لو أنني عرفتُ بذلك. لكن يبدو أنهم عثروا عليها – الجثة - في وقتٍ مبكرٍ من

هذا الصباح. إن ما احتاج إليه الآن هو معرفة من هو مثير الشغب الذي اقترح المجيء إلى حرم بيتك الكريم وتسبب بإزعاجك عن نومك".

"أصغِ إليّ"، قال فرانك. "لا أريد أيَّ عنف جديد، هل سمعتني؟ إن آخر ما نحن بحاجة إليه هو استثارة المتاعب". أنصت لحظة ثم مرَّر راحة كفه فوق وجهه المتعب. "من هو الفتى على كل حال؟ وما هو السبب الذي دعاه إلى الانتحار؟ وما هو السبب الذي يجعلهم غاضبين مني بحقِّ الجحيم؟ وما هي علاقتي بكلِّ هذا الأمر؟"

"أيها الصاحب فرانك"، قال غولاب. "اذهب أنت الآن واسترح قليلاً. وأرجوك ألّا تحضر إلى المصنع في هذا النهار. إنني سوف أقوم بالاهتمام بجميع الشؤون".

"هذا هراء". بدا صوت إيلي أعلى وأقسى مما كان في نيّتها "إن زوجي ليس ولداً. وهو يريد أن يفهم ما الذي يجري هنا"، نظرت نحو فرانك راجية إياه في صمتٍ أن يقوم بالوقوف إلى جانبها، أن يقوم بطلب توضيحات من هذا الرجل الذي شعرت نحوه بالكره وعدم الثقة أكثر من أيِّ دقيقة مضت.

نقل فرانك نظره من إيلي إلى غولاب، كما لو أنه قد تنبّه لتوِّه إلى العداوة التي نشبت بين الاثنين على الفور كفتيل بارود. "ما الذي يجري؟" قال. "من هو ذلك الرجل؟

"إنه شيوعيٌّ معروف يا سيدي"، أجاب غولاب. "يكره الأميركيين. وهو الصديق المفضل لأناند. لقد قام بشنق نفسه لأنه عرف أننا نقوم بمراقبته".

صارت إيلي مرتابة في أمرها، فمن هو بحق الجحيم هذا الرجل الذي يسمح لنفسه بمعاملة زوجها وكأنه دمية بين يديه؟ هل يصدِّق حتى هو، كلمة واحدة من كل هذه الرواية التي جاء بها؟ أيدري فرانك أن رأسه يُحشى الآن بالقصص الملفقة؟ وهل تراه سيشك في الأمر أو يبدي احتجاجاً؟

"هذا هراء وكلام ملفّق"، قالت، "إنني أعرف هذا الرجل". استدارت نحو فرانك. "إنني لم أذكر ذلك أمامك. لقد تقابلتُ مع هذا الرجل الذي... الذي مات... كان ذلك عندما كنت في العيادة منذ أشهر قليلة. إن زوجته هي إحدى مرضاي. لقد ذهب في خطبة عنيفة عندما رآني أزور منزلهم". رأت حدقتي فرانك تتسعان لكنها أرغمت نفسها على متابعة الكلام، "لم أشا إثارة مخاوفك في ذلك الوقت، يا حبيبي"، قالت، "وعلى كل حال، فإن الرجل تابع في ذلك اليوم وهو يرغي ويزيد حول كيف أنه كان يكسب رزقه عن طريق بيع أوراق شجرة الجيربال. وكيف أن حرّاس الشركة لا يسمحون له بالوصول إلى هذه الأشجار. لقد كان شديد الشعور بخيبة الأمل".

زفر فرانك زفرة طويلة. "هكذا إذاَ"، نظر إلى غولاب، غير آبةٍ لأمر إخفاء نفوره. "حسناً، من الأفضل لك أن تدخل إلى داخل البيت إذ علينا أن نتفق على استراتيجية لكيفية تعاملنا الواجب مع هذه الورطة". استدار لمواجهة إيلي "شكراً لك لإعلامي. وكم كنت أتمنى لو أنك ذكرت ذلك لي في حينه".

لكنه كان ضرورياً بالفعل. كان ضرورياً لإيقاظ فرانك من حالة السبات التي كان غارقاً فيها، كان عليها أن ترفع إصبعها وتكسر ذلك السحر الإبليسي الذي ألقاه هذا الرجل الرهيب على زوجها. لاحظت أن غولاب كان يدأب على تنقيل نظراته بينهما، وعرفت أيضاً انه كان يحاول التقاط التوتر القائم بينها وبين زوجها، مثلما عرفت أنه من النوع الذي لن يتورّع عن تخزين ما يقوم برصده من توتر ومعلومات ليقوم باستعماله لمصلحته في وقت لاحق. لكنها لم تكن في وضع يسمح لها بأن تجعل ذلك أهمّ ما في الأمر في اللحظة الراهنة. فالأمر العاجل الآن هو جعلُ فرانك يقول الكلمات التي من شأنها أن تؤدي إلى إخراج رادها ورفاقها من السجن. وقد أذهلها أن يكون فرانك نفسه لا يرى ذلك. ففي ما يتعدّى الجانب الأخلاقي البسيط لهذا الإجراء، فإنه يبقى أيضاً هو أفضل قرار إيجابي متوفّر من شأنه أن يصبّ في مصلحة هيربال صوليوشينز، بل إنه العمل السياسي الوحيد الحصيف الذي يمكن عمله. ثمة رجل ميت، ودّت لو تستطيع أن تصرخ في وجه فرانك لتجعله يفيق من حالة الجمود الغارق فيها. لقد مات رجل بعد أن شنق نفسه متدلياً بحبلٍ من غصن شجرة كانت جزءاً من ميراث طفولته، وقد باتت الآن مملوكة بواسطة شركة يقع مقرها الرئيسي على بعد ثمانية آلاف ميل عن مكانه. لقد قام رجل بشنق نفسه من أجل البرهان على عدم إمكانية دحض انتسابه إلى قطعة من هذا العالم الطبيعي الذي تم سلبُه منه.

"أنت تعلم أنني محقَّة في ما أقوله لك"، قالت الآن، وكان صوتها يفرقع بالإصرار والإلحاح. "إنني - إنني أعرَف منك بطباع هؤلاء القرويين. إن من شأن هذه الاعتقالات أن تصبَّ الزيت على النار، يا فرانك".

شيء ما في كلماتها، وفي نبرة صوتها، كان يقرقع. أدار وجهه نحو غولاب وقال، "اتصلْ بقائد الشرطة. واطلب منه العمل على الإفراج عنهم جميعاً".

"ولكن يا فرانك - "بدأ غولاب يحاول القول.

"لا تُضع المزيد من الوقت"، قاطعه فرانك. "قم بإجراء الاتصال فوراً. إنّ الحقَّ مع إيلي. إن هذا سيوفّر علينا الحزن والندم في النهاية".

نهض غولاب على قدميه وانحنى قليلاً. "كما تشاء وتريد يا سيدي". كان سلوكه هادئاً، وبدا رابط الجأش تماماً. "لكن الأفضل هو أن أقوم بزيارة قائد البوليس بنفسي". هزّ رأسه في اتجاه إيلي. "أسعدتني معرفتك يا مدام".

أرغمت نفسها على مبادلته الإيماءة بمثلها.

وعند عتبة الباب، ما لبث غولاب أن استدار. "من الأفضل ألّا تأتى اليوم إلى المصنع يا سيدي"، قال. "قد يكون هنالك بعض – القلاقل - في المصنع".

أغلق فرانك عينيه للحظة. "ليكن ذلك"، قال. "لكن عليك الاتصال بي إذا ما جرى أي شيء بشكل خاطئ. أريدك أن تبقى على اتصال دائم معي طيلة النهار. مفهوم؟ كذلك قلْ لديباك أن يقوم بالاتصال بي في أسرع وقت ممكن".

"أجل يا سيدي. بالطبع، امنح نفسك بعض الراحة يا سيدي".

جلسا على كنبتين متقابلتين يحدَّق كل منهما في وجه الآخر بعد مغادرة غولاب. ولم ينبس أيٌّ منهما بكلمة واحدة لبضع لحظات. ثم قال فرانك، "هل ما زلتِ على اعتقادِكِ أن المجيء إلى الهند كان فكرة جيدة؟"

نظرت إليه وهي غير واثقة كيف تجيب سؤاله. "إنني بكل تأكيد، لم أتوقع أيَّ شيء من هذا"، قالت في نهاية الأمر.

هزّ رأسه. "سوف أخابر بَّيتر وأحيطه علماً بما يجري"، قال. "يبدو أنني أعطيه المزيد من الأخبار السيئة في كل مرة أتصل فيها به". قام فجأة بِلكْمِ راحة يده اليسرى بقبضة يده اليمنى. "يا للعنة. لقد قمتُ بتسوية النزاع مع العمال في أيار/ مايو من أجل شراء بعض السلام الملعون معهم بثمن هو الموافقة على إعطائهم معظم ما كانوا يطلبونه. ولكن كيف لي أن أتصوّر الآن قيام أحد أجلاف الفلاحين من أبناء هذه القرية بقتل نفسه لتُلقى بعد ذلك ملامة موته علينا؟"

نظرة الغيظ على وجه فرانك أعادت إلى ذاكرتها وجه باني عندما كان يشعر أن شخصاً ما يقوم بمعاملته بغير عدل. ورغم غضبها، إلا أن قلبها زاغ منها ليحيط بزوجها. "كيف أمكنهم معرفة السبب الذي قاده إلى الانتحار؟ "سألته. "هل ذكر لك غولاب شيئا عن ذلك؟"

تحاشت النظر إليه لأنها أدركت في تلك اللحظة أن فرانك يحتاج الآن إليها، يحتاج إلى دعمها اللامحدود، واللامشروط له، وليس إلى قيامها بتلاوة مواعظ الفضيلة على مسامعه. إلى جانب، أن جزءاً من كيانها يوافق معه. فهي قد عرفت فرانك وبيتر معرفة كافية لتعلم أن آخر ما كانا يتوقعانه عند مفاوضاتهما من أجل استئجار تلك الغابة من أشجار الجيربال، هو تدمير الاقتصاد المحلّي أو تدمير حياة الناس. كما تذكرت كيف أن بيتر قد هرع إلى المستشفى عندما كان باني على فراش الموت وكيف أنه بدا أرمد العينين ومحطّماً مثل بقية أفراد عائلتها عند نهاية أيام سهرهم إلى جانب السرير. لقد كان بيتر والداً محباً، وصديقاً كريماً، ومواطناً صالحاً. وكذلك كان فرانك رجلاً

طيباَ بالرغم من تنامي تصلّبه وقلّة افتتانه. عليكِ ألاّ تكوني ديَّانته، قرَّعت نفسها. فهي لم تُضطرّ إلى التعامل مع البيروقراطية الهنديَّة المذهِلة، ولا مع طلبات العمال النكِدة الغاضبة المشاكسة، ولا مع استخفاف المورّدين العارض بمواعيد التسليم. فمن وجهة النظر المتعلقة بجميع الأمور العملية كان فرانك يعيش في هندٍ مختلفة عن تلك التي تعيش هي فيها.

نهضت من مكانها على كنبتها وذهبت إلى الكنبة المقابلة التي يجلس هو عليها حيث جلست لِصْقه. جلسا وكلَّ منهما يتكئ على صاحبه. "أنا آسفة يا حبيبي"، قالت له بصوت هامس. "لكن الأمور ستجري جرياً حسناً. لا تقلق. كل شيء سيقع في موقعه الصحيح".

ولم تدرِ ما إذا كان أيّاً منهما قد صدّق كلماتها المهدّئة.

الفصل 21

كانت المرأة الشابّة التي تجلس قبالة فرانك تذكِّره بزوجته إيلي. ولكن إيلي منذ اثنتي عشرة سنة مضت، إيلي المتوثّبة المتّقِدة حماسة والجاهزة للشروع في تصحيح أيَّ اعوجاج في هذا العالم. وكان شيء من هذا الطبع يبدو على سونيتّا بهاسين، الصحافية التي حضرت إلى مكتبه منذ ساعة. ولم يستطع فرانك سوى أن يألف هذه الفتاة، رغم معرفته الموجعة بحقيقة أنها تنظر إليه كواحد من الأخطاء التي يقع على عاتقها أمر تقويمها وتصحيحها.

كان قد قام بالتملُّص منها عندما اتصلت به للمرة الأولى طالبة منه موعداً لمقابلة صحافية. وكان قد أذهله أن يكون موت موكيش - وما نتج عنه من قيام إضراب عمالي في صفوف العاملين في شركة هيربال صوليوشينز - قد بات خبراً بارزاً في صحف بومباي. وكانت تلك الصحف أيضاً ترفع التراب من جديد عن الحادثة التي تضمنت وفاة أناند في شهر أيار/مايو الماضي. لقد صدمه مقدار انحياز التغطية الصحفية. سُحقاً، إنني لن أشكو بعد الآن انحياز محطة فوكس نيوز، كان قد شكا إلى إيلي متذمّراً. وهكذا، عندما طلبت منه سونيتّا التي تعمل في جريدة يومية تصدر باللغة الإنكليزية في بومباي، موعداً للقاء صحفي في المرة الأولى، فإنه لم يتورّع عن إغلاق خط الهاتف في وجهها. وهكذا، تبع ذلك عدة أيام من التغطية الإعلامية السلبية، ولم تفشل أية رواية صحفية من أن تتضمن العبارة التالية: "إن المسؤولين في شركة هيربال صوليوشينز يرفضون التعليق". صار الأمر باعثاً على الجنون. وبفضل نجاحات الإنترنت، كان بّيتر قادراً تتبُّع كل رواية صحفية لعينة. أمّا الذي زاد الطين بلَّة، فإن الجريدة المقابلة في آن آربور كانت اشتمّت هذه الأنباء أيضاً. لذلك، فإنه بات الآن هنالك مكالمات هاتفية يومية من بِّيت ر أو من أحد مدرائه التنفيذيين في آن آربور تطلب منه العمل على وقف التقريع الذي ينالونه من الصحافة. كما تطلب منه القيام بعمل شيء ما، من أجل وقف الإضراب.

"ماذا بحق الجحيم تريدني أن أعمل يا بّيتر؟" سأل رئيسه في النهاية. "أتريد إرجاع الأشجار الملعونة إليهم؟ إنّ هذا هو ما يتجهون إليه".

كان هنالك صمتٌ وجيز. ثم أردف بِّيت ر قائلاً. "نحن لا نستطيع أن نقبل بهذا. فإن حبة الدواء المضادّة للسكّري هي العقار الذي يحقق الدرجة الأولى من المبيعات في هذه الأيام. لكن عليك أن تعمل لنا شيئاً ما، يا فرانك. لقد كنتُ في حلقة لتدريب جُوْ على البيسبول في الليلة الماضية، فجاء أحد الأولياء الآخرين ليستوقفني ويسألني عن الموقف في الهند. وهذا شيء سيّئ".

"إذاً، ما الذي تريدني أن أفعله؟" كرّر سؤاله ثانية.

"لست أدري يا فرانك". لم يحاول بِّيت ر حتى أن يخفي نبرة الانزعاج في صوته. "عليك أن تفكَّر أنت في الأمر. فمن أجل هذا أقوم أنا بدفع أجورك".

كان يرتجف عندما أغلق سماعة الهاتف. كان بِّيت ر صديقه. وفي سائر سنواتهما معاً، لم يكن بِّيت مرة يلقي بوطأته على من هم حوله، ولم يحدث له مرة أن قام بتذكير فرانك أنه رئيس الشركة، كذلك، تلك الإشارة العابرة إلى لعبة البيسبول لولده جُوْ بهذه الطريقة اللامبالية التي لا بد من أن تثير ما تثيره عند فرانك من ذكريات عن ولده باني. كل ذلك نكأه في الصميم. فكّر لدقائق قليلة ثم قام بترقيم رقم هاتف سونيتّا بهاسين. "إذا كنت ما تزالين ترغبين بإجراء حديث صحفي معي، فإنني الآن صرتُ راغباً في ذلك". قال لها.

كان يتوقع حضور صحافية ممتهنة كهلة، لكنه سُرَّ عندما طالعته امرأة شابة جذّابة في الخامسة والعشرين من عمرها وهي تخطو إلى داخل مكتبه بعد مكالمته لها بيومين. كانت تلبس ما تلبسه معظم الشابات المتعلمات اللواتي هن في سن التخرج الجامعي في بومباي. قميص أبيض فضفاض (كورتا) فوق سراويل من الجينز الأزرق، وهي تتأبط جعبة قطنية طويلة. أما شعرها الأسود المنسرح فقد شكل إطاراً جميلًا لوجهها الذي يشعُّ بالذكاء.

خفَّ العبء عن قلبه. فهي تبدو كشخصٍ يمكنه أن يتحدث إليه، شخص يبدو بوضوح أنه قد أتى من خلفيّة غربية مثقفة.

لكن بعد مرور نصف ساعة على المقابلة، فإنه بات متنبّهاً إلى الترقرق الضئيل لحبات العرق على وجهه. قاوم رغبته الشديدة في مسح غلالة العرق عن محيّاه، لكنه لم يُرد أن يراها تلاحظ تأثير استجوابها الواقعي الذي لا يلين، له. كانا قد بدءا نقاشاً حماسياً عمومياً حول حسنات العولمة وسيئاتها. وما دام أن النقاش يدور على المستوى النظري والمجرد فإنه كان دائم الشعور بالثقة بالنفس، ومن أنه يقف على أرض آمنة. لكنها الآن توجّه إليه أسئلة عن الظروف التي أحاطت بوفاة موكيش.

"أتعتقد أن قيام شركة أجنبية بامتلاك الثروات الطبيعية لدولة أجنبية أخرى عملاً أخلاقياً؟" سألته سونيتّا.

أطلق فرانك صوتاً متأففاً. "أرجوك، وحبّاً بالله. فالأرض كانت مؤجَّرة لنا من قِبَل حكومتكم بالذات بشكل واضح وعادل ومباشر. ولو كان لنا أن نعلم أن مشاكل من هذا النوع ستحدث يوماً لما كنا حتى قد عمدْنا إلى تقديم العروض بشأنها".

"لكن الحكومة عندنا فاسدة"، قالت سونيتّا، مشيرة إلى واقع الحال. "فما من أحد إلا ويعلم ذلك. وفي الحقيقة إننا نقوم بمراجعة جميع هذه العقود". نظرت حولها لحظة، ثم ما لبثت أن ركّزت نظرها في نظر فرانك. "كم هو مقدار الرشوة المالية التي اقتضى من شركتكم تقديمها للمسؤولين؟"

وثب فرانك عن كرسيّه تقريباً. "لن أجلس قبالتكِ في هذا المكان كي أكون هدفاً للاحتقار، يا آنسة بهاسين"، قال لها. "لقد سمحتُ لك بإجراء هذه المقابلة بنية حسنة -".

"حسناً، حسناً"، قالت على عجلٍ. "إنني أقوم بسحب هذا السؤال، وإني آسفة بشأنه".

"عليكِ أن تعرفي أنَّ هذه الصفقة قد تمَّ عقدها قبل أن تكون لي أية علاقة مع فرع هذه الشركة في الهند"، وتابع قائلاً، "وأنه ليس لي أدنى علاقة بإبرامها".

"حسناً، حسناً"، قالت له من جديد وهي تنظر إلى حاسوبها النوتبوك. "إلا أن هنالك سؤالاً آخر. هل تنوون القيام بدفع أية تعويضات إلى أرملة موكيش بسبب الخسارة التي خسرتها؟"

كان هنالك شيء من التأنُّق والاعتداد بالذات في تعبيرها، لذلك فإنه ودّ لو يستطيع الآن أن يقوم بتلقينها صفعة على وجهها. "دعيني أقوم بتذكيرك بحقيقة أن موكيش لم يكن مستخدماً عندنا. وفي الحقيقة، وقبل أن ينشئ هذه العلاقة التعيسة العارضة بينه وبيننا، فإننا لم نكن قد سمعنا بعد عن هذا الرجل".

"لكنني لم أسألك عن مسؤوليتكم القانونية"، ردّت عليه سونيتّا بهدوء. "إنني أسألك عن مسؤوليتكم الأخلاقية".

"سؤال جيد"، أجاب فرانك. "إنني في الحقيقة لا أعتقد أننا مدينون بأية مسؤولية أخلاقية لعائلة هذا الرجل. لكن هذا لا يعني أنني أردت أن أقول إننا لن نقوم بـ -"

امتقع وجه المرأة ببربق من الألوان. "هذا هو بالضبط نوع العجرفة التي يقوم أهل هذه القرية بمقاومتها"، قالت. جرضت بريقها بشدّة وقامت بسؤاله قائلة: "سيد بانتون، هل لديك عائلة؟"

"لي زوجة"، أجابها بحذر. إذ لم يكن على يقين من أمره حول الوجهة التي يتّجه بها هذا الخط من الأسئلة التي بدأت الآن بها.

"لكن لا أولاد لك؟"

فكَّر لحظة قبل الإجابة. "لا".

"لقد ظننت ذلك"، قالت سونيتّا. "أرأيت، لو كان لك أطفال لكان لك شعور مختلف حول هذه المسألة، حول مسؤوليتك تجاه العالم الطبيعي، تجاه هذه الأشجار التي تقوم شركتكم بتعريتها، تجاه هذه المرأة المسكينة التي بات عليها الآن أن تنفرد بتربية طفلها كأرملة. إني أعتقد أن هذا التأثير الذي يفعله وجود الأطفال في حياة المرء، أليس كذلك؟ إنهم يصقلون إحساسنا بمآسي هذا العالم".

قاوم رغبة حادة باتت تتحرك في داخله للقيام بإمساك هذه المرأة الوقحة الغبية المتظاهرة بالورع بشعرها بكل معنى الكلمة ثم رفعها عن كرسيها والإلقاء بها إلى الخارج من خلال نافذة مكتبه. لقد بدت عليها تلك الخصلة الهندية النموذجية – تلك الفضولية التي لا رحمة فيها، وهذا التعالي. السمج الذي لا يطاق. كما لو أنهم أعرَف منك بشؤون حياتك.

"أصغِ إليّ"، قال لها، فيما عيناه تلتهبان غضباً. "عليك ألّا تتجرّئي على الجلوس أمامي جلسة القاضي الحكم. إنك لا تدرين ذرّة قذِرة واحدة عن حياتي الشخصية. لقد فقدتُ ولدي الوحيد قبل سنتين بقليل. وإني وزوجتي لا نزال نحاول الخروج من تأثير هذه الخسارة، أتفهمين؟ لهذا عليك ألاّ تحاولي إلقاء المحاضرات عليّ عن العذاب والمعاناة. إذا كنتِ لا تعتقدين أنني لم أتعذّب بسبب قيام ابن الكلبة السخيف هذا بتعليق نفسه من أعلى الشجرة، فإنك تكونين لا تعرفين شيئاً عني. لكن لي مسؤوليات أخرى. إن بين يَّدي شركة ينبغي لها أن تدار. وهو أمرٌ بحق الجحيم أصعب بكثير من الخنوع خلف شاشة حاسوب شخصي واختراع قطعة من الكلام البالي للقيام بنشرها في عدد الجريدة الذي يصدر في الغد".

ولِشدة روعه، فإن عيني سونيتا إغرورقتا بالدموع. "يا إلهي"، قالت مختنقة. "إنني شديدة الأسف".

نفض رأسه بفظاظة. "انسي الأمر كله".

"لا، بل إنني آسفة حقاً. إن أمي لا تكفّ عن انتقادي بسبب هذه – بسبب السهولة التي أقوم بها بالحكم على الآخرين".

أصغى في دهشة إلى سونيتّا وهي تنخرط في نوبة من النقد الذاتي. إن هذه المقابلة الصحفية سوريالية بالكامل. جال في ذهنه وقد عادت به الذكرى

والحنين إلى المراسلة الصحفية المختصة بشؤون التجارة والأعمال في صحيفة ديترويت فري برس، دايف كروغر، التي كانت قد أقامت مقابلات صحافية معه في عدة مناسبات، وكان يحافظ فيها دائماً على أسلوبه المهني النشيط. ذلك أنه برغم جميع شكوكه وشكوك إيلي بموضوعية الصحافة، إلاّ أنه بات فجأة يقدّر أولئك الصحافيين الذين يحاولون أن يكونوا موضوعيين على الأقّل. وهو لم يكن ليملك فكرة عمّا إذا كانت سونيتّا تعدّ نموذجاً عن مهنتها أم لا. لكنه كان على يقين من شيء واحد - هو أنه حتى بعد غداء يتخلله احتساء كأسين من المارتيني فإن دايف كروغر لم تكن لتنغمس في هذا النوع من معاقبة النفس الذي تمارسه سونيتّا الآن.

أما الشيء الثاني الذي بات متأكداً منه: فهو أنه قد فقد زمام نفسه وسمح لهذه المرأة بأن تثيره إلى الدرجة التي جعلته يفقد السيطرة على عواطفه. لقد كشف إلى امرأة غريبة عنه تماماً ذلك العصب الحساس الذي يكمن تحت طبقة رقيقة من الجلد. ولقد أفزعته معرفته بشدة قرب الحياة التي يحياها من الحافة، وكيف أنه لا يحتاج سوى إلى دفعة بسيطة قبل أن يهوي إلى الهاوية. وللمرة الأولى، اعترف أمام نفسه كم كان انتحار موكيش مزعزعاً له، وكيف أنه قد رجَّ ذاكرته حول تلك الأيام الصعبة التي أعقبت وفاة أناند متأثراً بالضرب والتعذيب الذي لقيه تحت أيدي رجال البوليس. وكذلك حول كم استطاعت هذه الحادثة أن تعيد فتحَ جرحه الدفين الذي أصابه بعد وفاة باني.

"آنسة بهاسين"، قال في النهاية. "إنني لا أُكنُّ لكِ أيّة موجِدة. وتلك حقيقة. لكنني مرتبط الآن بموعد آخر مبرمج في جدول عملي لهذا اليوم. وعليه، إذا لم يعد لديكِ المزيد من الأسئلة..".

ولشدة ارتياحه أنها نهضت فوراً على قدميها. "بالطبع، بالطبع. يا لي من عديمة الانتباه. آسفة. شكراً لك على الوقت الذي قدمته لي. ومرة جديدة أرجو منك قبول اعتذاري".

تصافحا، وقام بتشييعها إلى الباب. ولكن، وقُبيل انصرافها، استدارت لمواجهته من جديد. "كم -كم كان عمر ولدك؟"

فاضت عيناه بالدموع قبل أن يقوى من السيطرة عليهما. "كان في السابعة. وكان اسمه باني".

أومأت برأسها. "إنه اسم جميل"، قالت له. كان ثمة شيء قديم وناضج في وجهها. إنه فهمٌ جديد.

"أشكركِ لتكرُّمك بالسؤال".

استمرّ الإضراب مدة أسبوعين آخرين. وكان بيتر يتصل يومياً خلال تلك الفترة، كان يدقق في الكبيرة والصغيرة بأسلوب لم يكن قطّ معهوداً منه من قبل. منع فرانك إيلي من التطوُّع في أيَّ عملٍ في عيادة القرية في تلك الأثناء، لأنه يعرف أن ذهابها إلى العيادة ليس آمناً. أمّا هي فأذعنت لرغبته دون كبير احتجاج، وقد خالجه شعور أن نانديتا لا بدّ من أن تكون قد أسدت إليها بالنصيحة نفسها. ومع كل ذلك، فإن إيلي كانت قد حضرت جنازة موكيش دون أن تعلمه بذلك مسبقاً. بل اكتفت بإعلامه بهذا الأمر بعد انقضاء المناسبة، وقبل أن يمكنه الاحتجاج أضافت قائلة له. "كان من الخير لنا أنني ذهبتُ. لقد كانت رادها شديدة الامتنان لحضوري. لقد تمكنتُ من الحصول على مقدار من النوايا الحسنة تجاهك يا فرانك. وقد قام الجميع بالتعامل معي بمنتهى الاحترام".

قدِمت نانديتا وشاشي لتناول العشاء عندهما مرة، خلال هذين الأسبوعين. "إذاً، ما الذي تسمعينه عن الوضع في القرية يا نانديتا؟"سألها فرانك. "هل الأمور تتجه نحو الهدوء؟"

نظرت نانديتا إلى قعر صحنها الذي كان لا يزال فيه بضع قِطعٍ من دجاج تيكا، كانت لم تمدّ إليها يدها بعد. "إن الجوَّ بالغ السوء"، قالت. "إن هؤلاء الناس لا يتمتعون بأي شبكة أمان، كما أنه لا مدّخرات لديهم. ولهذا، فإن الإضراب يؤذيهم أشدّ الأذى".

"إذن عليهم أن يعودوا إلى العمل".

ابتسمت ابتسامة حزينة. "إنني متأكدة من أنهم سيعودون في النهاية".

"أيفضلون الجوع على العودة إلى العمل؟"

"إنهم يريدون الوصول إلى جنى أشجارهم يا فرانك".

"تقصدين أشجارنا".

نظرت إليه نانديتا عيناً لِعَين. "لا، بل أقصد أشجارهم هم".

غدت الغرفة صامتة سوى من الهدير الذي كان يسمعه فرانك في أذنيه. شعر بالغضب، والخجل، والمهانة.

تتحنح شاشي. "إنه لأمٌر سخيف"، بدأ بالقول.

"بل اصمتْ"، قالت نانديتا مسكتة زوجها. نظرت عبر الطاولة نحو فرانك. "تعلم علم اليقين أن شأنكما يعنيني"، قالت بهدوء. "وإني أعرف كم أنت رجل بارع ذكي، كما أعلم أنك تمتلك قلباً طيباً. لهذا فإنني لن أقلِّل أبداً من احترامك

عن طريق استرضائك بالأكاذيب. سأقول لك الحقيقة عارية، حتى وإن كانت تلك الحقيقة جارحة".

أرغم نفسه على التطلُّع نحوها، آملاً ألاّ تستطيع أن ترى لون الدم العابق في وجهه. "إذا، ما شيء الحقيقة؟"

"إن الحقيقة هي أنه ينبغي إعطاؤهم حق الوصول إلى الأشجار التي غرسها أجدادهم. إن الحقيقة هي أن هذه القرية هي مجتمع صغير لم يعرف داء السكّري مرة، وكل ذلك بفضل هذه الأوراق. إن الحقيقة هي أنه عملٌ في غاية اللاأخلاقية أن تتمّ معالجة الناس من السكّري في الغرب على حساب صحة الناس الذين يقومون بمنحكم العلاج".

"لكن حقائقك كلها هي حقائق تستبطن وجهة نظر شخصية"، قال لها فرانك. "فالحقيقة هي أن هؤلاء الناس لم يقوموا بإعداد أي برامج لإعادة التحريج. ولو تُرك الأمر لهم لقاموا بتجريد جميع هذه الأشجار عن أوراقها على امتداد جيلين فقط. أما نحن فسنقوم من ناحية فعليّة بحماية هذه الغابة عن طريق القيام بغرس أشجار جديدة".

"وما هو نفع كل هذا المسعى إذا كانوا لا يستطيعون الاستفادة منه؟" سألت إيلي.

لقد آلمته هذه الحقيقة. حقيقة أن تكون إيلي أيضاً تقوم بالوقوف معهما ضده. هذا مع أن شاشي لم يقل في الواقع شيئاً. إلا أن فرانك كان يساوره شك في أن شاشي يتخذ جانب زوجته. شعر بأنه لم يكن متروكاً لوحده مرة كهذه المرة منذ أن وطِئت قدماه أرض الهند. "حسناً، إننا لا نستطيع تسليم تلكم الأشجار من جديد إلى أيدي القرويين"، قال.

"لا أحد يطلب منكم القيام بذلك. يكفي أن تشركوا السكان المحليين بجزء من المحصول. وعليك أن تصدِّقني بأنكم حتى أنتم لن تستطيعوا أن تشعروا بأيِّ نقص في الإنتاج".

"دعيني أفكّر في هذا الأمر ببعض التروّي"، قال لها بصوت خفيض.

وفي اليوم التالي انصرف فرانك بكامل طاقته إلى العمل، ذهب متسلِّحاً باقتراح يمكنه أن يقدمه إلى بّيتر. ولم يستغرق الأمر منه كثيراً حتى تمكّن مِن أخذِ موافقة رئيسه على توصياته. وبعد العمل من خلال مجلس كبار السن استطاع فرانك أن يعلن أنه من الآن فصاعداً سوف يكون لسكان القرية نسبة ضئيلة من محصول أوراق أشجار الجيربال. وعند إعلان ذلك تسربت مجموعة صغيرة من العمال إلى عملها في المصنع من جديد في اليوم ذاته. وبمباركة

من بيتر تيمبرلايك قدَّمت شركة هيربال صوليوشينز شيكاً بقيمة 15,000 روبَّيَّة إلى أرملة موكيش.

وأخيراً، تمّ تأسيس صندوق خيري للمساعدة على بناء جناح جديد في عيادات نانديتا. جناح أُطلق عليه اسم عيادة موكيش بهاترا. وقد تراجع آخر العمال المضربين عن إضرابه وعاد إلى العمل. وبذلك أُقفل ملف الإضراب رسمياً.

وقامت سونيتّا بهاسين بكتابة مقالة صحفية مدوِّية تشيد فيها بمناقب شركة هيربال صوليوشينز التي باتت تشكّل جبهة أمامية لصحوة ضمير جديدة لدى الشركات الأجنبية العاملة في الهند. وقد قرأ فرانك تلك المقالة بينما كان على متن رحلة جوية متجهة إلى شيناي التي كان يسافر إليها الآن للتفاوض على شراء ماكينة من شأنها الحلول محلّ ثلث القوى البشرية العاملة.

الفصل 22

نظر فرانك إلى ساعته مرة جديدة. كانت العقارب الآن تشير إلى العاشرة صباحاً، وقد تأخر غولاب عن موعده للحضور إليه مدة ربع ساعة حتى الآن. أمَّ النهار فيوم أحد، وهو في انتظار رزمة من الرسائل التي جرى إعدادها لتحمل توقيعه. وكان قد عاد من رحلته إلى شيناي يوم أمس السبت، وكان ديباك في حاجة ماسَّة كي يقوم فرانك ببداية جديدة بتوقيع هذه الكومة من الأوراق التي ما زالت في انتظار توقيعه. أما إيلي فكانت قد غادرت المنزل منذ ساعة للقاء نانديتا على الفطور. ولقد كان هذا هو السبب الوحيد الذي جعل حضور غولاب لتسليم الرسائل أمراً ممكناً. فمنذ يوم حصول الشغب، كانت إيلي قد أوضحت بشكل جازم أنها لا تريد دخول هذا الرجل إلى منزلها.

وكان براكاش في المطبخ يعدُّ الغداء عندما رنّ جرس الباب في نهاية الأمر. نظر الطبَّاخ مستطلِعاً. "سأقوم أنا بفتح الباب"، قال فرانك ببلاغة "إنني أتوقع قدوم زائر".

أمّا ما لم يكن يتوقعه فهو تلك النظرة التي بدت على وجه براكاش عندما دلف غولاب سينخ إلى داخل المطبخ. لقد صار وجه براكاش خالياً من الدم. ومع ذلك فإن غولاب لم يبدُ عليه أنه لاحظ ذلك بينما هو ينظر إلى وجه الطبّاخ نظرة حريزة. "كيف حالك يا براكاش؟" قال.

"كويّس" ردّ عليه الطباخ مبقياً نظرته متجهة نحو النَّضد.

"هذا جيد"، أجاب غولاب. وعندما استدار نحو فرانك ما لبث أن ابتسم. "سعيد برؤيتك يا سيدي". ألقى نظرة على المحفظة الصغيرة التي كان يحملها معه.

"لقد أرسل الصاحب ديباك لك مجموعة كبيرة من الأوراق حتى تقوم بالتوقيع عليها".

"لا بأس بذلك"، قال فرانك. ثم مشى نحو غرفة المعيشة، وكان على وشك الجلوس عندما قال غولاب، "ألن نجلس على الشرفة يا سيدي؟"

"إذا شئت ذلك".

"لقد اعتدتُ المجيء إلى هذا البيت لمرات متكررة يا سيدي"، قال غولاب بطريقة عارضة بينما كان فرانك ماشياً، "لقد عرفتُ المالك السابق معرفة جيدة. لقد قدّمت له بعض الخدمات الخاصة".

"ما هو نوع تلك الخدمات؟" سأله فرانك رغم عدم رغبته حقاً في سماع الجواب.

"لقد كان رجلاً ألمانياً، يا سيدي، غير متزوج. وقد اعتدت اصطياد النساء له".

شعر فرانك أن معدته تنقلب. عادة هندية نموذجية. جال في ذهنه. دائماً يقدمون لك من المعلومات ما يزيد عن حاجتك إلى أن تعرف. هذا عندما لا يكونون في حالة غموض. "هكذا إذاً"، قال في تزمت. "هه. . حسناً، لنبدأ-"

أنزل غولاب جعبته المليئة فوق كرسي من القش قرب أرجوحة الشرفة. "هذا الفتى الموجود في الداخل"، تابع كلامه. "لقد اعتادت زوجته أن تغضب مني كثيراً. لقد ألقت اللوم على لإفساد عمِّها الصغير أولاف. وهكذا فإنني طلبت من براكاش القيام باصطحابها إلى السينما أو إلى أي مكان آخر عندما أقوم أنا بجلب النساء إلى هذا المكان".

"أهذا هو سبب معرفتك به؟ أعني براكاش؟"

شخر غولاب. "براكاش؟" لقد عرفتُه منذ أن كان يتجوَّل في الشوارع دون لباس. لقد كان قطعة بائسة من الحثالة، وقد اعتاد دائماً التحويم حول بيتنا بحثاً عن فضلات الطعام التي اعتادت والدتي أن ترميها له". رفع فقاره على الكرسي ونظر نحو فرانك. "لقد كان يتيماً، كما تعلم. توفيت والدته أثناء وضعها له، كما توفي والده بعد ذلك بسنوات قليلة. وهكذا، فإنه اعتاد أن يجري في القرية من بيت إلى آخر. ولقد كان يشّكل نقطة ضعف عند أمي لسبب ما، فكانت تجود عليه دائماً بسراويلنا وقمصاننا القديمة، كما كانت تمنحه الطعام. وكم كنت أسدَّد إليه من ضربات، محاولاً مطاردته إلى خارج البيت. لكنه كان يعود إلينا دائماً كما يعود الكلب الشارد، وكان لا يتأخر دائماً عن الحضور في موعد العشاء" رمى غولاب برأسه إلى الوراء واستغرق في الضحك.

شعر فرانك باشمئزاز قوي تجاه الرجل الجالس بقربه. إذ لو كان أيُّ شخص غير غولاب يتكلم في منزله بهذه الطريقة لما كان ليتورَّع عن طرده إلى خارج البيت. لكن المقت الذي يكنّه تجاه براكاش قد وجد مكاناً له في

وحشية غولاب العارضة. "حسناَ، أظن أن حياة اليتم التي عاشها تفسِّر كونه والداً سيئاً"، قال. ورغماً عن إراته وجد أن صوته قد صار عذباً لمجرّد تذكره لراميش. "غير أن ما يُرثى له، هو أن لديه ولداً رائعاً. طفلاً شديد الذكاء. ويمكنه قيادة شركة بحجم شركتنا في يوم من الأيام، شرط أن تتوفر له الرعاية الصالحة بدلاً من هذا – هذا -الأب الأحمق التافه المشحون بالغيرة".

تضيَّقت حدقتا غولاب، فأيقن فرانك أن الرجل قد أحسّ المرارة في صوته. مهلاً، قال لنفسه. هذا الرجل هو أحد المستخدَمين لديك. وليس من الحكمة الإفضاء إليه بالكثير من الأمور.

"نعم، إني أعرف الصبي. كنت قد رأيته مراراً في السوق مع أمه. إن لديه ولد مشرق". أنصت غولاب قليلاً، ثم سأل: "وما الذي يجعل ذلك الغبي التافه غيوراً يا سيدي؟" بدا صوته عرضياً ويكاد يكون خالياً من أيِّ غرض.

لكن مجرد سؤال صغير كان كافياً لإفلات خيبة الأمل الدفينة في نفس فرانك من عقالها. "إنني. أتستطيع أن تتصور؟ إن المعتوه يغار من صداقتي مع ولده. يعتقد أنني سأقوم بسلبه إياه، أو أيّ شيء من هذا القبيل".

"بل عليك أن تفعل ذلك". كان صوت غولاب مِلساً، وناعماً لدرجة تقارب الإغواء.

"معذرة، ماذا قلت؟"

"أقول إن عليك أن تسلب الصبي منه. تأخذه معك إلى أميركا. وتمنحه حياة جيدة. أمّا هنا يا سيدي فإن الولد لا بد له من أن يفسد ويتعفّن". خفض هنا غولاب صوته. "بالإضافة يا سيدي إن والدي الولد قد تزوجا زواجاً مختلطاً. ولذلك، ومنذ عدة سنوات، فإنهما ما زالا منعزلين عن أبناء القرية في هذا المنزل. ولا بد من أن تواجه الولد صعوبات كثيرة عندما يبلغ سن الزواج. ذلك أن أحداً لن يرضى بتزويج ابنته إلى هجين".

انتفض فرانك شاعراً بأن طبعَه قد بدأ يغلي. وكما لو أن الرجل الكبير قد قرأ أفكار فرانك، فإنه درأ عن وجهه بيده وكأنه يقوم بردع الملامة المتوقعة عن نفسه. "إن هذا ليس هو رأيي الشخصي يا سيدي. وكلُّ ما في الأمر هو أنني أعلم منك بعقلية هؤلاء القرويين".

أومأ برأسه إيماءة قصَد منها جعل غولاب يعرف أنه قد فهم قصده. لكن ذهنه كان في موضع آخر. فمنذ البداية، أيقن أنه، وخلال الأشهر القليلة الماضية، لم يعد يتصور أن يرى راميش بعد خمس أو عشر سنوات من الآن، سوى في أمريكا. كان يراه كولد أميركي. ولقد أخبر إيلي في الكثير من المرات كيف أن هذا الولد سيصبح رجلاً إدارياً فذاً بمجرَّد أن يتوفر له الدعم

الصحيح، وذلك إلى درجة بلغت به حدّ الإيمان بهذا الأمر وتصديقه. لقد أقلقت فرانك فكرة إبقاء راميش في هذه القرية التي ليست أفضل من ثقب ضيِّق، بحيث يُضطر يوماً إلى ترك الدراسة للتفتيش عن وظيفة تعيسة، وأن يبقى بعد ذلك عازباً لا لسبب سوى لأن قروياً جلفاً جاهلاً وغير متعلم، يعتقد أن هذا الولد ليس جديراً بما يكفي للزواج من ابنته الأميَّة البلهاء، ولا يبقى له سوى الاعتناء بأمه البالية ووالده العاق عندما يبلغان من العمر مبلغاً.. كل هذه الأفكار ملأت فرانك يأساً وغضباً. ولعدة أشهر قبل الآن، كان قد صدّق الرواية التي تقول إنه إنما يقوم بإنقاذ الولد من هذا المصير المحتّم، وأن عليه أن يلتقطه من هنا كما يقتلع المرء زهرة نضرة ثم يعيد غرسها في أرض ثرَّةٍ خصيبة، حيث يمكن للصبي أن يزهر وأن يزدهر. لكن كلمات غولاب البارعة الإيجاز سرقت منه ذلك الوهم، إذ هو يستطيع الآن أن يتصور مصير راميش كما سينظر إليه أهل القرية - كولد مشكوكٍ في نسبه، ولد هو نتيجة لتشريكٍ في الدم والمعتقد ينفض منه كل منهم يده، ويأنفه. فإذا كان هنالك من شيء سيميَّز هذا الولد في أعيُن أهل القرية، فإن هذه الميزة لن تكون شخصيته الموهوبة، ولا حدَّة ذكائه، ولا دفء قلبه. بل إن ما سيميزه في أعينهم هو مجرد كونه ابناً لوالد هندوسي – كان بدوره يتيماً يعيش على فتات الإحسان - كان قد تزوّج من فتاة غريبة عنهم وهي مسيحية من عائلة قامت بالتبرؤ منها أيضاً لتدنيسها شرف تلك العائلة.

"إن هؤلاء الناس هم مجموعة أغبياء". قال فرانك، وكان الحقد الذي يسكن صوته مدعاة لدهشته هو بالذات. "لقد كنت أعتقد أن ليس لدي راميش سوي ذلل الأحمق الغبي الموجود الآن في المطبخ، كي يتحّكم بحياته ويسيطر عليه، ولم يخطر في بالي أن هذه القرية مليئة بأمثال براكاش من الحمقى والأغبياء".

"عليك أن تأخذه يا سيدي أعني تأخذه إلى أميركا حيث يمكنك أن تمنحه حياة جيدة هناك".

قطَّب فرانك جلدة وجهه. "وكيف بى بالعمل بأبيه وأمه؟ إنهما يكدّرانني كل التكدير كلّما أردتُ اصطحابه إلى المسبح لمدة يوم واحد. إن من المفترض أن يقوم بمرافقتنا إلى الولايات المتحدة لمدة عشرة أيام في عطلة الميلاد. ومن الحديث الذي تخبرني به زوجتي، فإن إقناع براكاش للموافقة على ذلك تبدو أشبه بإقناعه بخلع أسنانه. وإنني أستطيع أن أتصوّر كيف ستكون ردّة فعله لو أنني قمت بـ –".

توقف في منتصف جملته بعد مقاطعة غولاب له بصوت يقع بين التنحنح وبين الهسيس. "دعك منهما، يا سيدي" وبإشارة هندية مميّزة جَمع غولاب

أصابع يده الخمسة معاً ثم أفلتهما في سرعة ليتفرقوا، كما لو أنه يقوم برمي شيء ما. "إنهما لا شيء وإنني أسطيع أن أجعلهما يختفيان".

"هَهْ؟ ماذا تعني بقولك، يختفيان؟"

ثبّتت حدقتا غولاب السوداوان نظرتهما في عيني فرانك لبرهة كاملة. وفي تلك اللحظة، تذكّر فرانك ما كان غولاب قد قال له مرة – لقد قمت بقتلِ الرجال بقبضتيّ العاريتين. ارتعش عند ذلك. ولكن قبل أن يتمكّن من قول أيِّ شيء آخر، ابتسم له غولاب، ابتسم له ابتسامة سريّة بطيئة. "عندما تصبح جاهزاً لاصطحاب الولد معك، يا سيدي، ما عليك سوى أن تسألني. وعند ذلك سأقول لك ما الذي أعنيه". كان صوته خافتاً ومنوّماً، ولهذا، فإن فرانك شعر على الفور أن رأسه بات ثقيلاً وبليداً أو ناعساً، كما لو أنه قد بات مخدّراً بصوت غولاب المغري. ونبض عِرقٌ في جبهته عندما رفع عنه غولاب نظرته. ارتجف وحوّل نظره إلى البعيد مرتبكاً مما رآه في عيني غولاب.

تثاءب وقام بهزِّ رأسه، شاعراً بأن السحر الذي ألقاه عليه غولاب يتبدّد عنه بهذه الطريقة. "أوكّي، يكفينا الآن هذا القدر من هذا الحديث المجنون". قال مجاهداً لجعل صوته يبدو هادئاً هيّناً لكنه عجِز عن الشعور بذلك. "إن من الأفضل لنا مباشرة عملنا".

انقلب غولاب فوراً لأخذ دوره الرسمي. "بالطبع يا سيدي، هنالك الكثير من الأوراق التي تتطلّب توقيعك".

عمِلا مدة عشرين دقيقة، ثم ما لبث فرانك أن سمع صوت براكاش الذي يخرج من منخريه، وهو قادم من الممر. "لقد بات الحساء جاهزاً، هل أحضره لك؟" نظر فرانك فلاحظ أنه بالرغم من أن براكاش كان يخاطبه هو، إلا أن أنظاره بقيت معلّقة على غولاب كأنما قد أصيب بشللٍ، وكانت عينا الأخير ساحرتين ومخيفتين. إنه مرتاعٌ من غولاب، جال في ذهن فرانك. لا بد من أن ابن الحرام هذا كان قد روّعه عندما كانا لا يزالان صبيين. وهنا شعر أن قلبه يمتلئ بالشفقة حتى بالرغم عن إرادته.

"دع الحساء في القِدر"، قال له. سوف أقوم أنا بتسخينه عندما ننتهي من عملنا". كان على وشك سؤال غولاب عمّا إذا كان يريد شراباً بارداً عندما لجم نفسه عن ذلك. إذ بطريقة ما، عرف أن الطلب إلى براكاش أن يقوم بتقديم زجاجة كوكاكولا أو زجاجة لِمكا إلى خصمه القديم الرهيب، إنما سيكون أمراً فوق طاقة الطاهي على الاحتمال. هذا إلى جانب أن نزعة غريزية قد أرشدته إلى ضرورة إبقاء رئيس قسم حراسه على مسافة محفوظة منه، وأن عليه ألاّ يدع ذلك الرجل ينسى مقامه الصحيح كثيراً. إذ حتى بادرة بسيطة كتقديم

شراب له قد تصبح إشارة ألفة وصحبة لم يكن هو مستعداً لمنحهما إلى غولاب.

"تستطيع الذهاب إلى بيتك"، قال لبراكاش، وكان صوته أقلّ صلابة مما هو عليه في المعتاد. "اذهب وخذ قسطاً من الراحة". ومن طرف عينه، رأى رأس غولاب يرتفع، ولكن عندما نظر إليه مباشرة، كان الرجل ينظر في الأوراق التي هي أمامه، من جديد.

"كما تشاء"، قال براكاش ثم أدار ظهره مغادراً.

"إنه طباخ ماهر"، قال فرانك بعد أن غادرهما براكاش. وحتى بالنسبة إلى سمعه هو بالذات بدت كلماته الأخيرة كلمات دفاعية، كما لو أنه يحاول أن يبرّر سلوكه اللطيف مع براكاش منذ لحظات قليلة.

كانت عينا غولاب تافهتين. "هنالك مثل في اللغة الهندية يقول ما معناه أنه حتى سلخة الدجاج تصلح علفاً للذباب. وحتى شخص قليل النفع مثل هذا قد تكون له بعض الفضائل يا سيدي".

تضاحك فرانك. "إني لم أسمع بهذا المثل من قبل". عاد إلى كدسة الأوراق. "حسناً دعني أنظر في هذه الأوراق كي أرى أيها أيضاً يحتاج إلى توقيع مني".

ولم يكد ينتهي من قراء ة رسالتين، وعند ما رفع بصره، حتى رأي راميش يمشي على الحائط الحجري بين المرجَة الأمامية وبين الشاطئ. وقع نظر غولاب على الصبي في الوقت نفسه، وتحرّك للنهوض عن كرسيه. "هنالك شخص غريب وحشيٌّ يقتحم حدود ملكيتك يا سيدي"، قال له. "وإنني ذاهب لمطاردته إلى الخارج".

"دعه"، قال فرانك. "هذا هو راميش وهو يعيش هنا".

"نعم، بالطبع، إنها غلطة مني"، بدأ غولاب القول، لكن فرانك لم يكن يعره أيّ انتباه لأن راميش كان قد وقع نظره أيضاً على الرجلين وها هو الآن يعدو حافي القدمين عبر المرجة الخضراء في اتجاههما. "مرحباً فرانك"، قال لاهثاً عند وصوله إلى مكانهما. "أيمكنك أن تلعب معي كرة السلة اليوم؟"

بدا من غير المناسب جعلُ غولاب شاهداً على مبادلاته مع الولد. ودَّ لو يستطيع أن يحجب الوجه البريء لراميش من أن ينكشف على عيني الرجل الآخر الذي بات كله عينان. "ليس في هذا اليوم"، قال باقتضاب "لدي الآن بعض العمل الذي عليّ أن أكمله يا راميش. وإن بإمكاننا أن نتكلم في وقت لاحق، أوكي؟"

"أوكي"، قال راميش. لكن فرانك كان يستطيع القول إن الصبي قد أوذي في مشاعره. لكن ذلك لا يهم الآن. بل الأهم هو إخراج الصبي من تحت عيني غولاب سينج. "مع السلامة"، أضاف. "يمكنك أن تذهب الآن".

جرى راميش مبتعداً، ناظراً إلى ورائه مرة ولكن دون توقف أو إبطاء. راقبه الرجلان عندما قفز من جديد فوق الجدار ثم قفز من فوقه إلى الرمال التي هي إلى جانبه الآخر. "ولد جميل"، قال غولاب. وكانت لهجته حيادية. "إنه يناديك باسمك الأول؟ دون إضافة كلمة سيد، أو كلمة صاحب؟"

"إن زوجتي تكره المجاملات الشكلية". وهو كاد يقول الاستعباد، لكنه عرف أن غولاب لا بد من أن يفهم ذلك على أساس أنه ضعف من جانب إيلي.

ابتسم الرجل. "الأميركيون شعب بعيد عن الشكليات، وعندما كنت في فيرجينيا رأيت الشيء نفسه. بُعدٌ عن الشكليات في الملبس وفي الكلام".

"أكنت أنت في أميركا؟ متى كان ذلك؟"

"كان ذلك عند ما كنت في الخدمة العسكرية يا سيدي. كانت بعثة تدريب خاصة، مع الحكومة الأميركية".

فكّر فرانك للحظة. "هل كنت في فيرجينيا؟ هل كنت تعمل مع الـ: سي. آي. إي؟"

أدار غولاب رأسه بحيث بات يحدَّق إلى البحر. "عمل سرَّي يا سيدي. حتى أمي وأبي لم يعلما أين أنا لمدة ثلاثة أشهر". هنا تابع إخبار فرانك عن السبب الذي أخذه إلى فيرجينيا، لكن القصة كانت شديدة التعقيد وقام غولاب باستعمال عدة مصطلحات لم يكن فرانك ملماً بها بحيث إنه صار متعباً من متابعة الحكاية. ولم يكن يملك فكرة عما إذا كان الرجل ينطق بالحقيقة. فكل ما كان يفوه به كان يبدو غير معقول، لكن فرانك كان يعرف، ما يكفي عن السياسة ليعرف أن الحكومات تنجو بما تفعل لأنها تراهن على أن المواطنين العاديين ينحّون الأحداث جانباً لأنهم يجدونها بعيدة عن الاحتمال، أو غير قابلة للتصديق. نظر بإمعان إلى الأوراق التي بين يديه، وهنا قام غولاب، الذي بات مُدوزَناً مع كل فارقٍ دقيق، بالتوقف فوراً عن متابعة السرد. "وفي كل حال يا سيدي، فإن هذا كله قد انطوى الآن. وبات مجرد قصة قديمة".

ملتقطاً قلمه، بدأ فرانك يدقّق في الأوراق. ثم ناوله غولاب المزيد منها للقراءة والتوقيع. وفي إحدى المراحل ذهب غولاب إلى المطبخ وعاد منه حاملاً كوباً من الماء. "اشرب يا سيدي"، قال له. "فالماء ضروري في هذا الطقس الحار". وبينما كان فرانك يعمل على الأوراق انحنى الرجل الآخر على سياج الشرفة وراح يحدِّق إلى البحر.

كانت كومة الورق قد تناقصت كثيراً عندما عادت إيلي إلى البيت. سمع كلاهما – مقبض الباب يستدير وإيلي تقول، "حبيبي؟"

تباً، جال في ذهنه، لقد عادت إلى البيت أبكر بكثير مما توقعتُ، "أنا هنا"، ناداها. "على الشرفة".

مشت إيلي نحو الشرفة. وكان وجهها متوهجاً من شدة الحرارة، كانت تزيل قبعة القش عن رأسها بينما هي تتقدم. تجمدت البسمة على شفتيها عندما لمحت غولاب الذي نهض عن السياج الذي كان يتكئ عليه. "أوه"، قالت بجمود "لم أكن أتوقع -"

"مرحباً يا سيدتي"، قال غولاب.

لم تعِر انتباهاً لتحية غولاب. وشعر فرانك أن وجهه يمتقع خجلاً من فظاظة زوجته. استدارت إيلي لمواجهة فرانك. "ما الذي يدعوك إلى العمل في يوم أحد؟"

"كنت أقوم فقط بالتوقيع على بعض الأوراق"، قال متمنياً عليها ألاّ تجعل من الأمر مشهداً، وألا ّتضع نفسها بالعْرْض شأن الزوجة التي هي أشبه بالدجاجة التي تدس منقارها في كل مكان، خَاصة أمام غولاب. ولسروره أنها أدارت بظهرها لتغادر.

"سعدتُ لرؤيتك من جديد، يا سيدتي". قال غولاب. لكنها لم تستجب له.

"هي منزعجة لأنني أعمل اليوم"، قال محاولاً التغطية على فظاظة ايلي التي يصعب تفسيرها.

كان وجه غولاب عديم الإحساس جامداً. "بالطبع يا سيدي".

غادر الرجل بعد نصف ساعة. وقد رافق فرانك غولاب إلى الباب ثم مشى إلى غرفة النوم حيث كانت إيلي تضطجع على السرير وهي تقرأ، "مرحباً، قال لها. "كيف كان الإفطار؟"

"كان جيداً. قالت، رافعة نظرها عن الكتاب الذي كانت تقرأ فيه. " ما الذي يجعلك تُدخل هذا الرجل الكريه مرة ثانية إلى بيتي؟"

"لقد قلتُ لكِ. لقد أردت أن أقفز قفزة أُسرِّع بها وتيره الأشياء".

انقلبت إلى جانبها وجلست الأربعاء خلف المكان الذي جثم فيه فرانك على السرير. مدَّت يداها إليه وبدأت بتدليك كتفيه. "لقد توقفنا في السوق، فاشتريت بعض الأشياء من أجل راميش كي يقوم بتوزيعها كهدايا لمناسبة عيد الميلاد إلى الجماعة في أوهايو".

"أفعلتِ ذلك؟"

"أجل، لقد فكرتُ أن الأمر سيكون مربكاً بالنسبة إليه إذا لم يشارك في تبادل الهدايا".

استدار وقبّلها. "أنت رائعة". نهض من السرير. "اعتقد أن براكاش قد أعدّ لنا بعض حساء الدجاج مع الذرة. أترين أن تنالي شيئاً منه؟"

’’طبعاً، سأكون هنالك في خمسة دقائق. فقط أريد إكمال قراءة هذا الفصل. وبالمناسبة. إن نانديتا تريدنا أن نذهب إلى شاليمار لشرب الشاي بعد الظهر. أتريد الذهاب؟"

"طبعاً"،

ذهب إلى المطبخ لتسخين الحساء، وكان قلبه أخفّ مما كان حاله منذ أيام عديدة. عرف أن إيلي ليست شديدة الابتهاج لفكرة الذهاب إلى الوطن لمناسبة العيد، لكنه الآن سمح لنفسه أن يأمل أنه ربما، وبمرافقة راميش لهما، فإن هذا سيكون جيداً بالنسبة إليها أيضاً. ولقد ألفى نفسه يصفّر بينما هو يضع القدر فوق الموقد.

إلا أن بعضاً من دماغه بقي راغباً في الشرود في المقابلة الغريبة التي جرت بينه وبين غولاب. لقد أراد أن يحاكِم، وأن يحلّ ألغاز الكلمات المراوغة والشريرة بشكل غامض، تلك الكلمات التي كان الرجل قد تفوّه بها. لكنه أرغم نفسه على التركيز على شعلة السعادة الهادئة التي أشعلتها في قلبه نوبة شراء الهدايا التي بادرت إليها إيلي. إنها أشبه باللهب الأزرق الذي ينبعث الآن من موقد الغاز بعد أن أدار مفتاحه منذ قليل.

الفصل 23

حاول براكاش رفْع القِدر عن الموقد لكنه لم يقوَ على ذلك. كانت يداه ترتجفان كثيراً. حتى رغم أن رجل المتاعب الرهيبة غولاب كان قد غادر منذ عدة ساعات، وأن فرانك وإيلي كانا الآن خارج البيت بعد ظهر ذلك اليوم، لكنه رغم ذلك ما زال يشعر بالحضور الشرير لذلك الرجل كأنه غيمة شؤم كثيفة سوداء معلقة في الهواء فوق هذا البيت.

هذا كثير. إنّ ما يُطلب منه أن يتحمله هو شيء كثير. أولاً كان هنالك هذا الأميركي الذي يحاول أن يستولي على حياة ولده من بين ذراعيه. والآن ها هو يسمح لنفسه بأن يُدخل إلى البيت ذلك الرجل الذي كدَّر طفولته. شخص مستأسد لم تتعب يده من التكوُّر إلى قبضة كلما كان براكاش في المتناول. كل طفل في القرية كان يخشى بطش غولاب الذي كان أكبر بسنوات قليلة من معظم الأطفال الآخرين. غير أن معظم الأطفال كان لهم أب وأم قادران على حماية ولدهما، قادران على الإمساك بغولاب من أذنه وجرّه إلى منزل والدته للاحتجاج. وكانت المرأة العجوز لا تتأخر عن صفع رأس ولدها، فيتوقف عن ترويع سواه ليوم واحدٍ أو ليومين. أما براكاش وحده، فلم يكن له أحدٌ يدافع عنه، وكان غولاب يستغل هذه الفرصة إلى أقصى الحدود. لكمات، وقرصات، وركلات، وصفعات، ونطحات. والأسوأ من كل هذا النكات المقذعة، والسخرية، والضحك.

"مرحباً أيها الوجه الكئيب"، كان يناديه غولاب المراهق. "ما خطبك أيها الصديق؟ إنك لتبدو لي كمن فقد أباه وأمه".

وكان براكاش يحاول الانسلال من طريقه، كان يصلي لو أن الأرض تستطيع أن تبتلعه وتخفيه، لكن السكوت وحده كان كافياً لإثارة غولاب. "تعال هنا أنت يا مُعاشر والدته"، يستمر في إهاناته. "قلْ لي من الذي مات اليوم؟"

ولم يكن هنالك من استجابة صحيحة. فالإجابة تستدرج العنف. وكذلك الصمت يستدرجه. وإلى جانب الألم الجسدي الذي ربما كان من الممكن

تحمُّله، كان هنالك الاحتقار الذي لا يمكن احتماله. والطريقة التي كان فيها الأطفال الآخرون ينصرفون عنه بينما يكون هو يتلقى التعذيب والإهانة، وكذلك ذلك الاحتقار والشفقة التي كان يقرؤها على وجوههم. وبدون وجود الشهود فلربما كانت الإهانة أقلّ وقعاً. لكن غولاب كان دائماً يحاول التأكّد من أن هنالك جمهور متفرجين عندما يباشر التنكيل به. ولم يكن ثمة أحد يدافع عن براكاش ولو بكلمة، لم يكن هنالك من امرأة تفعل ذلك ولا رجل، ولا حتى طفل. ولم يكن هنالك حتى حيوان أليف أو كلبٌ يجرؤ على التكشير في وجه غولاب.

ولكَم شعر بالفرج والسرور عندما اختفي غولاب من القرية لبضع سنوات. سرت إشاعة أنه قد انضمّ إلى الجيش الذي كان يقاتل في كشمير. "أتمنى أن يقوم الحثالة بين المسلمين بقتله وأكلِ عظامه"، قال مرة لصديق له يدعى عامر عندما سمع بالأنباء للمرة الأولى. بدا عامر مصدوماً للوهلة الأولى إلا أنه ما لبث أن ابتسم، مبدياً أسناناً سوداء حمراء. "كما أتمنى أن يختنقوا بعظامه"، قال موافقاً.

لكن موت العفاريت كان أمراً عسيراً، جال في فكر براكاش بينما هو يغسل مقلاة بالماء الشديد السخونة. لقد عاد غولاب إلى القرية بعد بضع سنوات من انتقاله هو وآدنا للعيش في منزل أولاف. وفي تلك السنوات كان غولاب يأتي إلى المكان مرة كل أسبوع على الأقلّ ليجلب معه لأولاف امرأة جديدة كل مرّة. وها هو ذا الآن يعود، ويقوم الأميركي بالسماح له بالدخول إلى داخل البيت. وها هو لا يزال يعذب براكاش بمجرد وجوده.

سُمع صرير للباب، ثم دخلت آدنا. "ما هذه الضجة"، قالت له. أأنت تقوم بغسل القدر أم بقتله؟"

رشقها بنظرة قبيحة. "لا تتكلمي"، قال لها، "فقط ابقي صامتة تماماً إذا كان لا بدّ لكِ من البقاء هنا".

"أيُ عفريت قد ركبكَ في هذه الليلة؟"

أنزَل براكاش القدر بعنف. "لقد كان غولاب هنا هذا اليوم"، قال لها. كان يعرف أن آدنا لا تطيق هذا الرجل أيضاً. "انظري من الذين يقوم أميركيُّك هذا بإدخالهم إلى بيته؟ مثل هذه الطبقة المنحطّة من الناس".

وللحظة سعيدة، خُيّل إليه أن آدنا سوف توافقه الرأي. لكن حدقتيها ما لبثتا أن تضيّقتا وقالت، "إن غولاب يقدم خدمات أمنية للشركة، لذلك سيقوم السيد فرانك بالطبع بالسماح له بالمجيء إلى هنا بدافع العمل. فما هو الداعي الذي يدعو إلى وقوف هذا الأمر في بلعومك؟"

"ولمَ يقوم بإعطائه هذه الوظيفة؟ فالناس في القرية يقولون إن غولاب أمر بتعريض أناند المسكين للضرب في محطة البوليس".

"إن الناس في القرية يقولون إن القمر يطلع بعد الظهر. هل تصدقهم؟"

كان يكره هذه العادة فيها، يكره انحيازها الأعمى مع الأميركيَّين حتى ضد عائلتها بالذات. "ألا تخجلين لعدم وقوفك إلى جانب أبناء بلدتك؟"

"تقول أبناء بلدي؟ أتقصد هؤلاء الحمقى الذين ما زالوا يتجاهلونني منذ اليوم الأول لقدومي إلى هذه القرية المنبوذة. هل صاروا الآن أبناء بلدتي؟"

حدّق نحوها بيأس. لعدة سنوات كان قد جعلها مقتنعة أن سبب مقته لغولاب هو لأنه كان يعمل قوَّاداً يجلب النساء إلى أولاف، فهو لم يكن قادراً على جعل امرأته ترى العار والروع اللذين يحسُّ بهما في كل مرة يجد نفسه فيها في مدار غولاب. "بل إنك أنتِ الحمقاء"، قال لها بلهجة واهية. "لقد أعماك ولاؤك لهؤلاء الأجانب".

"إن السيدة إيلي تعاملني معاملة هي أفضل من معاملة أي شخص آخر في جيربوغ. وفرانك يجلس ليدرّس ولدي. أمَّا أنت فهو الوحيد الذي ينكر فضل الذين يطعمونه".

رفع القِدر المليء بالكايري عن الموقد وألقى به على نَضَد المطبخ بشيء من العنف بحيث إن بعض السائل اندلق إلى خارجه. "بل أنا هو الذي يطعمهم"، صاح. "إنهم لا يطعمونني". وقبل أن يستردّ رشده، قذف ببصقة من لعابه فوق قدر الكايري.

نظرت آدنا إلى براكاش في صمتٍ وذهول "ما هذا – ما هذا الذي فعلتَه؟" قالت له أخيراً. "هل فقدتَ عقلك كلّه؟ أتبصق في طعامهم؟ ويلك من الله يا رجل".

شعر فجأة بأنه دامع، وقذر. فهو لم يسبق له أن فعلَ مثلَ هذه الفِعلة القذرة من قبل. لقد دفعت به زوجته إلى هذه الدرجة من الغضب. "إني. . . أرأيتِ ما أوصلتني إليه يا امرأة؟" قال متمنياً لو أنها تغادر المطبخ بحيث إنه يستطيع استجماع أفكاره. نظر نظرة سريعة إلى ساعة الحائط. لم يعد هنالك متسع من الوقت لطبخ المزيد من الكايري قبل عودتهما إلى البيت.

تدلّت شفتا آدنا إلى الأسفل. "رجل قليل الحياء ولا نفعَ فيك"، بدأت تقول. "رجل ناكر للفضل والجميل. لقد كانت أمي تقول لي دائماً –"

"ملعونة أمك وأمّ أمك"، صاح بها "ملعونة عائلتك حتى جدُّك السادس. اغربي الآن عني. اخرجي من مطبخي قبل أن –"التقط مغرفة وقام برفعها

بذراعه مهدّداَ. "أطلب منك أن تخرجي من هنا يا آدنا خوفاَ عليكِ".

"سأخرج". فتحت الباب ثم نظرت إلى الوراء. "لكن إذا قدَّمت لهما هذا الطعام، فإنني أقسم لك بأنني سوف أخبرهما بالحقيقة".

وقف متمسكاً بالنضد، وكانت دموعه تسيل على خديه. كم صار يكرههم جميعاً -غولاب، آدنا، فرانك. كم صار يتمنى لو يستطيع أن يركب حافلة ويغادر هذه القرية في كل بساطة، يغادرها ويغادر ذكرياتها الحزينة وأشباحها التي تنهض لتعكير حياته الحاضرة. ألقى نظرة نحو السائل الأحمر ثم رفع القِدر وقام بسكبه في البالوعة.

قرَّر بكل بساطة أن يلجأ إلى الكذب وإلى الادعاء بأنه قد أحرق طبخة الكايري.

الفصل 24

كان فرانك في اجتماع عندما كالمته إيلي في اليوم التالي. "ما الأمر؟" قال لها في غير اصطبار، وقبل أن تتمكن من الإجابة، "سوف أكلمك أنا بعد ساعة من الآن، أوكي؟"

بدت إيلي وكأنها قد صارت عند حافة أعصابها عندما اتصل بها. "أني شديدة الأسف يا حبيبي"، قالت له. "لكنني رأيت أنه من الأفضل أن أخبرك في وقت مبكر، إذ ربما يكون لا يزال باستطاعتنا استرداد نقودنا".

"تخبرينني بماذا؟ ما الأمر الذي تتحدثين عنه؟"

"إنه براكاش. لقد تكشّف الأمر أنه قد غيّر رأيه على ما يبدو بخصوص سفر راميش معنا إلى كليفلاند. إنه على قناعة من أننا سنقوم - لست أدري - بخطف ابنه، أو شيء من هذا القبيل".

"هل حاولتِ التحدث معه لتحويله عن هذا الرأي؟"

"في الحقيقة، إنني لم أفعل ذلك. إنني - إنني متعبة من مخادعاته، إذا شئت أن أقول لكَ الحقيقة. وليس لي رغبة للتعاطي معه في هذا الأمر".

أرسل فرانك شتيمة في سره. "أوكي. سوف أتحدث معه عندما أعود إلى البيت. أحمق غبي. لقد حسبتُ أنه سيفعل مثل هذه الفِعلة في اللحظة الأخيرة".

"كما أن آدنا تتصرف بطريقة غريبة أيضاً. فهي ما فتئت تحور وتدور مسرعة حول المطبخ كأنها فأرة، كل هذا الصباح".

أقفل السمّاعة، ومع أن الوقت كان بعدُ لم يتعدَّ الظهيرة، فإنه وجد في نفسه رغبة قوية لكأس شراب. إن كاساً من الجنّ المخفف قد يكون كافياً للغرض ها هنا وفي هذا الوقت، جال في باله، ثم ابتسم لنفسه لتذكُّره أيام كان يقوم بإعداد كأسٍ من الكوكتيل المفضّل لجدته عند الساعة الحادية عشرة قبل الظهر كلما قام بزيارتها في ديربورِن. "أتدري ما هي جهنم يا

حبيبي؟" قالت له مرة عندما كان لا يزال صبياً. "إن جهنم كأسٌ من الجنّ الدافئ المخفَّف الذي تسقط فيه شعرة". وقد قام باحتقاب تلك الشذرة من القول كما يحتقب السنجاب حبة من البندق، ليحملها معه عائداً إلى آن آربور ويفضي بها إلى سْكُوت، وقف يومها على السرير وهو يلبس روب حمامه وقام بتقليد جدته على أفضل ما يمكنه من تقليد للهجة بات دافيس.

أمَّا الآن فقد توقف عن التفكير في جدته التي رحلت عن هذه الدنيا منذ زمن بعيد، وعاد به الغليان بسبب فِعلة براكاش. تساءل عمَّا إذا كان الطاهي قد أبلغ هذا الخبر إلى راميش، وكيف يمكن أن تكون ردّة فِعل الصبي على ذلك. فكَّر في النفوذ الذي قام ببذله من أجل الحصول على تأشيرة دخول للولد. كما تذكّر المكالمة الهاتفية العاثرة التي كان قد أجراها مع والدته، خصوصاً بعد أن قال لها إنه سوف يُحضر معهما ولداً هندياً إلى الوطن. مجادَلة على الهاتف انتهت إلى قول أمه له. "حسناً يا عزيزي أحضره إذا كنت تعتقد أن هذا العمل سيكون عملاً حكيماً". سوف أستدعي براكاش هذه الليلة، فكّر في عبوس، وسأطلب منه تفسيراً لهذا التصرف السخيف الغريب.

ولكن، وكما لو أن الأمر يحدث فجأة، فإنه وجد أن زخم غضبه يفارقه. وبدلاً من الحميَّة والغضب إذ به يشعر بالإرهاق والتعب الذي تغلغل في كيانه عميقاً حتى العظام، تعبٌ بدا أشبه بالألم. شعر بكتفيه يتراخيان، وتخيَّل كأن جسده يُصدر صوتاً نافثاً بينما هو يفقد روحه القتالية وشجاعته، وحتى رغبته في تطويع براكاش لتنفيذ رغبته. لقد تعب من الأمر كله. تعب من محاربتهم جميعاً. بدا له أن سكان الهند جميعاً يقفون على أهبة إدانته وعدم الموافَقة معه، أو حتى قطع الطريق على آماله. وفي اللحظات الأخيرة، إذا به يشعر أن زمام نفسه بات يُفلت منه، وأنه صار يتحوّل إلى شخصية لا يريد لنفسه أن يكونها، وصارت تهزُّه أفكارٌ عِرقيّة ترتفع أحياناً إلى رأسه كأنها أمواج سوداء. كما أذهله كيف باتت تفلت الشتيمة أو اللعنة من بين شفتيه بسهولة. فأقلّ إثارة لغضبه – كأن يقوم أحدهم بعبور الطريق أمام سيارة ساتيش، أو مشاهدة ديباك خامد الوجه، أو سماعه لعبارة ملغَّزة أثناء اجتماع، أو الطريقة المتفحّصة التي تبدو إيلي تراقب بها تعاملاته مع راميش - كل هذه الأشياء الصغيرة باتت تثيره وتزعجه.. آه... راميش. الذي كان وحده مصدر سروره وفرحه النقي، والصافي، وغير المقيد في هذه الحياة. وكم تمنى لو يستطيع أن يأخذ هذا الولد في طيّة ذراعه، ويقول: وداعاً لبقية الناس، ثم يختفي به. فكل فردٍ سوى راميش بدا شديد التعقيد كجهنم، وفوق ذلك فإن كل واحدٍ حوله يتوقع منه أن يشعر بالأسف نحوه - فهو عليه أن يأسف لأن راتب ديباك لا يوازي سوى معشار راتبه هو، وهو عليه الشعور بالأسف لحالة العمال الذين يعانون منذ أجيال من استغلال المرابين لهم، مثلما يعانون من القمعِ

الحكومي والبوليسي، وهو عليه أن يأسف من أجل براكاش الذي بات سكّيراً مدمناً محطّماً. ولكن، ممّن عساه هو أن يطلب المؤاساة والأسف لنفسه؟ فطفولته الخاصة لم تكن تلك الطفولة الشديدة الدفء والسعادة - فقد كان له والد يقوم بضربه عندما كان طفلاً صغيراً. ثم إذا به يهجره وينبذه عندما بلغ الثانية عشرة. وكان له أمٌّ لا تنفك تدور غارقة في كآبتها في أرجاء البيت وكأنها راهبة منكودة، أمَّا المؤسسة العائلية، فكانت لا تكاد تكفيهم للعوم فوق مستنقع الغرق، إلا بشَقّ الأنفاس. وصحيح أن الحظ ما لبث أن ابتسم له بعد لقائه بإيلي، لكن تذكُّر سنواته معها هو أمر بات استرجاعه حارقاً الآن ومنغّصاً. بل إنه لا يثق بذاكرته حول تلك الذكريات لأنه بات يراها الآن بصورتها التي كانت عليها – مجرد مقدمة، أو خدعة، أو تطمين قبل بلوغ حافة الهاوية. وإذا كانت جنة عدن لا تأتي إلا ومعها الأفعى فهل تكون جنّة عدن جنّة حقاً؟ وإذا كان يمكن للفردوس أن يغدو مفقوداً، فهل يكون فردوساً بالفعل؟

استمرّ في رثاء نفسه عبثاً، لدقائق أخرى قليلة، ثم تنبّه إلى ما هو فيه. لقد كان يقوم بمجادلة من طرفٍ واحدٍ مع إيلي، مترافعاً عن قضيّته أمامها، ومحاولاً إقناعها بحقيقة أن كونه رجلاً أميركياً أبيض – صاحب حق امتياز بحسب تعبيرها – لا يعني أنَّ عليه أن يدحرج صخرة الشعور بالذنب طيلة حياته، ولا يعني أيضاً بأن عليه تقديم الحجج والأعذار لأي شخص كان من أمثال آدنا، وبراكاش، وديباك. "قاتلكِ الله يا إيلي"، قال مدمدماً قبل أن يتنبه لنفسه فيضحك.

ومع حلول وقت رجوعه إلى البيت في المساء، كان قد قرَّ قرارُهُ – فإنهم سوف لن يعودوا إلى أميركا لقضاء عطلة الميلاد. فهو لعدة أسابيع، كان يحاول تجاهل القلق الذي يبدو على وجه زوجته، ذلك لأن ابتهاجَهُ باصطحاب راميش معه إلى أميركا كان أقوى من خوفها من العودة إلى هناك. لكن عيد الميلاد من دون باني كان أمراً صعباً بما فيه الكفاية. فالاحتفال بالعيد في مكان مألوفٍ مع العائلة، سوف يكون أمراً مؤلماً.

ومثله مثل إيلي، فإنه لم يأنس في نفسه استعداداً لمواجهة ذلك، خاصة من دون أن يكون قادراً على استعمال العكازة التي اسمها راميش. ولا شك في أن بيتر سوف يكون منزعجاً، ولكن تباً له، إذ متى كان بّيتر غير دائم الانزعاج منه في تلك الأيام - إن عليه أن يتجاوز هذا الأمر. أما أمَّهُ وأخوه سْكُوت فلسوف ينكسر قلباهما، لكن لربما أنّه سيحاول الذهاب ورؤيتهما خلال شهر حزيران/يونيو القادم، عندها سيكون الطقس أفضل من الآن، كما لن يكون هنالك مناسبة عيدٍ لا بد من الاحتفال بها. أما في ما يتعلق بوالدِ زوجته وأمَّها، فإن هذه مشكلتها التي عليها أن تحلها بنفسها لامتصاص خيبة أملهما. شعر فجأة بخفةٍ ونشاطٍ لم يشعر بهما منذ أسابيع. فلمرّةٍ واحدةٍ على

الأقل سوف يكون في جعبته اقتراح يضعه إلى جانب زوجته بدلاً من أن يضعه في مواجهتها. وسيكون في ذلك، حسب افتراضه، أفضل هّديّةِ ميلادٍ يمكنه أن يقدّمها لها.

ومثلما كان يخال، فإن إيلي لم تبدُ شديدة الانزعاج بسبب هذا التبدُّل في الخطط. "أظن أنني سأقوم بإرسال الهدايا بالبريد"، قالت. "وآملُ أن تصل هذه الهدايا في الوقت المناسب".

"أو أنها قد لا تصل أبداً"، قال. "سيما إذا صادفها ساعي بريد همّام يقوم بسرقتها. إذ إن هذه المشكلة هي مشكلةٌ شائعةٌ في هذه البلاد".

ومرَّ شهرٌ آخر، ثم حان الوقت لهما للتخطيط من أجل احتفالهما الخاص بالعيد. دعيا نانديتا وشاشي إلى العشاء في بيتهما عشية عيد الميلاد. وقد كان من المفترض أن راميش سوف ينضم إلى هذا العشاء. ولقد أصرّت إيلي على القيام بطهوِ الطعام بنفسها، وكان فرانك سعيداً بمساعدتها في ذلك. وفي ذلك الصباح جاءت آدنا إلى بابهما من أجل القيام بأعمال الكنس والتنظيف كالمعتاد، لكن إيلي أعادتها إلى بيتها. "إن الليلة هي عشيّةُ الميلاد. اذهبي الآن إلى بيتك واستمتعي بوقتك مع عائلتك"، قالت لها.

وكان راميش بين ولوجٍ وخروجٍ إلى بيتهما طيلة ذلك النهار. وفي وقتٍ ما، أوكلت إليه إيلي مهمِّة تكسير قشور حبّات الجوز. نظر الولد إلى كسّارةِ الجوز الفضيّة التي ناولته إياها. "من أجل ماذا تعطينني هذه يا إيلي؟" سألها.

"كي تستعملها من أجل تكسير قشور الجوز، أليس كذلك؟"

ضحك راميش. ثم جرى إلى الباب ووضع جوزة قرب عارضة الباب. ثم أقفل الباب نصف إقفالهٍ، متسبباً بذلك بجعل قشرة الجوز تتكسر. "هذه هي الطريقة التي نستعملها نحن من أجل تكسير الجوز"، قال لها.

"وهي طريقةٌ أكيدةٌ أيضاً كي تكسر أصابعك بها في وقت ما"، قال له فرانك "لذلك فإنني أعتقد أننا سنكسر هذه الجوزات على طريقتنا نحن يا عزيزي".

وحوالي الساعة الرابعة، استدارت إيلي نحو فرانك، "لقد اشتريتُ شجرة ميلادٍ بلاستيكيّة صغيرةٍ"، قالت له. "ما رأيك في أن تقوم بتزيينها بمساعدة راميش؟"

ودون درايةٍ منهما، وجدا أعينهما تفيضُ بالدمع. وقفا في المطبخ الذي تغمره أشعة الشمس وهما متشابكي الأيدي، إذ جالت في ذهن كلٍّ منهما ذكريات السنين الماضيّة عندما كانا يقودان سيارتهما برفقة ولدهما باني إلى المزارع الحرجيّة القائمة عند تخوم آن آربور تماماً، وذلك من أجل القيام

بقطع شجرة الميلاد الخاصة بهم. باني يرتدي سُترته الصفراء المصنوعة من الفرو، وهو ينتفخ في شعور بالأهميَّةِ لأن فرانك قد جعَلَهُ يعتقدُ بأنهُ قد قدّم مساعدة فعليّة لوالده في قطع الشجرة. وتقوم إيلي بتسخين أكواز الصنوبر حالما تعود العائلة إلى البيت بينما ينهمك الوالد وابنه بتركيز الشجرة على قاعدتها. كما يبقى الأب والأم ساهرين إلى ساعةٍ متأخرةٍ كل ليلة ميلاد في ما هما منهمكين بتوضيب هدايا باني ضمن أوراق التغليف.

"يا إلهي"، قال فرانك، وكان صوتُه أبحّ أجوَفَ. "آهٍ يا إلهي".

"لم يكن في نيتّي ابتياع أي شجرة"، قالت إيلي. "لكنني رأيتها في السوق فلم أستطع مقاومة القيام بشرائِها". تهدّج صوتها. "إنني – إنني شعرت كما لو أنّه يريدنا أن نفعل ذلك".

أومأ فرانك موافقاً. "حسناً". بذل جهداً واضحاً للسيطرة على عواطفه. "لكن عليكِ أن تساعدينا أنتِ أيضاً في تزيينها".

استغرق هذا الأمر منهم زُهاء عشرِ دقائق. ففي البداية قاموا بطرح بعض الخيوط الفضيّة البرّاقة فوق الشجرة التي تبلغ قدمين علواً. وكانت إيلي قد اشتَرت نجمةً زرقاء صغيرةً قام فرانك بتثبيتها فوق قبّة الشجرة. نظروا إلى الشجرة الحزينة الصغيرة بشيء من عدم الاكتفاء. عاد فرانك بالذاكرة إلى شجرة الميلاد المتلألئة التي اعتاد أن يراها ترتفع سبعة أقدامٍ علواً، والتي كانت عائلته تقومُ بتزيينها في غرفة المعيشة بمنزلها في آن آربور. كم وكم تراجعت أحوالنا، جال في نفسه.

أغلق راميش إحدى عينيه ناظراً إلى الشجرة التي فرغوا لتوّهم من تزيينها. "إنها تحتاج إلى الثلج"، قال. استدار نحو إيلي. "أليس لديك كرات من القطن في البيت؟ هذا هو ما نزّين به شجرتنا في المدرسة". وعليه، فإنهم قاموا بتسطيح رقاقات من القطن وشرعوا بتوزيعها فوق الأغصان البلاستيكية العجفاء. أحسَّت إيلي بشيء من الندم، والفضل في ذلك يعود لغباء براكاش، لأن راميش قد فات عليه أمر رؤية الثلج الحقيقي في آن آربور في شهر كانون الأول/ ديسمبر. "هل الثلج يضارع القطن في بياضه؟" سأل راميش.

"بل هو أشدُّ منه بياضاً".

"هل هو يشبهُ بوظة الفانيليا؟"

"أظن ذلك"، قال فرانك مبتسماً. "ما عدا أنّ الثلجَ يتخذ شكل النُّدفِ. فلو أنك وضعت نُدْفة منه على طرف لسانك لذابت في الحال. وهل تدري أنّهُ ليس هنالك من نُدْفتي ثلجٍ متشابهتين!"

فكّرَ راميش للحظةٍ "وهل هنالك في العالم كلَه اثنان متشابهان؟"

"هذا صحيح، وإنّهُ لأشبه ببصمات الأصابع".

نصب الولد رأسهُ. "هذا مستحيل".

"لكنه صحيح".

تركا راميش يشاهدُ التلفاز في غرفة المعيشة، بينما عادا هما إلى المطبخ. وبينما هو يساعد إيلي في تقطيع الطماطم، جال في ذهن فرانك أنّ الأطفال أشبه بنُدَف الثلج - ليس ثمة من نُدْفَتَيْن متشابهتين. لقد كان باني وراميش يختلفُ كلٌّ منهما عن الآخر، فهما متميّزان في شخصيّتيهما، ومع ذلك فإن كلاً منهما جميلٌ بطريقته الخاصة. شعر فجأةً بتوقٍ إلى رؤيتهما معاً في الغرفة نفسها، يضحكان ويلهوانِ معاً. استدار نحو إيلي "أتعتقدين أن كلّاً من راميش وباني كان سيحب أحدهما الآخر؟"

كانت ابتسامةُ إيلي غامضة، "لقد كان بانى يحب كلّ أحد".

"أعرف ذلك. ولكن أتعتقدين أنهما كانا سيكونان صديقين؟" بقيَ على إصراره في السؤال.

أزاحت خصلةً من شعرها بظهرِ كفِّها المغطى بالطحين. "أظن ذلك. مع أنّ راميش كان سيستأسدُ عليه قليلاً، لأنه أكبرُ منهُ، وسوى ذلك".

أومأَ موافقاً وتحوّل عنها، ذلك أنّه لم يُرْضهِ جوابُها. مع أنّهُ ليكون عادلاً معها، فإنّه تساءل عن أي جوابٍ كان يمكن أن تقدّمه إيلي أفضلَ من هذا الجواب. "لقد انتهيتُ من تقطيع الطماطم. ماذا يمكنني أن أساعدَكِ في تقطيعه أيضاً؟" قال لها.

واستجابة له، نظرت إيلي إلى ساعة المطبخ "إنها الخامسةُ إلا الربع"، قالت له. "ومن الأفضل أن تقوم بإرسال راميش إلى بيته لقضاء بضع ساعات. لقد وعدتُ آدنا بأنّه سيعودُ إليها حوالي الساعة الخامسة".

دخل إلى غرفة الجلوس للتحدثِ مع راميش. ولربما كان الأمر يعود إلى زاويةِ انسكاب أشعة الشمس إلى داخل الغرفةِ، ولعلَّ الأمر أيضاً عائدٌ إلى الضوء، كما لعلّه عائدٌ إلى تأثير تقطيع البصل على نضدِ المطبخ، الأمر الذي سبّب له حرقاناً في العينين. ولكنّهُ، ولجزء من الثانية إذ به يرى باني جالساً على الأريكة، وكانت قدماهُ تتدليّان. لقد كان باني يعبث بجهاز الريمونت كونترول. نعم كان باني هناك، وكان شعرُهُ مضاءًا من جانِبِه تحت أشعة شمس الأصيل.

رمش فرانك بعينيه، فإذا بباني يختفي ليحُلّ راميش محلّهُ. شعر فرانك أن قلبه يهرب منه. لقد غرق الكون كلُه في لحظةِ صمت. وقف لحظةً يبتلع ريقه بصعوبة، وهو غير قادرٍ على سماع ما كان يقوله له الولد، ثم فرقعت أذناهُ، كما لو أنّه قد هبط من علوِّ عشرين ألف قدم، فاستطاع أن يسمع صوت راميش وهو يهذرمُ معلّقاً على مباراة المصارعة التي كان يشاهدها على الشاشةِ "ما هو خطبُك يا فرانك؟" قال له الولدُ بعدما لمح النظرة الغريبة على وجهه.

"لا شيء. فقط - لا شيء". وقف محدّقاً إلى الصبي وهو عازفٌ عن إصدار الأمر له بالانصراف إلى والديه، خاصة وأنّه يبدو له بكلِّ وضوحٍ أن هذا المكان هو المكان الحقيقي للصبي. فمكانه هنا، فوق هذه الأريكة، وفي هذا البيت، معهُ ومع إيلي. كان يعرف أنّ راميش سوف يعود إليهما للعشاء عند الساعة الثامنة، لكن حتى غيابُهُ عنه لمدّة ثلاث ساعاتٍ عشيّة العيد بدا أنّهُ أمرٌ شديد صعوبة الاحتمال، وكان على وشك مجادلة إيلي في هذا الأمر عندما خرجت هي من المطبخ تمسحُ يديها بمئزرها.

"هاي يا عزيزي الغالي"، قالت لراميش "هلاّ ذهبتَ الآن لقضاء بضع ساعاتٍ مع أُمِّك؟ ولكن لبذل جهدك للعودة إلى هنا حوالي الساعة الثامنة".

ولدهشةِ فرانك وخيبة أملِهِ، فإن راميش لم يبدِ أي احتجاج. "كما تريدين يا إيلي"، قال لها. منزلقاً عن الأريكة. "أستأذنكما".

جلس فرانك مترامياً بثقله فوق الأريكة مغلقاً عينيهِ. لقد كان تعباً. يا الله، إنه يشعر بالتعب. وعندما فتح عينيهِ من جديد، كانت إيلي تقف أمامهُ وهي تحمل علبةً لُفّت بورق الهدايا الملوّن.

"ما هذا الذي في يدكِ؟ أنقوم بتبادل الهدايا منذ الآن؟ كنت أظن أننا سننتظرُ حتى قدوم الـ-".

"فقط هذه الهديّة"، قالت له وهي تجلس إلى جانبه. "إنَّ هذه الهدية من باني. أمّا بقية الهدايا فسنقوم بفتحها بعد العشاء".

فتح العلبةَ فتبيّنت له على الفور إحدى ربطات عُنقه القديمة. إذ إن باني في عيدي الميلاد الأخيرين من حياتِهِ، اعتاد أن يغزو خزانة ثياب والده ليلتقط منها ربطة عنق يقوم بتوضيبها كهديّةٍ، ثم يقوم بتقديمها إلى والدِهِ. وها هي إيلي تقوم بمتابعة هذا التقليد". شكراً لك"، قال لها بصوتٍ مبحوح. جلسا على الأريكة يبتسم كلٌ منهما للآخر بطريقةٍ مرتبكة. قام فرانك بتقبيل إيلي في أعلى رأسِها. "لقد كان مثلك"، قال لها. "لطيفاً وحساساً".

هزّت رأسَها. "كلاّ. إن أفضل ما فيه هو ما يشبهُ أبيه. لقد كان الجميع ينوّهون بذلك". نهضت على قدميها. "إنني أحتاج إلى إدخال الفطيرة إلى الفرن".

وصلت نانديتا وشاشي عند الساعة الثامنة، وذلك بعد دقائق قليلة من وصول راميش وقد لبس الثياب الجديدة التي كانت إيلي قد اشترتها له.

"واووو"، قالت نانديتا مخاطبةً راميش. "إنكَ تبدو وسيماً جداً، وإنّي أفكّرُ في تّرْكِ زوجي والزواج منك".

توسّعت حدقتا راميش، وتطلَّعَ في نظرة استفهامٍ نحو فرانك. جذب فرانك الصبيّ إلى مقربة منهُ. "قلْ لها أن عليها أن تدفع لكَ مهراً غالياً قبل أن تفكّر بإجابة طلبها"، قال مرشداً راميش.

رشق راميش نانديتا بابتسامةٍ بدت لها أسنانهُ. "بل إنّ لي صديقة"، قال كاشفاً لها عن سرِّه.

أَلْقت نانديتا نفسها على كرسيٍّ بطريقةٍ دراماتيكّية. "يا لنصيبي السيّئ"

وتضاحك جميعُ البالغين. جلسوا في غرفة المعيشة يرتشفون مشروباتهم، وقد لاحظ فرانك بامتنان كيف أنّ شاشي كان لا يوفِّر فرصة لإشراك راميش في الحديث، فهو يسائله عن شؤون مدرستهِ، وعن معلّميه المفضّلين لديه. رفع صدره افتخاراً بالطريقة الذكيّة التي كان الولد خلالها يجيب على الأسئلة.

وكانت إيلي قد حاولت أن تُعدَّ وجبةً نصف تقليديّةٍ والمناسبة الميلاد – وجبة مكونة من بطاطا مهروسة، وتفاح مطبوخ مع الزبيب، ولوبياء خضراء، وفطيرة التفاح كطبقٍ للتحليّة. أمّا ما أعطى الوجبة نكهة هنديّةّ، فقد كان قيام شاشي بإحضار قطعٍ من الدجاج التاندوري وبعض قطع الضأن البرياني معه من مطعم فندق شاليمار.

"يا وزرز" [(1)]، قال فرانك مندهشاً. "أعتقد أنه بات لدينا أكثر مما يكفينا من الطعام هنا!"

"ما الذي تقوله؟"قال راميش. "ياوز، ماذا؟"

داعب فرانك فروة رأسه. "لا عليك الآن يا بنيّ. هذا ليس وقتاً لتعليم اللغةِ، بل هو وقت لتناول الطعام.

عادوا جميعاً إلى غرفة المعيشة بعد العشاء. أشار راميش إلى شجرة الميلاد الضئيلة، أمام الضيفين. "لقد قمت أنا وفرانك بتزيينها"، قال مباهياً. "أما إيلي فقد ساعدتنا".

"ما رأيك يا حبيبي بشيء من الموسيقى؟" سألت إيلي. قام فرانك بتشغيل جهاز الآي بودّ وبدأ يصفَّرُ دون ترافقٍ مع النغمِ، مع أغنية "وايت كريسمس". وعندما استدار، كانت إيلي قد توارت داخل غرفة النوم. لكنها عادت بعد قليلٍ وهي تحمل كميّة كبيرةً من الهدايا بين ذراعيها. "هديةٌ بسيطةٌ لكل واحدٍ منكم"، قالت.

بهجةُ راميشٍ ذكَّرت فرانك كثيراً ببهجةِ وَلَدِه باني. "أنا أولاً، أنا أولاً"، صاح الولدُ نازعاً الغلاف الورقيّ عن الهديّةِ التي أعدّتها له إيلي. ثم قالَ، "شكراًًًًًً. إيلي"، بينما هو يرفع الزوج الجديد من أحذية سنيكرز.

"إنني سعيدة لأن الحذاء أعجبك يا عزيزي"، قالت إيلي. "لمَ لا تجرّبهُ لنري ما اذا كان قياسُهُ يناسباك فعلاً".

وبينما كان راميش يتمشى حول الغرفةِ، فإن كلاً من الكبار قام بفضَّ غلاف هديته. وقد تلقت عائلة بانتون مِشجباً حائطياً خشبياً جميلَ النقش.

"إنّهُ من خشب الصندل"، قالت نانديتا. "شمّي رائحته".

"إنّهُ جميل جداً يا نانديتا"، قالت ايلي.

كما أن إيلي كانت قد أحضرت لها هديةً مؤلفةً من كورتا [٢] من الحرير الأخضر، وسوارٍ من الفضة. أمّا لشاشي الذي يعرفه آل بانتون بأنّه معجبٍ بهاري بوتر، فقد جلبوا له قميصاً من التيشرت التي تحمل رسماً كريكاتورياً لخزّافٍ هندي يصنع إبريقاً من الفخار. وقد نُقشت تحت الصورة العبارة التالية، "هاري بوتر".

"لقد أعجبتني جداً"، قال شاشي وهو يضحك.

ومن طرفِ عينهِ، رأي فرانك أن راميش كان لايزال يتراقص في الغرفة وهو ينتعل حذاءه الجديد. "أستميحكم العذر قليلاً"، قال منصرفاً إلى غرفة النوم. اتّجه إلى الخزانةِ في غرفة الضيوف، حيث كان قد خبّأ فيها الصندوق الكرتوني الأبيض الكبير، فقام بحمله إلى الخارج. وضع الصندوق على الأرض. "آه، راميش"، قال بطريقةٍ عرضيّةٍ. "تعال وانظر. لقد جلب لك سانتا كلوز هدية أخرى إضافيةً".

تجاهل النظرة المرتبكة التي كانت تلقيها إيلي نحوه، مركّزاً انتباهه على الصبي. اندفع راميش إلى الصندوق بيدين توّاقتين، فإذا به يرمي نثار الأوراق الممزّقةِ عن الصندوق في أرجاء الغرفةِ. وعندما رفع اللاب توب من داخل الصندوق أرسلت إيلي شهقةً. ولكن راميش لم يستجب، بل إنّه نظر نحو فرانك نظرة المرتبك.

"إنّه كمبيوتر"، قال فرانك أخيراَ" إنه لك، كي يساعدك في حلّ فروضك".

أرسلَ الولد صوتاً يشبه القباع من فرط فرحته. "أهو من أجلي أنا؟" قال. "أحقاً إنه لي؟"

وبالرغم من أنّه كان يستشعر النظراتِ الغريبة التي كان يلقيها الآخرون عليه، وبالرغم من أنّه كان يحسُّ بالصمت الذي أطبق على الغرفة، فإن فرانك لم يستطع إخفاء الكبرياء والسرور من صوته عندما قال، "أجل إنه الكمبيوتر الخاص بك وحدك".

"يا لحسن حظّى"، قال راميش لاهثاً. "إنني لشديد السعادة"

رفع فرانك رأسه إلى الوراء متضاحكا ًّ"فالتقط النظرة التي كانت إيلي تتبادلها مع نانديتا. لاحظ أنّ أحداً من البالغين الثلاثة لم يكن قد فاه بعدُ بكلمة قطّ. وكان جوّ الغرفة يبدو ثقيلاً لقلة الاستساغة. شعر بشظيّةٍ حادّةٍ من الامتعاض تُمزِّقُ سعادته. قبّحَ َالله وجوههم، جال في ذهنه.

لكن نبرة صوته كانت بريئةً عندما تكلّم في النهاية إلى زوجته "إذاً، ما الذي ترينهُ يا إيلي؟ ألا تعتقدين أنّ هذا الحاسوب سيساعده في دروسه؟"

عضّت إيلي على شفتها العليا، وأطلقت نظرةً رامحةً نحو نانديتا. "يجب أن يساعده"، قالت مهمهمةً".

"لقد وجدتُ أنها صفقةً جيّدة"، قال متابعاً. "لقد كنتُ في صدد طلب كمّيةٍ من الحواسيب من أجل الشركة فخطر ببالي -حسناً، أنها صفقة جيّدة".

"ولكن أين سيقوم بوضعه؟" سألته إيلي. وهنا أطلقت ضحكةً قصيرةً مريرة "إذ يبدو أنّ هنالك مساحةً كافيةً متوفرةً في كوخهم المؤلف من غرفةٍ واحدةٍ".

"آه، سوف نفكر في هذاالأمر"، قال بابتهاج، وكأنه مصممٌ على منعها من تدمير سعادته

"وماذا عن براكاش؟"

"أجل، ماذا عنه؟"

"ألم يكن من الأجدر بنا أن نستشير والده أولاً؟"

كان راميش ينقّل نظراته بينهما، بعد أن تمكّن أخيراً من استشعار بعض التوتر. أحسّ فرانك بشهابٍ من الغضب. ما الذي يدعو إيلي إلى التصرف

َ

معه بهذه الطريقة؟ وبطريقةٍ عامدةٍ، وضع ذراعهُ حول الصبي. "إذاً ما الذي تراه أنت يا بني؟" قال: "أتعتقد أن والديك سيسمحان لك بقبول الهديّة؟"

ضحك الولد ضحكةً امتدّت بين أذنيه". نعم، بالطبع، إنهما سوف يوافقان"، قال صائحاً. "سوف أقول لهما إنّ سانتا كلوز قد أحضره إلى".

غيّرت كلمات راميش المناخ المسيطر على الغرفة. "إنّ وجود أجهزة الكمبيوتر قد صار إلزامياً تقريباً في جميع المدارس في هذه الأيام"، قالت نانديتا بصوتٍ هادئٍ بينما استدار شاشي نحو فرانك ليسأله، "ما هو نوع البرنامج الذي جاء محمّلاً به؟"

لاحظ أن إيلي هي الوحيدة التي لا تشارك في الحديث. نهض ومشى ليقف خلف كرسَّيها فدلّك كتفيها. ثم انحنى عليها بحيث إنها الوحيدة التي تستطيع أن تسمعه ثم قال لها، "إن عليه ألاّ يتعثَّر في دراسته بسبب احتياجه إلى جهاز كمبيوتر سخيف يا حبيبتي".

أفرغت أنفاسها. "أحسَب ذلك"، أسرّت إليه بدورها. "لكنني كنت قلقة حول ردّة فعل بركاش. فإن هذه هي هديّةٌ غاليّةُ الثمن".

أحسّ بأنّ مقاومتها بدأت تلين، فقام بإعطائها عصرةً سريعةً على كتفيها. "لا تقلقي كثيراً"، قال لها. ثم قال مستديراً إلى ناحية الضيوف، "ماذا يريد كلُّ منكم أن يشرب بعد العشاء؟" أيوجد لدينا بايلي [٣]؟ نانديتا، أتريدين كأساً من النبيذ الإسباني (شيري[*])؟ أم من الكحلوّة[*]؟"

"أريد أن ألعب على الكمبيوتر"، صاح راميش.

"وأنا أيضاً"، قال شاشي، رافعاً نفسه من الأريكة. "لنقم بتهيئة الجهاز، ما رأيكم؟"

بقيت إيلي ونانديتا في غرفة المعيشة تحتسيان كأسيهما، بينما اجتمع الذكور الثلاثة حول طاولة المطبخ يتفحّصون الجهاز الجديد. "إنه جميل يا راميش"، قال شاشي مطلقاً نفَسه. أتسمح لي بالاشتراك معك في اللعب به؟"

حَرَنَ راميش. نظر نحو شاشي إلى أطوَلِ وقتٍ وهو يفكّر في أمر هذا الطلب. "تستطيع أن تلعب به معي في عيد الميلاد القادم"، قال في النهاية.

انفجر شاشي ضاحكاً. "إن هذا الصبي رجُل أعمالٍ بارع"، أشار قائلاً إلى فرانك. "إنَّ عليّ أن أستخدمه كي يعمل من أجلى".

ردّ فرانك إليه الابتسامة، رغم كونِهِ قد وجد نفسه بين شعورين متناقضين -فهو يشعر بالفخر من أجل راميش، وهو يشعر في الوقت نفسه

بالإهانة لتصوّره قيام راميش بالعمل في فندق شاشي.

إن هذا الولد موقوفٌ مصيرُهُ على قضايا هي أكبر من ذلك، جالت في ذهنه أفكارٌ حالمة. إنّ مصير هذا الولد هو الذهاب إلى أميركا.

---

(١) "ياوزرز" Yowzers: عبارة عامية تدل على الدهشة والاستحسان. (المترجم).
(٢) الكورتا: قميص فضفاض هندي دون ياقة، يلبسه الرجال والنساء (المترجم).
(٣) أسماء مشروبات. (المترجم).

الكتاب الخامس

ربيع العام 2008

جيربوغ، الهند

الفصل 25

حاول فرانك أن ينهض من السرير لكنّه شعر وكأنّه مسّمرٌ إلى الفراش، بل مقيّد إليه بخيوط غير منظورة تؤلمه كلّما تزحزح. كما أنّ الخفقان في صدغيه قد بات الآن أشدّ إيلاماً من أي وقت مضى. وكلُّ ذلك إلى جانب أنّه لا يستطيع أن يتذكّر كيف يمكنه أن يحرّك لسانه وكيف يُشكّل شَكْلَ شفتيه للتلفّظ باسم باني.

"إيلي -باني، "صرخ. "باني. ساعدني".

"إنّه يهذي، "قال الدكتور غوبتا، "لكنّ ذلك شيءٌ طبيعيّ . إنّه نتيجةٌ للحمى. ولسوف يتغلّب على هذه الأعراض حالما يتلقّى كميّة أخرى من الدواء في جسده".

"إنني أريد أن أنقله في سيارة الإسعاف إلى مستشفى في مومباي"، قالت إيلي. "إنني لا أريد أن أترك شيئاً للظروف".

بدا غوبتا مندهشاً. ألقى نظرةً سريعة إلى نانديتا التي كانت تقف إلى جانب إيلي التي تبدو عليها شدّة الإرهاق. "عفواً سيّدتي"، قال لها. "إنّها مجرّد حالةٍ بسيطةٍ من حالات ذات الرئة. حالة شديدة الشيوع هنا. وبعد بضعة أيام من تناول الحبوب التي وصفتها له فإنّه سوف يعود إلى حاله الطبيعي. إننا نعالجه بعقارٍ من المضادات الحيويّة الفعّالة. تماماً مثلما سيتعامل معه المستشفى في مومباي".

فغرت إيلي فمها. ولكن قبل أن تتمكن من النُطق بأية كلّمة، تدخّلت نانديتا. "دكتور غوبتا، دعني أكلّمك لحظة على انفراد" انتحت به جانباً بينما ذهبت إيلي لتجلس بالقرب من فرانك محاولة تهدئته. "لا بأس عليك يا حبيبي" قالت "كلّ ما في الأمر أنك مررت بحلم مزعجٍ، صحيح؟ وإنك ستكون في حالةٍ طيبةٍ، وإني أعدك بذلك".

بدا شعورٌ جديد بالجديّة والخطورة على عيني غوبتا عندما رجع إلى جانب سرير المريض، وهنا شكّت إيلي بأن نانديتا قد أخبرته شيئا ما عن باني. "إليك ما أقترحه عليكم يا سيّدتي، " قال. "لنعط المضادّ الحيوي فرصة للعمل عليه لهذا اليوم. فإذا لم تتناقص حرارته مع حلول الظلام، فإنّه يمكننا عند ذلك التفكير بنقله إلى المستشفى".

وعندما رفعت إيلي نظرها إليه فإن وجهه بدا أقلّ تجهّماً. "إنني أحاول فقط أن أوفّر عليه مشقة رحلة الطريق إلى مومباي"، أضاف قائلاً. "إن سيارات الإسعاف عندنا ليست جيّدة التجهيز كما هو الحال عندكم في أميركا".

"إنني أقدّر لك اهتمامك يا دكتور"، قالت إيلي. ألقت نظرة في اتجاه نانديتا. "ما الذي تعتقدينه يا نانديتا؟ أيبدو لك الانتظار أمراً منطقياً؟"

"نعم هو كذلك". ابتسمت في اتجاه الدكتور غوبتا. "أنا وشاشي نثق ثقة عمياء بالدكتور غوبتا. إنّ له مهارات رائعة في التشخيص. وإني أثق برأيه في كلّ شيء. وعندما يصاب أيُ من نزلاء الفندق عندنا بأي مرض فإنّه هو الطبيب الذي نسارع إلى الاتصال به. وكما تعلمين، فإنّه طبيب عائلتنا الخاص أيضاً.

انحنى غوبتا قليلاً. "شكراً لك على ثقتك"، قال لها. ألقى يده على كتف إيلي. "لا تقلقي يا سيّدتي. لقد عالجتُ من حالات ذات الرئة هنا أكثر ممّا عالج منها أيُ طبيب للأمراض المعديّة في أميركا. وإنّ زوجك سوف يرجع إلى أفضل حالٍ في غضون أيامٍ قليلة".

"حسناً"، قالت إيلي. "سوف ننتظر".

شيّعت الدكتور غوبتا إلى الباب، وعندما عادت، كانت نانديتا تجلس على الأريكة في غرفة المعيشة، كانت تمسّدُ المقعد الملاصق لمقعدها. "تعالي وأريحي قدميك قليلاً،" قالت لها.

"سأعود بعد دقيقة. دعيني أولاً أُلقي نظرةً عليه".

كان فرانك قد عاد يغطُّ في نومٍ عميق من جديد، داعبت شعره لعدّة دقائقٍ، وعندما لم يستجب لها انسحبت إلى خارج الغرفة.

"إنّه نائمٌ،" قالت. فاستجابت نانديتا بإيماة منها.

"جيّد، إن ذلك سوف يساعده أكثر من أي شيء آخر".

تنهّدت إيلي. "إنّه يرهق نفسه كثيراً. فالموقف العمالي كان قاسياً عليه. حتى إنّه عمِلَ أثناء عطلة الميلاد أيضاً".

بقيت نانديتا تحدّق أمّامها مباشرةً، لكنّها لم تقلْ شيئاً.

"ماذا؟"

هزّت رأسها. "لا شيء".

"بل تكلّمي. فأنّا أعرفك عندما تحاولين أن تكوني دبلوماسيّة. ما الذي يدور في ذهنك؟".

هزّت نانديتا كتفيها. "لقد رأينا أوّل حالة من حالات السّكري بين أهل القريّة. وإنّني قلقةٌ جداً. إنّ هؤلاء الناس لم يسمعوا أبداً من قبل بهذا المرض، والفضل في ذلك عائدٌ لاستهلاكهم لأوراق شجرة الجيربال. والـلّه يعلم كيف تمكّن هؤلاء الناس من معرفة مزايا تلك الأوراق العلاجية. إنّي أظن أنّ ما يقف خلف ذلك هو ضربٌ من الحكمة الفطريّة القديمة التي تتطوّر عند الأناس الذين يعيشون ملتصقين بالطبيعة على امتداد قرونٍ من الزمن".

وفي العادة، فإنّ إيلي تستمتع بالإصغاء إلى أفكار نانديتا الفلسفيّة الغاضبة حول العبقريّة القوميّة للسكان المحليين. لكنّها كانت هنا صاحيّة مع فرانك منذ الصباح الباكر، وكانت قلقة حتى الموت على صحتّه.

"وما هي النقطة التي ترمين إليها؟" قالت.

أطلَقت نانديتا نحوها نظرةً طويلةً. "إنّ النقطة التي أرمي إليها يا إيلي هي إنّه من غير العدل تماماً أن تقوم شركة هيربال صوليو شينز بامتلاك هذه الأشجار. وهذه الحقيقة تسدُّ عليّ بُلعومي".

تنهّدت إيلي. كلُّ شيء يحيط بنانديتا بدا مضجراً هذا اليوم. فهي تعتقد نفسها محّقة ومدافعة عن الحق إلى آخر الحدود. "حسناً، أنت تعرفين أن فرانك قد وافق على السماح للسكّان المحليين بالحصول على حصة صغيرة من المحصول. وفي كل حال، لقد كانت الحكومة الهنديّة هي التي قامت بتأجير هذه الغابة إلى شركة هيربال صوليوشينز. وإنّ من واجب هذه الحكومة أن تقوم بحماية مواطنيها. لهذا فإنّك لا تستطيعين إلقاء اللّوم ـــــ".

تباغتت نانديتا. "دعي عنك كلّ هذا يا إيلي. فأنت تعرفين ما هو أفضل من هذا. إنّ الأوغاد في هذه الحكومة المحليّة هم فاسدون إلى أبعد الحدود، حتى إنّهم يبيعون أخواتهم إذا دُفع لهم سعرٌ مناسب. وما الذي يهمّهم من شأن غابةٍ من الأشجار واقعة في وسط اللامكان؟ أو ماذا يهمهم من مصير بعض القرويين الفقراء التعساء؟ فدفعاتٌ من الرشوة تُلْقى في المكان المناسب ستكون كفيلة بأيّ أمر".

"نانديتا أرجوكِ. لم يقم أحدٌ من الموظفين في هيربال صوليوشينز بعرض أيّة رشوة. وإن فرانك لن يقبل بمثل ذلك أبداً".

"لا تأخذي الأمر بصورة شخصية إلى هذا الحد يا إيلي"، قالت نانديتا بهدوء". إن هذا الحديث لا يدور حول زوجك، ولا حتى حول شركة واحدة، ولا حتى حول قرية بعينها. إنني أقصد كيف أنّ اقتصادات كاملة يعاد تكوينها ويجري تدميرها على أيدي قوى العولمة".

"ولكنّك تقومين بوضع اللوم علينا بسبب فساد قادتكم"، قالت إيلي ذلك، وهي عالمة حتى الإشفاق إنّها بشكل ما، قد انحدرت لتأخذ دور فرانك أمّام نانديتا بدلاً من أن تبقى على دورها الخاص.

"ماذا تقصدين بكلّمة 'علينا' يا عزيزتي إيلي؟" بدا صوت نانديتا حزيناً ومتعباً. "إنني لم أفكّر بكما مرة كجزء منهم. لهذا، ما الذي يدعوك إلى الإتيان بهذه التمايزات الزائفة المستندة إلى القوميّة؟" رفعت يدها قليلاً لمنع إيلي من مقاطعتها. "انتظري عليّ. دعيني أكمل كلّامي! إنّ هذه المسألة ليست مسألة عرقٍ أبيض في مقابل عرق أسمر، ولا هي أميركا في مواجهة الهند يا عزيزتي. إنّها بكلّ بساطة مسألة القوي في مقابل الضعيف. وعلى كلَّ واحدٍ منّا أن يختار الكفة التي يرمي بثقله فيها. أمّا في ما يتعلق بالفساد في الحكومة الهندية - فإنّ الحق معك تماماً. ولكن كون مؤسسة ما، مذنبة لا يشكّل عذراً للآخرين بأن يذنبوا، أليس كذلك؟ وبالتالي، يبقى بإمكانك إلقاء اللوم على الطرفين، ألا توافقين معي؟"

هزّت إيلي رأسها. كانت متعبةً وقلقة على فرانك، وحلّ شيء من الامتعاض الآن مكان العرفان بالجميل الذي كانت تكنُّه منذ الصباح لصديقتها نانديتا التي ألغت برنامج يومها بكامله، وقامت بإحضار الدكتور غوبتا – وجاءت لنجدتها بكلّ طيبة خاطر. فهي الآن صارت بكلَّ بساطةٍ، تريد من نانديتا أن تتركها في حالها بحيث إنّها تستطيع العودة إلى السرير إلى جانب فرانك ناسيةً العالم كلّه لبضع ساعات.

وكما لو أنّها قد قرأت أفكار صديقتها، فإنّ نانديتا نهضت على قدميها". وفي كل حال. ليس هذا وقت الكلام عن هذه الأشياء. ويمكنك الآن أن تذهبي للاعتناء بزوجك، وعليك أن تتصلي بي إذا شعرتِ بحاجةٍ إلى أي شيء، أتعدينني بذلك؟

والآن وبعد أن وقفت نانديتا وصارت جاهزةً للخروج، فإنّ إيلي لم تعد تريدها أن تخرج. ولكن مع ذلك، فإنّها لم تقل شيئاً، بل أومأت برأسها في صمت. مشتا نحو الباب، واستدارت إيلي لتتقبَّل العناق من نانديتا. وكما هو الحال دائماً، فإنّها شعرَت بالراحة لدفء عناق نانديتا الحار. "إنني مرتاعة"، ألفت نفسها تقول. "لا أريد أن يمسَّ فرانك أيّ مكروه"، شعرت كأن الخوف يكاد يخنقها.

"أحسُّ بكِ". باتت ذراعا نانديتا أشدّ إحاطة وضغطاً حولها. "أعرف يا عزيزتي الغالية. لكن لا عليك. إنّها مجرد حمّى، هذا كلّ ما في الأمر. أمّا أنت فلست. أمّا أنتِ فتتصرفين التصرّف الصحيح".

"إني آسفة لأنني كنت أناكِفك ــــــ"

"رويدكِ. مع من تحسبين نفسك تتكلمين؟ إني أحبكِ محبتي لشقيقتي، أتدركين؟" مشت نانديتا عبر الممر الذي يقود إلى الباب، ثم استدارت. "بالإضافة إلى أن الحب لا يعني أبداً أن تقولي إنك آسفة". زمّت ذلك الوجه الكئيب الحزين الذي يجعل إيلي دائماً تضحك لمرآه. "إنّها طريقة أميركية أخرى لإظهار الجدارة المشكوك بها".

شعرت إيلي إنّها أخفُّ حِمْلاً بقليلٍ عندما أغلقت الباب وتوجهت إلى غرفة النوم لتفقُّد فرانك.

شعر كأنه طفل يتعلم المشي من جديد. أدهشه أن يكون قد بلغ إلى هذه الدرجة من الضعف عندما غادر السرير للمرة الأولى منذ أيام. كانت إيلي إلى جانبه، تسنده. حاول أن يسخر من الضعف الشديد في أطرافه، لكن حتى ذلك اقتضى منه جهداً كبيراً. ولكن شيئاً فشيئاً، وبمساعدتها، فإنّه قد تمكَّن أخيراً من الوصول إلى المطبخ والجلوس إلى الطاولة. وكانت آدنا قد أتت بزبديَّة من الشوربا الساخنة من أجله، لكنها بقيت في جيئة وذهاب وتوتّر من حوله، بحيث جعلته يشعر بالنرفزة. لقد استدامت بالتحويم خلفه وهي تحثّه مع كلّ ملعقة يبتلعها من الحساء - محافظة على لغطٍ مستمرٍ فارغ، حتى تطلّع في نهاية الأمر نحو إيلي في نظرة مسترحِمة". "آدنا". قالت إيلي على الفور. "دعيه يأكل في هدوء لدقائق قليلة. لقد أمر الطبيب بأن لا نحيطه بالكثير من الضجيج".

رفرفت آدنا بيديها قبل أن تلقيهما إلى جانبيها. "نعم، نعم، مدام، بالطبع"، قالت وهي تهرع راجعة إلى الموقد. "لدينا دجاج محمّر شهي للعشاء". ألقى بملعقته بعد احتساء ملاعق قليلة أخرى. "لقد شبعتُ"، أعلن، الأمر الذي أقلق إيلي. "لا بأس"، قالت. "ربما يمكنك معاودة المحاولة من جديد بعد نصف ساعة".

جلس إلى الطاولة فيما عيناه مغلقتين.

" أأقول لك ماذا، يا حبيبي"، قالت إيلي. "أتريد الجلوس على الشرفة لبضع دقائق قبل العودة إلى سريرك؟"

وبالرغم من الضعف الذي كان يشعر به في جسده، إلا أن روحه كانت مرفرفة وقوية. شعر بالحريَّة، حرية لا تقف فقط عند حدود الانعتاق من ذلك الإيمان الفظيع الذي يقول إن موت ولده باني إنما هو عقاب له بسبب بعض المعاصي الفائتة، بل إنّها تتعدى ذلك إلى التحرر من إيمانه بعالم يقوم على الأخلاق. إن كفَّة ميزان العالم لا تميل نحو الأخلاقية، بل نحو اللامبالاة. وهو لم يرَ هذه الطريقة الجديدة في التفكير على أساس إنها أزمة إيمان. بل بالأحرى فإنّه وجد مأوى جديداً لإيمانه.

جلس على الأرجوحة يوماً بعد يوم بينما جسده يصبح أكثر اشتداداً، وهو ينظر إلى انعكاس الشمس على الماء. كانت الحمى قد غادرت جسده منذ زمن بعيد، لكن ذهنه كان يبدو محموماً.

"إن عيناً من البيض المقليّ تشبه شمساً في السماء"، جاهر مرة بالقول أمامها. "هل خطر لكِ مرة أن تفكري في ذلك؟"

وفي استجابة منها لملاحظته، فإنها تقدمت منه وتحسست حرارة جبينه.

"لست محموماً"، قال لها.

كانت إيلي تنظر إليه باستغراب. "إنك في حاجة إلى أخذ قسط من النوم"، قالت له." فإنك ما زلت تبدو منهكاً ضعيفاً".

وكما تشاء الأمور أن تتكشّف، فإنها كانت محقَّة في كلامها. إذ استغرق الأمر منه عشرة أيام إضافية حتى استعاد عافيته التي كان عليها في السابق.

ولقد عاد إلى مزاولة عمله في اليوم الثاني عشر. وللمرة الأولى منذ وفاة موكيش والإضراب الذي تلاها، فإنه لم يخشَ الدخول إلى داخل عتبة المصنع.

الفصل 26

مضى شهران الآن، وهو ما زال يخسر ولده لمصلحة آلة حاسوب. لقد صار الأمر سيئاً لدرجة أنه بات دائماً وأبداً يخوض معركة صامتة مع الأميركي على قضاء وقتٍ مع ولده، أو على اجتذاب انتباهه. لكن الأدهى من كل ذلك الآن، هو أن الأميركي قد نصب له فخاً بحيث إنه حتى عندما يكون راميش حاضراً بجسده معه ومع آدنا، فإن المكنة تكون مستحوذة على الصبي فاتنة إياه عن أبيه، ومغرية إياه بصورها الملوّنة، أو بشاشتها الفارغة التي كان راميش يملؤها بكلمات لا يقوى براكاش على حلِّ طلاسمها.

ولقد عاد الصبي مع الكمبيوتر ليلة الميلاد يتذكَّرها براكاش جيداً. لقد أمضى هو وآدنا ذلك المساء في مراقبة التلفاز - وكلاهما يتلفَّت في اشتياق كلَّما هزَّت الريح باب كوخهما المفتوح ظناً منهما أن راميش قد عاد إلى البيت. ومن وقتٍ لآخر كانت الريح تحمل جلجلة الأصوات المرحة الآتية من البيت الكبير عبر الممر المعشب، المر الذي يجعلهما يشعران أنهما أكثر تعاسة وعزلة في غرفتهما الوحيدة. بل يشعران أنهما مخلوقان آتيان من عالمٍ وضيعٍ آخر لمخلوقات تحت - دنيوية، عالم يشبه عالم الفئران والصراصير التي تعيش في الظلام، بينما الضحك والضوء ينسكبان من البيت الكبير الذي يقيم فيه الأميركيان احتفالهم، إنه الاحتفال الذي يحضره ولدهما بصفته أحد الضيوف المدعوين.

وعند الساعة التاسعة، سأل آدنا عمّا إذا كانت ترغب في الذهاب معه إلى السينما، لكنها هزت رأسها رافضة. كانت أفكارها غارقة في عشيات الميلاد التي كانت تشهدها في بلدتها غوا أيام صباها. ولقد أدرك هو ذلك، وإدراكه هذا أضاف إلى الغرفة الوحيدة الضيّقة ضيقاً جديداً. "دعينا نقوم بإحضار راميش ثم نذهب نحن وإياه إلى السينما"، اقترح عليها مرة جديدة.

" أأحمق أنت؟" خاطبته في نفور." أليس لديك كياسة ومعرفة بالأصول؟ ألا تدري إنّه مدعوٌّ إلى احتفال؟"

وما هو ذا الذي يدريه عن الكياسة والأصول والاحتفالات؟ فهو لم يسبق له أن دُعي مرة واحدة إلى حفلة في حياته. أما احتفالات الديوالي، والمواكب الدينية التي كان يحضرها فقد كانت كلها من قبيل الشؤون المحلية الجماعية. وعندما كان لا يزال طفلاً فقد كان يدخل بيوت الناس من غير دعوةٍ، كما تدخل إليها قصاصات الورق المهملة التي تنسفها الرياح. وفي معظم المرات لم يكن أحدٌ ليهتمّ لذلك الأمر، فإذا اهتمّ الناس لطروئه عليهم فعلاً، جعلوه يدرك ذلك، وقاموا بمطاردته بالكلّام وبالأيدي المرفوعة. أمّا طفولة آدنا، فهو يعرف إنّها مختلفة، حيث كان لها عائلة واحتفالات، ورقص ومبادلات اجتماعية. وكم هي وطيئة درجة الحضيض التي انحدرت آدنا إليها يوم أن قبلت الزواج منه، وكم قد تسبّب لها بجعل حياتها تصبح في عزلة دائمة. فبزواجه من آدنا إنما تسبَّب في جعلها يتيمة هي الأخرى.

كان لا يزال يفكّر في كل ذلك عندما ذهبت آدنا إلى السرير عند الساعة الحادية عشرة. لكنه كان لا يزال مسهداً، وهو يشعر كأنه محجور في داخل كوخه الحقير. اشتاقت نفسه الخروج للجلوس في الردهة الخارجية، لعله يشمُّ بعض أنسام كانون الأول/ديسمبر الباردة التي تعابث وجهه، لكنه خشي تنفيذ هذه الفكرة خوفاً من الالتقاء بالأميركيين أو بأحد ضيوفهما، كما كان يخشى أن يُظنّ به ظنّ السوء بأنه يقوم بالتجسس، أو الأسوأ من ذلك، النظر إلى البيت الكبير نظرة الحسد. لذلك، فإنّه جلس على سريره في الظلمة، وأمعن في إتعاس نفسه باحتساب الطرق التي تسبَّب بها في جعل حياة آدنا تعيسة أيضاً.

وهكذا، فإنه كان قد بات في مزاج معتكرٍ تماماً عندما رجع راميش إلى البيت وقام بإشعال المصباح عند الساعة الحادية عشرة والنصف. "أطفئ الضوء"، صرخ في الصبي. " إن والدتك نائمة". لكن آدنا كانت قد انقلبت إلى جانبها ونهضت من الفراش.

لاحظت آدنا الحذاء الجديد على الفور. "دعني أري"، رامو، قالت له.

لكن راميش هزَّ رأسه في غير اصطبار. "انظري إلى هذا يا أمي، إنه حاسوبي الجديد، لقد أعطاني إياه فرانك".

شعر براكاش بشعلة من الغيرة تلتهب في جوفه. ولكن قبل أن يتمكن من التفاعل، صاحت آدنا. "ماذا؟ جهاز كومبيوتر؟ لك أنت؟"

أومأً راميش برأسه في اعتزاز. "جديد تماماً، من أجلي، من أجل المدرسة".

ومن الطريقة التي صار إليها كل من الأم وابنها في تلك الليلة فإن المرء ليعتقد أن راميش قد أعطي سيارة جديدة. هذا ما خُيِّل إلى براكاش. ولو كان ولده قد أعطي سيارة، فإنّه لربما كان سيعرف ماذا يعمل بها، إذاً لكان عرف

كيف يصلحها، ويقودها ويطليها بالدهان، ويغسلها. لكن هذا الحاسوب بدا له أشبه بمخلوق غريب يجلس في بيته متعجرفاً، دهِناً، غامضاً. آلهٍ من شأنها السيطرة على ولده، أما ضوؤها فيبقى مشعاً حتى آخر الليل بينما ينحني راميش برأسه أمامها.

رمق براكاش الآن بعينه ذلك الشيء البغيض. كان بمفرده في البيت - فالصبي في المدرسة؛ وآدنا قد ذهبت للتسوق مع السيدة إيلي. فكر في الأسباب الماضية التي طالما أراد فيها أن يرافقه ابنه إلى نزهة سيراً على الأقدام إلى الشاطئ، أو إلى دار السينما. إلَا أن راميش كان دائماً يرمقه بنظرة آسفة. "لا أستطيع ذلك يا بابا"، يقول الصبي. "لدي الكثير الكثير من الواجبات التي عليّ إتمامها". ثم ينصرف للعمل على الكومبيوتر.

حسناً، لينصرف الولد إلى القراءة في كتبه بدلاً من الكمبيوتر. ألم يذكر بريثفيج أكبر المعمرين في القرية، في وقت سابق أمامه. وهو رجل يستطيع تلاوة قسم من كتاب المهابهاراتا غيباً، إن أجهزة الكومبيوتر هي أدوات إبليسية تقوم بإفساد شباب القرية مالئة رؤوسهم بأفكار خطيرة؟ ثم ألم يتبيّن أن بريتفيج قد كان على حق؟ أليس براكاش يري صور أميركا علي التلفاز في كل يوم - نسوة نصف عارياتٍ في الشوارع، وكهنة يفعلون أفعالاً رديئة مع الأطفال، وجنود يغلفون رؤوس العراقيين العراة بأكياس سوداء ويرغمونهم على القيام بأشياء منافية للطبيعة. ولو كانت الأمور تعود له، لكان قد كفّ يد الأميركي عن المذاكرة مع ولده. فالـلّه وحده أعلم بما يحشو هذا الرجل رأس راميش خلال جريهما كل صباح، أو عندما يقوم بمساعدته على مذاكرة دروسه.

وإذا كان لا يستطيع فِعل شيء بخصوص المذاكرة - لأن آدنا قد تهجره قبل أن تسمح له بكسر هذه الرابطة، هذا إلى جانب كونه أجيراً عند الأميركيين، وهو قد رأى كيف أن فرانك ينظر إلى راميش بعينين محرومتين واسعتين. ليس هنالك من جدوى من رفع الصخرة التي تتكوّر تحتها الأفعى. لا نفع من استمطار غضب فرانك فوق رأسه.

أما المكنة فهي قصة أخري. فالحاسوب قد جاء إلى بيته ضيفاً. والضيف يمكن أن تُطلب منه المغادرة يوماً. ذهب إلى الزاوية التي يخبّئ فيها صندوق المعدّات، فاستخرج منها مفكاً للبراغي، وكمّاشة لقطع الأسلاك. قام بفصل التيار عن اللّاب توب، ثم أداره نحوه، وفكّ غطاءه الخارجي ببراعة من الجانب الخلفي - حدّق في الحقل الدقيق من الرقائق اللامعة والأسلاك البارزة أمّامه، بحيث إنّه للحظة، صار إعجابه يفوق غضبه - ونبتت في رأسه فكرة الندم على

ما شرع به للحظة، لكنه طرد من رأسه تلك الفكرة على الفور. بدأ عمله بطريقة منهجية نازعاً كل شريط يقع بصره عليه. توقف بعد مضيَّ دقائق قليلة وهو يشعر بالاكتفاء بما صنعت يداه. وببطء وعناية، أعاد البراغي إلى أمكنتها مثبتاً بذلك الغطاء الفضي في مكانه. ما من أحد يمكن له أن يخمّن هذا الذي قام به. أعاد وصْلَ الكومبيوتر بمصدر التيار، ولاحظ بسعادة أنه لم يعد هنالك إشارة ضوء عند زر الطاقة.

مشى نحو منطقة المطبخ، سحب قارورة من الشراب المسكر الرخيص، وجرع منها جرعة طويلة بطيئة - ثم خرج من منزله الصغير. وآنس رشاقة في خطواته كان ما زال يفتقدها منذ بضعة أشهر.

الفصل 27

وضع آرثر ديمليو، اختصاصي تكنولوجيا المعلوماتية في شركة هيربال صوليوشينز، اللاب توب فوق مكتب فرانك، فيما بدا تعبير غريب على وجهه. "لا بدّ أن شخصاً ما، قد قام بتقطيع الأسلاك يا سيدي" قال بصوت يشي بالذهول الذي أحسّ به. "هذا تخريب متعمّد".

ألقي فرانك نظرة سريعة إلى الكمبيوتر فرأى حقيقة ما كان يشير إليه آرثر. لكن عقله لم يستطع فهم ما تراه عيناه. فالمكنة لا تزال جديدة بالكامل تقريباً. وما الذي يدعو شخصاً ما-؟ ومن تراه يكون —؟

وحتى قبل أن تكتمل الفكرة عنده، فإنه عرف الجواب. إنه براكاش. لا بد أن يكون هو. لقد قام هذا التافه بتخريب الكومبيوتر. ليس من شخص سواه يمكنه أن يكون بمثل هذا الحقد الغبي، وهذا الطيش. ولكن ما الذي يدعو هذا الغبي إلى فِعل ذلك؟ أهو حقاً لا يبالي بولده؟

ولم يكن قد شعر بالاهتمام كثيراً عندما قدم إليه راميش ليلة أمس شاكياً أن حاسوبه معطّل. "أتستطيع إصلاحه يا فرانك؟" كان الولد قد سأله.

"لست خبيراً في إصلاح هذه الأشياء يا بني،" أجابه. "لكنني سآخذه معي غداً إلى العمل. وإني متأكد من أن آرثر يستطيع أن يعرف ما به". وكان طيلة هذا الوقت يعتقد أن الأمر لا يتعدى وجود خلل ثانوي في برنامج التشغيل، لكن ذهنه لم يذهب إلى احتمال وجود تخريب.

وكان آرثر يرمقه بنظرة المستعجب. "هل أنت على ما يرام يا سيدي؟" سأله، فأيقن فرانك أن بعض الغضب الذي يغلي في داخله لا بد من أن يكون قد بدا على وجهه. "أجل.. إنني بخير،" أجاب مرغِماً تعبير وجهه على العودة إلى الغموض الطبيعي.

"من الذي يمكن أن يكون قد فعل هذه الفعلة يا سيدي؟" تبرع آرثر بالكلام، "وما هو الذي يدعوه إلى فِعل ذلك؟"

وحتى في الوقت الذي كان فيه تفكيره المنطقي يدعوه إلى عدم البوح أمام أحد مرؤوسيه، فإن فرانك سمع نفسه يقول، "إنه وغدٌ بكل معني الكلمة. إنه هو، ذلك الغبي الغيور المتقلقل الذي يخشى حتى من نجاح ولده. سوف أقتله عندما أعود إلى البيت هذه الليلة".

تراجع آرثر خطوة إلى الوراء. "لا، لا، لا تقلْ ذلك يا سيدي"، قال الشاب بلهجة مهدِّئة. "الأمر لا يتعدّى أنك غاضب الآن يا سيدي، وأنا أفهم ذلك. كيف العمل يا سيدي؟ هنالك الكثير من الأناس الأغبياء في هذه البلاد".

آه... لا تدعني أُفلت لساني بخصوص هذه البلاد، جال في ذهن فرانك. نظر إلى الرجل الواقف إلى جانبه. لقد أحب آرثر - فهو أحد موظفي الشركة الأذكياء، وهو أفضل الأشخاص الذين قام فرانك بتوظيفهم. كذلك فإنّه كان من بومباي، ولديه مستوي عالٍ من الثقافة بالفعل، وهو مستوى لا يملكه المحليون الآتون من البلدة الصغيرة، وهم الذين يشكّلون معظم عديد موظفي الطبقة الإدارية الوسطي في شركة هيربال صوليوشينز. ومع ذلك فإنّه قد رأى بعينه كيف أن آرثر قد انذهل عندما قام هو بالطعن في براكاش. فالحكمة تقضي بالتحفُّظ. وكيف له أن يتوقع قيام شخص غريب تماماً بتفهّم المدي الذي بلغت إليه خِسَّة براكاش وغدره؟

بذل جهداً واضحاً كي يتمكن من السيطرة على عواطفه. "حسناً، أيمكن إصلاحه؟" سأل مشيراً إلى الجهاز.

قطّب آرثر وجهه. "أستطيع أن أجرب يا سيدي"، بدأ كلّامه. ثم هزّ رأسه. "لكن لأكون صادقاً معك، إن هنالك قدراً كبيراً من التلف. لذلك فإنّني لست متأكداً إذاً ـــــ"

"انسَ الأمر كلّه"، قال فرانك قاطعاً عليه حديثه. "دعنا نقوم بتحويله إلى خردة".

"يمكننا استبقاء القرص الصلب وبعض القطع الأخرى يا سيدي". قال آرثر. "فبعد كل شيء، إن هذا الجهاز جديد كلَّ الجِدّة".

ألم يكن هو يعرف ذلك؟ تذكّر الفرح الذي كان يطفح به وجه راميش ليلة عيد الميلاد فشعر بالغضب يجتاحه من جديد. أرغم نفسه على التركيز على آرثر. "لك ما شئت"، قال. "شكراً لمجيئك".

"لا داعي للشكر، يا سيدي"، قال آرثر. التقط جهاز الكومبيوتر المعطّل وغادر مكتب فرانك.

قضي بقية بعد ظهر ذلك النهار يحوك الخطط حول ما ينوي عمله مع براكاش. ولكن عندما قدِم الوقت الذي يقوم فيه ساتيش بقيادة السيارِة به

إلى البيت، كان قد وصل إلى قرار: لقد آن الأوان لتلقين براكاش درساً حول من هو المرؤوس ومن هو المرؤوس. وما يريده من الرجل هو تقديم اعتراف، إلى جانب تقديم وعدٍ بعدم العودة إلى مثل ذلك أبداً. وإذا كان ذلك يعني تهديد براكاش بتقديم شكوى إلى البوليس، فإنه لن يتأخر عن التلويح بذلك.

كان براكاش في الباحة الخارجية يعمل على قلع الأعشاب غير المرغوب بها من بين البلاطات الحجرية عندما قدم فرانك إلى البيت. اجتاحته موجة من النفور حالما وقعت أنظاره على شكل براكاش المنحني أرضا. لكنه مع كل ذلك، تجاهل الرجل، ودخل إلى بيته.

"مرحى لك حبيبي"، استقبلته إيلي فقام بتقبيلها قبلة سريعة قبل أن يتابع إلى غرفة النوم لإبدال ملابسه. خرج لابساً قميصاً من التي شيرت، وسروالاً قصيراً. نظرت إيلي إليه "أكان نهارك طيباً؟" سألته.

"كان نهاراً عظيماً"، قال لها كاذباً. إذ إنّه لم يُرد لغضبه أن يتشتت أثناء قيامه بإعادة سرد الحكاية لها. "إنني ذاهب إلى السيارة لدقيقة واحدة". قال لها وهو خارج من الباب.

كان راميش في الفناء الخارجي يساعد والده في استئصال الأعشاب جمد فرانك في مكانه لرؤية الولد، ولم يعد واثقاً من ضرورة المتابعة لمجابهة براكاش في حضور ولده. لكن بعد ذلك فوراً ما كان من براكاش سوى أن رفع أنظاره إليه وابتسم ابتسامة متكلّفة. نظر فرانك إلى العينين المحترستين، وإلى الابتسامة الضئيلة، ثم لم يجد نفسه إلاّ وهو يكاد يكون مطبقاً على الرجل الذي لا يزال منكبّاً على الحجارة ينزع الأعشاب من بينها.

"انهض"، قال له. "انهض".

نهض براكاش بتباطؤ. "نعم؟" قال.

استطاع فرانك سماع نبرة الهزء في صوت الرجل. "ما الذي دعاك إلى فعل ما فعلتَ؟" سأله بصوت خفيض. "لماذا فعلت ذلك؟"

اتسعت عينا براكاش. "فعلتُ ماذا يا ابن آدم؟"

كان فرانك يكاد ألّا يتنبّه بعدُ إلى أن راميش قد نهض أيضاً، وصار يحدّق إليه. لكنه كان قد تعدّي مرحلة الاهتمام بذلك. وهو الآن يريد الحصول على اعترافٍ من براكاش، حتى وإن اضطره الأمر إلى انتزاعه منه انتزاعاً. لقد بدأ براكاش هذا التحرّش، لكنه هو، فرانك سوف يضع حداً لذلك "إنك تعرف عمّا أسألك. لقد قمتَ بتخريب الكومبيوتر. لقد قمتَ بقطع أسلاكه. ما الذي دعاك إلى هذه الفِعلة؟"

فتح براكاش فمه، لكن فرانك كان أوّل مَن تكلّم. "لا تكذب عليَّ يا كيس القذارة. لا تحاول الكذب. لأنك إنّ كذبت، فإنّ الشيء الثاني الذي عليك أن تعرفه هو أنك ستجد نفسك تتحدث مع البوليس، بدلاً من التحدث إلي". توقف عن الكلّام محاولاً تذكُّر شيء ما. "بل الأفضل من كلّ ذلك هو أن أحيلك إلى غولاب سينخ".

لقد قادته الغريزة إلى اختيار السلاح الصحيح لمحاربة براكاش. وعند ذِكر اسم غولاب، بدأ براكاش بالعويل. "آسف، سامحني أيها الصاحب فرانك،" قال وهو يضمُّ كفيه معاً في إشارة توسُّل واسترحام. "لقد كان الخطأ خطئي، لقد أسرفت كثيراً في الشراب، أرجوك أن تسامحني".

عويل براكاش جرَّ آدنا إلى خارج منزلها. "ماذا؟" قالت. "أيها الصاحب فرانك، ما الذي حصل؟"

"لقد قام أبي بتخريب الكومبيوتر"، صاح راميش لأمه. "لقد قام بقطع أسلاك الكومبيوتر عن قصد يا أمي". صار الولد على وشك الشروع في البكاء، وكانت عيناه تشتعلان بالغضب. وبدلاً من الشعور بالأسف على راميش، أو الشعور بالرغبة في حمايته، فإن فرانك شعر باكتفاء أوليّ. ليعرف الولد حقيقة دخيلة والده، جال في نفسه. لقد آن الأوان له كي يعلم معدن أبيه.

"يا لعارِكَ" قالت آدنا موبَّخة زوجها. "يا آكلّ الديدان، يا كلّب. إنني. "أكره اليوم الذي وقعت فيه عيناي عليك".

وكما لو أنه أراد استنقاذ آخر ما تبقّي من كبريائه، فإنّ براكاش استدار نحو آدنا متذمراً. "اصمتي أيتها العاهرة"، صاح رافعاً يده في اتجاه آدنا. "ادخلي إلى البيت".

تحرك فرانك. سقطت قبضته اليمنى على عظمة صدر براكاش في اللحظة نفسها التي قدِمت فيها إيلي إلى الفناء الخارجي لتري ما هو سبب كل هذه الجلبة. ترنح براكاش إلى الوراء لخمس خطوات ثم وقع بكل ثقله على مقعدته. بقي جالساً على الأرض وهو يبكي وينتحب ويقوم بفرك صدره بيديه. لقد كانت صدمة الضربة أقوى مما أرادها فرانك أن تكون. عرف ذلك من شدَّة الألم الذي شعر به في براجم أصابعه.

"فرانك"، صاحت إيلي وهي تسرع إلى المكان الذي يقف فيه شاخصاً فوق هامة براكاش. وللحظة كاملة كانت هي الشخص الوحيد الذي يتحرك من مكانه. بينما وقف الأربعة الباقون في جمود تام، وقد تسجَّلت درجات متباينة من الصدمة على وجوههم.

"آه... تبّاً"، قال فرانك وهو يحدّق نحو إيلي، ثم نحو راميش. "إنني لم أقصد أن — لقد تراءى لي إنّه سيقوم بإيذائها"، أضاف مشيراً إلى آدنا.

كان راميش يحدَّق إليه، وكان ثمة تعبير يرتسم على وجهه لم يستطع فرانك فهمه. ثم ورغم إبقاء عينيه على فرانك، فإن راميش ذهب إلى والده وجلس بالقرب منه ملامساً ذراعه. "تشالو، دادي،" قال له. "انهض هيّا لندخل إلى داخل البيت".

شعر فرانك أن فكّية يحترقان. تمني لو أن إيلي لم تكن حاضرة لتشهد عاره. بل لتشهد الحقيقة الجليّة بأن راميش قد انحاز ضده مع والده. لاحظ الطريقة الحمائية التي احتضن بها الابن أباه، والطريقة المعتنية التي كان يساعد بها والده للنهوض على قدميه.

وقبل أن يجرجر براكاش نفسه من الحلبة، ألقي نظرة نحو فرانك. نظرة احتقار جرَّدت فرانك من جميع أنفاسه. كانت نظرة تقول إن براكاش يعرف ذاك الذي رآه فرانك - تقول أنه منتصر عليه حتى في هزيمته. لأن راميش ينتمي إليه. لأن رابطة الدم أقوي من أن تفصل عراها بالسهولة التي يمكن أن تُقطع بها أسلاك الكومبيوتر.

أمّا آدنا القلقة دائماً من أجل استرضاء مستخدِميها، فإنها لا بدّ قد لاحظت الذي حصل منذ قليل. "شكراً لك لقيامك بإنقاذي يا سيدي". قالت. "لا أحد يدري ماذا كان يمكن أن يعمله هذا السِّكّير لي". ولأنها لم تحظ بأيَّ ردّة فعل من فرانك، فإنها استدارت نحو إيلي. "لقد قام بإنقاذي يا سيدتي،" قالت "ذلك الجرذ كان على وشك -"

"أعرف ذلك يا آدنا، أعرف ذلك،" قالت إيلي باقتضاب، وقد عرَف فرانك إنّها لم تقتنع.

استدارت إيلي نحو فرانك. "هذا القذر من الدراما يكفي ليوم واحد، ألا تظنَّ ذلك؟ لندخل إلى بيتنا".

تبعها. وكما توقع، استدارت نحوه حالما أغلق الباب وراءهما. "أتقوم بضربه؟ هل فقدتَ عقلك؟ ألا تجد أحداً ممَّن هم بحجم جثتك لـ ــ"

"قبحاً لكِ،" قال بصوت خفيض. "أنتِ لم تكوني هنالك. ولم تعرفي ما الذي قد فعَلَه. إنّه قطعة من الرغام. وكان عليَّ أن أعرف أنك ستقفين في صف هذا الحقير بدلاً من الوقوف إلى جانبي". لكن ما كان يفكر فيه حقيقة هو أن راميش ذهب لمساعدة والده، وليس لمساعدته هو، حتى بعدما تبيّن له ما كان قد عمله أبوه.

"فرانك،" بدأت إيلي كلّامها معه، لكنه قاطعها عن إكمال ما تريد قوله.

"كلا. ليس هذا اليوم. وفّري دور العامل الاجتماعي لأحدٍ سواي. إنك حتى لا تفهمين هؤلاء الناس ولا تحبينهم - إنك تشعرين بمجرد الشفقة تجاههم ليس إلّا". استدار وغادر الغرفة. جلس على الشرفة لدقائق قليلة، وراقب الأمواج المرغية المزبدة في الأفق البعيد. لكنه كان شديد الاهتياج بحيث إنه لم يستطع الجلوس بهدوء. نهض واجتاز المرجة الخارجية، وانحدر على الدرجات المؤدية إلى الشاطئ. أعاد ربط شريط حذائه الذي بات رخواً، وبدأ بالجري في محاذاة خط المياه. وكانت شمس المساء تغطس خلف الأفق الممتد إلى يساره.

لكنه مهما أسرع، مجهداً نفسه في الركض، فإنه لم يستطع الهروب من صورة راميش وهو جالس إلى جانب والده المنطرح إلى الأرض، وهو يقوم بتمسيد ذراعه. غبي، غبي، قال مقرّعاً نفسه. تقوم بضرب هذا النذل في مشهد من الطفل. غير تارك للولد المسكين أيَّ خيار. كوَّر فرانك قبضته اليمنى وبدأ يصدم بها راحة كفه اليسرى تكراراً. معاقباً نفسه بسبب عنفه، وبسبب فقدانه للسيطرة على نفسه. نظر إليه بعض الصيادين الذين يقومون بتجفيف شباكهم نظرة استهجان بينما هو يجري بالقرب منهم وهو يهذي ويلكُم راحة كفّه. لكنه كاد لا ينتبه إلى وجود هم أبداً.

كانت الشمس قد غطست خلف الأفق عند عودته إلى البيت. وكان قد اجتاز مسافة ربع الميل في جريه، في الظلمة. فإذا بإيلي قد تركت أنوار الشرفة مضاءة من أجله. كانت تقرأ في غرفة المعيشة، فإذا بها ترفع نظرها عن كتابها عند دخوله. أراد أن يسألها عما إذا كان راميش قد جاء يسأل عنه. لكنه لم يكن يملك قلباً جريئاً لمعرفة الحقيقة. هذا إلى جانب أنه متأكد جداً من الجواب. لقد كان الولد مع والده على الأرجح، مع والده الذي يمكنه امتصاص الشفقة والتعاطف كما تمتص قطعة من خبز التوست، الحليب الساخن الذي تُلقي وسطه.

نزع عنه قميصه التي شيرت الناقعة، واتجه إلى الحمام قافلاً الباب وراءه بشدة.

الفصل 28

لقد غاب راميش، تبخر، اختفي مع والده.

بعد يومين من المشاجرة بين فرانك وبراكاش، غادر الأخير المنزل من أجل الذهاب لإحضار راميش من مدرسته كالمعتاد. وكان قد غمغم ببعض الكلام إلى آدنا حول إمكانية اصطحاب ولده في نزهة، وحول إنهما سيعودان إلى البيت متأخرين. وبما أن آدنا تشعر بالسعادة كلما وجدت زوجها يقوم بالاعتناء بولدها، فإنها سُرَّت لذلك كل السرور، ولكن عند الساعة الثامنة من تلك الليلة ترنح إلى باب آدنا أحد سكّيري القرية ليسلمها رُقعة كان قد أملاها براكاش على راميش، وهي تقول:

> عزيزتي آدنا، سأصطحب ولدي إلى خارج القرية لبعض الوقت. فالولد يحتاج لمعرفة أصله. وأنا أيضاً بحاجه لفهم ولدي. أرجو منك القيام بكل أعمال الطهو في البيت الرئيسي أثناء غيابي. لا تقلقي. سنعود في زمن قريب
> زوجك براكاش

قرأت آدنا الرسالة ثم ذهبت بها إلى فرانك وإيلي لحل ألغازها.

إن الذي لفت انتباه فرانك هو استعمال براكاش في الرسالة لكلمة "ولدي" مرتين. نظر إلى إيلي ليرى إذا كانت قد لاحظت العداوة التي تتخلّل جميع سطور الرسالة. لكن تعبير وجهها دلّه إلى إنّها لم تقرأ بين سطور الرسالة ما كان قد قرأه هو - ما قرأه من أن هذا هو انتقام براكاش من إقدام فرانك على إهانته في مشهدٍ من أفراد عائلته.

"إلى أين يمكن أن يكون قد أخذ الولد؟" سأل آدنا.

"هذا هو السؤال الوحيد الذي لا أزال أطرحه على نفسي يا سيدي. وإني أفكِّر وأفكّر لكنني لا أهتدي إلى جواب. لكن الحقيبة الزرقاء مفقودة. واللّه وحده يعلم متي قام براكاش بتسريبها إلى خارج البيت".

كزّ فرانك أسنانه. "هل هو يملك أية فكرة عما ستكلف هذه المغامرة من تأخُّر لراميش في مدرسته؟" بدت آدنا على وشك الشروع في البكاء. رمقته إيلي بنظرة تحذير. "إنني على يقين من أن براكاش على دراية من هذا الأمر يا حبيبي"، قالت بعذوبة. "وإني واثقة من أنهما سيعودان بعد يوم أو يومين".

أمّا هو، فقلّما سمع شيئاً من كلامها. إذ كان منساقاً مع فكرة أخرى: ماذا لو كانت الرسالة ليست سوي خدعة يشتري براكاش بواسطتها بعض الوقت؟ ماذا لو قام هذا السكير الوغد بالهرب مع راميش إلى الأبد؟ ففي بلاد يقطنها بليون ساكن، كيف سيمكنه بعد ذلك العثور على راميش؟

وفجأة، أشرق على باله الأمر، فأيقن أن هذه هي بالضبط الخطة التي يهدف براكاش إليها. شعر أن جسمه بات عليلاً، وإنّه غير قادر على النهوض، وأنه قد عاوده الهزال الذي كان يشعر به أثناء إصابته بمرض ذات الرئة. "فرانك ماذا أصابك؟" سمع إيلي تقول، فأيقن أن المرأتين قد لاحظتا ما حلَّ به.

"لقد ضاع"، سبقه لسانه رغماً عنه، وفاضت عيناه. "لقد أخذ الولد وقام بالفرار به إلى الأبد".

لم يسمع بكاء آدنا، ولا رأي كيف طارت يدها لتغطي فمها الفاغر. وهو لم يرَ النظرة اللامصدّقة ترتسم على وجه إيلي. "توقفا! توقفا"، قالت إيلي. " علينا ألا ننجرف كثيراً في أفكارنا لمجرد أن براكاش قرر اصطحاب ابنه في رحلة..".

شعر كما لو إنّه ينظر إلى إيلي من شاهق مرتفع، شعر كما لو أنه يراها للمرة الأولي. وما كان يراه فيها دائماً فيعتقده لطفاً وشغفاً، إذا به الآن يراه ليس سوي سخافة حقاً. سذاجة خطيرة.

"هل سبق له مرة وأن أخذ الولد معه في رحلة؟" سأل آدنا غير آبهٍ لإخفاء الهزء في صوته.

"لا يا سيدي. لم يحصل ذلك الأمر قطّ. إن براكاش لم يسبق له أن غادر جيربوغ سوى مرة أو مرتين".

"وكيف كان سلوكه منذ اليوم - منذ اليوم، أنت تعلمين، الذي تبادلنا فيه الملاسنة؟"

"منذ ذلك اليوم وهو يتصرف بطريقة شديدة الغرابة، يا سيدي. فمرة يكون هادئاً ورصيناً، ومرة أخرى إذا به يتطلّع نحوي بابتسام. كما لو أنه يعرف شيئاً لا أعرفه أنا".

استدار فرانك نحو إيلي ناظراً إليها نظرة المنتصِر. "أنت. أسمعتِ؟"

"حسناً، وماذا يمكن أن يعني هذا بحق الجحيم؟ فإن براكاش يتصرف دائماً بشكل غريب".

وجد نفسه فجأة يشعر بالسأم من المرأتين معاً، ومن غبائهما الخطِر. ومن عدم استطاعتهما النظر إلى الحقيقة الصلبة للأمور بعينين صافيتين. ومن إخفاقهما في إدراك الأذى المتعمّد حتى عندما يكون على قاب قوسين منهما. وإيلي هي أخصائية نفسانية، وقد تدرّبت على النظر إلى داخل عقول الناس. ولكن ها هي الآن تنطلي عليها خديعة طاهٍ غير متعلّم.

قرأ الرسالة قراءة جديدة. فأيقن فجأة أنها لا بد من أن تكون موجهة إليه هو. براكاش يعلم جيداً أن آدنا لا بد من أن تقوم بإحضارها إليه. إن الرسالة مصمّمة للإيقاع به، للإيقاع بفرانك، في الوقت الذي يختفي فيه براكاش مع الولد. شعر بحاجة ماسّة للعثور على راميش، حاجة للتأكيد له من جديد، حاجة لإنقاذه من كلِّ ما يعدُّه له براكاش.

"حسناً، لم يعد باستطاعتنا عملُ أيِّ شيء في هذه الليلة،" قال لهما متكاذباً. "وفي كل حال، فإن عليَّ إجراء بضع مكالمات هاتفية".

بدت آدنا غير مقتنعة. "سيدي، لا بد له من أن يعود. إنه يحب ذلك الولد. وراميش سيرغب في العودة، أليس كذلك؟"

نظر إليها نظرة ذاهلة. "نعم إنني متأكد،" قال في غموض، استدار الهاتفية المتعلقة بالعمل"، قال في اتجاه إيلي. "ولا أريد أن يقاطعني أحدٌ عن ذلك، أوكي؟"

بدت إيلي متشككة. فتحت فمها لتقول شيئاً، لكنها ما لبثت أنا هزت كتفي. "كما تشاء".

أقفل الباب خلفه، وجلس عند حافة الأريكة الصالحة للنوم ممسكاً رأسه بين يديه. فكرة ألا يكون راميش موجوداً إلى الجانب الآخر من فناء الدار هذه الليلة، والصورة التي يتخيلها للولد وهو ينام هذه الليلة في فراش غريب - أو الأسوأ من ذلك في حقل مفتوح، أو تحت شجرة - كلُّ ذلك ملأ خاطره غمّاً ويأساً. الحقير الملعون. الحقير الجبان. براكاش لم يستطع مواجهته مباشرة، وها هو الآن يستعمل هذا الصبي كي ينال منه. ولكن ماذا لو استطاع الهرب بالولد إلى مدينة كبيرة مثل بومباي، أو كالكتّا، ثم اختفى معه؟ إنّهم لن يسمعوا أيّ خبر من براكاش بعد ذلك. سيختفي الولد هناك كما تختفي حصاة يلقى بها في المحيط.

قفز عن الأريكة. يكفيه ما قد أهدره حتى الآن من ساعات ثمينة. وإذا كان له أن يجد راميش، فإن عليه ضرب الحديد الآن وهو حامٍ. وبراكاش صار الآن متقدماً عليه بالعديد من الساعات. بدأ يذرع أرض الغرفة للحظة، محاولاً استجلاء أفكاره، وجاهداً لإبقاء شعوره بالأذيّة تحت اللجام. كان هنالك رجل واحد فقط يستطيع تقديم المساعدة إليه. رجل واحد يكره براكاش إلى درجة تضارع كراهيته هو له. رجل واحد فقط يمتلك الثقة بالنفس، والمال الكافي، ليعرف ماذا عليه أن يفعل. جلس إلى جانب المكتب المعتَّق وقام بترقيم رقم هاتف غولاب.

"مُرْني،" جاء جواب غولاب.

"إنني فرانك بانتون،" قال. " هنالك — هنالك موقف أحتاج إلى مساعدتك لي بخصوصه".

"ماذا يا سيدي؟" استطاع فرانك أن يسمع الجهوزية الحيوانية في صوت غولاب.

"الأمر يتعلق بالأحمق براكاش،" قال له. "لقد أخذ الصبيَّ واختفي به. وإني أريدك أن تساعدني في العثور عليهما".

"اختفى؟ إلى أين يا سيدي؟"

صرّ فرانك على أسنانه. "لست أدري. لكنه اكتفي بإبقاء ورقة خلفه تقول إنه أخذ ابنه في رحلة لأيام قليلة".

"إذاً علينا الانتظار. لا بد لهما من أن يعودا بعد يومين أو ثلاثة. فهذا المعتوه لا يملك من المال على الأرجح ما يكفيه إلى أكثر من ذلك".

ما الذي يدعو غولاب ليكون بليداً مثل البقية؟" استمع،" قال فرانك.

"إن الرسالة مجرد خديعة. لقد قام الرجل بخطف ابنه، الم تتنّبه لذلك؟ وإننا لن نراهما مرة ثانية ما لم نتحرك سريعاً".

سادت برهة من الصمت قبل أن يعود غولاب إلى الكلام ثانية، وهنا تغيّر شيء ما، في نبرة صوته. " لقد فهمت. حسناً، في الحالة، فرانك يا سيدي، على الاتصال بقائد البوليس وهم سيحاولون معرفة إلى أين قام هذا الخاطف الغبي بتهريب ابنه".

"حسناً. لكن أنبّهك يا غولاب إلى ضرورة عدم حصول أيّ عنف. إنني— إنني أحتاج إلى معرفة مكان وجود الولد، هذا كلّ ما في الأمر".

"مفهوم. سأتصل بك في الصباح يا سيدي".

"لكن إذا توفّرت أي أنباء خلال هذه الليلة، فإنني أريدك أن تقوم بالاتصال بي. ولا تقلق بسبب تأخر الوقت في الليل". هنا اتخذ فرانك في ذهنه قراراً بالمبيت في غرفة نوم الضيوف هذه الليلة.

"حسناً يا سيدي".

لكن النوم قد جفاه هذه الليلة تماماً. استلقى فرانك على السرير محاولاً أن يطرد عنه الهواجس التي وردت على ذهنه ورود الطيور الجوارح - راميش ينام في مكانٍ دنسٍ، في مكان غير آمن، براكاش يستسلم للسكر ويقوم بضرب الولد، راميش خائف وحزين في مدينة كبيرة غريبة. بل لربما يكون من الأفضل أن يقوم براكاش بأخذ الصبي إلى بومباي، خيَّل إلى فرانك. فهنالك على الأقلّ سيكون راميش عارفاً بعض الأشياء في المدينة. لكنه عندما يفكِّر في أيّ فندق تسكنه البراغيث سيكون براكاش قادراً على النزول فيه، فإنّه يجد نفسه عند حافة البكاء من شدَّة غيظه. تساءل عمّا إذا كان راميش قد لبس حذاءه السنيكرز على الأقل، ثار على فكرة أن يكون الولد يجوب الشوارع في تلك المدينة القذرة وهو لا ينتعل سوي مشّايته البلاستيكية

نهض من سريره متأخراً في صباح اليوم التالي، بعد أن كان قد اتخذ قراراً قبل أن يخلد أخيراً إلى النوم، بأن يتخذ اليوم التالي كيوم إجازة من العمل. وللحظة مباركة وحيدة، شعر أن ذهنه كان خالياً، لكنه ما لبث أن تذكر، فعاد الغمّ يركبه ويطبق على دماغه. غادر السرير متجاهلاً الضغط في مثانته، وقام بترقيم رقم هاتف غولاب.

"ليس هنالك من أنباء حتى الآن يا سيدي". كان يستطيع سماع لهجة الاعتذار في صوت غولاب. "لكن عليك ألاّ تقلق. إذ إن البوليس سيباشر حملة تحريات واسعة هذا اليوم".

"حسناً،" قال. "لكن تذكّر، لا أريد أيّ استعمال للعنف. فقط أوجِدوا لي الصبي. وهنالك شيء آخر. إنني أتابع العمل من بيتي في هذا اليوم. لهذا، عليك الاتصال بي على رقم هاتفي الخلوي إذا كان هنالك من نبأ".

"حسناً، يا سيدي".

أفرغ مثانته ثم فتح باب غرفة النوم ومشي إلى غرفة المعيشة. استطاع أن يسمع صوت حركة إيلي في المطبخ. "مرحى"، نادته. "لم أدرِ ما إذا كان على أن أقوم بإيقاظك. ما هو سبب عدم ذهابك إلى العمل؟"

"لأنني أريد أن ألعب الهوكي،" قال متمتماً.

دخلت إيلي إلى غرفة المعيشة ومعها باقولٌ كبير من القهوة. وعندما وقع نظرها عليه، اتّسعت حدقتاها، وهبط فكها الأسفل ذعراً، حتى إن شيئاً من

القهوة كان قد اندلق على الأرض. لكنها لم تكد تتنبه للأمر.

"ما الخطب الذي تجدينه؟" قال لها تلقائياً من خلف كتفيه.

حركت فمها لكنها لم تستطع إخراج أيِّ كلمة.

"إيلي، ما المسألة؟"

"يا إلهي. ما الذي جري لك يا فرانك؟"

نظر نظرة مستطلِعة. "ما الذي تتحدثين عنه؟"

"إنه شعركَ. يا إلهي". وضعتْ باقول للقهوة جانباً واقتربت منه. أخذت بيده واقتادته إلى مواجهة المرآة في غرفة النوم.

أطلق صرخة عندما وجد صورة جده تطالعه في المرآة. لكن لا، فإن تلك لم تكن صورة جده بالضبط. فإنّ ما رآه في المرآة هي صورة وجهه وجسده وهو في الرابعة والثلاثين من عمره. لكن ها هو شعره الأشقر قد استحال بين ليلة وضحاها إلى اللون الأبيض. بدا الأمر كما لو أن المرآة لم تكن لوحة زجاجية مسطّحة صقيلة عاكسة فحسب، بل إنها كانت أيضاً كرة كريستالية. شعر كأنه بطلٌ من أبطال حكاية سحريّة، شبح من الأشباح، شعر أنه ما لم يثبّت قدميه بالأرض، فإنّه قد يطفو في فضاء الغرفة ويتبخر.

مرَّر فرانك أصابعه خلال فروة رأسه واستدار نحو إيلي بعينين غير مصدَّقتين.

"ماذا؟ كيف يمكن لهذا الأمر أن يحدث؟"

"يحدث هذا عندما يكون الناس واقعين تحت ضغط الإرهاق الشديد. لقد مرّت عليّ مثل هذه الحالات في ممارستي مع مرضاي". كانت عينا إيلي مغرورقتين." فرانك! ما الذي يحدث لك؟ ما هو الأمر الذي يضنيك إلى هذ القدر ولا تقوم بإشراكي فيه؟"

هزّ رأسه غير عالمٍ بما يمكنه أن يقول لها. انتابه شعور غريب بأنه يحسُّ بزحف الشيخوخة في جسده، كما لو أن كل خلية من خلاياه بدأت فجأة تصبح شديدة التثاقل والخمول، وتتحول إلى اللون الرمادي تماماً مثل شعره".

سمح لزوجته بأن تقتاده إلى الأريكة، حيث جلست بقربه ممسكة بيده. "يا حبيبي، في بعض الاحيان، يمكن للشعر أن يستعيد لونه. عليك الإفلات من هذا الإرهاق - تكلّمْ معي. قلْ لي ما الذي يحدث لك. دعني أساعدك من خلال الإصغاء إليك".

نظر إلى وجهها. وجه شديد التوق، شديد البراءة، شديد الجمال، شديد الشباب. تُري ما الذي يستطيع قوله إلى هذ الوجه؟ لقد رأي هذا الوجه حقيقة هذا العالم البشعة، لكنه رغم ذلك لم يصبح وجهاً بشعاً. لقد عرف وجهها الألم الحارق ذاته، الخسارة ذاتها، الحزن ذاته، الذي كان قد خبره هو. لكنها لم تغدُ قليلة الثقة، ولا خائفة. لقد استطاعت إيلي أن ترتقي بطريقة ما، فوق المصيبة التي حلّت بهما، وها هي قد استعادت مكانتها في هذا العالم. بينما قام هو بتسليمٍ مفاتيح خلاصه إلى يد ولدٍ في التاسعة من عمره. ولد قد غدا الآن مفقوداً.

هزّ رأسه. "لست أدري إنني — إنني لا بد من أن أكون قلقاً على راميش".

"لا تكن قلقاً يا حبيبي. إنه مع والده. وبصرف النظر عمّن يكون براكاش، فإنه لا بد من أن يحب ولده. كل ما في الأمر إنهما قد ذهبا في اجازة يا حبيبي. مثلما اعتدنا نحن أن نأخذ باني في اجازة".

لم يأبه حتى لمحاولة إزالة الغضب عن وجهه. كيف تجرؤ إيلي على تدنيس ذكرى رحلاتهما مع ولدهما باني عن طريق مقارنتها مع هروب براكاش مع ابنه، والقيام بخطفه؟

"ما الأمر؟ ما الذي قلته لكَ؟"

"هل سبق لي أن انفردتُ بأخذ باني في عطلة لوحدي؟" كان صوته يرتجف من شدة الغضب." من دون أن أستأذنك؟ هل حدث لي أن قمت بإعلامك بمثل هذا الأمر بعد حصوله، وبمجرد استعمال رسالة؟"

تنهدت إيلي. "فرانك، إنني لا أقوم بأكثر من محاولة المساعدة".

"إذن اتركيني في حالي. أن هذه ليست مساعدة".

تجاهل النظرة المتألّمة التي ارتسمت على وجهها بينما هو ينهض ويمشي إلى خارج المنزل. قرع باب آدنا" هل وصلكِ أيّ نبأ عنهما؟" سألها حالما فتحت له الباب.

"لا شيء يا سيدي". قالت. "لكن ربما —"

أوماً برأسه، استدار، وقفل عائداً إلى بيته.

صرف الأيام الأربعة التالية في البيت. اتخذ في أيامه تلك نهجاً يقوم على مجانبة إيلي، والتكلم مع غولاب عدة مرات يومياً، وتعذيب آدنا بسؤالها عن أي طرف خيط يمكن أن يتوفر لديها عن مكان اختفاء براكاش، وبعد ذلك الإيواء إلى سريره للنوم في نوبات متقطّعة. وبقي وجه راميش يطارده. تخيّل الولد في جميع أنواع الأوضاع الرهيبة، نظرة متوسلة على وجهه، يمشي وهو ينادي

على اسم فرانك من أجل المساعدة. وكان من شأنه الاستفاقة في منتصف الليل، بقلب شديد الخفقان، وجسد مبلول بالعرق.

رنّ هاتفه الخلوي. وكان غولاب على الخط. "نعم؟" قال في لهفة.

"لقد أتاني منذ قليل اتصال من البوليس، يا سيدي. يبدو أن براكاش كان قد اشترى تذكرة قطار إلى أديرباد. وكان قاطع التذاكر الذي أصدر التذكرة في إجازة. لكنه عاد اليوم فقط إلى عمله".

"وما الذي يوجد بحق الجحيم، في أديرباد؟"

"هي بلدة صغيرة، يا سيدي. وليس هنالك من أشياء كثيرة تميزها".

"وما الذي يقوده إلى هناك بحق الجحيم؟"

"اللّه أعلم بذلك، يا سيدي".

"حسناً، قل لقائد البوليس كي يرسل اثنين من رجاله إلى هناك".

حدث صمتٌ قصير، "إن البلدة واقعة خارج نطاق صلاحيتهم، يا سيدي".

انطلق صوت فرانك بكلام حشَوِيّ غاضب. "إنهم يقومون بتحريات حول عملية خطف. ولا يجوز أن يكون هنالكَ من شيء خارج عن صلاحيتهم".

ثم هبط الصمت مرة جديدة. "إنهم يقولون إن قيام الأب باصطحاب ابنه لا يعتبر عملية خطف، يا سيدي".

أيكون غولاب يهزأ به؟ مطَّ فرانك شفته السفلى بيده بوحشية. "أصغ إليّ يا غولاب. قل لرئيس البوليس أن يرسل اثنين من رجاله. وسأقوم بتحمّل جميع النفقات — بالإضافة إلى البخشيش". وفوراً".

"هكذا، يمكن للأمور أن تسير، سيدي سأعيد الاتصال به الآن، وفوراً".

إذاً ما الذي يجعل غولاب يداوره بحق الجحيم ولا يخبره مباشرة بأن عليه أن يدفع إلى هؤلاء الأوغاد؟ تساءل فرانك، وهو يقفل الهاتف. ما الذي يدعوه إلى أن يكون مدارياً معه إلى هذا الحد؟ كما لو أنه لا يعرف أن هذا البلد العفن هو بكامله ليس سوي بالوعة فساد.

رن جرس الهاتف الأرضي، لكنه تجاهله. إذ يمكن لإيلي أن تقوم بالرّد عليه. وقد تكون المكالمة من أجلها هي في كل حال. ذهب إلى حيث كانت آدنا تكنس الباحة الخارجية.

"ماذا يوجد في أديرباد؟" سألها.

حدّقت المرأة نحوه بوجه خالٍ من التعبير. "سيدي؟"

"بلدة أديرباد. من يعرف براكاش هناك؟"

"إنني لم أسمع حتى باسم هذه البلدة من قبل يا سيدي. لمَ تسألني عن ذلك؟"

"لأن زوجك اِشترى تذكرة قطار إلى هناك".

"قد يكون أحد رفاقه في حانة الشراب من هناك"، قررت. لكنه كان قد أدبر عنها باحتقار. امرأة جاهلة غبية، جال في ذهنه. إنها لا تعرف شيئاً عن زوجها.

أومأت إليه إيلي حالما عاد إلى المنزل. "سعيدة بأن أسمع صوتك يا بيتر"، كانت تقول في سماعة الهاتف. "هلاّ أبلغت سلامنا إلى جانيت وإلى أطفالكما؟ حسناً هذا هو فرانك قد أتي".

إن آخر شيء كان يريد أن يفعله في الدنيا هو الكلام مع بيتر. لكن لم يعد هنالك أمامه من خيار. "سألتقط المكالمة من غرفة الضيوف". قال. توجه إلى هناك، وانتظر قيام إيلي بإغلاق طرف الخط من جهته قبل أن يقول. "مرحباً، بيتر".

"ماذا بحق الـلّه يا فرانك". كان صوت بيتر قريباً وساخناً في أذنه. "ماذا يدور عندكم بحق الجحيم؟" إنني ما زلت أحاول الاتصال بك منذ بضعة أيام، وكان ديباك لا يزال يستمهلني ويماطلني. ما الذي تقوم بعمله في البيت يا رجل؟ إن لدينا طلبية كبيرة، وأنتم هناك تتأخرون علينا دائماً".

العنة. إن الإرسالية كان يجب أن تغادر جيربوغ منذ يومين. لقد أوكل إلى ديباك تولذي أمرها، طالباً منه تسيير الأمور لفترة من الزمن. لكن يبدو أن مساعده قد أسقط القنبلة. لمَ لم يقم بالاتصال به وإعلامه؟ لكنه ما لبث أن تذكَّر: لقد كان طلب من ديباك إنه لا يرغب في أن يقاطعه أحد لبضعة أيام.

"إنني -إنني لم أعرف أن الإرسالية لم تغادر"، بدأ بالقول.

"تقول إنك لم تعرف؟ ماذا بحق الجحيم، يا فرانك؟ إن هؤلاء الموزعين جميعاً يخنقون أنفاسي هنا، وأنت تقول لي بأنك لا تدري؟"

"كنت قد أوكلتُ أمر موقع الشركة إلى ديباك".

"لماذا؟ ما هو خطبك؟ لقد قال ديباك إنك لم تأت إلى الشركة منذ أربعة أيام. ما هو السبب الذي يدعوك إلى البقاء في البيت في كل حال؟"

قرر أن يكون صادقاً وصريحاً مع بيتر. "إن ظرفاً طارئاً هنا. راميش - هل تتذكره؟ كان من المقرر لنا أن نصطحبه معنا إلى الولايات المتحدة في عطلة اِلميلاد؟ حسناً، يبدو أن والده قد هرب بصحبته لقدِ اختِفيا إنني - إنني أحاولِ أن

أساعد البوليس في إيجادهما. وهذا احتاج مني أن أكون في البيت من أجل إدارة الأمور".

سادت فترة صمت مؤلمة. "آلو؟" قال فرانك.

"أنا لا أصدّق ذلك،" دمدم بيتر متذمراً. "تبقى ملازماً البيت من أجل ولدٍ قد ذهب مع والده بالذات؟ وفي الوقت نفسه تصبح طلبيّاتي—"

"لا تتعامل معي باستعلاء، بيتر". تكلّم بلهجة صارمة أكثر مما استطاع أن يدرك.

"أتعامل معك باستعلاء؟ أيها الرجل، بل إنني جاهز لإخماد أنفاسك. إنك تتسبب بخسارتي لآلاف الدولارات في كل يوم بسبب—"

"إن هذا الطفل عزيز عليّ يا بيتر".

"أعطني فرصة، فرانك. لقد أتيت إلى العمل بعد أسبوع من وفاة باني. وها أنت الآن —"

شعر فرانك أن شيئاً ما، يفلت عن سيطرته. تذكّر الحديث العابر الذي مرّره بيتر عن حضوره للمباراة التي يشترك فيها ابنه مع فريق 'يتيل ليغ' منذ بضعة أشهر. "لا تذكر اسم ابني على لسانك"، سمع نفسه يقول. "لا أريدك أن تلفظ باسم باني".

سمع صوت بيتر وهو يستجرُّ نفساً طويلاً. "ماذا أصابك بحق الجحيم؟ لقد أحببتُ باني مثل محبتي لابني. وها أنت الآن لا تسمح لي بالتلفظ باسمه؟"

"أتدري ماذا يا بيتر؟" قال. وكان صوته خفيضاً، لكنه مُستعرٌ بالغضب. "إنك لا تعلم ذرة عن أيّ شيء. لقد كنا أصدقاء منذ عدة سنوات، وإنك لا تستطيع إيجاد عذر لي بسبب انقطاعي عن العمل لأيام قليلة؟ إنك أكثر قلقاً على أموالك في المصرف مما أنت قلق بخصوص ولدٍ قد تكون حياته في خطر. إنك لا تأبه سوي لحياتك السعيدة الآمنة خلف سياج من الأناس البيض يا رجل".

"إنني أشعر بإهانة كبيرة من جرّاء هذا الكلّام". صار صوت بيتر قاسياً وغاضباً. "ليس لك أيُّ حق في إلقاء الملامة عليّ بسبب استحواذ طفل مسكينٍ من الهند على عقلك. إنني رجل أعمال يا فرانك. وهكذا كنتَ أنتَ إلى أن وصلْت إلى هذه النهاية العقيمة. إذا كنتَ تفضّل لعِب دور المفتش السري على عملك -حسناً لا تلمني إذن من أجل ذلك".

كان مستميتاً لإنهاء هذه المكالمة بحيث إنه يستطيع أن يُفرد الخريطة، ويرى أين هو موقع أديرباد. ولكن ها هو هذا الأحمق الحقير الذي كان يحسبه صديقاً لا يكفّ عن تأخيره عن ذلك. وهو ما يزال يطنب ويرطن ويحاضر عن

أخلاقيات العمل ومسؤولياته. شعر فرانك بألم حادٍّ يكاد ينطلق من بين فكيه، وإنه يحاول جاهداً الإمساك به. "أصغ"، قال في النهاية. "إنني —إنني سأهتم بالأمر، أوكي؟ سأحاول التأكّد من أن الطلبيات ستخرج من المصنع مع نهاية هذا الأسبوع. سليم؟"

"هذا ليس سليماً بما يكفي، يا فرانك".

"سوف أبذل أفضل جهدي". كان هاتفه الخلوي يرن عبر الغرفة، فاشتعلت عينا فرانك. لا بد من أن يكون هذا غولاب، ولا بد من أن تكون عنده بعض الأخبار الطيبة. "أصغ، إن لديّ مكالمة أخري. وعليّ أن أنهي المكالمة. سوف نتكلم في وقت قريب".

"كلا، انتظر. أريد أن —" كان بيتر يقول، عندما أقفل فرانك الخط معه. جري عبر الغرفة لكن لخيبة أمله، فإنه وجد أن المتكلم هو ديباك. قاتله الـله، جال في باله. سوف أكالمه بعد ساعات قليلة.

الفصل 29

وقف الرجل والصبي بصمت أمام البيت المتواضع المجصّص - حدّق براكاش نحو الجدران الخارجية الزهرية اللون، والباب الخارجي الأزرق، ونبتة الياسمين المتعرّشة إلى اليمين. وبجانبه وقف راميش يرفع قدماً ويُنزل أخرى.

لقد وصلا إلى بلدة غوا هذا الصباح. منذ ليلتين ناما على مقعد خشبي في محطة القطار في أديرباد. وعند ذلك حرن راميش قائلاً إنه يريد العودة إلى جيربوغ، لكن براكاش أخبره أن هنالك شيئاً يريده أن يراه في أديرباد في صباح اليوم التالي. وبعد ذلك، فإنهما سيأخذان قطاراً آخر إلى غوا.

وعندما استيقظا في اليوم التالي، سرد براكاش الحكاية لراميش كيف أنه كان قد ركب الدراجة النارية من جيربوغ إلى غوا منذ بضع سنوات، وكيف إنّه توقف في معبد على الطريق. "إنني لم أكن سمعت أبداً عن أديرباد"، قال. "لقد توقفتُ للغداء فقط. ولكن عندما رأيت المعبد، فإنني شعرتُ برغبة في الدخول إليه لسبب أجهله يا راميش. إنه مكان شديد السكينة والسلام. كان هنالك تمثال كبير لكريشنا، يبتسم. وهكذا، فإنني طلبت منه قائلاً: أرجوك ارزقني بزوجة جميلة. وبعد ذلك بثلاثة أيام التقيت أمك".

"إذاً، ما الذي يدعونا إلى الذهاب إلى المكان ثانية؟" سأله راميش متجهماً. ومع أن والده كان يحمل الحقيبة الصغيرة، فإن الولد كان ضجراً متبرّماً. كان ظهره يؤلمه بسبب النوم على المقعد وبسبب أن المشي من محطة القطار إلى المعبد كان طويلاً.

بدا براكاش خائب الأمل. " ألا تدري لماذا يا راميش؟ إنها زيارة لتقديم الشكر. إنني أريد أن أشكر الله لأنه قد رزقني بعائلتي".

بدت نظرة دهاء على وجه راميش. "أأستطيع أن أطلب من كريشنا أن يعطيني ما أريد؟"

"بالطبع يا بني. ولكن ماذا تريد أن تطلب منه؟"

"أريد أن يفوز فريقي في مباراة كرة القدم".

ضحك براكاش. "أهذا هو كلّ شيء؟ إن كريشنا يحقق لك هذه الأمنية بكل تأكيد". عانق ظهر الولد. "أما أنا فسوف أصلي لتحقيق أمنية هي أكبر من ذلك بكثير من أجل ولدي".

أصر راميش على ركوب دراجة رِكشة آلية عند عودتهما إلى محطة القطار بعد الانتهاء من زيارة المعبد. "بابا، ظهري يؤلمني"، قال له.

تلمّس براكاش حزمة أوراق البنكنوت التي يحملها في جيبه. وتساءل عما إذا كانت آدنا قد لاحظت إنه قد أخذ معه معظم الأموال التي كانا يدخرانها بداخل علبة تنك محفوظة في المطبخ. "حسناً"، قال "سوف نستقل عربة رِكشة".

وعندما عادا إلى المحطة، ابتاع تذكرتين على متن رحلة القطار الذاهب إلى غوا. وعندما ركبا القطار، بات راميش يتكلم دون انقطاع، لقد سرّه أن يزور المكان الذي حدثته أمه عنه كثيراً. لكنه فجأة بدا مفتكراً. "بابا"، قال وهو يلتهم الطعام الذي اشتراه براكاش عندما توقف القطار للاستراحة السابقة، "لمَ لم تأتِ الماما معنا؟"

حوَّل براكاش نظره نحو شباك القطار. "لأنها مفاجأة"، قال أخيراً. استدار ليواجه ولده. "أتدري من الذي يعيش في غوا؟"

هزّ راميش رأسه سلباً.

"إنهما جدُّك وجدُّتك. والدا أمك يا بني. ونحن ذاهبان لزيارتهما".

أطرق راميش. "لكن أمي تقول إنهما لا يريدان رؤيتنا".

"بل سيرياننا. حالما تقع أنظارهما عليك". اقترب براكاش من راميش ومرَّر أصابعه بلطف فوق وجهه. "حالما يشاهدان هذا الوجه البريء".

وها هما الآن يقفان عند أسفل الدرج ينظران نحو الأعلى إلى البيت الذي يعيش فيه والدا آدنا. شعر براكاش بارتعاش عصبي في قاعدة حلقومه. أحبَّ لو تيسّر له شيء من الشراب لتهدئة أعصابه، لكنه كان قد أقسم ألاّ يقارب الخمرة طيلة رحلته هذه مع راميش. وكان حتى اللحظة قد برّ بقسمه.

تناول براكاش يد راميش، وتسلقا السلّم المؤلف من درجتين ثم طرقا الباب. لم يلقيا أيّة استجابة. أعادا قرع الباب من جديد بطريقة أكثر شِدة بقليل. وفي هذه المرة سمعا صوت جرّ القدمين، ثم انفتح، وحدّقت نحوهما منه سيدة عجوز تلبس فستاناً أصفر. "نعم؟"

تنحنح براكاش. "هلِ أنتِ آغنيس دي سيلفا؟"

"نعم، ومن تكونان أنتما؟"

"أنا براكاش". وحتى بالنسبة إلى أذنيه، فإن لغته الإنكليزية بدت سقيمة. وفي محاولة منه لاستعادة زمام أمره قال: "وهذا هو حفيدك راميش".

لم يحدث أيُّ شيء. نظرت السيدة العجوز إلى راميش قليلاً بعينين نصف مغمضتين، لكن وجهها لم يكن معبِّراً. وامتدت اللحظة كأنها الأبد. "انتظِرا". قالت آغنيس في النهاية، واختفت.

وقف الأب والابن تحت شمس الأصيل، غير متجرئين على النظر أحدهما إلى الآخر. وللمرة الأولي خطر في بال براكاش أن الموقف الذي كان يتخيله -المصالحة الدامعة، الجد والجدة النادمين، العودة المظفّرة إلى جيربوغ -ربما لن يحدث. لكنه ما لبث أن سمع وقع قدمين آخرين فعاد إليه التفاؤل من جديد.

وقف الرجل العجوز في الباب. كان طويلاً وعريض المنكبين، ومربّع الفكين. وكان له أيضاً عينان باردتان، أكثر عينين كانت قد وقعت عليهما أنظار براكاش بروداً. وهاتان العينان كانتا تنظران إليه الآن ثم تتحولان عنه كما لو إنهما غير مسرورتين لمنظره. "إذاً، أنت هو القروي الذي تزوجَته"، قال الرجل. وومضت العينان تجاه راميش. "وهذا هو النغل الهجين".

أطلق براكاش صرخة احتجاج. " بل هذا هو حفيدك". قال، كما لو أن العجوز لم يفهم الموقف. "لقد جئنا من أجل —"

"لا بد أنكما مخطئان". قال الرجل العجوز منتقياً كلماته. "ليس لي حفيد. لأنه ليس لي ابنة". ثم تراجع، وأقفل الباب دونهما.

وقفا وقفة المصدومين، يحدّقان في الباب الأزرق المقفل. أراد براكاش أن يدق عليه بقبضته بعنف، أن يقوم بتحطيمه، أن يقتحمه ويقوم باعتصار العنق الأشيب المنقَّط لذلك الرجل، حتى يسترجع الكلمات التي انطلقت منه. لكن الشكوك خالجته حتى جعلته مقتنعا بأنه لا بد من أن يخسر كل صراع مع والد آدنا. فهو لا يملك وسائل الصراع التي يقاوم بها هذه الدناءة المتعمّدة. هذا إلى جانب أن راميش كان قد سمع ما هو كافٍ من الكلمات المؤذية. وهو في حاجة إلى الحماية من شرِّ أيِّ قسوة إضافية. "تعال يا راميش". قال لابنه ممسكاً إياه بيده. "دعنا نذهب. إن هذا العجوز مجنون".

تناولا غداءهما في كوخ إلى جانب الشاطئ - جمبري مع الكايري للولد، ودجاج فيندالو للأب. لكن الطعام بدا مرَّ المذاق في فم براكاش. ومن أجل محو مرارة مذاقه، فإنه طلب كأسا من مشروب الفيني، وهو مشروب مصنوع في غوا من الكاشو. ثم ما لبث أن أتبعَ الكأس الأولي بكأسٍ أخرى.

"دادا،" قال راميش رامقاً والده بنظرة قلق. "لا تشرب كثيراَ، أليس كذلك؟"

نظر إلى ولده كما لو إنه يراه للمرة الأولي. شعر كما لو أنه قد فهم ابنه تماماً - الحاضر المسلوب، والمستقبل الضيق الأفق. شعر بشفقة لا يمكن احتمالها وهو يرقب ذلك الوجه البريء التواق وهو يلتهم الأرزّ بالكايري في نهم. ومن أجل طمس هذا الشعور بالشفقة، فإنه تجرّع كأساً ثالثة.

ترنّح إلى خارج الكوخ، وكان راميش يتبعه سائراً في إثره. "أتريد أن تعود إلى الفندق؟ "سأل الصبي، وكان منشرحاً عندما هزّ الصبي رأسه بالنفي. ففكرة العودة إلى الغرفة البالية ذات الطلاء المقشّر، ولطخات البول على جدران الحمّام كانت فكرة تبعث على الغم الشديد. "دعنا نستلقي هنا فقط،" قال. وما أن ألقى نفسه على الرمال حتى دخل في النوم في لحظات قليلة.

لكنه لم ينم طويلاً. لقد استفاق بعد عشرين دقيقة، وكان الطعم المرُّ لم يفارق فمه بعد. لقد جاءته فكرة هذه الرحلة التي خطرت في باله عندما جلس فوق سريره معالجاً الكدمة التي تسبب له بها الأميركي في صدره عندما ضربه. ولقد اعتقد أن والدي آدنا سوف يلينان ويرق قلباهما عندما ينظران إلى حفيدهما الوسيم. اعتقد إنهما سوف يندمان على السنوات التي ضاعت منهما بعيداً عنه، وسوف يصرّان على انتقال الابنة والزوج وولدهما إلى غوا معاً. وهو سيكون شديد السعادة للقيام بذلك. فاهتمام الأميركي بولده كان قد صار يقلقه كثيراً. لقد تمنى قيام أناس آخرين بالادعاء بقرابة راميش، أراد لراميش انتماء إلى عائلة أكبر؛ إلى عائلة واسعة تشاركه رابطة الدم.

كانت السماء تدوِّم فوق رأس براكاش. وقد لعن نفسه بسبب إقدامه على الإكثار من ذاك الشراب المر بهذه السرعة. التفت إلى يساره حيث كان راميش يستلقي على الرمل.

"راميش،" قال. " هل أنت نائم؟"

"لا، دادا".

فكَّر براكاش للحظة. "راميش، إياك أبداً أن تكون فقيراً مثل أبيك. هذا العالم لا يحب الأناس الفقراء. أتعدني؟"

"أعدك يا أبي".

"جيد. وهنالك شيء آخر أيضاً. لا تسرف أبداً في الشراب مثلما يفعل أبوك. أتعدني؟"

"أعدك يا أبي".

صمت لمدة طويلة وهو يحدّق نحو السماء المدوِّمة. "كذلك يا راميش، لا تكن يتيماً أبداً، مثل والدك. أتعدني".

"أعدك يا أبي". تلا ذلك ضحكة صغيرة.

أدار براكاش رأسه نحو ولده. "هل تسخر من والدك؟"

كان راميش يحكُّ أنفه بسبب الجهد الذي بذله كي يمتنع عن الضحك. "آسف يا أبي. لكن كيف يمكنني ألا أكون يتيماً؟ فالأمر في هذه المسألة ليس بيدي".

وفجأة صارا يضحكان معاً، يضحكان بقوة لدرجة أن براكاش شعر بتسرب شيء من بوله الحارّ إلى سرواله. وقام عند ذلك على الفور بشدّ عضلاته. "شقي،" قال براكاش وهو يستدير نحو ولده ويقوم بمداعبته. "إنك تحاول إغاظة أبيك".

"لم أكن أقصد ذلك، يا بابا،" صاح راميش مصوصئاً. "لكن ما قلته لي كان مضحكاً".

رفع الضحك والمداعبة من معنوياتهما، وكسر تأثير اللعنة التي تسببت بها كلمات والد آدنا. وهكذا، شعر براكاش بشيء من الحرية في قلبه. لعن الله ذلك العجوز، ليذهب إلى الجحيم، جال في خاطره. إذا كان لا يستطيع أن يري جوهرة الماس في التراب فهذا من سوء حظه. إنني أعرف قيمة ولدي.

جلس القرفصاء، وجذب راميش إلى مسافة قريبة منه - جلس الأب والابن في هذه الوضعية لدقائق قليلة يحدّقان في المياه. قبّل فروة رأس ابنه. "إنك حياتي كلها،" قال له هامساً. "عليك أن تتذكر ذلك دائماً".

"أعرف ذلك، يا أبي". ولم يكن في هذه المرة أيٌّ من الشقاوة في صوت الصبي.

"هيّا،" قال براكاش أخيراً. "دعنا نذهب إلى السوق ونشتري لأمك بعض الأشياء. إنني أريد أن أشتري لها بعض الحلوى من بلدتها. ثم وفي صباح يوم غدٍ نعود إلى جيربورغ".

"لكنني أريد البقاء أكثر هنا يا أبي، إنني أحبت غوا".

قبّل ولده من جديد. "أعرف يا حبيبي. لكنك قد تخلّفت عن الكثير من الدروس في المدرسة. وأمك ستكون في انتظارنا".

وصلا إلى جيربوغ عند الساعة التاسعة من مساء اليوم التالي مسلّحين بالأطايب التي يحملانها. حلوي البينكا، وحلويات أخرى لـ: آدنا، وراميش، قارورتان من شراب الـ فيني لـ: براكاش؛ وعلبتين من الكاشو للسيدة إيلي.

وحالما مشى على الطريق المؤدي إلى البيت، يتقدمه راميش بعدّة خطوات، شعر براكاش أن صدره ينطبق. فبرغم الفشل الذي منيت به مهمته، فإنه أحبّ كل دقيقة كان قد أمضاها مع ولده. أما الآن، فصار عليه من جديد أن يقوم بإشراك الآخرين في ولده. أرغم نفسه على تذكُّر حلاوة الأوقات التي أمضياها معاً.

إنه ينتمي إليّ، قال لنفسه. هذا الصبي هو ابني وابن آدنا. إنه ليس ابن أحدٍ سوانا.

الفصل 30

مرّت خمسة أيام على عودة براكاش بولده، ولا يزال فرانك يتألم من فرط وقاحة هذا الرجل. كان براكاش يتجوَّل في أنحاء البيت من جديد وكأنه يملك كلّ حقٍّ بالذهاب مع ولده أينما شاء. وها هو الآن يتصرف غافلاً عن كلّ تخريب أحدثه - القلق الذي تسبّب به لآدنا، النفقات التي تطلبتها تحريات البوليس، أيام التعطيل عن العمل، وما تسببت به من خسارة لفرانك. وفي الواقع فإن براكاش تفاعل بغضب عندما سمع أن البوليس كان يبحث عنهما طيلة الوقت في جيربوغ، وفي أديرباد. "ماذا؟ ألا يحق لي أن أذهب إلى مكان ما، مع ولدي؟" سمعه فرانك يصرخ غاضباً في وجه آدنا. " قولي لرئيسك الأميركي أن يستدعي كلابه. ما هي تهمة رجال البوليس لي؟ هل هي اصطحاب ولدي معي في رحلة؟"

لقد أراد أن يزحف من بيته ويحطم وجه هذا الوغد. أن يسحن وجهه سحناً ثم يتنحى إلى الوراء ليراقب نتيجة عمله باكتفاء. لكن أشياء كثيرة منعته عن ذلك: ذكرياته عن شعور القرف الذي تجلّى على وجه إيلي عندما صار تورّطه أكثر فأكثر مع رجال البوليس الذين يقومون بالتفتيش عن براكاش. عدائيتها تجاه غولاب الذي صار يتوقف بباب بيتهما في أوقات متكررة لتسليم التقارير الأخيرة. وكذلك ذكرى راميش وهو يواسي والده بعد أن دفعه فرانك وأوقعه أرضاً في الحديقة. وأخيراً، راميش المنتصب القامة الذي يمشي إلى بيتهما حاملاً لهما الهدايا من غوا، مشية يبدو فيها أمام العالم كلّه كما لو أنه عائد من عطلة عائلية بريئة إلى آخر حدود البراءة.

لقد لامست الهدايا شغاف قلب إيلي. حسناً، دعها تنخدع بالهدايا. فهو أدرى منها. لقد كان لدى براكاش كلّ النيّة للفرار بالولد. إن بطاقة السفر بالقطارات إلى أديرباد لم تكن سوى خديعة مدبّرة لدفعهم إلى تضييع أثره. لقد تبيّن أن هذا التافه أشدّ ذكاء مما كان قد حسبه، وهو الآن يعترف له بذلك. ومع ذلك، فإن سبب عودته بعد خمسة أيام يبقى لغزاً غامضاً. لعلّه قد فرغ من النقود بسرعة فاقت كل ما كان يعتقد. أو لعله لاِ يزال يخبّئ لهم حيلة جديدة

في جعبته. ولعله كان يسعى إلى تخديرهم جميعاً للشعور بالاطمئنان، حتى إذا فرّ في المرة القادمة مع راميش فلن يقلق لفرارهما أحد. حسناً، ولكنه بات الآن عازماً على مراقبة الولد بعيني باشق. وربما سيطلب من سائقه ساتيش القيام بنقل الولد إلى مدرسته ذهاباً وإياباً.

نظر فرانك إلى كدسة الورق أمامه فلم يصدق مدي تراكم العمل الذي تكدس لديه خلال فترة بقائه في البيت. ومع ذلك، فإنه تراءى له أن مجرد التفكير في مهاجمة الكدسة من الأوراق كفيل بإيلام عينيه. كما إنه صار لديه ما يزيد على ثمانين رسالة في بريده الإلكتروني. ويبدو أن نصف هذه الرسائل وارد من بيتر المأفون، ومعظمها يدور موضوعه على الإرسالية التي لم يجرِ بعد تصديرها من جيربوغ.

فرك جبهته وحدّق إلى الخارج من خلال الشباك، محاولاً الاهتداء إلى طريقة لإحباط أيّ خطة قد يعمد إليها براكاش. رن جرس هاتفه فرمقه بنظرة اشمئزاز قبل أن يجيب. "آلو؟".

أطلق المتكلم تنهيدة نزلت كهبَّة ريح في أذنه: "فرانك؟ أنا بيتر".

"مرحباً يا بيتر".

"أصغ إليّ، هذه مكالمة قصيرة. ما الذي حصل للإرسالية؟"

إذاً هذا هو أسلوبنا في التواصل هذه الأيام، فكّر فرانك. لا مجاملات، ولا سؤال عن إيلي. وهذا اتصال من صديق حضر زفافه، وكان مِن حَمَلة بساط الرحمة يورم جنازة باني.

"أعتقِد أننا سنقوم بشحنها غداً".

"تقول إنك تعتقد؟ إنني بحاجة إلى ما هو أكثر من هذا التأكُّد يا فرانك. فلقد تأخرت هذه الطلبية حتى الآن—"

"إنني أعرف كم قد تأخرت يا بيتر. وإنني أعمل على الموضوع".

"أنت تعمل على الموضوع؟ إنني لا أصدق ذلك. أصغ يا فرانك، يبدو أنك قد نسيت أن لديك وظيفة مأفونة. وأننا لا نقوم بدفع راتبك من أجل المكوث في البيت و—"

"وأنت يبدو أنك قد نسيت حقيقة إنني قد أكسبتُك من المال أكثر من أي شخص آخر في الشركة يا بيتر".

"إذاً، هذا هو ما تقوم بعمله الآن؟ مجرد النوم على أمجادك؟"

"كلا، لقد سبق وأن قلت لك إن الإرسالية على وشك أن تصبح جاهزة للشحن".

كان هنالك صمت مؤلم طويل. بعدها قال بيتر تيمبرلايك،" أتدري ماذا يا فرانك؟ لقد كنت أقلِّب تفكيري بهذا الأمر. إني أريدك أن تعود إلى الولايات المتحدة. سوف أقوم بنقلك من الهند".

"ما هذا الذي تقوله؟"

"هو الذي سمعته. إن مدة عقدك قد شارفت على النهاية. وإننا في الحقيقة في حاجة إلى وجه هنديٍّ يقوم على قيادة الموقع هناك. لقد آن الأوان لك كي تعود إلى الوطن".

"بيتر، هل فقدت الصواب؟ إنك تعلم أنني وسط عمِلَية تفاوض على شراء معدات جديدة للمصنع سيكون من شأنها تخفيض عدد الأيدي العاملة إلى الثلث —"

ضحك بيتر. "هل أضعتُ ‹أنا› صوابي؟ هذا كلام نفيس يا فرانك. تكون أنت هو الشخص الذي يتأخر عن الموعد المحدّد للتسليم، والذي يجلس في بيته مضيّعاً الوقت لأن ابن عاهرة يقوم بأخذ ولده في إجازة، ثم تسألني بعد ذلك إذا كنت ‹أنا› قد فقدت صوابي؟"

صارت كلتا يديه ترتجفان بحيث إنه صار يحتاج إليهما معاً من أجل الإمساك بسماعة الهاتف. "اسمع يا بيتر سوف أقوم بشحن الإرسالية غداً، أعدك بذلك، تباً، حتى وإن احتاج الأمر مني أن أبقى هنا طيلة الليل، فإنني سوف أتأكد من أن الإرسالية سوف تشحن غداً".

تنهد بيتر. "فرانك، إن الأمر لا يتوقف عند مجرد إرسالية واحدة فقط. انظر إلى المشاكل العمالية التي حدثت معك، وسوى ذلك من القضايا. إنني أعتقد إنه قد صار من الأفضل إعادتك إلى الوطن".

"صار من الأفضل من أجل مَن، يا بيتر؟" سأله فرانك.

لم يكن هنالك مجال للانخداع حول برودة صوت بيتر. "لمَ السؤال؟ إنه الأفضل لشركة هيربال صوليوشينز. فرانك أرجوك بحق الله، لا تجعل من هذه المسألة قضية شخصية".

بيتر، أنت أيها الغبي الأبله. إننا صديقان، ودّ فرانك لو يستطيع أن يصيح فيه. لقد قمت بتغيير حفّاضات أطفالك. إلى من تظن نفسك تتكلم، بحق الجحيم، بهذه اللغة الرسمية؟ ولكن بدلاً من ذلك، فإنه قال، "انتبه يا بيتر، لا تستدعني أترجّاك. بحق الله، إن إيلي سوف تصاب بنوبة إذا عرفت بذلك".

"فرانك". جاء صوت بيتر هادئاَ. "ما الذي تريد أن تعمله؟ أتريد العيش في المنفى طيلة حياتك؟ أنت وإيلي؟ إن الهند ليست وطنكما يا صديقي. إن عليكما مواجهة ذلك الذي حدث وتكملان. أتدري؟ إنني لا أعتقد أن ذلك أمر صحي، حقيقة أنكما قد طلقتمانا لمناسبة عيد الميلاد".

بات فجأة يشعر بالسعادة لأن بيتر يجلس على المقلب الثاني من الكرة الأرضية بعيداً عنه. لأنه كان سوف لن يتورَّع عن القيام بإيذاء بيتر جسدياً لو كانت تجمعها الآن غرفة واحدة. أنت أيها الأحمق الملعون المأفون، جال في ذهنه، تجلس وراء مكتبك الآمن وتُحاضر على مسمعي حول الذي هو صحي والذي هو غير صحي.

" فرانك؟ ألا تزال تسمعني؟"

"نعم. إنني فقط -" حاول قولَ المزيد لكن صوته تهدّج. وبدأت عينه اليسرى بالارتعاش.

"آه، تباً،" قال بيتر لاهثاً. "إنني لا أحاول أذيَّتك يا فرانك. لكنني قد اتخذت قراري. إنني أحتاجك هنا. يمكنك أن تأخذ - لست أدري - مدة شهرين أو ثلاثة أشهر لإنهاء مشاغلك هناك. وإنني أستطيع إرسال ستان لمساعدتك إذا شئت".

"أوكي،" قال متصارعاً مع عواطفه. يكون ملعوناً إذا سمح لنفسه بالانهيار أمّام بيتر تيمبرلايك. "انتبه، أريد وعداً منك بألّا تذكر شيئاً عن هذا الأمر على مسامع إيلي. إنني - إنني أحتاج إلى إعلامها بذلك في الوقت المناسب".

"حسناً، لا مشكلة في ذلك. إن هذا الشأن شأنك".

"إذا، أتعدني بذلك؟"

"أجل، ولكن من الأفضل ألاّ تتأخر في إعلامها يا عزيزي، ففترة الشهرين لا بد لها من أن تنقضي بسرعة".

"أمتأكِّد أنت أنني لا أستطيع زحزحتك عن عزمك يا بيتر؟"

"أخشى أن الأمر بات محسوماً، يا فرانك".

"حسناً، نتكلم فيما بعد". قال فرانك.

أغلق سماعة الهاتف، وكانت فكرته الأولي راميش. مغادرة الهند تعني ترك راميش وراءه. حاول النهوض عن كرسيه فلم يجد قوة على ذلك. بدت ساقاه كما لو أنهما مصنوعتان من القش، أما رأسه فبدا محشوّاً بالقطن. تباً، لقد خيّل إليه أن المرض يعود إليه من جديد. ولكن حتى وهو في وسط الفكرة الحاضرة، فإنه عرف حقيقة أن ما يعاني منه ليس مرض الجسد، بل اعتلال الروحِ. فإذا كان يمكن تسمية الحب مرضاً، فها هو ذا.

أذهلته غزارة مشاعره، متي بحق الله صار راميش مهماً في حياته إلى هذه الدرجة؟ وكيف صار لا يفرح لفكرة مغادرة الهند، والعودة إلى أخيه سْكُتّ وإلى أمه، وإلى جميع الأناس الآخرين الذين كانوا دائماً يضيئون مجرّته، ويمدونه بالراحة والفرح؟ لقد اعترف بالجواب أمام نفسه: لقد صار راميش ألمع النجوم في مجرته، لقد صار هو شمسه، وبدون هذه الشمس سيكون مستقبله عاقراً ومظلماً. فبدون الشمس - بدون الابن - لن يكون هنالك سوى الأب، المتروك وحيداً، دون أن يكون له ابن يرشده إلى السبيل القويم.

فكّر في تصرفاته مع راميش - جر يهما الصباحي على الشاطئ شبه المهجور؛ إلى قصّات الشعر الشهرية التي كان ينالها هو والصبي في صالون بفندق شاليمار، إلى وجبات العشاء في أيام الآحاد في البيت، حيث كان فرانك يدرّب راميش على حسن استخدام أدوات السفرة، حتى عندما تكون آدنا واقفة لخدمتهم وتقف خلف ولدها بفخر لرؤيتها له يقوم بقطع الدجاج بالشوكة والسكين.

وها هو بيتر يريد حرمانه من كل ذلك. فهو يريده التخلي عن راميش كما لو كان قطعة نفاية قام بالتقاطها عن الشاطئ. قاوم رغبته في العودة من جديد إلى الهاتف واسترحام بيتر، أو تهديده بترك العمل كله. لكن لم يأمن قيام بيتر بمخادعته - قاتلك الله يا بيتر. ربما إنه يستطيع العثور على وظيفة مع شركة أخرى متعددة الجنسيات في الهند - ولكن ماذا بعد ذلك؟

فكَّر. إنه لا يوجد أية شركات أجنبية أخرى في جيربوغ. فإذا كان محظوظاً جداً جداً، فإنه قد يحصل على شيء ما، في بومباي. لكن هذا احتمال بعيد. وحتى وإن حصل على وظيفة هناك، فإنه قد لا يكون قادراً على رؤية راميش سوى مرة في الشهر، كم سيمضي من الوقت قبل أن يتعثر الولد في دروسه، وكم سيمر من الوقت قبل أن ينسي ما لقَّنه إياه عن آداب المائدة، قبل أن تتدهور لغته الإنكليزية من سيِّئ إلى أسوأ؟ فخسارته لراميش شيئاً فشيئاً، ومع مرور الوقت، عندما ينصاع إلى جاذبية ثقافته، وإلى الاختلالات الوظيفية في عائلته، سيكون ذلك أشدّ إيلاماً له من التعرض إلى خسارته له دفعة واحدة.

أن يخسر راميش، هذا لم يكن خياراً مقبولاً. لا، إن على راميش الذهاب معهما إلى أميركا. إن عليه التفكير بوسيلة تكفل تحقيق ذلك. ليس هناك من شيء يستفيده الولد من البقاء هنا في جيربوع.

لكنه في حاجة إلى التفكير، إنه في حاجة إلى كسب بعض الوقت. وهنالك أمر يبدو أكيداً - لا يجب أن تعلم إيلي شيئاً عن الإنذار النهائي الذي وجَّهه إليه بيتر. إن عليه المتابعة وكأن كلَّ شيء باق على حاله. تطلّع حوله في مكتبه،

وهو ما يزال مسمَّراً إلى كرسيّه. إن هذه حياتي، جال في ذهنه، والوغد الذي يحسب نفسه صديقاً لي يقوم بتدميرها. يدفعني إلى التخلّي عنها. وإنني سوف أتخلي عن السيارات التي يقودها سائقٌ بأمري، وعن بدلات السكن، وعن جميع الدمى والمزايا التي كان قد رماها بيتر في دربي لإغرائي بها من أجل القيام بإدارة المصنع. لكنني أبداً لن أتخلي عن الكنز الحقيقي، عن الجوهرة الحقيقية. راميش.

الفصل 31

"إذاً، ما هي الأفعال التي يفعلها فتجعلك متوترة؟" وجهت نانديتا سؤالها إلى إيلي بينما هما تتجوّلان في الأسواق الضيَّقة لبازار آغني.

متجاهلة الصيحات الصاخبة للبائعين المتجولين من حولها، عادت إيلي بتفكيرها إلى المرات العديدة التي دخلت فيها إلى غرفة من غرف بيتها لتجد فرانك فيها يحدّث نفسه كما لو أنه يخسر جدالاً حاداً. كما تذكرت الطريقة التي كان يجلس فيها على الشرفة لساعات طويلة وهو دائم التحديق في البحر، حيث يبدو في بعض الأوقات وكأنه في غيبوبة، كما يبدو شرس الحيوية في أوقات أخرى. أمّا أغرب الظواهر التي تبدو عليه فهي ارتعاش جفن عينه اليسرى.

"إنه يرتعش،" قالت.

"ماذا تقصدين بقولكِ إنه يرتعش؟" سألتها نانديتا.

"مثلما قلت لكِ، فهو عصبيٌّ مزاجيٌّ قلق، وعيناه تتقلّبان، وهو يرتعش، بالإضافة إلى حركة غريبة في عينه اليسرى".

شاب هزيل حاول الاحتكاك بجسد نانديتا، فحدجَته بنظرة غاضبة بينما هي تتحاشاه. "أتظنين أن فرانك مكتئب؟"

"لست أدري. كنت أرغب في إعطائه بعض الحبوب المضادّة للاكتئاب، وأن أجرب معه عقار زاناكس لبضعة أسابيع. لكنه لا يتجاوب مع رغبتي".

"إنه لا يزال تحت مقدار كبير من الضغط أليس كذلك؟ ولكن على الأقل، فإن ذلك الولد راميش قد عاد. ولا بد للأمور من أن تهدأ قليلاً".

"صحيح، ربما". أنصتت إيلي لحظة. "إن الأمر مضحك - لقد تصوّرت أنه سيشعر بالارتياح بعدما عرف سبب أخذ براكاش لولده إلى غوا، باعتبار أن ذلك يعتبر مؤشراً على حسن النيّة، لكن العكس هو الذي حصل، إذ صار أشد غضباً".

"حسناَ، لعله يشعر بالسخف قليلاً، ألا تظنين ذلك يا إيلي؟ أعني قيام البوليس بالبحث وجميع تلك الأمور تبيَّن إنها مبالغة".

"لا تخبريني عن تلك التصرفات. لقد رجوته ألاّ يقدم عليها لكنه كان كالمجنون، ولم يكن من الممكن ثنيُه أو إيقافه". قالت إيلي مرتعدة. "لقد كان أسبوعاً رهيباً رهيباً يا نانديتا. ذلك الصباح الأول الذي أصبح فيه بشعر أبيض، لقد أرعبني ذلك". أبدت وجهاً حزيناً. "لقد أملتُ حقاً بأن يعود شعره إلى لونه الأساسي".

شدّت نانديتا على ذراعها. "لا بأس من ذلك، فإنه لا يزال يبدو شديد الجاذبية رغم شعره الأبيض".

ابتسمت إيلي. "إنك قليلة الحياء. وإنني شديدة السعادة لقدومك معي اليوم. أعتقد أن العلاج بواسطة التسوُّق هو ما أحتاج إليه بشدّة". حدّقت إلى داخل أحد المحلات. "أيمكننا الدخول إلى هذا المحل قليلاً؟"

دخلتا معاً وهما تحاولان تجاهل درجة صوت أصحاب المحلات المتنافسين، العالية. هرع صاحب المحل إلى خدمتهما وهو كله خضوع وإيماءت. "تفضّلا، تفضّلا،" قال لهما. أشار بإصبعه فأتي إلى خدمته ولد في عمر المراهقة. "ألا تري أن لدينا ضيوفاً؟" صاح به. "اذهب وأحضر لنا زجاجتي كولا بسرعة".

فتحت إيلي فمها للاعتذار، لكنها عدلت عن ذلك. فلقد علّمتها التجربة إنها لا تكاد تضارع إلحاح الضيافة الهندية المشهورة - ولا درجة صخب لغة البيع الهندية وشراستها. "أأستطيع أن أرى خاتم الفيروز ذلك؟" سألته.

"بالطبع مدام بالطبع". استدار صاحب المحل نحو نانديتا. "وماذا عنك، يا مدام؟ لدينا حليٌّ فضيَّة جميلة".

تجوّلتا بين أنضاد الحليّ، حتى وصل بهما المطاف إلى قسم الأقمشة - قام رجلان في خفة يدٍ بإفراد بكرة تلو أخرى من القماش الحريري الفاتح الألوان أمام نظرهما للتفرج. "هذا يكفي،" قالت إيلي في لغة محتجَّة بعدما رأت نفسها محاطة ببحر من الأنسجة ذات الألوان المتعدّدة. "لطفاً لا تعذّب نفسك كثيراً".

"ليس هنالك من عذاب، مدام"، قال أحدهما لهما مبتسماً. "إذا لم تشاهدي كيف لكِ أن تشتري؟"

"الآن، لا تشترِ شيئاً تحت وقْع الشعور بالذنب،" همست نانديتا في أذنها، فيما هما تشربان الكوكاكولا. " هؤلاء الناس بائعون ماهرون".

وفي نهاية الأمر، قامت بشراء خاتم الفيروز لنفسها، كما أصرّت على شراء سلسلة فضيَّة من أجل نانديتا، وثمّ إقناعها بشراء قميص كمورتا حريري لزوجها، مع علمها المسبق أن فرانك لن يلبس مثل هذا القميص.

وعندما خرجت المرأتان بمشترياتهما هبّ بقيّة البائعين إلى نوبة من النشاط. "مدام، لدينا منتوجات أمريكية جميلة". كانوا ينادون في أثرها، غير عالمين بأن البضائع الأميركية هي آخر ما يلفت إنتباهها.

"تجاهليهم،" أرشدتها نانديتا. "لا تجعلي نظراتك تلتقي بنظراتهم. وإلّا فإنك ستخرجين من السوق محمّلة بعشرة قطع من شوكولاتة هيرشي". انتفضت بشكل بيِّن.

"أوه، يا لكِ من متعجرفة".

"تشعرين بالذنب كالمدان". إذ إن نانديتا، مثل معظم أبناء الطبقة العليا الهندية، تعتقد أن الشوكولا الأميركية سيّئة.

"تتكلمين كما لو أن شوكولا كادبيري أفضل من الشوكولا الأميركية، أو كذلك شوكولا ليندِت، أو سواهما".

"حذار. إنك تطئين تربة مقدسة". تظاهرت نانديتا بالانزعاج. "عليك أن تعلمي في المرة القادمة، أنك تحتقرين الملكة". قالت بأنَفَة.

أمسكَت إيلي بذراع نانديتا. "أنتِ مجنونة. تعالي الآن، دعينا نستأجر عربة ركشة. أريد العودة إلى بيتي".

"هاااي، قبل أن أنسى، "قالت نانديتا بعد أن صارتا في عربة الركشة. "أتعرفين ابنة عمي ديفيا؟ تلك التي تعيش في استراليا؟ إنها ستأتي إلى دلهي في الحادي والعشرين من الجاري. أتذهبين معي لرؤيتها لبضعة أيام؟ شاشي لا يستطيع الذهاب. لذلك، فإنه بدا لي أن نجعلها رحلة نسائية محضة".

"عليَّ مراجعة جدول ارتباطاتي". قالت إيلي.

"آي ي، تباً لكِ ولارتباطاتك. فقط قولي نعم، لمَ لا تقولي؟ إنني ما زلت أشتهي جمعكما معاً منذ ملايين السنين".

ضحكت إيلي. "إنني أتوق إلى رؤيتها أيضاً. كم نحتاج من الوقت للوصول إلى هناك؟.

"يمكننا أن نستقلّ قطاراً مباشراً. وإني أعِدُ بإعادتك إلى البيت في ستة أيام".

"حسناَ تبدو لي فكرة جميلة". تنهدت إيلي. "إنني في حاجة للخروج لبضعة أيام، يا نانديتا، فالجوّ المسيطر على البيت – لست أدري، هو جوّ خانق في بعض الأحيان".

"حسناً — إذن يكون الأمر قد سوِّي. سأقوم بشراء تذكرتي القطار".

الفصل 32

بشكلٍ ما، استطاع التملُّص من راميش. أخبر الصبيَّ أنه لا يستطيع أن يجري معه في هذا الصباح. أرغم نفسه على تجاهل الحيرة المؤلمة التي لمحها في عيني الصبي. إن هذا من أجل مصلحة الولد، أقنع فرانك نفسه.

والآن، ها هو ذا يجلس على احدى الصخور الكبيرة نصف المغمورة في المياه. وكانت الأمواج تلحس قدميه العاريتين. كان يحدّق في الشمس البازغة من الماء. محاولاً إخراج نفسه من الخطة التي كان يعدُّها، حتى في الوقت الذي يعلم فيه إنه لم يأتِ إلى هذا المكان المنعزل إلا لوضع اللمسات الأخيرة على هذا المخطط. جاء لإحكام الخطة بحيث إنها تتكشف عن نتائجها كما تنجلي فصول المسرحيات عن أحداثها، أو مقاطع القصيدة عن معانيها، عندما يأتي أوانها.

ولسوف يكون هنالك عنف. وسوف يكون هنالك دماء. وهذه حقيقة عليه القبول بها. لقد أتي هو إلى هذا المكان لمقايسة الأمور على المستوى الذاتي، ولاتخاذ خطواتٍ تعاير مستوى محبته لذلك الولد. جاء يختلي بنفسه ويطرح عليها السؤال: أهو حقاً راغب في دفع الثمن مقابل امتلاكه لراميش. جاء يوازن بين فرح امتلاك راميش مقابل القبول بتلطيخ روحه هو.

ثمّ إنه ليس هنالك سبيل آخر. ألّا تغيب هذه المسألة عن باله أبداً. يا للإله، لو كان هنالك من وسيلة أخرى لقام باللجوء إليها. فلو كان بوسعه قانونياً، القيام بتبني راميش، على سبيل المثال، لما تأخر أبداً. لكنهم - براكاش، وآدنا، وبيتر، وإيلي - يقومون جميعاً بسد المسالك أمامه. قامو بسدِّها جميعاً حتى لم يبق أمامه سبيل سوي هذا السبيل. وهذه الخطة هي التي عليه حسن إحكامها حتى آخر وأدقّ تفصيل، تماماً كما لو أنه يقوم بكتابة خطة عمل.

لكن وضع التفاصيل لم يكن هو السبب الذي جاء به إلى هذا المكان. فتفاصيل الخطة يمكن التفكير بها في أيِّ وضع - بينما يكون ساتيش يقود به السيارة إلى العمل، أو عندما يكون يتناول طعام الفطور، أو بينما يكون مسهداً

في الفراش إلى جانب إيلي التي تغطّ في نومها بسلام. كلا، بل هو قد أتي إلى هذه البقعة الهادئة من أجل تصفية حساب الموازنة والمقابلة - جاء لوضع قلبه البشري الطامع في كفة من راحتي يديه، وروحه الخالدة في الكفة الأخرى. جاء ليختبر أيّ الكفتين ستكون هي الراجحة. جاء ليضع علامة فارقة لهذه اللحظة، لهذه النقطة الحدودية التي تفصل بين فرانك المعروف لديه وبين فرانك الذي سيؤول إليه. جاء ليحسم أمره إلى أيهما سينحاز - هل سينحاز إلى فرانك المسالم الذي تعلَّم وجوب إدارة الخد الآخر، أم إلى نظرية ثيولوجية غير أخلاقية جديدة يفكر فيها ويحاول ابتكارها؟ جاء ليسأل نفسه، تري ما هو الدافع الذي يبث فيه وقود العزم، أهو الحقد الجيلاتينيّ الكثيف الذي يمسك بعنقه كلّما فكّر في براكاش؟ أم هو الحب الجائش الذي يملوه كلما فكّر في راميش؟ جاء كي يحلّ تلك الأحجية المتناقضة التي جعلت كلاً من حبّه ومقته يقودانه إلى المكان المظلم الدمويّ ذاته.

وفوق كل شيء، فإنه قد جاء إلى هنا كي يمتحن خياله - جاء ليرى ما إذا كان يستطيع أن يتخيّل حياة في أميركا دون أن يكون راميش جزءاً منها.

لقد حاول ذلك. جلس على الصخرة فيما عيناه مغلقتان، وفيما العرق يتصبّب من جبينه. لكن كلّ ما استطاع رؤيته هو الفراغ والظلمة. رأى نفسه مع إيلي يكبران في ميتشيغان، رأى كيف تفرغ جعبتهما من أيّ حديث يحدّث به أحدهما صاحبه، تخيّل الكلمات العرضيَّة التي إذا تبادلاها، فإنما ستكون كنقاط الماء التي تتسرب ببطء شديد من فوهة حنفية غير دقيقة الأقفال. تخيّل إيلي وهو، يتمنعان عن الاسترخاء على الشرفة خوفاً من جماعات الناس المسرورين، مع أولادهم الصعبي المراس الذين لا ينفكون عن القفز على الشارع القريب بينما يبقى هو وإيلي يحدقان في جوع إلى أطفال الآخرين في الأسواق المركزية، وفي الحفلات الاجتماعية، وفي الحدائق والملاعب، إلى أن يحس والدَي الأطفال بجوعهما فيقومون بسحبهم من أمامهما.

فتح عينيه، فبدا له العالم غائماً دغِشاً للحظة. ثم أستعاد تركيز بصره، ولكن هذه المرة بوضوح صارم جعل فرانك يشهق دهشة. رفع هامته عن الصخرة، وأسرع بالخروج من الماء ناقصاً عن قدميه نباتات البحر التي علِقت بهما. لقد ضيَّع ما يكفي من الوقت حتى الآن. وها هو قد عرف بالضبط، ماذا عليه أن يفعل في الخطوة التالية.

الفصل 33

"شكراً لمجيئكَ بهذه السرعة،" قال فرانك للرجل الجالس قبالته. "إنني أقدِّر لك ذلك".

وللحظة، فإن الرجل المتين كأنه بناء قوي - إذ هو طويل، عريض، ومتحجِّر، وله وجه خادع بلا تعبير - لم يتحرك ولم يستجب، ثم أومأ غولاب برأسه قليلاً. "بالطبع يا سيدي. إن هذا من دواعي سروري".

حوَّل فرانك نظره حىي لا تلتقي عيناه بعيني غولاب السوداوين، التمساحيتين. التقطت نظرته السقوط البطيء لورقة شجر خضراء من أعالي شجرة خارج شباكه، وتتبّعه.

"سيدي!" قال غولاب. "ماذا كنت تقول".

"آه حسناً". اهتزّ صوت فرانك قليلاً فيما هو يتكلم. "أصغ يا غولاب. إني أرغب في التحدث إليك بمسألة لها طابع سرّي. هل لي أن أتوقّع منك أن — "

"سيدي، إن كلّ ما تقوله لي سيكون سراً مطلقاً. فأنا رجل عسكريّ مدرب. ولقد تعلّمتُ على كيفية إبقاء فمي مغلقاً".

أومأ فرانك برأسه. نظر إلى يدي غولاب الضخمتين اللحيمتين، وتذكَّر ما كان قد قاله له مرة - لقد قمتُ بقتل الرجال بيدي العاريتين؛ ففي وقت طويل مضى كانت نفسُه قد أنِفَت القوّة الغاشمة التي تمثلها هاتان اليدان. ولكن منذ أن قام غولاب بتقديم المساعدة إليه في البحث عن براكاش، فإنه قد بدأ يراه موضعاً للثقة والإعتماد، وحليفاً قديراً. أما اليوم فهو قد رأى هاتين اليدين وهما تساعدانه على نقل راميش إلى شاطئ الأمان في أميركا.

"لا أدري إن كنتَ تتذكّر هذا الأمر،" قال فرانك. "لكن منذ بضعة أشهر، عندما كنت في منزلي ذكرتَ لي شيئاً ما حول إمكانية لجوئي إليك إذا ما احتجتُ مرّة لأخذ راميش معي عندما أعود إلى الولايات المتحدة. ماذا كنت تقصد بكلامك آنذاك؟"

كان وجه غولاب غير معبِّر. "لقد قلتُ إن عليك أن تسألني فقط، عندما تكون جاهزاً لهذا الأمر فعلاً، يا سيدي". نظر نظرة عميقة في عيني فرانك. "هل أنت جاهِز فعلاً؟"

"إنني الآن لكذلك" قال، وكان صوته ثابتاً، أما يداه فكانتا ترتعشان بشكل خارج السيطرة، لكنه كان سعيداً لأن حافة مكتبه كانت قد حجبت هذه الحقيقة عن غولاب.

"إذن سيكون من دواعي سروري أن أقوم بمساعدتك".

"أريد أن يختفي براكاش". جاءت الكلمات في رشقٍ واحدٍ. "أريد منك أن تقوم بتدبُّر أمره من أجلي".

كان وجه غولاب جامد الشعور. "طلبك مستجاب سيدي".

لكنه أراد أن يكون أكيداً من أمره. "هل فهمت قصدي جيداً؟ هل فهمت ما أطلبه منك؟"

لم يفتر صوت غولاب، ولم يتوانَ. "بالطبع، سيدي. لا مشكلة في ذلك".

بدأت عين فرانك اليسرى ترتعش، وأمِل ألاّ يلاحَظ غولاب ذلك. شعر أن العرق بدأ يتفصّد من جبينه. وقاوم رغبته في القيام بمسحه. فهذا ليس وقت التصرف كتلميذ مدرسة. ناضل لاستعادة شيء من صفاء الذهن الذي شعر به بعد وصوله إلى قراره حين كان عند حافة المحيط منذ يومين. "وماذا عن آدنا؟" سأل.

هّز غولاب كتفيه. "سأتدبّر أمرها هي الأخرى أيضاً".

سمح فرانك لنفسه بالشعور بوخزة ندم. لقد تذكر وجه آدنا التوّاق المشوّش، تذكّر اعتزازها المخلص باهتمام فرانك بولدها. لكن لا بدّ مما ليس منه بّد. فإن آدنا ستتشبث بشكل أكثر قوّة براميش إذا مات زوجها، لذلك فإنه ينبغي تدبُّر أمرها أيضاً.

"هل هنالك من أقارب آخرين يمكن أن يتقدموا للمطالبة بالصبي؟"

"من يا سيدي؟ فلقد سمعت الذي قاله والد آدنا عندما قام هذا الرقيع بجرِّ الولد إلى غوا. كما أن براكاش لا أقارب له". قال غولاب مبتسماً. "وحتى لو ظهر شخصٌ ما، فإنني سأقوم.... بإقناعه".

وفي ظل عدم وجود أحد يطالب براميش، يصبح بإمكانه وإمكان إيلي القيام بإجراءات التبني. إن إيلي شديدة رقّة القلب بحيث سيصعب عليها التخلي عن راميش. وهو يعرف ذلك. وتحت مثل تلك الظروف، فإنه كان

واثقاً من أن توم أندروز سيساعدهما على القفز فوق حواجز قوانين الهجرة - تباً، قد يمكنه إحضار راميش معه إلى أميركا مع حلول يوم الذكري [*].

تنبّه فرانك إلى حقيقة أنه كان يحبس أنفاسه. "إذا شئت أن أفكر في هذا الأمر، أين وكيف يمكنك تنفيذه؟"

فكّر غولاب لحظة. "الأفضل هو القيام بذلك في وقت متأخر من الليل، سيدي. عندما يكونون نائمين. ومن السهل أن يصل المرء إلى كوخهما من الشارع العام مباشرة. لكن أليس من الأفضل رغم كل ذلك، أن تكون أنت وزوجتك بعيدين عن البيت الرئيسي عندما يحدث ذلك؟

أومأ فرانك برأسه إيجاباً. "إليكَ ما كنتُ أفكر به. إيلي عازمة على الذهاب في رحلة إلى دلهي مع صديقة لها في الحادي والعشرين من هذا الشهر. ما رأيك لو أنني اصطحبت راميش في رحلة إلى خارج البلدة في عطلة نهاية الأسبوع ذاتها؟ أتستطيع تنفيذ الأمر حينئذٍ؟

"هذا سيكون ممتازاً، يا سيدي. وسيعطيني وقتاً كافياً لعمل استعداداتي. انتما ستغادران صباح يوم السبت أليس كذلك؟

أومأ إيجاباً، وكانت أفكاره تتسابق. كان قد قرر من ذي قبل أن يخبر براكاش أنه يريد اصطحاب راميش إلى بومباي كي يشاهدا دورة الهند في مباريات كرة القدم. تقلّصت فكّا فرانك بالغضب لفكرة التنازل أمام براكاش. لكن ذلك لن يكون سوى لأسابيع قليلة إضافية فقط، قام بتذكير نفسه.

تنحنح غولاب. "سيدي، يبقي هنالك أمر واحد. ليس عليك القلق بخصوص الحضور إلى البيت والعثور علي... الأجساد. فبعد إتمام المهمة، سأقوم بمكالمة هاتفية من مجهول مع البوليس أقول فيها إنني سمعت أصوات عيارات ناريَّة. وسيقوم رجال البوليس بتفتيش المنزل ثم سيقومون بالاتصال بك، يا سيدي. وهكذا، فإنك سوف تقوم بقطع إجازتك، مع الأسف".

يبدو كأننا نقوم بالتخطيط لرحلة، لا لجريمة، خيّل إلى فرانك. تخيّل النظرة الذاهلة الكسيفة التي كانت لابد من أن تبدو على وجه والدته لو قُدِّر لها أن تستمع إلى هذا الحوار. تخيل خيبة أمالها لو عرفت إلى أي دركٍ قد انحدر ابنها. ابنها الذي كان يرتقي المذبح ليغني في كنيسة القديسة آن في كل يوم أحد. ولكن ليس ثمة طريقة أخري، قام بتذكير نفسه. فبين عناد براكاش، والموعد النهائي الذي حدده بيتر، لم يعد هنالك من مناص. هذا إلى جانب أن عليه التفكير في مستقبل راميش. فالله يعلم أن لا أحد سواه كان يفكر بمستقبل هذا الصبي.

"هنالك شيء آخر يا غولاب،" قال. "عليك تنفيذ ذلك بنفسك. فأنا لا أريد اشتراك أحدٍ في ذلك، لا أحد أبداً. ثم هذه - هذه المسألة لا يمكن القيام بنسبة أيّ شيء منها أبداً إليّ، هل تفهم ذلك؟ إنني - أعتقد لو أنني كنت قادراً على تسوية هذا الأمر بطريقة أخري لما تأخرتُ عن ذلك. لكن لم أتمكن تحت أي ظرف ـــ "

"فرانك، يا سيدي،" قاطعة غولاب. "لا تبالغ في القلق". تغيرت هنا نبرة صوته وصارت أكثر استرخاء وهزلاً. "هذه العملية لا شيء". نقر معصمه بإصبعه. "إنها أشبه بقتل بعوضة"

لم يستسغ فرانك تلك الذلاقة والوقاحة، ولم تعجبه نبرة الاستخفاف هذه. لقد أراد من غولاب أن يفهم خطورة الموقف، أراد منه أن يعطي الأمر الأهمية التي يستحقها. "أصغِ إليَّ، يا غولاب،" قال. "إن هذا ــــ الذي أقوم به ـــ يخالف كل شيء عرفته وآمنتُ به. أتفهم هذا؟ إنني ــــ نحن الأميركيون نؤمن بقدسية الحياة. لقد نشأت نشأة مؤمِنة. نشأت على وصية لا تقتلْ".

شيء ما التمع في عيني غولاب. لكنه عندما تكلم بصوتٍ هادئ وكان وجهه خلواً من التعبير. "نعم يا سيدي، إن الأميركيين معروفون في العالم أجمع باحترامهم للحياة".

أيكون هذا الرجل يتعمد الهزء به؟ حدّق فرانك في وجه غولاب بإمعان. لكن تعبير الوجه كان غامضاً كالجدار. "وفي كل حال، أريد تأكيداً أنك ستقوم ـــ ستقوم بتنفيذ هذا العمل بنفسك".

"لا مشكلة أبداً، يا سيدي".

"كما أن هنالك شيئاً آخر. كم— كم تطلب أجراً من أجل القيام بذلك؟"

كانت ابتسامة غولاب رفيعة ومديدة. "ليس لدي أجرٌ محدَّد يا سيدي. إن القيام بقتل الناس ليست مهنتي بالضبط. إنني أقوم بها كمجرد خدمة لك. لهذا، فإن كل ما يقرره قلبك يكون كافياً."

شعر فرانك بحبات العرق تتكوّن فوق جبينه من جديد. شعر بالضعف والقرف، وبدأت يداه ترتجفان في حجره. "غولاب، إني أملك أيّ فكرة. ما هو المبلغ الذي يمكن أن يكون عادلاً؟

"أيكون مبلغ مئة ألف ممكناً يا سيدي؟ إنه حسمٌ خاص من أجلك أنت". أضاف.

مئة ألف. قام فرانك بإجرء حساب سريع. إنه يعادل ألفين وخمس مئة دولار. شعر بشيء يلتوي بعنف في قلبه. لقد بات الآن يعرف قيمة الحياة

البشرية. قيمة حياة اثنين من البشر.

كان غولاب في انتظار الجواب. "هذا جيد،" قال فرانك. "لكن هذه النقود يجب أن تأتي من حسابي الشخصي على ما يتّضح. وعليَّ القيام بسحب المبلغ دون أن أدع مجالاً لزوجتي للشك. لهذا، فإنني بحاجة إلى التفكير حول كيفية ___"

"اشترِ سجادة".

"عفوك؟"

"إن صديقي لديه محل تجاري يا سيدي. وهو يقوم ببيع السجاد المصنوع يدوياً. نوعية جيدة. تقوم بشراء سجادة بخسة الثمن. ويقوم هو بإعطائك إيصالاً بمئة ألف وأنت تكتفي بإعطائي شيكاً لحامله في الأسبوع القادم. وأنا أحصل على الفاتورة من أجلك. على أن يجري تسليم السجادة بعد ذلك ببضعة أيام— بعد تنفيذ العملية".

إذاً، غولاب يعرف كيفية غسلِ الأموال. وهذا يجب ألا يدهشه في الحقيقة. فإن شخصاً خبيراً بالحياة وبالناس مثله، يجب أن يجد أن المسألة برمَّتها محسوبة ومقدَّرة. فبعد كل شيء، هذه بلاد تسود الرشوة فيها إلى درجة أن رجال الأعمال من الطبقة الوسطى يفاخرون علناً بأنهم لا يدفعون الكثير من غرامات مخالفة السير. وحتى هو نفسه قد بات متعوداً على دفع البخشيش مقابل الحصول على أية رخصة ملعونة أو أي إذن تحتاج إليه شركة هيربال صوليوشينز.

"وهناك شيء آخر يا سيدي،" كان غولاب يقول. "علينا أن نقرر الآن اليوم الذي ستقوم فيه بالدفع لي. والأفضل أن آتي أنا إلى هنا لقبض المبلغ. بعد ذلك ينبغي ألّا تحدث بيننا أي اتصالات إلى أن — فذلك أكثر أماناً لك، بتلك الطريقة".

عدّل غولاب من جلسته على كرسيه ورمى كتفيه إلى الوراء. "لست أدري إذا كنت تتذكر يا سيدي. ولكن منذ وقت طويل – عندما كان موضوع أناند يتفاعل – كنت أنت قد اعتبرتني مسؤولاً عما حدث لذلك الولد. وفي ذلك الوقت كنت قد قلت لي إنني مدينٌ لك". ولرعب فرانك، فإن غولاب ابتلع ريقه في صعوبة، وهنا أيقن فرانك أن كلماته اللامبالية قد فعلت فِعلها العميق في نفس الرجل. "حسناً، إن غولاب سينخ لا يجب أن يبقى مديناً لأحد، يا سيدي. لهذا، فإني التزم معك بكلامي، إنه لو حصل أي شيء خطأ، فإنني لن أخونك. وسأجد نفسي معلقاً بحبل المشنقة قبل أن أفعل ذلك. سأقول إن لي حساباً قديماً أردت تصفيته مع براكاش، أوكي؟"

وهنا ساور فرانك شعور خادع أنه في المساحة التي احتاجها غولاب للقيام بوعده، كان العالم قد تشظّى إلى مليون شظية متناثرة ما لبثت أن عادت إلى ترتيب نفسها من جديد. فهذا الرجل الذي خُيِّل إليه أنه مجرد قاتل يقوم بالقتل بدم بارد، قد تصرّف فجأة برهافة فراشة؛ إذ هو كان قد توقف أمام العبارة الأميركية اللامبالية – إنك مدين لي – وقام بسماعها باعتبار أنها تحدٍّ لشرفه.

"حسناً،" قال.

بقى جالساً في كرسيه لمدة طويلة بعد مغادرة غولاب له. أصوات كثيرة تنافست لاستلفات انتباهه – صوت والدته، وهي تقرأ الإنجيل على مسمعه بينما هو يضطجع في مخدعه كصبي، سْكُوت وهو يقوم بنقاش حول فلسفة هيغل، وحول فلسفة ما وراء الطبيعة معه عندما كانا لا يزالان شابين يافعين، وإيلي وهي تقوم بقراءة مقاطع بصوت عالٍ مِن عِظة الأب أوسكار روميرو الأخيرة، وباني وهو يقوم باستظهار الصلاة التي يقولها في كل ليلة قبل الذهاب إلى سريره:

شكراً لك على عالم كله جمال

شكراً لك على الطعام الذي نتبلَّغه

شكراً لك من أجل كل طير صادح يطير

شكراً لك من أجل كل شيء يا ربنا القدير.

نظر إلى يديه. فبدتا وسختين، ملطختين، كما لو أن العمل الذي يفكَر به قد حصل واكتمل. قم، وفجأة، انتابه إحساس بالتهوُّع (القيء). سحب الوعاء المخصص للقيء إلى مقربة منه خوفاً من أن يتسبب بتلويث قميصه. صار فمه مليئاً بطعم القيء اللاذع، لكنه لم يتطع رغم ذلك أن يستفرغ شيئاً. لقد بقيت النتانة عميقة في قعر معدته.

كان براكاش يمشي على الشارع القريب من بيتهم عندما صادف ذلك عودة فرانك من عمله في ذلك المساء. كان الرجل على الأرجح متجهاً نحو خمّارة القرية، خمَّن فرانك. "توقف،" قال مخاطباً سائقه. "سوف أنزل من السيارة في هذا المكان. تابِعْ أنتَ سيرَك إلى البيت. وسوف أتبعُك بعد قليل".

ترجّل من السيارة. "انتظر قليلاً يا براكاش،" ناداه، ثم قام بعبور الشارع. توقف براكاش. صعدت نظرة خائفة فوق وجهه.

وقف فرانك أمامه. عيناه الزرقاوان تنظران إلى داخل عينية السوداوين. "مهلاً، انتبه، إنني، متأسف. كان عليّ ألا أدفعك إلى الأرض. إنني — إنني أردت أن أعبّر لكَ عن أسفي".

لم تفارق النظرة الخائفة وجه براكاش طيلة مدة وقوفه بصمت.

بحث فرانك عن ورقة نقدية. بقيمة خمسين روبية في جيبه ودفع بها إلى كفِّ براكاش المتعرق. كَبح الرعدة التي انتابته عندما لامست أصابعه يد بركاش المتعرقة. "هذه لك،" قال. "إنها طريقةٌ أقول لك فيه إنني متأسف" أدار رأسه بطريقة تآمرية. "لا تخبر آدنا"، قال.

كوفئ فرانك بأقلّ قدرٍ من الابتسام. "آتشا". رفع راكاش يده إلى جبهته "شكراً لك يا ابن آدم".

انتظر فرانك بينما كان براكاش يومئ برأسه، استدار، ومشى خطوات قليلة ثم نادى، "آه... براكاش. هنالك شيء آخر".

توقف براكاش، وقد عادت أمارات القلق إلى وجهه. قام فرانك بِجَسْرِ المسافة بينهما مبقياً الابتسامة على وجهه. "هنالك مباراة كبيرة في كرة القدم، ستجري بعد أسبوعين من الآن. وإني أريد أخذ راميش إليها. أعرف أنه سوف يستمتع باللعبة كثيراً". لاحظ براكاش وهو يراقبه بعناية. تصنّع ارتداء وجهٍ مغتمٍّ. أمّا المشكلة، فهي أن المباراة في بومباي".

وقف بصمت ينتظر قيام براكاش بقول شيء ما، طال الصمت. ثم قال براكاش. "أتريد أخذه معك؟"

هزّ فرانك كتفيه هزة طويلة. "أحبُّ أن آخذه معي. لكنني لا أريد توتراً جديداً معك. إذا قلت لا، فإنني لن أقاتلك من أجل ذلك. إنني — بل أنت، تكتفي بإخبار الولد أنك لا تريده أن يذهب".

حدق براكاش نحو الأرض بإمعان. ثم رفع بصره. كانت النظرة الحذرة قد فارقت وجهه. "خذه معك". قال بكل بساطة. "لا مشكلة".

"أأنت متأكد" قال فرانك راغباً في إطالة هذه اللحظة. "ألن تتراجع عن كلامك في اللحظة الأخيرة؟"

كانت عينا براكاش صافيتين. "إنني متأكد من أن راميش يحب لعبة كرة القدم".

وهكذا، فإن الطوبة الأخيرة قد وقعت في مكانها.

(*) يوم الذكري (Memorial Day): يقع في الثلاثين من أيار/ مايو، وتحتفل فيه معظم الولايات الأميركية بذكرى الجنود الذين سقطوا في ساح القتال. (المترجم).

الفصل 34

لم يبدأ فرانك بالشعور بافتقاد إيلي قبل الساعة الثامنة من مساء يوم السبت كان هو راميش يتمشيان بمحاذاة الشاطئ القريب من فندق تاج عندما تعثر الصبي على رصيف مليء بالحفر، فوقع على الأرض، وأدمى ركبته. ولرعب فرانك، فإن الصبي قد انفجر بالبكاء. أحاط الصبي الباكي بذراعيه وهو منذهل للطريقة غير المتحفظة التي صار هذا الصبي يبكي بها في العلن. تفحّص الجرح في الركبة، امتصّ نقاط الدم القليلة بمنديله لقد سبق له وأن رأى راميش يتعثر عثرات هي أكثر خطورة في الماضي عندما يكون منخرطاً في لعبة شرسة لكرة السلة. حيث كان من عادة الولد أن ينهض بكل بساطة فينفض الغبار عن نفسه ويستأنف اللعب. لهذا، فإن فرانك فوجئ قليلاً بهذا الاستعراض المفتوح للمشاعر في مكان عام. تطلع حوله شاعراً بقلّة الحيلة، متمنياً لو أن إيلي كانت معهما. وكان مشهدهما ملفتاً لعابري السبيل – رجل أبيض يمسك بطفل أسمر البشرة ويقوم بتهدئته وتشجيعه – الذين أخذوا يصوّبون نحوه نظرات فضولية. سيدة بيضاء الشعر توقفت وقالت لراميش: "سو تشي ديكرا؟" (هل أنت بخير؟) فأومأ لها راميش مشيراً إلى ركبته. "لقد وقعت أرضاً". قال مستأنفاً البكاء، فأظهرت السيدة بعض إشارات الأسف، ولكن قبل أن تتابع سيرها. "عليك أن تأخذه إلى البيت لتنظيف جرحه، "قالت من وراء ظهرها.

"تعال يا عزيزي". قال لراميش. "لنعد إلى الفندق، حيث أستطيع القيام بتنظيف جرحك". توقفا عند صيدلية الفندق في طريقهما إلى الغرفة، فاشترى فرانك بعض الشاش، وعلبة كمادات لاصقة. ولكن عندما استمر راميش في بكائه في الغرفة، بدأ يتكشف لفرانك أن دموع الصبي لا علاقة لها بالإصابة في ركبته. وكما لو أن ذلك قد جاء لتعزيز شكوكه، فإن راميش قال، "إنني أفتقد إيلي". ثم قال: "إني أفتقد إلى أبي". شعر فرانك بالانسحاق. فمنذ أن ودّعا إيلي، ووالدي راميش في هذا الصباح، فإنه ما انفكّ يغدق على الصبي كل اهتمام، جاعلاً إياه يعيش ساعات العمر – فهو يسمح له بمدِّ رأسه من شباك

السيارة بينما يقود بهما ساتيش على محاذاة الشاطئ إلى بومباي. وهو يسمح له بالاستماع إلى الموسيقى الهزيلة للأفلام الهندية التي أصرّ على الاستماع إليها من راديو السيارة. وخلال مباراة كرة القدم بعد ظهر اليوم كان قد سمح له بشرب زجاجتي كوكا كولا حتى صار خائفاً عليه من القيام بالاستفراغ. لكن يبدو أن شيئاً من ذلك كله لم يكن كافياً لتحويل الصبي عن افتقاد بيته. ولأول مرة منذ قيامه بحياكة المؤامرة مع غولاب، وجد فرانك نفسه قلِقاً حول مسألة كيفية تقبُّل الطفل لفقدان والديه. لقد كان شديد الانشغال بالتصارع مع عواطفه الشخصية المتضاربة بحيث أن يهبط فوق رأسه. والآن، وهو مبتلٍ في ذهوله عن مأساته الخاصة، فإنه عجب كيف أنه ربما فشِل في الاحتساب لعنصر الأسى الذي سيحلُّ براميش فبعد ساعات قليلة من الآن، سيغدو راميش يتيماً. ارتعش من أعماقة عندما ركَّز ذهنه على الكلمة الأخيرة.

"فرانك،" كان راميش يقول. "أيمكننا الاتصال بالهاتف مع إيلي؟"

"لا يمكننا الآن ذلك،" أجابه بلطف." إنها في القطار، في طريقها إلى دلهي، هل نسيت؟ وليس هنالك من استقبال للهواتف الخلوية". وعندما طالعه وجه راميش المبتئس، فإنه أضاف، "أنها ستعود يوم الثلاثاء. وستراها عند ذلك. الآن، أترغب في مشاهدة التلفاز قبل أن يحين الوقت للنوم؟"

"أوكي،" قال راميش. "لكن أنا من يقوم اختيار الفيلم."

تظاهر فرانك بالتذمر بينما هو يناول جهاز التحكُّم عن بُعد إلى راميش. "لقد صرتَ مستبداً من الطراز العالمي،" قال له.

وعند الساعة العاشرة، كانا لا يزالان يشاهدان فيلم جاكي تشان. أخيراً التقط فرانك الجهاز وقام بإطفاء شاشة التلفاز. "تعال الآن، عليك بالذهاب إلى النوم. اذهب ونظّف أسنانك".

بدا راميش مندهشاً. "لقد قمتُ بتنظيف أسناني في الصباح".

"ألا تقوم بتنظيفها مرة ثانية في الليل؟" سأله فرانك، فهزّ راميش رأسه أنْ لا. ومرة ثانية تمنى فرانك وجود إيلي معه. فهي التي كانت تشرف على شؤون الولد المسائية في المرة الماضية التي سافرا فيها بصحبته. "حسناً عليك تنظيف أسنانك مرتين في اليوم عندما تكون معي".

أطلق راميش نحوه نظرة تذمُّر لكنه انقلب من فراشه ومشى إلى الحمام. "لقد انتهيت". قال بعد دقائق قليلة.

"حسناً، الآن عليك الذهاب فوراً إلى الفراش،" قال فرانك. وهنا تساءل عمّا إذا كان هنالك من شؤون أخرى تسبق النوم كان قد اعتاد الصبي عليها مع والديه في كل ليلة. ربما ليس هنالك شيء من ذلك، جاء في ذهنه. وهكذا، فإنه

ذُهل عندما جاء إليه راميش وقبّله قبلة سريعة على خده. "أمي تعطيني دائماً قبلة قبل الذهاب إلى النوم،" قال الصبي وهو يبتسم نحو فرانك بدهاء.

مرَّر فرانك أصابعه خلال فروة رأس الصبي القصيرة. "ليلة سعيدة أيتها اليقطينة،" قال. لكنه ما لبثت أن ندم على اختياره للكلمات عندما اختلج راميش ضاحكاً. "يقطينة،" كرّر الولد، وهو يمسك خاصرتيه بيديه. "أنت تقول لي يقطينة".

"أنت ولد سخيف،" ابستم فرانك. "والآن هيا، اذهب إلى سريرك". وهنا قام فرانك بإطفاء المصباح.

دخل راميش في النوم في غضوب خمس دقائق. لكن فرانك كان شديد الصحو. بدأ قلبه يخفق بشدة حالما صار جوّ الغرفة معتماً. كان يستطلع ساعة المنبه الرقمية الموجودة بالقرب من سريره كل خمس دقائق. ومر الوقت ببطء شديد. أعاد إشعال التلفاز مرة أخرى كاتماً صوت الجهاز حتى لا يزعج راميش في نومه. ولم يكن بحاجة للقلق من هذه الناحية. فقلد كان تنفُّس الولد روتينياً مما دلّ فرانك إلى أنه يغطّ في نوم عميق. كان يجري عرض فيلم "لوف ستوري" على إحدى القنوات. شاهد قسماً من الفيلم. تساءل أين يمكن أن يكون غولاب في هذه اللحظة، وعما إذا كان قلبه يهرب منه كما هو الحال معه. وبشكل ما، فإنه شكَّ في أن يكون حال غولاب مثل حاله. أجرى حساباً سريعاً. كان من المقرر أن يتسلل غولاب إلى داخل كوخ براكاش حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل حيث ينهي حياة الزوجين قبل أن يتسلل إلى البيت الرئيسي ويقوم ببعض أعمال البعثرة والنهب القليلة فيه. وربما يقوم بأخذ شيء صغير أو شيئين ثم يقوم برميها في الطريق الخاص، كما لو أن السارق قد أصابه الفزع فترك كل شيء ولجأ إلى الهرب. وهكذا، وفي الوقت الذي يكون فيه غولاب قد قام بالمكالمة الهاتفية المجهولة للبوليس، وبعد أن يكون رجال البوليس قد قاموا بالتحري عن الأمر، ستكون الساعة قد قاربت الخامسة أو السادسة صباحاً قبل أن يكون قد جرى إعلامه بأيّ شيء. أما هو فكان عليه التظاهر بأنه قد صحا من نومه وهو لا يزال ناعساً ذاهلاً عندما يتصلون به. إذ سيبدو الأمر كأنهم قد تسببوا بإيقاظه. نظر إلى الساعة من جديد، وكان الوقت منتصف الليل فقط. إنه لن ينام هذه الليلة. بل إنه سيبقى مستلقياً في فراشه يقظاً يقظة الساهر قرب فراش ميت بينما رايان أونويل، وعلي ماكغرو يتعثران في الثلوج. تنامى الشعور الصقيعي في أعماق معدته. ربنا الذي في السماوات، ألفى نفسه يصلي. انقلب إلى جانبه ليرى وجه راميش – غداً صباحاً ستشرق الشمس، دار في خَلده، وسوف يكون عدد سكان العالم قد نقص منه شخصان. شعورٌ ضارٍ حاد، لا يستطيع تسميته، طعنه

في صميم قلبه، نظر إلى الصبي قربه ليتيقن أنه فعلاً بقربه. "إنني أتعهّد بالقيام على رعايتك،" أطل وعده. "سوف أوفر لك حياة رغيدة".

كانت شفتاه تختلجان عندما غلبه النوم. إن مملكتك قدامة، إن إرادتك نافذة، كان يُرتّل لنفسه.

رنّ جرس هاتف غرفة الفندق عند الساعة الرابعة والنصف. انقلب فرانك في السرير ووضع يده على زرّ إسكات جرس منبه الإيقاظ، لكن لا شيء حصل. إذِ استمرّ الرنين وازداد ارتفاع صوتِه. جلس فجأة في سريره. رعشةٌ من الألم صعقت سائر أجزاء بدنه. شعر بألم في فكيه – لا بد من أنه كان يصرف بأسنانه. فتّش عن موضع الهاتف. "آلو؟" قال.

"سيد فرانك؟" خاطبه صوت ذكوري.

"نعم،" قال. وكان قلبه ينبض نبضات قويّة بحيث أنه حسب نفسه مفارقاً الحياة بعد لحظات.

"أنا المفتِّش شارما يتكلم معك من جيربوع، سيدي نأسف لإعلامك بأن ثمة حادثة".

"حادثة؟"

تنحنح شارما. "نعم، هو كذلك، لنقل إن هنالك حادث قتل مزدوج قد حصل في منزلك، سيدي".

أغمض عينيه. إذاً لقد فعلها غولاب. كان يهتز من فرط الارتياح – والندم. كان يخالجه شعور المنتصر – والمرتعب. وكان هنالك صوت في الخلفيّة كما لو أن ثمة شجاراً يدور. سمع شارما يقول شيئاً ما باللغة الهندية، ثم كان هنالك صيحة مبهورة الأنفاس على الهاتف. "آلو؟" قال في حذر.

كان الصوت الخيشومي مألوفاً على سمعه. "فرانك، يا سيدي" قال بصوت منتحباً. "إننا أخوان الآن، يا للمصيبة، لقد دخلنا الآن معاً عصر الظلام يا ابن آدم".

صار هنالك دويٌ في أذني فرانك. براكاش. ألم يمت براكاش بعد؟ "تكلم معي بوضوح،" قال آمراً. "أعِد الهاتفَ من جديد إلى —"

ناح براكاش في أذنه. "لقد صار كلٌّ منا أرملاً الآن يا ابن آدم.. صرنا نحن الاثنان —"

قد يكون راكاش أصيب بطلقٍ فر رأسه. "براكاش،" قال. توقف عن الهذيان. أعطِ الهاتف للمفتش".

كان هنالك صمت – فمات فرانك ثم عاش مئة مرة من جديد في هذه الفترة – ثم عاد شارما إلى خط الهاتف. "إنني شديد الأسف يا سيدي، لقد كان هو الذي انتزع سمّاعة الهاتف مني –"

وفي الخلفية كان يستطيع أن يسمع نحيب براكاش. "أيها المفتش،" قال فرانك، وعيناه غارقتين بالدموع. "ما الذي حدث؟ ومن هو الذي مات؟"

حصلت قرقعة على خط الهاتف. "إنها الخادمة يا سيدي، وزوجتك أيضاً، إنني شديد الأسف يا سيدي، يبدو أنها حادثة سرقة روتينية، هكذا يبدو الأمر".

ضحك بصوت مرتفع من فرط شعوره بالراحة. "إن هذا أمر مستحيل. لأن زوجتي موجودة في خارج البلدة، إنها مسافرة في هذه الليلة إلى دلهي". إنها سالمة، حسب، إن إيلي سالمة.

"أستميحك العذر يا سيدي، إلّا أن الشاب هنا يقول إنها لم تغادر. إنه من المؤكد أن زوجتك هي القتيلة. لقد قمنا بالتأكُّد من صحة ذلك".

أغلق الخط مع شارما. وتجاهل الرنين الحثيث لهاتف الفندق بينما أصابعه تعمل على مفاتيح هاتفه الخلوي. شاشي. عليه بمكالمة شاشي. إن عليه أن يعلم ما الذي يجري. ألقي نظرة على راميش. كان الولد يغطُّ في نومه بفم مفتوح. كيف يستطيع النوم بحق الجحيم وسط كل هذه الجلبة؟ جال في ذهنه في تقزز. أشاح بوجهه عنه.

"مرحباً؟"" كانت نانديتا هي المتحدثة معه على الطرف الثاني. نانديتا الناعسة، لكن نانديتا مثله. هبطت معدته.

"نانديتا؟" لمَ أنتِ في البيت؟ لمَ لمْ —"

" من المتكِّم؟" بدا أن نانديتا لم تخرج بعد من نعاسها.

"أنا فرانك،" قال صارخاً. "لمَ أنتِ في البيت؟ أين هي إيلي؟"

"آسفة، لم أتبيّن صوتك من قبل، إن إيلي في بيتها. لم نسافر اليوم. سيقوم شاشي بمرافقتنا قرر ذلك في اللحظة الأخيرة. سوف نغادر غداً صباحاً بدلاً من اليوم".

أضغى في خوف ورعب، وهو غير قادر على استيعاب ما يسمعه. "فرانك؟" قالت نانديتا. "ما الذي يجري؟ وما الذي دعاك للاتصال بي؟".

بدأ جسمه بكامله يرتعد. "أنتما لم تذهبا إلى دلهي؟" كرر السؤال. "هل كانت إيلي في البيت هذه الليلة؟"

"صحيح. هل أنت تحاول الاتصال بها؟" بدت نانديتا حائرة. "لا بد لها من أن تكون هناك. وإنك تستطيع الاتصال بها".

لمَ لم تتصل به في الأمس لتخبره أنها قد غيَّرت خطَّتها؟ ولكن رغم تعجّبه، فقد عرف الجواب – لم تشأ إيلي أن تدخل عليه إبّان الوقت السعيد الذي يمضيه مع راميش.

كان هاتف الفندق لا يزال يرنُّ. تجاهَلَه. "فرانك،" قالت نانديتا من جديد. "إنك تستطيع الاتصال مع إيلي في البيت".

"لا أستطيع. لا أستطيع الاتصال بها، لقد تلقيت لتوِّي اتصالاً من البوليس. لقد حصلت عمليّة سطوٍ على المنزل. إن إيلي قد ماتت يا نانديتا. زوجتي ماتت".

أيقظ ساتيش من نومه، وأعطاه تعليمات بأن يقود السيارة في أسرع ما يمكن، والمجيء إلى فندق تاج لأخذهما. سيغادرون إلى جيربوغ في هذه الليلة. ثم ذهب إلى الحمام وفتح حنفية الدوش فوق رأسه وقد نسي خلع ثيابه. ملأ البخار غرفة الحمام ولذعت المياه الساخنة جلده. أسند وجهه إلى بلاط جدار الحمّام اللزج وخار بصوت يشبه خوار ثور صريع. صار يضرب الجدران بقبضة يده. قم سقط على الأرض. وقام بضرب البلاط برأسه. رفع معصمه إلى فمه وقام بعظّه. أراد يقاع الأذى والألم بجسده النادم. أراد إيذاء نفسه والشعور بألم جسديٍّ قوي. ألم يستطيع أن ينسيه، ولو للحظةٍ مباركة واحدة، عذابَ روحه.

لقد تسبّب بقتلِها. قتلَ أغلى شيءٍ في حياته. إن هذا العالم هو عالم أخلاقي، هكذا تبيَّن له بعد كل شيء. لقد حاول أن يلعب الأوراق التي في يده، حاول أن يلعب بمنطق: كل شيء أو لا شيء. لكنه خرج من المقامرة صفر اليدين. لم يعد بيده شيء. فقط، عالم من الخواء والفراغ، عالمٌ أُفرغ الآن من الإنسانة التي أحبته ووقفت إلى جانبه بثبات كما تصمد جذوة الشمعة في وسط الظلام.

خرج من الحمام يتقطّر ماء، نزع ثيابه عن جلده بعد أن التصقت به، ولبس روب حمام. دخل إلى غرفة النوم ونظر إلى راميش بكثير من الاهتمام كما يمكن أن ينظر المرء إلى حزمة من الأوراق النقدية. حاول أن يستجمع الشفقة بسبب الذي حدث لهذا الولد البريء، وكذلك الشعور بالذنب، بل الأكثر

دِقّة هو أنه شعر بالغضب من راميش. إذ هو قد خسر زوجته إيلي في سياقٍ مراهنته من أجل الحصول على هذا الصبي. هل صار هذا الصبي مجنوناً؟ هذا الولد الذي يستغرق في النوم والغطيط لا يبدو أنه يستحق هذه المقامرة لا من بعيد ولا من قريب. لقد كانت التضحية غالية جداً.

ذهب لإيقاظ راميش. لكن فكرة إخبار الولد عمّا رشح من جيربوغ جمَّدت الكلمات على لسانه. تركه ينام. لا بد لراميش أن يستيقظ في وقت ما، ليفتح عينيه على هذا العالم الذي تبدَّل تبدُّلاً لا يمكن إعادته ولا إصلاحه.

الفصل 35

كان من المقرر أن تغادر السيدة إيلي إلى محطة القطار عند الساعة السادسة مساء، ولكن حوالي الساعة الثالثة والنصف رن جرس الهاتف. "مرحباً ناندیتا،" سمعها براكاش تقول في سمّاعة الهاتف. "إنني شديدة الابتهاج — ماذا؟ فعلاً؟ حسناً، أعتقد أن لا بأس بذلك".

تكلمت لدقائق أخرى قليلة ثم جاءت إلى المطبخ حيث كان براكاش يقوم بإعداد قطع لحم الضأن التي ستحملها معها للعشاء في القطار. "آسفة لتكليفكَ بكلّ هذا العمل،" قالت له. "لكن يبدو أن هنالك تغييراً في الخطة. سنسافر غداً بدلاً من اليوم".

كان حريصاً على عدم إظهار الشعور بخيبة الأمل على وجهه. ففي الصباح كانت آدنا قد قالت له إنها تتطلع إلى بضعة أيام من الراحة بينما يكون فرانك وإيلي خارج البيت. "عطلة صغيرة من أجلنا نحن أيضاً، أليس كذلك؟" كانت آدنا قد قالت، "دون أن يكون مطلوباً منا أية أعمال طبخ أو تنظيف من أجلهما".

لقد كان يأمل قضاء هذا المساء مع زوجته، أما الآن، فإن عليه العناية بطلبات السيدة إيلي. "هل أعيد التوابل إلى الثلاجة يا مدام؟" سألها. "أم تريدين أن أقوم بقلي قطع اللحم من أجل تناولها هذه الليلة؟"

تنهدت إيلي. "سنأخذها معنا في رحلتنا على القطار غداً. لكن ربما صار عليك إعداد المزيد منها، يا براكاش – شاشي سوف ينضمُّ إلينا أيضاً. ولا تقلق بخصوص عشائي لهذه الليلة. فهنالك الكثير من بقايا الوجبات الفائتة في الثلاجة".

"سمعاً وطاعة يا مدام،" قال لها.

"إنها ليست مسافرة إلى دلهي اليوم،" أعلن لها حالما دخل إلى كوخها بعد نصف ساعة.

كانت آدنا رابضة في زاوية الكوخ تضيء موقد الكيروسين. "لا تتفوه بهذه السخافات،" قالت له في تذمُّر. "بالطبع إنها مسافرة، فقد قامت بتوضيب كل شيء من أجل ذلك".

"لقد غيَّرت رأيها، وسوف تسافر غداً بدلاً من اليوم".

"لماذا؟"

هزَّ كتفيه. "لأنها أميركية".

مطّت آدنا شفتها. "لا تبدأ الآن، أيها الغبي،" قالت له. "لستُ في مزاجٍ حسنٍ. وليس لدي وقت لتفاهاتك".

ابتسم. "إنك تفتقدين ولدنا راميش، هذا كل ما في الأمر. فرانك وراميش قد غادرا إلى بومباي في وقت مبكر صباح هذا اليوم".

حوّلت نظرها بعيداً عنه. "ربما". أنصتت وقد صعقتها فكرة. "وهذا يعني أنني سأقوم بأعمال التنظيف كالمعتاد؟"

حدّق في وجه زوجته المتعب. "بل أنتِ ترتاحين،" قال لها. "سوف أذهب وأهتمُّ بكل شيء بنفسي هذا اليوم".

استراح وجهها قليلاً. "شكراً جزيلاً لك يا حبيبي،" قالت له بهدوء.

حبيبي. إنها لم تناده بهذه الكلمة منذ وقت طويل. كان قلبه يصدح طرباً عندما اجتاز القناء الخارجي عائداً إلى المنزل الرئيسي. كانت إيلي تقرأ على الأريكة، فرفعت رأسها عندما دخل براكاش.

"ماذا؟"

"سأقوم أنا بأعمال الغسيل والتنظيف في هذا اليوم بدلاً من آدنا يا مدام. فإنها مرتاحة اليوم".

"لا تقلق بشأن ذلك يا براكاش. لست بحاجة لغسل أي ملابس اليوم".

وقف أمامها غير واثق. "إذاً، لا غسيل اليوم؟" سألها.

"كلا، ولا أي عملٍ آخر من أعمال البيت أيضاً. لقد سبق وأن قلت لكما إن هذه أيام عطلة لكما. إذن استمتعا براحتكما".

"سوف أقوم بتنظيف البيت قبل عودة سيدي فرانك مساء الاثنين". قال. إذ إن اعتقاده الهندوسي حول النظافة، تستفزُّه فكرة البيت الوسخ.

"كما تشاء".

"هل أقوم بتحضير الشاي لكِ الآن يا مدام؟"

"براكاش،" قالت له. "إنني لست بحاجة لأي شيء، حقيقة وواقعاً. بل إنني بحاجة للشعور بالخصوصية – أريد ألا يقاطعني أحدٌ بقيَّة هذا النهار".

تنهّد وغادر المنزل. ورغماً عنه، فإنه شعر بتأثر وامتنان تجاه إيلي. فهي لطيفة، في نظره. وهي تحفظ عهودها وتبرُّ بها له، كما أنها تعامله، وتعامل زوجته آدنا كما لو أنهما من رعيتها.

وبدلاً من العودة إلى الكوخ، فإنه قرر الذهاب بنزهة مشياً على الأقدام على محاذاة الشاطئ راغباً في الضحك، وفي اختزان هذه الهدية غير المتوقعة من الراحة، كما لو أنه يقوم باختزان نقود معدنية فضية في جيبه.

لكن البحر وحده جعله يفتقد راميش. تذكر كيف أنه كان قد أحضر راميش معه إلى شاطئ البحر للمرة الأولى يوم كان عمر الولد ستة أيام فقط. إذ إنه يومها كان قد أحضره برغم احتجاجات آدنا وخوفها عليه من أن يصاب بالبرد، أحضره إلى البقعة ذاتها التي يقف عليها الآن، وقام برفعه. آنذاك بين ذراعيه. "انظر إلى هذا،" قال يومها لابنه. "كل هذا البحر هو لك. إنني لن أمتلك شيئاً من البرّ أبداً. إنّ أرض والدتك هي في غوا، لكنها أرض لن يمكنك أن ترثها. لكن هذا البحر، وهذه الرمال، وهذه السماء، فإنها كلها عائدة إليك. ولا يمكن لأحدٍ أن يسلبها منك. وعليك أن تتذكّر هذا".

وخلال سنوات خدمته لأولاف، اعتاد الثلاثة المجيء إلى الشاطئ لتناول العشاء على الرمال، ثم العودة إلى البيت مع هبوط الشمس خلف خط الأفق. كما أنه هو وراميش كانا أحياناً يركبان ظهر قارب صيدٍ في صبيحات أيام الآحاد. وكانا يعودان إلى البيت عابقين برائحة السمك، وتقوم آدنا مازحةً بإغلاق أنفها بينما هي تقوم بتسخين الماء لحمّامِهما. لقد كان هذا هو الشيء الجميل حول أولاف بابو – كان لا يهتمُّ سوى لشؤونه الخاصة. أعطِ الرجل بيتاً نظيفاً، ووجبات ساخنةً، مقدَّمةً في أوقاتها، واسكبْ له كأساً من الشراب عند الساعة السابعة مساءً بالضبط، ودَعِ غولاب يُحضِر له امرأةً مرةً واحدة كل أسبوع، وسيكون بذلك مكتفياً سعيداً. فهو لن يطلبَ منهما أية طلباتٍ إضافية. وهو لن يحاول أن يتدخّل كالسّوسةِ في حياتهم العائلية.

كان يقوم بركلِ كتل الرمال بينما هو يمشي، وبات الامتعاض يفتح ثقوباً دقيقة في القناعة التي كان يشعر بها عندما غادر البيت. قرّر تغيير طريق سيره. أراد الذهاب إلى السوق لشراء علبة من الحلوى يقدمها إلى زوجته. فهما في ما يشبه إجازة بعد كل شيء، وعليهما القيام بنوع من الاحتفال للمناسبة.

بدت آدنا شديدة الامتنان، لكنها قليلة الاهتمام عندما قدّم لها الهدية. فبعد أن نحّت العلبة جانباً، فإنها ما لبثت أن قالت، "سوف آكل هذه الحلوى في وقت لاحق. فإن معدتي تؤلمني في الوقت الحاضر".

"أترغبين في شيء من الشاي؟" سألها. لكنها هزت رأسها في كل بساطة، بالنفي. "بل أريد أن أنام".

جلس يراقبها لمدة نصف ساعة بينما هي نائمة. بدا له الأمر غريباً، أن يكون بين يديه وقت له، لكنه رغم ذلك لا يجد رفيقاً يصرف ذلك الوقت برفقته. خطرت له فكرة مفاجئة – إن بإمكانه الذهاب إلى السينما. نهض على قدميه متسائلاً عمّا إذا كان يجدر به إيقاظ آدنا. لكنها كانت تنام نوماً هنيئاً. لذلك، فإنه قرر الذهاب من دونها. وكانت دراجته مركونة في زاوية البيت. امتطى الدراجة، وقادها في اتجاه دار السينما الوحيدة في القرية. أمضى الساعات الثلاث في الظلمة، كان قلبه يسمو أثناء الأغاني الراقصة الرومنسيَّة، ويمتلئ غيظاً أثناء اللقطات التي تمثل ألاعيب الأوغاد الدنيئة. ترنّم الرجل الذي يجلس خلفه بجميع الأغنيات بصوته، ورافق كل فصول الحوار والكلمات التي يقوم الوغد السافل بتردادها. "اصمت،" قال بصوت مهسهس مستهجن بضع مرات، لكن ذلك لم يؤثر في سلوك الرجل الجالس خلفه.

كان الظلام قد خيّم عند خروجه من قاعة السينما. همَّ بركوب دراجته قافلاً إلى البيت، لكنه مرّ بحانوت بائع الشراب في القرية فقرَّر أن يحتسي كأساً قبل متابعة طريقه إلى البيت. وهنالك التقى مُوتي، ابن إسكافي القرية، فاشترى الأخير له كأساً أخرى. وقد اقتضى الأتيكيت منه مبادلة الشيء بمثله. وهنا انضمّ إليهما بضعة رجالٍ آخرين. هذا شيء جميل، حسِب براكاش، وفيه كثير من المتعة التي تزيد عن قيامه بالشرب وحيداً في البيت في ظل نظرات آدنا المستهجنة. كان الرجال ودودين معه في هذا اليوم، إذ شعر أنهم يقرِّبونه منهم. وبذلك فإن الشعور بالغزلة، الذي ينتابه عندما يكون بين أهالي القرية قد تبخَّر اليوم. فهو يشعر بنفسه في هذه الليلة كأنه واحد منهم، ولم يعُد يجد نفسه ذلك اليتيم الذي يقف على هوامش حياتهم. لقد كان شعوراً قوياً، ذلك الإحساس بالانتماء، هذه الرفقة، كل هذا جعله يرغب في المزيد من الشراب ابتهاجاً. وعندما ترنّح في نهاية المطاف خارجاً من الحانة، فإن ما أذهله هو أن تكون الساعة قد بلغت العاشرة ليلاً. قاد دراجته بسرعة بالقدر الذي سمحت له به قدماه الرخوتان.

شجَّع نفسه، واستعدّ لعاصفة الغضب التي ستستقبله آدنا بها حالما تطأ قدماه عتبة الكوخ. أمّا ما لم يكن محتسباً له، فهو منظر زوجته المتكوِّمة على نفسها في وضع جنينيٍّ فوق السرير. كان وجهها عابقاً، والعرَق بتفصَّد من جبينها.

"براكاش،" قالت بصوتٍ لاهثٍ عندما رأته. "أين كنت؟"

"ذهبتُ لمشاهدة فيلم سينمائي. ماذا أصابك؟"

"لست أدري. تشنجات رهيبة في معدتي. لعلني قد تناولت طعاماً أصابني بالضرر. مع أن الحقيقة هي أنني لم أتناول الكثير من الطعام هذا اليوم". كان صوتها شديد الانخفاض، وكان عليه أن يجثو على ركبتيه كي يتمكن من سماعها.

استولى عليه الذعر. وتمنى لو أن رأسه لا يدور بهذه السرعة، لعله يستطيع التفكير في ما ينبغي عليه أن يفعل. "أتريدين أن أطلب طبيباً لكِ؟" قال لها، وذلك رغم تذمره أنهم مدينون للطبيب بمبلغ مئتي روبيَّة.

رفعت آدنا رأسها. "كلا،" قالت لاهثة. "لا أريد طبيباً، أرجوك". فهي تختزن خوفاً كبيراً من الأطباء، وهو يعرف ذلك.

"انتظري،" قال. "سوف أعود حالاً".

"براكاش، ابقَ هنا، أتسْمَع؟"

"سوف أعود بعد دقيقتين ليس أكثر". سحب يديه من يديها.

كانت الأضواء مطفأة في البيت الكبير، وللحظةٍ قلقَ ألّا تكون إيلي في البيت، كأن تكون قد غادرت لمقابلة السيدة نانديتا لتتعشى معها ربما، أو لربما تكون قد آوت إلى فراشها. قرع باب المطبخ بشدة، وعندما لم يتلقَّ جواباً، عاد إلى القرع من جديد. ولشدة ارتياحه، فقد اشتعل ضوء. وبعد ذلك بلحظة، فتحت إيلي الباب ونظرت إليه بعينين نصف مغمضتين.

"ما الأمر؟" ثم قامت بعرك أنفها، "لقد كنت تشرب، أليس كذلك؟"

"إيلي، يا سيدتي، تعالي إلينا بسرعة، بسرعة. زوجتي آدنا مريضة جداً". خرجت الكلمات منه متداخلة، رغم أفضل جهوده التي بذلها.

لاحظ كيف أن جبهتها قد تغضنت بالقلق. "ما خطبُها؟" سألت، ولكن قبل أن يجيبها، كانت قد اختفت داخل البيت. وعندما عادت من جديد كانت قد وضعت عليها جلباباً فوق بيجامتها. "لنذهب،" قالت وهي تهرع عبر الفناء.

كانت آدنا تضع يدها على بطنها وتئنّ بهدوء. "أشعِل الضوء،" أمرته إيلي، ففعَل. جلست إيلي عند حافة سرير آدنا. "قولي لي ماذا يحدث معك،" قالت لها بلطف.

لعقت آدنا شفتها العليا. "لست أدري يا سيدتي،" قالت لاهثة. "لكن معدتي تؤلمني كثيراً".

"هل عليك حرارة؟" وقبل أن تتمكّن آدنا من الجواب، استدارت نحو براكاش. "هل لديكما ميزان حرارة؟"

حدَّق نحوها، وكان دماغه المخمور يعمل جاهداً لتذكُّر كيف يكون شكل ميزان الحرارة. أطلقت إيلي صوتاً غاضباً. "لا بأس،" قالت، ثم نهضت مغادرة الكوخ. عادت بعد برهة وجيزة. "ها نحن هنا". ابتسمت نحو آدنا. "دعيني أضع الميزان تحت لسانك، أوكي؟"

لم يتبيَّن لها وجود حرارة عالية. "هذا جيد،" قالت إيلي. "وهذه بعض الحبوب النافعة لآلام المعدة. أتستطيعين الجلوس لابتلاعها؟" نظرت نحو براكاش. "اذهب وأحضر لي كوباً من الماء".

ساعدت آدنا على الاستواء في سريرها. "اغلِ لنا وعاء من الماء". طلبت من براكاش. "سوف أرجع ومعي جعبة الماء الساخن".

وقبيل منتصف الليل بقليل، كانت التشنجات قد قلّت، لكن حالة آدنا كانت لا تزال غير مُرضية. جلس براكاش رافعاً رأسه في الزاوية محاولاً جهده أن يبقى صاحياً. يا إلهي. كان يصلّي. أرجع العافية لزوجتي آدنا، وسوف لا أقارب هذا الشراب المنكر لمدة أسبوع كامل.

جلست إيلي على السرير المقابل لسرير آدنا. "أأنت نائمة؟" قالت هامسة.

"لا يا سيدتي،" أجابتها آدنا على الفور. "لقد خفَّ الألم لكنه لا يزال موجوداً".

نظرت إيلي حولها نظرة عديمي الحيلة. "أظن أن علينا استدعاء الدكتور غوبتا".

نظرت آدنا إلى السقف. "كلا يا سيدتي، أتوسل إليكِ، لا أُريد طبيباً".

"ولكن لماذا...؟"

ضمّت آدنا راحتي يدها. "أتوسل إليكِ. لا تستدعي طبيباً".

"أصغِ إليَّ"، قالت إيلي. "دعيني أكلّمه على الهاتف على الأقلِّ، أوكي؟" كانت قد أخذت تمشي إلى الباب قبل أن تتمكن آدنا من الاستجابة.

نهض براكاش عن الأرض، وجلس متناولاً يد زوجته. لم يدرِ كم من الوقت قد مرَّ قبل رجوع إيلي. "حسناً"، قالت بصوتٍ عالٍ. "لقد تكلمتُ مع الدكتور غوبتا، وهو يقول إنه ما دام أنه ليس ثمة حرارة لديك، فإن هذه إشارة حسنة. لكنه يريدك أن تبتلعي حبتين إضافيتين من هذه الحبوب". مدت إليها الحبتين الطويلتين الزهريتين.

"شكراً لك يا مدام،" قالت آدنا. "عودي إلى بيتك يا مدام، لقد تأخر الوقت كثيراً".

واستجابة لذلك، استدارت آدنا نحو براكاش. "انتبه"، قالت له. "سوف أمضي بقية هذه الليلة هنا بالقرب من آدنا. إنني — إنني سأنام على هذا السرير لأبقي نظري عليها. أما أنت فأذهب إلى البيت الرئيسي، خُذ بعض الحرامات، ونَمْ في المطبخ. مفهوم؟"

ترنّح ناهضاً على قدميه دون أيّ احتجاج. وحالما نهض، فإن غلالة السكر ارتفعت عنه لحظةً، فرأى بيته بوضوح - رأى كم هو يبدو فارغاً وبالياً بالمقارنة مع المنزل الرئيسي الباذخ الثراء. نظر إلى الملاءة الوسخة التي يتدثّر بها أثناء الليل، وإلى افتقاره لوجود وسادة فوق السرير المصنوع من القنّب. "أستأذنكما،" قال مغمغماً، وسار بخطوات عاثرة إلى الخارج. وعندما صار خارج الباب، ذهب إلى ما وراء البيت ثم مشي مسافة، ثم أفرغ مثانته عند جزع شجرة على الشارع. فهو ما كان سوى ليشعر بالخجل لو قام باستعمال غرفة الحمام الصغيرة في بيته الخاص مع وجود إيلي هناك، وذلك نظراً لمعرفته أن ما يفصل هذا الحمّام عن بقية مساحة الكوخ إنما هو باب واهٍ لا يخبئ الكثير من الأصوات والروائح. بعد ذلك، قام بالدخول إلى البيت الرئيسي، وفتح خزانة الملاءات. انتقى من بينها ملاءتين – واحدة لفرشِها فوق السرير الذي عَلِمَ أنّ إيلي لن تجدَه مريحا للنوم، والثانية لكي تغطّي نفسها بها. وتساءل عما إذا كان يحسُن به الذهاب لإحضار وسادتها أيضاً لكنه خشي من فكرة القيام بملامسة سريرها دون إذنٍ مسبقٍ منها. أسرَعَ عائداً إلى الكوخ. كانت إيلي من جديد حادبةً على آدنا تقوم بتمليس شعرها. استعمَلَ هذا الوقت لتهيئة السرير.

"هل لي بالبقاء أنا أيضاً؟" همس إلى إيلي. "يمكنني أن أنام في الغرفة،" أضاف في عجل.

حدقّت نحوه. "إن المكان شديد الضيق والحرِّ هنا،" قالت. بينما عبرت على وجهها نظرة انزعاج. "هذا إلى جانب أنك شديد الثمل لتكون نافعاً أو مفيداً. والأفضل لك أن تطيِّر سكرتك هذه في النوم، وأن تكون نشيطاً وصاحياً في الصباح. فإنني متأكدة من أنها سوف تكون في حاجةٍ إلى مساعدتك غداً".

"كما تشائين،" قال بصوت خفيض. تقدَّم وقبَّل جبين آدنا وتلقّى منها في المقابل أدني قدَرٍ من الابتسام. "أرحْ نفسَك قليلاً،" قالت له.

حالما عبرَ الباحةَ الخارجيّة، تصارعت في داخله مشاعر الامتعاض بسبب طردِه من مسكنه الخاص، مع مشاعر أخرى تقوم على الامتنان لإيلي بسبب إصرارها على قضاء الليل في بيته للعناية بزوجته. إذ ليس هنالك الكثير من

السيدات المخدومات ممن يقمن بعمل مثل ذلك، ذكّر نفسه. وعندما وصل فرش لنفسه ملاءةً لها رائحة الخزامى على أرض المطبخ الباردة النظيفة المتجددة الهواء، وما لبث أن أستسلم للنوم بعدما لم يبق من مشاعره المتناقضة سوى مشاعر العرفان بالجميل.

احتقان مثانته جعله يصحو بعد ذلك بساعات قليلة. كان يحاول النهوض عن الأرض كي يذهب ويتبوّل عندما سمع: "بُّوبّ"، تبعتها صرخة امرأة. ثم ثلاث أصوات "بّوبّ" أخري سريعة، ثم توقُّفٌ تلته "بُّوبُّ إضافية. شيء ما، تحطّم، تبعه صمتٌ مفاجئ، وكان الصمت أكثر وقعاً من الأصوات التي سبقته. ولم تكن لديه فكرةٌ عن ماهيّة أصوات "البُّوبُّ" هذه، لكن قلبه كان يخفق، بينما كان ينهض على قدميه ويندفع نحو شباك المطبخ. وهنا رأى المشهد: رجلٌ طويلٌ طول شجرة، خرج من الكوخ واختفى في ظلمة الليل. رمش براكاش بعينيه بضع مرات راغباً في تحليل ما إذا كان هذا الحضور الشبحيُّ غولاً أو جنِّيّاً. لكنه ما لبث أن أستولى عليه الذعر، إذ رأى الشبح يتحرك في بطءٍ في اتجاه البيت الرئيسي. تحرَّكت يدا براكاش المرتعشة، بدافع الغريزة نحو مفتاح الضوء. ضغط عليه مالئاً جو الغرفة بالنور الباهر. هنا توقف الشكل الشبحيُّ في مكانه ثم تراجع بعيداً متجهاً بسرعة نحو الطريق الخصوصي. إنه شبح لا محالة، هذا ما فسّره عقل براكاش المخمور والمؤمن بالخرافات. إنه شبح تطرده نقاوة الضوء. خُيّل إليه أنه قد رأى الشبح يقفز فوق الحائط الوطيء المصنوع من الطوب، ثم يذهب إلى الطريق الخاص، لكن الظلمة كانت شديدة بشكل لا يمكن معها التأكد من شيء. وقف قرب الشباك عدة دقائق إضافية. ثم تذكّر الصرخة. وبينما هو يسرع عبر الفناء الخارجي، إذ به يسمع صوت اشتعال محرك سيارة عبر المسافة. إلّا أنه لم يعطِ لذلك بالاً.

كان باب الكوخ مفتوحاً. دخل. "آدنا؟" قال هامساً. لم يلقَ استجابة. ثم سمع الصوت - أنين هو غاية في الانخفاض والروع بحيث بات شعرُ رأسه ينتصب واقفاً. أضاء المصباح، فشاهد المشهد الذي سوف يبقى يشاهده عندما يصبح عجوزاً في السبعين من عمره عندما يستفيق من كوابيسه المرعبة كل ليلة.

كانت آدنا لا تزال في وضعية الجنين تحيط معدتها بذراعيها. لكن الآن كان يوجد نهر من الدماء يتدفق من معدتها تلك. وبدلاً من الشريط الأحمر الذي أعتادت أن تعصب به جبهتها كان هنالك ثقب عيار ناري بحجم قطعة الروبيَّة. أما عيناها فقد كانتا مغلقتين.

نظر إلى يمينه. فرأى إيلي جالسة في سريره متكئة إلى الجدار المجصّص. وكان رأسها ملتوياً فوق عنقها بينما فمها مفتوح، وكان ثمة مسيلٌ نحيلٌ من الدم يترقرق منهِ. أما ساقاها فكانتا منبسطتين أمامها. واما الجدار

وراءها فقد كان مطرطشاً بالدماء وبمادة صفراء حيَّة لا تزال تنسكب من رأسها.

وصدرت أنّه عن إحداهما. من هي التي تئنُّ؟ إن إحداهما كانت لا تزال حيَّة عند دخوله إلى الغرفة "آدناااااااااا،" صرخ. "مدااااااااام". ولكن لم يكن هنالك من استجابة.

جثا على ركبتيه أمام زوجته. التقط يدها، ولكن عندما ترك اليد فإنها سقطت إلى الأسفل دون حياة. لقد ماتت. وفي ذهنه المرتجف كالقوقعة، تسجلت الرؤيا كواقع حقيقي لا مصدر حُزْن؟ إذ ليس بعد. وبينما هو لا يزال على وركيه، زحف نحو إيلي. كانت الأرض ساخنة وصقيلة وزلِقة. "سيدة إيلي". ناداها. "يا سيدة". حاول رفع ذراعها، لكن شيئاً حاول زاوية الذراع، والطريقة اللاطبيعية التي ينثني با أعطاه الإجابة التي يحتاج إليها.

البوليس. إنه في حاجة إلى إعلام البوليس. انطلق بسرعة زاحفاً على مقعدته نحو الباب. شعر كأنه يعوم فوق دمائها الحارة التي تغلي. وللمرة الأولي صار منتبهاً إلى رائحة المنطلقة من هذه المجزرة العابقة في أرجاء الغرفة. وعند ذلك بدأ من فوره بالشعور بالغثيان وبالرغبة في التقيُّؤ. اخرج. إنه بحاجة إلى الخروج. نادِ البوليس. نفس هواء نقياً. نهض على قدميه، لكن إحداهما زلَّت به فوق الأرض الزلقة. ثبَّت قدميه، وكان قد بلغ الباب تقريبا عندما خانته مثانته. وبعد هذا الإرسال جاء إرسال آخر: لقد خرج من قوقعة الخدر التي كانت تحميه والتي كان قد بناها حول نفسه.. خرج إلى قارّة الأحزان السوداء.

وهكذا، وقف براكاش عند الباب، تنهمر الدموع عبر وجهه الملطخ بالدم، والبول الساخن يتحدَّر على ساقيه المرتجفتين وهو يراقب الجسدين الأنثويين المشوهين.. جسمان سوف يطارده شبحاهما طيلة بقية أيام حياته.

الفصل 36

هبط سلّم الدرج الذي يربط بين الشرفة وبين الفناء الخارجي، ثم عبرَ المرجة المزروعة بالعشب الأخضر، ومنها إلى درجات السلم الحجري الأكثر انحداراً والذي يقود إلى الشاطئ. وعلى الرمال السمراء، ومباشرة أمام عين شمس الضحى اللاهبة إلى توهجت فوق المياه كما لو أنها امرأة سليطة تقوم بتقريع الأمواج المحتجَّة. ثم وبعد انعطافه حادّة خارج بيته، إذا به يجري على المنطقة المنبسطة الداكنه الموحلة من الشاطئ الرملي حيث الأمواج تعدو وتتواثب مخلوعة الفؤاد كالجرذان.

ركض. وكانت قميصه لا تزال معلَّقة على الأرجوحة على شرفة بيته، كانت ترفرف كعلم أبيض في الهواء. كانت الشمس تشوي جلد ظهره، محوّلة بشرته إلى لون أحمر بلون سمك السلمون. فمع وصول يوم غدٍ سوف تكون الشمس قد أحرقت جلده، وسيغدو لحروقها شعوراً لذيذاً. وتلك إضافة إلى مجموعة أساليب أخرى كان يحاول بواسطتها تعذيب نفسه منذ وفاة إيلي. ركّز الآن على كون حذاء السنيكرز الذي ينتعله، ضيقاً. وكيف أن فردتي الحذاء تلحسان إبهامي قدميه، وكيف أن ذلك يرسل شرارات عارضة من الألم التي يتضوّر دماغه جوعاً لتسجيلها. وفي وقت لاحق لا بدّ له أن يلاحظ تورُّد القرح الأحمر فيعجبه ذلك وينقب مركز القرح ليشعر بطعم العذاب اللذيذ. فكم كان الألم الجسدي نظيفاً وبسيطاً وحُراً من السخرية. وكم هو كبيرٌ الفرق بينه وبين العذاب الذهني الذي بات يكافح في كل لحظة من حياته لإبقائه في وضع يائس.

وتابع الجري. منتظراً قدوم اللحظة التي تنفجر فيها رئتاه، الحظة التي تتحدَّر فيها منه انهار من العرق، اللحظة التي يدفع فيها الإعياء ربلاتِ عضلاته إلى الاهتزاز، ويستحيل ذهنه إلى صفة بيضاء خالية، صفحة يكون نقاؤها لا رحمة فيه، كورقة بيضاء من اللاشيئية والعدمية. تلك اللحظة السحرية التي ستُدخِله إلى إقليم يتوقف فيه عن كونه رجلاً مفكراً معذّباً، ليتحول بكلّ بساطة إلى حيوان، إلى مخلوق آلي، إلى مجموعة من أعضاء جسد متحرك -

صدر يعلو ويهبط بعنف، وظهر مسلوخ، وعضلات فخذين صارخة بالألم، وعينين دامعتين من شدة وهج الشمس.

كان قد أحرق جثتها على نار المحرقة منذ يومين. لقد تجاهل توسلات أمها وأمه لنقل الجثمان جواً إلى أميركا لإجراء طقوس دفنٍ لائقة. وفي البداية، كان قد حاول إقناعهما بالمنطق، وأن يشرح لهما كم أنّ الأمر صعب من الناحية اللوجستية، وكيف وأنه غير مؤهل للتعاطي مع البيروقراطية الهندية في مثل هذا الوقت. لكن آن عرضت عليه فوراً قيامها بالسفر إلى جيربوغ لمساعدته في هذا الأمر. وهنا ما كان منه سوى التراجع عن هذا الخط في الإقناع. وعمد إلى استعمال آخر خرطوشة في جعبته. ذلك أن إيلي أحبت الهند. هذا ما صار يقوله لهما. لقد قالت لي أخيراً إنها لا ترغب في مغادرة الهند. وهذا - هذا يبدو منه أن تركَها هنا أمرٌ محقٌ. فأنا لا أفعل سوى تحقيق رغباتها. وهو خلال كل ذلك لا يدري مدى الصحة في ذلك من مدى مجرد الرغبة في الإقناع. كما أنه لا يعرف ما إذا كان هو نفسه مصدِّقاَ لكلماته أم لا. وهو لا يعرف أيضاً ما إذا كانت ذاكراته حول قيام إيلي بقول هذه الكلمات هو شيء دقيق أم هو مجرد كلماتٍ يحلم بها. والشيء المدهش أن الأمر في كلا الحالين لا أهمية له. فالأمر كله عبارة عن كلمات وأفكار تملّصيَّة، سريعة الزوال تطوف في المجال طواف الغمامات الذاهلة. فالحقيقة الوحيدة الهامّة هي أن إيلي قد ماتت. ويمكنهم القيام بما بدا لهن من الشجار جول جسدها، أيقومون بدفنه أم بإحراقه، يقومون بنقله إلى أميركا أم يبقونه في الأرض التي سقط عليها، لكن كل ذلك لن يقلل من الروع شيئاً. كل ذلك يغير الحقيقة التي تقول إن إيلي التي أحبَّها، إيلي التي استراحت روحها في كلِّ ثقبٍ من ثقوب جلده، إيلي التي أعطت لحياته شكلاً ومعنى.. هذه الإيلي قد غادرته ورحلت.

ومن أجل ذلك، فإنه عندما قام المفتش شارما بقيادة السيارة به إلى المشرحة الواقعة على بعد خمسين كيلومتراً خارج جيربوغ من أجل القيام بالتعرف على جثة زوجته، فإنه لم يتمكّن آنذاك من تبيُّنها. فامرأته لها عنق أنيق، وهذه المرأة لها رقبة مكسورة. وامرأته لها عينان لامعتان كجوهرتين، وهذه المرأة لها عينان كالزجاج المغشى، وامرأته لها صدر ناعمٌ ومُتّسق، وهذه المرأة لها ثقبان كالأزرار في أسفل عظم صدرها، حيث اخترقته الرصاصتان. والأهم من كل ذلك، هو أن امرأته لها إطلالة عند الرقاد توحي بالسلام والاكتفاء، وهذه المرأة لها وجه ملتوٍ على الغضب والاهتياج، كما لو أنها قد أغيظت بفعل قوة قبيحة قد هبطت عليها. وفي الطريق إلى المشرحة كان يشعر بالسقم لأنه خائف من أن ما قد يشهده يتضمن توقُّع النظر إلى الجسد بما يكفي فقط لتمييز جسد زوجته. لكن ما حصل بدلاً من ذلك هو أنه وجد نفسه يحدّق في ذلك الجسد ويحدِّق به، منتظراً بروز إيلي منه. مثلما

ينتظر النحات خروج شكل المنحوتة من قطعة الرخام. نحتَ ونحت بأبصاره في هذا الجسد بحثاً عن إيلي التي تخصّه. لكن شيئاً لم يحدث. وبدلاً من ذلك، فإن القيّم على المشرحة قام بإفراد الملاءة البيضاء فوق الجسد من جديد. وعند ذلك فقد استطاع أن يتنبّه إلى جسده المرتجف. وأيقن أنه إنما كان يتقيَّأ على نفسه دون انتباه.

"لا بد لنا من أن نلقي القبض على الجاني، سيدي،" كان شارما يقول. "لا تخف، أعدُك بأننا سوف نلقي القبض عليه".

ولقد فهم فرانك الرعب الحقيقي لموقفه. فهو لن تكون له حتى المؤاساة الاعتيادية التي تصاحب معظم جرائم القتل - ألا وهو التعزّي المتمثل في البحث عن القاتل؛ وفي اقتران الإشارات والدلائل، وفي الغضب الحانق المنصبّ على المجرم الغادر. ففي حالته هو، فإن القاتل يسكن في داخله. وعليه: فإن كل غضبه ونقمته لا بدّ لهما أن يتّجها إليه بالذات، فالجريمة والعقاب هما واحدٌ هنا.

وقف ديبّاك بجانبه في الحقل المفتوح بعد ذلك ببضعة أيام بينما كان هو يشهد إحراق جسد إيلي. صارت النار تقرقع وتهسهس عندما أخذت تلتهم الدهن، وقد ذكّره صوت فرقعة عظام إيلي بصوت بندقية الضغط التي كان يوماً يلهو بها مع أخيه سْكُوت عندما كانا لا يزالان صغيرين. وقد أثارت الأصوات التي أحدثتها النار، صدّه، إلى درجة أنه صرف معظم الوقت فيما هو يجاهد رغبته في الاستفراغ. لكن هناك أيضاً شيء ما، نظيف وجميل حول فكرة التهام النيران لجسد إيلي بدلاً من ترك هذا الجسد لنزوات وشهوات الديدان النهمة. وبدلاً من إنزال جثمان إيلي إلى جوف التراب، فإنه قد رفعه إلى السماوات، إلى حيث كان هذا الجسد يهرب على متن سحبٍ كثيفةٍ من الدخان. إنه بالضبط، هو نوع الإنفاق المسرف، واللفتة الكبيرة، اللذين كانت لا بدّ من أن تختارهما.

سمع وراءه صوت بكاء امرأة، فأدار رأسه قليلاً. كانت هذ نانديتا التي تتنهنه في حزنها مستندة على جسد زوجها شاشي. شعر فرانك بالامتنان لهما. فهو نفسه لم يكن قادراً على البكاء. كانت نانديتا وشاشي يشكلان عائلتهما الهندية. وبكاء نانديتا لطّف شيئاً من شعوره بالذنب لوضع أهلِه وأهلِ إيلي في موقفٍ حرج. لقد أرادوا جميعاً الاندفاع إلى جيربوغ بالطبع. لكنه لا يستطيع احتمال ذلك. "فرانك، إنك لا تفكر في أحدٍ سواك"، كان سْكُوت قد قال له معنّفاً بلطف، وكان أخوه محقّاً.

"أقول لك بصريح العبارة، "أجاب. "إنني — إنني لا أستطيع. لا أستطيع التفكير في أيٍّ كان سواي. إنني في حاجة إلى...إن هذا الأمر يتعلق بإيلي،

وبي أنا. ولا يتعلق بأحدٍ سوانا. لا أحد يستطيع أن يفهم ذلك".

تحوّل اتجاه الريح قليلاً، وعبقت في الفضاء رائحة غريبة. تقيَّأ لكنه أرغم نفسه لاحقاً على التوقف. لقد غيّر النسيم من منحنى ألسنة النار، بحيث إنها، وبدلاً من الانطلاق عمودياً في الفضاء فإنها مالت وانحنت قليلاً. ومن خلال فسحة الفضاء التي وفرها الاتجاه الجديد لذؤابات النار، تمكن فرانك من رؤية القامة الطويلة لرجل يقف على الجانب الآخر من المحرقة، رجل يحدِّق نحوه هو مباشرة. هبطت معدته. لقد كان هذا غولاب. ومن خلال اللهب والدخان راى فرانك أنه غولاب كان يقف وقفة مستقيمة متأهّبة وكأنه يقوم باستعراض فرقة عسكرية.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يلمحه فيها منذ حصول الجريمة. ولقد كانت تأخذه قبل تلك اللحظة أفكار واهمة حول الذهاب إلى ذلك الرجل وقطع ودَجَيه مباشرة [(*)]. لكنه الآن، وفيما هو يراقب غولاب يحدّق إليه، فإن عقدة قد تكونت في حنجرة فرانك. لقد جاء غولاب إلى هنا بقصد الاعتذار إليه. جاء لتكريم رحيل إيلي. كان هناك شيء ما، في هيئته العسكرية، وفي وقفته المتأهِّبة ممّا أوحى إلى فرانك بذلك. ومع ذلك، فإن فرانك لم يكن يستطيع تحمُّل النظر إلى غولاب. ليس الآن. أحنى رأسه قليلاً نحو الأرض. وعندما رفع نظره إلى الأعلى لم يكن هنالك سوى الهواء. تبخّر غولاب. تطلّع فرانك حوله، رغم معرفته بأنه سوف لن يرى رئيس قسم أمنه مرة جديدة.

وكان هناك قرقعة أخيرة للنار ثم خبا كل شيء.

تلا فرانك صلاة الرحمة لراحة نفس إيلي. ولاحظ أن الرجل الذي كان يقوم على إيقاد نار المحرقة قد مشى في اتجاههم. ذهب الرجل إلى المكان الذي يقف فيه شاشي وهمس شيئاً ما له. قدِم شاشي الذي كانت عيناه كبركتي دماء على فرانك. "إنه يريد أن يعرف ما إذا كنت ترغب في جمع رمادها الآن. أم أنه يستطيع إرسال الرماد لاحقاً".

واستجابة لذلك، مشى فرانك إلى المحرقة والتقط شيئاً من رماد إيلي. مسح الرماد على شعره الرمادي ثم قام بمسح كفه الأيمن على كفه الأيسر. لقد كانت على جلده، وهي الآن جزء منه. جزء لا ينفصل عنه، على الدوام. عاد كي يواجه شاشي. "إنني لا أريد الرماد. إنني لا أريد الرماد. إنني — إنني لا أدري ماذا يمكنني أن أفعل به". توقف بعد أن طرأت عليه فكرة. "في الحقيقة، إذا كان ذلك لا يضيركما، فإنني قد أسمح لنفسي بأن أطلب منكما ذرّ هذا الرماد في الريف بعد أن أكون قد غادرتكما. فلعل ذلك يعجبها".

تبادلت نانديتا وزوجها النظرات. وكانت هي من تكلم أولاً. "سنفعل ذلك". مشى الثلاثة خارجين من مكان المحرقة التي انطفأ لهيبها في اتجاه المكان

الذي كانت فيه سيارة شاشي في الانتظار. ثم رآهم فرانك، كانوا مجتمعين معاً إلى اليسار في ظل شجرة كبيرة. كانوا جماعة من الناس من مصنعه بالإضافة إلى قرويين آخرين لم يستطيع التعرف عليهم، بما فيهم بعض الأطفال والمراهقين. كانوا يقفون ورؤوسهم خفيضة. ويدا كل واحد منهم مضمومتان. وهكذا، فإنهم قد جاؤوا لتقديم آخر مشاعر احترامهم لـ: إيلي. عجِبَ لمبلغ تأثره بذلك. وبعد أن تبادل نظرة مع كلٍّ من شاشي ونانديتا، تقدم نحو الجماعة. "شكرا لكم،" قال لهم بكل بساطة. وكانت عيناه غارقتين بالدمع، وكان ثمة غصَّة فى عنقه بحجم كرة بيسبول. إنني - إنني أشكركم بكل إخلاص".

نظروا إليه نظرة مشدوهة. قام بإطباق كفيه والانحناء برأسه. ومن ابتساماتهم المفاجئة، عرف أنه قد نجح في إيجاد صلة معهم.

"السيدة إيلى سيدة عظيمة،" قال شاب مراهق. "إنها تقوم بتعليمي".

رفعت فتاة شابة يدها، وعرضت أمام عيني فرانك إسوارة ذهبية رخيصة. "لقد منحتني إياها بعد أن نزعَتها من معصمها".

ثم تكلم الجميع معاً، أشعر أنه مغلوب على أمره إن لجهة ولائهم لإيلي وعرفانهم بفضلها، وإن لجهة يقينه الآن أنه كان غافلاً عمّا تعنيه إيلي بالنسبة إليهم. فما كان يعتقده انغماساً وهمياً من جانبها، وأنه يعبِّر عن مجرد ربَّة بيت ضجرة تتبرع بوقتها، إنما قد غيَّر شيئاً ما في حياة هؤلاء الناس. شعر بتوحُّدٍ عميق بسبب ما قد فقده، وجهٌ من أوجُهِ شخصية امرأته اكتشفه الناس، بينما بقي هو غافلاً عنه. وقف محاطاً بأهالي القرية اللاغطين، وكان كل منهم يمسك براحته بكلتي يديه ويرفعها إلى جبهته، في إشارة افترض هو أنها تعني تقديمهم التعازي له.

أوصله شاشي ونانديتا إلى بيته، من المأتم. ثم أوقفوا السيارة أمام البيت، وعرف أن أصول اللياقة تقتضي منه دعوتهما للدخول لكنه لم يفعل ذلك. فهو لا يستطيع. اكتفى بكل بساطة، بالاستدارة نحوهما و القول لهما بأنه سيأتي إلى منزلهما يوماً لوداعهما قبل رحيله إلى أميركا بعد أيام قليلة. "لا تغادر قبل أن ترانا، أوكى؟" قالت له نانديتا بلطف، فابتسم لها إشارة تأكيد أنه لن يفعل ذلك.

أدار المفتاح في القفل ومشي إلى المطبخ فرآه على الفور. رأى مظروفاً أزرق مرميّاً على الأرض. عرف ما هو حتى قبل أن يلتقطه. فتح المظروف بسبابته بينما قلبه ينبض بقوة. وكان بداخله الشيك لحامله، الشيك الذي كان قد سلمه إلى غولاب منذ حوالي أسبوعين. وبناء على تعليماته، كان فرانك قد ترك خانة تاريخ الإصدار فارغة، وجعله قابلاً للدفع إلى حامله. الأمر

الذي يعني أن كل من يتقدَّم به للإيفاء يستطيع صرفه. إنها طريقة يصعب التتبع حولها، كان غولاب قد شرح له. وهكذا، فإن غولاب كان قد غادر المأتم وقاد سيارته إلى هنا لإدخال الشيك من تحت فتحة الباب لقد كانت هذه هي طريقته في الاعتذار بسبب الخطأ الفظيع الذي حصل في مجريات الأشياء. وربما كذلك لجعل مسألة تتبعه صعبا. وهو يرفض قبول أموال الدم، ربما لأن الدم الخطأ كان هو الذي تم سفحه. كان فرانك قد سمع عن وجود بعض الشرف عند اللصوص. أما الآن، فإنه قد أيقن بوجود الشرف بين القتلة أيضاً. رفع الشيك أمام عينيه، متطلعاً إلى توقيعه بجفاء. تذكّر إلى درجة من السوء كان بلغ إليه اهتزاز يده بينما هو يقوم بتوقيع هذا الشيك – لا بل التوكيل بالقتل. ومع كل ذلك، فإنه قد فعلها، أليس كذلك؟ إنه لم يصحُ من استحواذ راميش عليه، لم يصحُ من الفيلم الطويل باستبدال ولدٍ آخر بابنه، إنه لم يأبه لنداءات ضميره، لأن تلك النداءات كان يغطي عليها اللغط المتواصل لحاجته المستميتة.

والآن، ها هو يجري في محاذاة الشاطئ تحت العين الرقيبة للشمس العالية، فإنه تذكّر الشيك. كان قد قاوم الإغراء الذي يدعوه إلى تمزيقه إلى مئة قطعة صغيرة، وقام بدلاً من ذلك بتركه على ظهر المِزيَنَة في غرفة نومه حيث يمكن له تعذيب نفسه به في كل يوم، وكلما نظر إلى نفسه في المرآة. طريقة أخرى لجلد الذات، طريقة تشعره بلسعة الذنب. وفي الأيام التي تلت وفاة إيلي، كان قد غازل فكرة في ذهنه. فكرة تدعوه إلى تسليم نفسه للسلطات. لكن الحقيقة هي أن فكرة العيش في سجن هندي قد أرعبته. لذلك، فإنه أقنع نفسه أنه يستطيع ابتكار أشكالٍ للتعذيب الذاتي تكون أكثر تأنقاً وجِدَّة كذلك لأن الجريمة كانت جريمته لوحده، ولم يشأ للأخرين أن يدفعوا أيضاً أثماناً لها. فإن كلّاً من عائلته وعائلة إيلي منسحقتان بما فيه الكفاية. وح تى غولاب - فذنب غولاب لا يكاد يقاس أبداً بذنبه هو. إن غولاب لا يستحق الشنق بسبب خطايا فرانك. كلا، فإن العذابات التي تدَّخرها له الدنيا، ستكون كثيرة. عذابات من أمثال الدخول إلى غرفة والنداء على إيلي. وفي خيبة الأمل المتربصة به، والتي تنسكب في عروقه عندما يطالعه اليقين، انسكاب السمِّ الزعاف. أو كأن يتقلب في سريره في منتصف ليلة، وتكون يده تبحث عن مكان وجود إيلي فلا يجدها. مليون، بل تريليون وخزة من إبر الذاكرة ، هي أكثر إيلاماً من طعنة سكين سريعة.

نظر إلى ساعة يده، كانت العقارب تشير إلى الواحدة والنصف بعد الظهر. وسيصل ساتيش قريباً. وكانت الخطة تقول بأن يتوقف عند فندق شاليمار لوداع نانديتا وشاشي قبل التقاط الطائرة المسافرة في رحلة مباشرة إلى أميركا. نظر إلى ساعته بينما العرق يتصبب من جبينه، فتذكّر ساعة معصم إيلي الرجالية الكبيرة الميناء. لقد كانت تضعها في معصمها ليلة

الجريمة. وعندما قام رجال البوليس بإعادة الساعة إليه، فإنه وجد أن الغطاء الزجاجي لمينائها قد تحطم. لا بد أن شيئاً ما قد صدم صفحتها؛ فالميناء المكسور يشير إلى وحشية العنف الذي تعرضت له زوجته حتى أكثر مما يشير إلى ذلك جسدها المخروق بالرصاص. لذلك فإنه قام بالاحتفاظ بالساعة أيضاً، قام بوضع تلك الساعة على ظهر المزينة إلى جانب الشيك. شعر أن ميناءها المحطم ينظر إليه ويراقبه ويقوم باتهامه كما تفعل امرأة مضروبة على عينها.

جعله تذكُّره لهذين الشيئين على المزيَنة يستدير قافلاً ليبدأ الجري عائداً في اتجاه بيته. وفيما هو يجري في مجال أكثر التصاقاً بخط المياه، دغدغت الأمواج عرقوبيه. أمّا بعض الأمواج الأكثر عتوّاً فقد أدّت إلى ابتلال قصبتي ساقيه. انتزع حذاءه الملتصق بقدميه في خارج البيت، وتركه هناك، فهو لن يحتاج إليه بعد الآن أبداً. مشى مباشرة نحو غرفة الحمام ونال دُشاً. إنها المرة الأخيرة التي يستحمُّ فيها في جيربوغ. ثم أبدل ملابسه إلى قميص الكورتا الحريري الذي وجده ملفوفاً بورقة هدية في خزانة ثيابه بعد وفاة إيلي. لبس هذا القميص فوق بنطال من الجينز الأزرق ثم ذهب ليلقي نظرة على هيئته أمام مرآة الخزانة. أما ما أذهله، فهو كيف أنه بدا كما لو أنه لم يتغيَّر. نظر إلى عينيه الزرقاوين في المرآة، فإذا بهما صافيتين صفاء سماء كاليفورنيا؛ نظر إلى الطريقة التي تتلاقى فيها شفتاه المليئتان معاً في خط يوحي بالقوة والاستقامة؛ ونظر كذلك إلى الجبين العريض السليم من أي غضون بما يوحي بالوضوح والبراءة. وها هو لا تزال له قدمان وليس حافرين. وصحيح أن شعره استحال أغبر، إلا أن قرنين شيطانيين لم ينبتا بعد له في مقدمة فروة رأسه. وكانت يداه قد أحرقتهما أشعة الشمس وصبغتهما بلون برونزي ولم يرَ دماء تلوثهما وتجري فوقهما. وكانت هذه هي آخر الإهانات التي يتلقاها. الإهانة المتّمثلة في أنه لا يزال يبدو في هيئة عادية طبيعية.

الاشمئزاز من الذات كان قد جعل استمرار الوقوف أمام المرآة أمراً صعب الاحتمال. استدار والتقط ساعة إيلي فدسّها في جيب بنطاله. طوى الشيك طية واحدة ووضعه في الجيب الآخر. ثم فتح حقيبة السفر ودسّ فيها صورة مؤطَّرة لولده باني بين بعض الثياب. ألقى نظرة أخيرة على غرفة النوم. ولو أنه استمر في التحديق في السرير لرأى فيه الانبعاجات التي تركها عليه جسد إيلى لهذا فإنه لم يسمح لنفسه بنظرة أخرى دقيقة فاحصة. كل يوم من أيام حياته الآن سيكون عملية موازنة، موازنة بين مقدار الألم ومقدار السرور الذين يمكن له أن يتحملهما. سيكون ذلك هو عقابه الحقيقي - الحذِر. لن يكون بعد اليوم قادراً على عمل أي شيء بصورة تلقائية أو بدافع الغريزة. سوف يقوم بمعايرة حياته بمكاييل صنع القهوة.

كان ساتيش في الباحة الخارجية لبيته عندما خرج منه. "سيدي،" قال له مسرعاً لمساعدة فرانك، وحمل حقيبة الثياب بدلاً منه. فتح السائق فمه لقول المزيد لكنه ابتلع لسانه. "أنا آسف يا سيدي". قال.

ألقى فرانك ذراعه على كتف الرجل الشاب. "أشكرك،" قال له. وقف الاثنان في الباحة الخارجية لبرهة . نظر فرانك إلى الكوخ الصغير الذي استحال مقبرة إيلي. لقد بات الكوخ خالياً الآن. إذ أن براكاش رفض الدخول إليه منذ ليلة الجريمة. وقد قام شاشي بتأمين وظيفة لبراكاش في فندقه، الذي صار الأب والابن يبيتان فيه معاً في الوقت الحاضر. ثم استدار فرانك ليلقي نظرة أخيرة على المنزل الصغير الذي أمضى فيه سحابه سنتين مع إيلي. آمل أن تكوني قد أمضيت حياةً سعيدةً معي في هذا المكان، على الاقل في بعض الأوقات، قال في سِرِّه، آمل أن أكون قد جعلتُكِ سعيدة في بعض الأحيان.

قادا السيارة إلى فندق شاليمار. وهنالك انفجرت نانديتا باكية بينما هي تعانقه عناق الوداع. "إنني لا أستطيع احتمال ذلك،" قالت باكية "كانت الحياة صعبة بما فيه الكفاية بغياب إيلي. ولكن ها أنت ذا تغادرنا أيضاً يا فرانك".

"لقد كنتما صديقين رائعين لنا" أجاب على كلامها. "وإنني سوف لن أقوى على نسيان ذلك". استدار نحو شاشي. "إن لي أمنية أخرى أطلبها منك. هل تتوفر هنا غرفة خاصة لي أستطيع الاختلاء فيها مع براكاش وراميش لبعض دقائق؟ ثم أكون بعد ذلك سائراً في سبيلي".

انتظر لوحده في غرفة غير مسكونة من غرف الفندق. ثم، بعد دقائق كان هنالك قرعٌ خفيف على الباب استطاع أن يتبيّنه فوراً . "ادخلْ" نادى. فدخلا عليه.

كان نادراً ما قد تكلم مع راميش منذ أن عادا بالسيارة معاً من بومباي. وهنالك في الفندق، كان قد أخبر راميش بكل بساطة أن والدته وإيلي مريضتان. وحتى تلك الكذبة لم يستطع راميش احتمالها. فالأسى الذي تبدّى على وجه الصبي استجابة لفكرة أن والدته مريضة كان بمثابة نداء أعاد فرانك إلى صحوته. ذلك الانغماس الأحمق في الذات، ذلك الوهم المسربل الذي قاده إلى حياكة مكائد القتل، تلك الستارة من ضباب الجنون التي جعلته يتجاهل حقيقة أنه إنما يوقِع بـ: راميش أشدَّ الألم الذي يمكن أن يوقعه أحد بطفلٍ من الأطفال، ذلك الغمام قد ارتفع خلال الرحلة الطويلة من مومباي إلى جيربوغ. لقد كان مجروح المشاعر، مخزيّاً وذليلاً، ومخردَقاً بالشعور بالإثم. ولهذا، فإنه بات يتجنب راميش. كذلك، فإن حزنه لفقدان إيلي قد طمس عينيه بالعمى، عمىً منعه من احتمال معرفة أن راميش يتألم

بالطريقة ذاتها التي يتألم بها هو. ولعله كان قادراً على تحمُّل إما الشعور بالذنب، أو الشعور بالحزن. أما أن يتحملهما معاً فهو حِمل يصعب عليه حملُه. لقد شعر أن استحواذ شغفه بالصبي على كيانه قد بدأ يتراجع وينسحب كما تتراجع الحمى عن الجسد وتنسحب عنه. الآن، رأى هذا الطفل كما هو - ولدٌ غير اعتيادي الذكاء، ولكن ربما ليس نابغة جامعية؛ ولدٌ لطيفٌ مليء بالبهجة والنشاط، لكنه بكل تأكيد، ليس بذلك الشخص الذي يحمل بيديه مفتاح سعادته هو.

والآن، وكما لو أنه موقن لهبوطه من جنة تفضيل فرانك، فإن راميش بات ينظر إليه صامتاً، ولقد أرغم فرانك نفسه لتقدير حضور راميش. "كيف حالك يا راميش؟" قال له بعذوبة وهدوء.

هز الولد كتفيه.

"حسناً...نعم...جيد..".

"إنني أفتقد أمي، كما أفتقد إيلي أيضاً" . قال راميش بائحاً. حوّل فرانك وجهه. ركّز نظراته على المكان الذي يقف فيه براكاش. لقد بدا الطاهي وكأنه قد كبر عشر سنوات. التمعت في ذهن فرانك صورة وجه إيلي المضني عندما كان باني في المستشفى على فراش الموت. أيقن أن الناس لا يشيخون بفعل الزمن، بل بسبب الحزن الذي يلوي قاماتهم.

نهض ومشى نحو براكاش. "إنني شديد الأسى لمصابك"، قال له، وسحب الشيك من جيبه. "هذا — من أجلك، ومن أجل راميش. من أجل تعليمه. ويمكنك شراء بيت صغير به، في مكانٍ ما. وفي كل حال، فإني آمل أن يكون في هذا الشيك بعض العون لكما".

حدّق براكاش في قطعة الورق، فتذكّر فرانك أن الطاهي أُمّيٌ. لكن راميش كان إلى جانب والده، فلمح فرانك كيف أن حدقتي الصبي قد توسّعتا. " يا إلهى، " قال الصبي لاهثاً. " قيمة هذا الشيك هي مئة ألف روبية يا أبي".

بدا براكاش منذهلاً. " إنني لا أفهم شيئاً؟ "

" إن هذا المبلغ هو لك، " قال فرانك بلهجة متعجّلة، " هدية لكما مني ومن إيلي ".

" أأنا الآن مليونير؟ " قال براكاش.

ابتسم فرانك. " أظن ذلك ". انتظر كي تأخذ كلماته تأثيرها ثم قال، " اصغِ إليّ يا براكاش. أودِع هذا المبلغ في المصرف. لا تقم بتبديده على الشراب، أتفهم؟ ففي هذا المال فرصة لك كي — "

ألقى براكاش يده على رأس راميش. " إنني أحلف بحياة ولدي"، قال "أمامك يا سيدي فرانك، أنني لم أشرب قطرة واحدة من الخمر منذ — ذلك اليوم. ولتأكل الديدان لحمي إذا قاربت الشراب مرة أخرى. إنه شراب إبليس".

" حسنا، انتبه، هذا المال مالك. لكنني سأعطي لك بعض النصح؛ اطلب مساعدة نانديتا وشاشي. وهما سيرشدانك إلى كيفية استثماره".

كان براكاش لا يزال يبدو دائخاً. "سأكون مدينا لهما إلى الأبد إذا رضيا مساعدتي، يا سيدي". قال. "ما الذي يجعلني أفهم في المصارف والأشياء؟"

"حسناً،" أجابه فرانك. "سوف أخبرهما بالأمر" . حدّق نحو براكاش للحظة، وهو يعجب كيف سبق له وأن كره هذا الرجل إلى هذه الدرجة.

نقل راميش يده ليلامس يد فرانك الذي التفت إليه. "سوف أفتقدك جداً يا فرانك".

وللحظة، شعر بالمودة القديمة من جديد، فاستجاب قلبه لبراءة راميش وبساطة كلامه. كم كان هذا الصبي قد جعله سعيداً لفترة وجيزة من حياته. "سوف أراك في وقتٍ ما،" قال كاذباً في كلامه.

"أأنت راجع إلى بلادك؟" سأله راميش.

"نعم،" كذب عليه أيضاً. إذ لم تكن به معرفة إلى أين هو ذاهب في الحقيقة. فتذكرة سفره تقول إنه ذاهب من بومباي إلى نيويورك، لكن الأمر كله بدا كأنه حلمُ حالمٍ بالنسبة إليه الآن. فهو قد يقرر تغيير مسار رحلته في لندن. أو هو ربما يستغرق في نومته في الفندق في بومباي ويتخلّف عن الرحلة من أساسها. ويُضيع نفسه بين السكان البالغين ثمانية عشر مليون نسمة من الذين يطلقون على سلسلة الجزر هذه، لقب وطنهم. أم ربما سيصل إلى مطار جون كنيدي ويلتقي بأمه وأخيه. وبطريقة من الطرق، لم يعد يهمه إلى أن يذهب، لأنه حيثما ذهب سيكون وحيداً وغريباً. لطالما كان له ملجأين فقط طيلة حياته - ملجأ اسمه باني، وآخر اسمه إيلي. وكلا الملجأين قد رحلا عنه الآن.

ومنذ شهر خلا، كان يعتقد أن إدارة ظهره إلى راميش، والرحيل عنه، كان شيئاً لا يستطيع له تصوراً. لكنه الآن يقوم بفعلِ ذلك. يفعله دونما التفاتة واحدة إلى الوراء.

عانق نانديتا مرة أخرى. "هلّا بقيت على اتصال بنا؟ "قالت باكية.

" أجل. سأرسل لكما كل المعلومات عني حالما أستقر،" قال. لكن الذي خطر في باله، لم يكن بيته في آن آربور، أو بيت أخيه سْكُوت في نيويورك. بل الذي جاء في ذهنه، إنما هو التطواف. هذا هو كل ما أراد الآن أن يفعله. أن يتجوّل ويمشي، ويمشي حتى تبتري قدماه، حيث تتبارى الحركة الميكانيكية للقدمين مع الإيقاع المؤلم المتسارع لأفكاره، سيمشي ويمشي إلى لحظة لن يبقى فيها سوى الفراغ، إلى الوقت الذي تتوقف فيه أفكاره عن مضايقته مضايقة الحشرات الضئيلة اللاسعة. ففكرة عودته إلى وظيفة وراء مكتب يجلس خلفه لعقد الاجتماعات والنظر في الأوراق؛ فكرة العيش في منزل يكون فيه عبداً لاستبداد آلة صنع القهوة، وغسالة الثياب، وجهاز التلفاز؛ فكرة الأنس بالناس الذين تكون جلودهم غير مجزَّعة وأفكارهم غير مهمومة، هي كلها أفكار باتت تفزعه. لقد قذفه ذلك العالم عنه، قذفه نحو عالم هو أشدُّ ندرةً ــ قذفه إلى عالم لا يسكنه سوى المتقشفين والزاهدين والمتسيِّبين. صار به حاجة إلى التطواف، إلى الانتقال الدائم، إلى الهرب من مجموعة الوحوش الضواري التي تسكن رأسه.

ولكن في أميركا، كان لا يزال ثمة أناس يحبونه. يحبونه لذاته ولأنه يمثل آخر صلة لهم مع إيلي. أناس يرغبون العناية بخ وتسليته، أناس يرغبون اجتذابه وضمه من جديد إلى جناحي الصحبة الإنسانية. لكنه غير جدير بمحبة هؤلاء الناس. فهم لا يعلمون أنهم بعطفه عليه إنما يجتذبون إليهم قاتلاً يُحلُّونه في وسطهم. فأبواب العزاء والسلوان الاعتيادية، لا تزال موصدة دونه. إنه لا يستحقهم. فحتى بينه وبين أخيه سْكتّ سيكون هنالك الآن أسرار. فهو لن تكون له راحة الاعتراف، لأنه لا يستطيع الاعتراف. ولعل الشخص الوحيد الذي قد يستطيع أن يفهمه إنما هو أبوه. فهو أيضاً شخص عرف شيئاً أو شيئين عن خيانة الذين أحبهم وأحبوه.

ربما سأقوم بالتفتيش عنه، قال لنفسه بينما هو عائد إلى السيارة. وربما إنني سوف ــ لكنه لم يكمل فكرته. فمثل كثير من أفكاره في هذه الأيام، فإن هذه الفكرة ارتعشت وماتت. ماتت مثل سمكة يطرح بها الموج إلى رمال الشاطئ.

"هل أنت جاهز يا سيدي؟ "قال له ساتيش.

" نعم جاهز،" أجاب. نظر إلى حيث كان يقف كل من نانديتا، وشاشي، وبراكاش، ورواميش، عند مدخل الفندق. لوّح لهم ثم رفع زجاج نافذة السيارة. وبعد لحظات، اقتربت السيارة من بوابات الفندق. نظر إلى الوراء، فوجد أنهم ما زالوا جميعاً واقفين في مكانهم، لكنهم صاروا بعيدين عنه بُعد النجوم. ثم تحوَّل ساتيش بالسيارة نحو اليمين، وغابوا جميعاً عن أنظاره.

ومن خلال طيات ذهنه الملبّد بالحزن، تذكّر شيئاً ما، عن جدته لأبيه. كانت قد قالت له مرة في إحدى اللحظات. يومها انحنت السيدة العجوز على الولد المنذهل، البالغ الحادية عشرة من عمره لتقول، "أتعرف ما هي القوة الأكثر خطورة في هذا العالم يا عزيزي؟ إنها ليست القنبلة الذريَّة، إنه الإنسان الحرُّ فعلاً، ذلك هو ما عليك الاحتراس منه" .

تراجع فرانك في مكانه على المقعد الخلفي للسيارة حالما تقطّعت خلفه جيربوغ إلى نُتفٍ من الغبار الأحمر، ومن البقاع الخضراء العرَضيَّة حول سيارته، شعر بأنه حرٌّ وخطير.

(*) الودجان : الشريانان الرئيسيان في العنق. (المترجم).

الفصل 37

كانت السماء تمطر شذرات ذهب في ذلك المساء. وكان لها جلابيب من الأحمر والبنفسجي، غنيّة كما هي الدماء. وعندما سادت حمرة الشفق، هبطت الألوان على أبشارهم، كما أن لهاثها الناريّ قد انسكب على شعره وشعر ولدهما باني، الأشقر. لقد استحالت الرمال إلى لونٍ نحاسي. وقد مرّرا أصابعَ طمّاعة في لحم تلك الرمال. كان للمحيط صوت أشبه بحفيف أغصان شجرة في الخريف، كان يتنهد في قناعة واكتفاء. كانوا في جزيرة كابيتفا في فلوريدا، وفي كل ليلة كانوا ينامون نومًا عميقًا، نومًا تكون فيه أنفاسهم منسجمة مع إيقاع أنفاس المحيط.

كان ذلك لمناسبة احتفالهما بعيد زواجهما. ولقد كان باني يومذاك في الثالثة من عمره. في تلك اللحظة كان يلهو لوحده، يحفر في الرمال الرطبة برفشه الأصفر، ويقوم بملء دلوه الأخضر بها. كان يجلس مقعيًا على بعد خطوات قليلة منهما، وكان في ثرثرةٍ ولغطٍ بينه وبين نفسه. لقد حوّلت الشمس الغاربة لون بشرته إلى طيف من اللون البرونزي الغني.

كانت إيلي تجلس على البساط قبالة فرانك، وبينما أنسام الصيف تداعب خصلات شعرها. تأمّل الاستدارة اللطيفة لعنقها، تأمّل الأنف المستدق الذي كان يستنشق هواء البحر المالح، تأمَل العِرق الغامق الذي ينساب نزولاً على ذراعها الرشيق. شعر بغصة في حلقه تنمو، شعر بشيء ما في داخله يؤلمه كأنه وجَعُ الحنين. لم يبدُ من الممكن له أن يحبها حتى أكثر مما أحبها في اليوم الذي تزوَّج فيه منها. لكنه اليوم يحبها أكثر.

"ما الذي يدور في ذهن حبيبتي؟" كان قد سألها.

ابتسمت وحوّلت رأسها عن المحيط نحوه. ارتعشت الشمس في عينيها. "أفكر في اقتباسٍ مأخوذٍ من الأديب شو، كنت قد عثرت عليه في وقتٍ سابق. وهو يقول، "إن عائلة سعيدة، ليست سوى ذكرى جنة غابرة".

ودون إرادة منهما، قاما بالاستدارة نحو ولدهما. كان الآن يلتقط الرمل المبلل بكلتا يديه ويقوم بتسطيحه على شكل فطيرة، ثم لا يلبث أن يقوم ببعثرتها. "سأترك لك أمر تحميمه هذه الليلة،" قالت إيلي بظُرف "إنني لن أضع يديّ عليه".

وانقلب هو على ظهره محدّقاً إلى السماء. كانت الشمس تسعُل ألواناً لا يحلم أيُّ فنان له شيء من الاحترام لفنّه أن يقلِّدها يوماً على القماش. راقب الضربات الطبشورية الملوّنة التي تتحرك وتطوف ثم قال، "إليكِ بهذا القول: "ليست السماء سوى محيطٍ انقلب رأساً على عقِب".

"ومن الذي قال هذا القول؟"

"أنا الذي قاله. فرانك بانتون شو".

قهقها مرحاً. نظر باني إليهما، فنهض فرانك جالساً على الفور. "هاي، عمري،" قال. "ألا تريد أن تأتي للجلوس معنا قليلاً؟"

اقترب كل منهما من الآخر حتى تلامست ركبتاهما، عندما تقدّم باني بخطواته الصغيرة نحوهما. جلس الصبي أمامهما فرمى كلاهما ذراعه حوله. "هل تشعر بالبرد يا حياتي؟" سألته إيلي، فهزّ باني رأسه نافياً.

جلسا بهذه الطريقة، يشربان آخر قطرة من رحيق ذلك اليوم. كانت الشمس تهوِّم عند حافة الأفق، لكنها كانت تتدلل عن الغطس وراءه، تماماً مثلما يفعل باني عندما يرفض الذهاب إلى النوم.

ومن حولهم، كانت الأرض تتنهد، وكان لها لهاث مسموع. وقد انضموا يومها إلى هذا التنفس العجيب.